حزن الأميرة الميتانية

(دوتى خيبا)

رواية

جان كورد

حزن الأميرة الميتانية

المؤلف: جان كورد

تصميم الغلاف : يحيي سلو

الطبعة الأولي : أغسطس 2017
رقم الإيداع : 2017/17508
الترقيم الدولي : 978-977-769-191-8

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 23963002(02)

كتبت الرواية بين صيف 2014 وصيف2015 وهي رواية خيالية أخذَت معها بعض الأحداث وأسماء الشخصيات والأماكن التاريخية عن غير قصد...إلاّ أنها ترفض أن تكون سرداً حقيقياً لما جرى في التاريخ فعلاً...

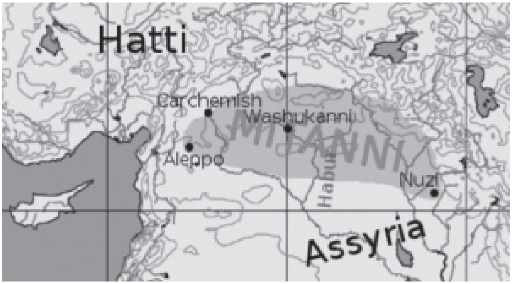

دولة ميتاني وعاصمتها واشوكاني

دولة الهيتيت (هاتي) شمال ميتان وعاصمتها هاتوشا

ودولة الفراعنة جنوب غرب ميتان وعاصمتها طيبة

- 1 -

أقص عليكم هذه القصة، أنا «لاوى هوري» أي «الولد الهوري» في العربية، وأنا قاب قوسين أو أدنى من حافة القبر... فقد مضى زمن طويل على أكبر مغامرةٍ في حياتي... أرويها لكم وأنا لم أعد ذلك الشاب المغامر الذي اقتحم الأهوال وشق طريقه عبر البراري والجبال والبحار، وسارعلى الطرق المارّة بممالك عديدة، بل أنا الآن في آخر مرحلةٍ من مراحل حياتي المليئة بالشقاء والمغامرات والتجوال والاغتراب، وتنهش الأمراض والأحزان جسدي الضعيف، وقد أبحر بقاربي الصغير من شطآن هذا العالم قبل انتهائي من سرد هذه القصة، فلا تؤاخذوني.

سبب منحي هذا الإسم «لاوى هوري» هو أن أبي كان من عشائر الهوريين الجبلية المحاربة، التي تحالفت مع المزارعين والرعاة الميتانيين ورسخت بذلك سيطرتها على المنطقة الممتدة من مدينة (نوزي) شرقاً بالقرب من سلسلة جبال (زاغروس) إلى منابع نهر (بورانتو) شمالاً وإلى المنطقة الغربية من مدينة (خلمان) أو(هه له با) في شمال (سوريانا). وبنت بذلك أركان الدولة الميتانية التي اشتهرت عاصمتها (واشوكاني) التي تسمى ب«كاني خلبات» أيضاً كالنقطة التي تلتقي فيها الطرق التجارية

لدول البابليين والآشوريين والسوريين والفينيق والهاتيين (الخاتيين)، وتتنازع عليها بقوة السلاح باستمرار.

كان الناس يلقبون أبي ب «تيكرى هوري»، أي «السهم الهوري»، لأنه رمى أحد قواد الجيش المهاجم على مدينتنا من مسافةٍ بعيدة في عنقه فأراده قتيلا، وكان ذلك القائد من أشرس البابليين على الاطلاق وأشدهم وحشية ضد المغلوبين في حروبه، فمنح ملك الميتانيين (توشراتا) أبي بسبب رميته الرائعة تلك لقب «فارس ملكي» وكثيراً من الهدايا وسبايا الحرب، وقصراً كبيراً خارج المدينة، بين كروم العنب وحقول القمح الواسعة، على طريق القوافل التجارية بين نهري «تيكرا» و«بورانتو» كما نسميه في لغتنا الهورية القديمة في ميتان ويسميه الأكاديون ب(بوراتو) و(فراتو). واشتهر اسمي بين شباب مدينتنا بسبب اشتهار أبي وأنا لا أزال شاباً يافعاً كابن أحد أشجع رجال الملك الميتاني، ولذلك فُتِحَت لي كل الأبواب التي كانت مؤصدة في وجه الشباب الآخرين منذ صغري، وإذا بي أملك الحق في الانتساب إلى المدرسة الملكية في المدينة إلى جانب أبناء الأمراء وقواد الجيش الميتاني المعروفين ب(ماريانو) الذين كانوا يشكلون حاشيةً صلبة لملك ميتان وعائلته كما هي القشرة القاسية للبلوط الجبلي، وكذلك مع أبناء المبعوثين الدبلوماسيين من بلاد الفينيق وبلاد (هاتي) ، ومن سوريانا وكيميت (مصرايم) التي يسميها الإغريق (ايجيبتم) والتي سترد على لساني في هذه القصة باسم (مصر)، بل وتسنى لي تعلم العديد من لغات الأقوام المجاورة والبعيدة* ومنها الهيروغليفية المصرية، ولغة القوم العربي،

الذي كان يعيش على شكل قبائل متحاربة في جنوب سوريانا، وتتحرك قطعان ماشيتهم بحثاً عن الماء والكلأ شمالاً حتى أطراف نهر (بورانتو)، وتأتي قوافله التجارية مرةً في الصيف وأخرى في الشتاء إلى المدن السورية الشمالية.

كان اصرار الكاهن (خور بَرَست) من معبد إله الشمس (خور) والإلهة (آرينا) في وسط المدينة، سبباً في تعلمي لغة العرب، فقد أرسلني بموافقة أبي وأمي ضمن مجموعةٍ من تلاميذ المدرسة الملكية ونحن فتيان إلى إحدى العشائر العربية القاطنة في جنوب (سوريانا) لمدة عامٍ كامل، بهدف اتقان لغة العرب والتمرس على الحياة القاسية التي يعيشونها، هناك في وديان وبراري (سوتو)، حيث حياة البدو الرحل. إلا أن العشيرة التي أوتنا قد أضطرت بسبب النزاع مع عشيرةٍ أقوى على الماء والكلأ للتراجع جنوباً إلى الصحارى الواقعة في شرق وادٍ كان أهل المنطقة يسمونه ب(وادي الموت)، وذلك بعيداً جداً عن أجواء العاصمة الميتانية (واشوكاني) التي يتقاسم أضواءها وذهبها ونساءها الجميلات عجائز طبقة الفرسان المتخمين المتهمين من قبل الكهنة وقادة الحرب على السواء بالرقة والنعومة والكسل وبالتآمر الباطني على السلالة الملكية (الكيرتية) لعائلة (باراتانا) الذي بدأ بحكم ميتان قبل مئات السنين، ولا يزال يعتبره البعض من سلالة إلهية انبثقت من نور الشمس، وتكلل مجد هذه العائلة بقيام (شاوشتار) بغزو بلاد آشور وعودته من هناك بغنائم كثيرة، منها بابٌ مصنوع من الذهب والفضة. وأتذكر أننا فقدنا أحد أذكى وأجمل

رفاقنا في زيارةٍ قمنا بها إلى معابد وقصور محفورةٍ في الصخور في وادٍ عميق وضيّق، ورغم بحثنا المضني عن زميلنا ذاك الذي كنا نسميه (كاويك) لم نجده، وكأنه صعد إلى السماء أو ابتلعته الأرض، فكان حزننا عليه كبيراً، ولدى عودتنا إلى (واشوكاني) كان صعباً عليّ جداً النظر إلى وجه أمه التي بدت وكأنه قدّ من حجر لفرط حزنها، حيث لم تتمكّن حتى من البكاء، بل ظلت واجمة كتمثالٍ من الرخام، ولم أعد قادراً على نسيان ذلك المشهد حتى بعد هذا العمر الطويل الذي عشته ورأيت فيه أناساً في مختلف محنهم وآلامهم، ونسيت زميل الدراسة (كاويك) مع الأيام، إلاّ أن الأم التي تفقد ولدها أعظم آلاماً وحزناً من جميع الأحياء، فكنت لا أستطيع النظر إليها عندما تصادفني في الطريق.

نعم، سأسرد لكم قصة سفري المضني وبحثي الطويل الأمد عن الأميرة الميتانية «دوتى خيبا» (بنت الإلهة خيبات أو هيبات!!)، بنت الملك الميتاني - الهوري (توشراتا)، سليل عائلة (باراتانا)، وذلك بلغةٍ مفهومة وبأسلوبٍ بسيطٍ خالٍ من أي طنينٍ شعري أو تحليق في سماء حدائق التعابير المشحونة بالكلمات البراقة، تبتكرها العبقريات التي تمزج القصة بالشعر، وتنهار لديها الأزمنة والأماكن، وتتداخل مشاهد التصورات الفلسفية والخيالية لأصحابها فيما بينها لتتفجّر ينابيعاً من طلاسمَ سحرية وألغازاً لا يفهمها سوى الرواة أنفسهم، وروايتي هذه ستكون دون دويّ هائلٍ للجمل المنحوتة من المرمر الأدبي الفتّان التي قد تُفهَمُ بصورٍ شتى من المعاني، أو تحتاجون إلى كراريس لغوية للتعرّف على أسرارها، وإنما

ستكون كتلك الأساطير البسيطة اللغة التي كنا نسمعها في صغرنا من أفواه الرواة (الحكواتية) من القرويين والمسافرين المغامرين...

لن أحدثكم إلا نادراً عن نفسي أو عن أبي وأمي اللذين رحلا إلى مملكة الشمس الأبدية دون وداع وأنا بعيدٌ عنهما في ديار الغربة، بل سأحدثكم عن سفري المشحون بالمخاطر والمفاجآت والأحـزان والانتكاسات ولحظات النشوة والانتصار، منطلقاً من مدينة (واشوكاني) التي كانت المحطة الأولى من محطات هذه الرواية، والروايات لا تعتمد على الوقائع والحوادث فقط، وإنما يمتزج فيها الخيال بالحدث، فهي مجرد حكاية عشت أحداثها قبل الآن بسنين طويلة وقد تجدون فيها تفاوتاً في الأخبار عن الأشخاص والاسماء والأماكن والأزمان، فذلك لأن ذاكرتي لم تعد قوية كما كانت عليه قبل بدء سفري الشاق والطويل الأمد، ولأني تعرضت إلى الكثير من المشاكل والعقبات التي أضنت معيشتي وباعدت بيني وبين الناس من حولي، بحيث انتاب ذهني النسيان، ونخر فيه كما ينخر الدود في الجذع القديم.

بدأ ذلك كله في يوم ممطر، لم أتمكن الخروج فيه من البيت، فقد كانت طريق القوافل المؤدي إلى المدينة واشوكاني، التي تبعد عن دارنا بفراسخ عديدة، موحلة، وكان الجو بارداً على الرغم من أن فصل الربيع كان قد بدأ منذ أكثر من أسبوعين وتفتحت براعم أشجار اللوز المنتشرة بالقرب من دارنا في حديقتنا الواسعة. فمكثت في غرفتي الواسعة في الجانب الأيمن من جناح أبي في قصره المنيف، حيث كنت أنظرمن مقعدي الوثير

عبر نافذةٍ كبيرةٍ ومجهزةٍ بساترٍ من الزجاج الشفاف المجلوب من بلاد الصين، صوب نهر خابير الذي تنمو على أطرافه بكثافة نباتات (دَمدَموك) وأشجار (خَمان) أو (بيليسان) ذات الزهور البيضاء، تلك التي لم أجدها خارج مملكة ميتان، ولذا لا أعرف أسماءها بالعربية...

رأيت فارساً يكاد لايُرى من وجهه إلا عيناه من شدة ما تدثر، وأطراف إزاره تلتصق بجسده المتناسق في تكوينه من شدة انهمار المطر، وسيف طويلٌ مرصعٌ على طرفه الأيسر، يمتطي جواداً ضخماً يحثه على الركض وهو يهز عصا رفيعة بيده اليسرى، متجهاً صوب بوابة دارنا على الطرف الأيسر من غرفتي.

كانت أمي التي قطعت شوطاً طويلاً في العمر تتشاءم من رؤية اللون الأسود لطائر يطير أو حيوان يمشي على أربع قوائم أو فارس يمتطي صهوة جواده، ولكنني تعلمت مع الأيام أن لا فارق بين الألوان سوى في كسب المزيد من الحرارة وانعكاس الضوء، ولذا لم أجد شؤماً آتياً مع ذلك الفارس الملثم الذي كان رداؤه أسوداً وجواده أسود اللون أيضاً، ولم أتوقع سبباً سيئاً لقدومه أو شراً يريده بنا سوى أنه آتٍ لأمر ضروري، أرسله أحد من المدينة. ولم أدر في تلك الأثناء أن مجيء هذا الفارس بداية رحلة طويلة وشاقة لي منذ طرقَه الباب الخشبي الكبير لدارنا بقوة.

دخل علي خادم ضخم الجثة ومفتول العضلات العارية، من خدام أبي، فأدى التحية بخفض رأسه، وقال بأن فارساً يستأذن للدخول عليّ، فأجبته بأني مستعد لاستقباله في باحة القصر، حتى لا يسمع أبي وأمي ما يجري

بيننا من حديث، وسحبت بيدي إزاري الملقى على سريري العالي في وسط الغرفة، فألقيته على كتفَيّ، وانطلقت متتبعاً خطى الخادم إلى باحة القصر، فدخل الفارس الباحة عبر البوابة الواسعة العالية، ونزل من جواده ثم أحنى قامته تحيةً واحتراماً وقال بصوت واضح ورزين: «أرجو أن تأتوا معي إلى قصر الملك توشراتا».

ظل الرجل واقفاً في مكانه تحت المطر المنهمر كجذع شجرةٍ دون حراك منتظراً جوابي. فنظرت إليه برهة، فطلبت من الخادم أن يأتيني بجوادي الأبيض فوراً. ولم يدم ذلك طويلاً...

بعد أن ارتديت أنظف وأثمن ماعندي من الثياب، انطلقنا نحن الاثنين، أنا والفارس المجهول، باتجاه المدينة، دون أن أخبر أبي أو أمي بشيء، ولم أدر حينئذٍ أني لن أراهما بعد ذلك اليوم مرةً أخرى في حياتي، وهذا ما يؤلمني حتى الآن، بعد زمنٍ طويل جداً مرّ على قدوم ذلك الفارس إلى دارنا. ولذلك أفكر أحياناً عما إذا كان تشاؤم أمي لرؤية اللون الأسود صائباً صحيحاً.

في طريقنا الذي كان يمر من بين عدة ينابيع وجداول تتلوى من خلال أشجار مختلفة الأحجام وكثافة الفروع والأغصان، خفّت حدة المطر، وتجمع في رأسي العديد من الأسئلة حول أهمية الحدث الذي وراء استدعائي في هكذا يوم سيء الجو إلى القصر الملكي. ولكن عندما خرج الفارس من الطريق العام للقوافل ليسير بمحاذاة ساقيةٍ نمت على طرفيها أعشاب سامقة، شعرت بشيءٍ من عدم الثقة بهذا الذي لا أعرفه ولم أرَ

إلا جزءاً من وجهه حتى تلك اللحظة، إلا أنني آثرت السكوت مع اتخاذ الحذر منه وعيناي لا تفارقانه، كي أرى وأتصرف بسرعة فيما إذا امتشق حسامه أو قفز من جواده أو أدار وجهة الجواد إلى الوراء ليهاجمني بغتةً. ولكنه تابع المسير دون إبطاء ودون أن تمتد يده إلى قبضة سيفه.

وبعد أن وصلنا إلى موضع على الطريق التي تحولت إلى مجرد ممر ضيق أحاطت به أغصان الاشجارً والأعشاب بشكل تام، لمحت عيناي نبعاً يتدفق ماؤه الذي بدا صافياً من شقوق صخرة عالية، فشعرت بالظمأ وغمرتني رغبة حادة في الشرب منه، كما أردت إظهار عدم الخوف من الفارس المرافق لي، رغم سلوكه طريقاً غير الطريق الذي نسلكه إلى المدينة، فصحت به قائلاً: «انظرني برهةً لأشرب جرعة ماء أيها الفارس». فتوقف عن المسير في الحال بأن شد زمام جواده بقوة، ونزل عنه ثم تقدم ليمسك بزمام جوادي، فنزلت أيضاً وخطوت خطوتين على الأعشاب والصخور المنبسطة صوب النبع لأغرف من مائه بيدي، وما أن غسلت يدي حتى لمحت الفارس يجرّد حسامه من غمده بلمح البصر، فانتابتني قشعريرة من الهلع، إلا أنه هوى بسيفه باتجاه اليمين ليلسع به عنق رجل ملثم مثله وفي يده سيفان، وهو يخور كالثور المذبوح قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويقع في بركة ماء النبع البارد، أمام قدمي اللتين ابتلتا بالماء المتطاير عالياً، فارتبكت جداً لأني لم أعلم ماذا جرى ومن أين أتى ذلك الرجل المهاجم وما سبب هجومه علينا، فتركت النبع ورائي وعدت بسرعة باتجاه جوادي، ونسيت في ذلك الحين أني أحمل سيفاً أيضاً، حيث

ما كنت أستخدمه إلا للضرورة القصوى.

في تلك اللحظات رأيت كيف يغرس الفارس حسامه في بطن رجل آخر ضخم كالفيل الهائج، ليتدفق الدم منه وتهبط أمعاؤه إلى الأسفل من خلال شق كبير في وسطه، قبل أن يسقط على جانبٍ فوق بعض الأحجار الحادة الأطراف، وكيف يسحب الفارس حسامه ليهوي به على كتف رجلٍ ثالثٍ فيرديه قتيلاً، إلا أن أحد المهاجمين قد لاذ بالفرار يائساً على الرغم من ضخامة جسمه وطول السيف الذي بيده، بعد أن حدّق جيداً في وجهي، وكان قد فقد عينه اليسرى في معركةٍ قديمة كما بدا لي...

وحقيقةً لم أرَ في حياتي، وأنا كنت قد تجاوزت العشرين من عمري آنذاك، أي إنسانٍ سريع الحركات ويجيد استخدام السيف كهذا الفارس الذي قتل ثلاثة رجالٍ مسلحين مهاجمين بغتةً دون أن يتمكنوا من اصابته بخدشٍ واحد.

بعد أن نظر الفارس حوله بدقةٍ وانتباهٍ شديدين، مسح الدم الذي تلوث به حسامه المهنّد ببعض الحشائش الكثيفة العالية، وأغمده في غمده، وقال لي: «سيدي، علينا أن نسرع، فقد يكون هناك آخرون من هؤلاء الأشقياء المجرمين».

قال هذا وقفز إلى صهوة جواده مثل نمر فتي يقفز إلى صخرةٍ عالية، فسألت مرتبكاً: «لماذا هاجموا علينا؟ ماذا فعلنا حتى يقدموا على هذا العمل العدواني؟» واستعنت بجذع شجرةٍ ميتة، كان بجوار الممر، لامتطاء جوادي، فأجاب الفارس: «إنهم قطاع طرق، يبدو أنهم ترصدونا

وتتبعونا منذ خروجنا من داركم... ولكنهم يزيدون عن ثلاثة أو أربعة، وأحيانا تكون عصاباتهم أكبر».فسألت مستغرباً: «وهل كنت ستقاتلهم لو كانوا أكثر عددا؟» فأزاح اللثام عن وجهه وقال: «بالتأكيد ياسيدي، دفاعاً عن حياتكم وحياتي».

بعد برهة قصيرة كنا ننطلق بجيادنا صوب المدينة التي باتت قريبة. حاولت أن أسأله عن سبب تركه الطريق العام ولكنه كان يسبقني بعدة خطوات بحيث لم يكن يسمعني كما أنني لاحظت بنفسي أن الطريق العام موحل ولذا اختار الممر الضيق الذي نمت الأعشاب عليه، مما جعل مسيرنا أسهل، ولكن محفوفاً بالمخاطر أكثر.

أخرج الفارس من حقيبته الجلدية المعلقة بكتفه اليمنى رايةً حمراء وغرس حاملها المعدني الصغير في مؤخرة غطاء رأسه، قبل أن نصل إلى البوابة الرئيسية الكبيرة لمدينة واشوكاني، في حين علقت سيفي بسرج جوادي، وبمجرد أن رأى الحراس الراية الحمراء من على برجٍ عالٍ يتوسط مقدمة سور المدينة المبني من أحجار الغرانيت الأسود فتحوا البوابة لننطلق عبرها بجوادينا دون أن ننزل عنهما ولنمر من بين ثمانية حراسٍ كانوا يتولون فتح البوابة المركبة من لوائح خشب السنديان المطلي بمادة تعيق الاحتراق ومن قطع متشابكة من الحديد الذي جعل البوابة ثقيلة للغاية، يصعب اقتحامها أو تكسيرها من قبل مهاجمين مهما كانوا أشداء ومزودين بأدوات الخلع والحرق.

كانت أزقة المدينة وطرقاتها شبه خاوية بسبب المطر وكانت أبواب معظم

المحلات التجارية الصغيرة والحانات مؤصدة إلا أن ماء المطر المتجمع على سطوحها كان ينصب على الأزقة هنا وهناك، ومنه ما يجري في المزاريب المصنوعة من القصب الغليظ أو قشور الشجر أو القرميد. ولم نمر سوى على بعض الفتيان اللاعبين الذين يتراشقون الماء الممزوج بالطين الناعم في ساحة من ساحات المدينة بالقرب من عدة خوازيق تحمل رؤوساً بشرية، وهي بالتأكيد لمجرمين أو لصوص نالوا جزاءهم على ما ارتكبته أياديهم من جرائم ضد المواطنين، حيث كانت عقوبة من يرتكب حماقةً كبيرة شديدة للغاية، وسوى ذلك ما كان الملك الميتاني يقدم على قتل أبناء شعبه بذلك الشكل المرعب. وبالنسبة إلى القصص التي كانت تصل إلى واشوكاني من عواصم الفينيقيين والبابليين والفراعنة المصريين والملوك السوريين، عما يرتكبونه من أفعال وحشية بمعارضيهم وأعدائهم، لم يكن وضع الرؤوس المقطوعة على رؤوس الرماح في واشوكاني سوى عقوبة بسيطة في نظر مواطنيها الذين يطالبون عادةً بحرق القتلة وقطاع الطرق أحياء، إلا أن تلك المسرحيات الدامية المشاهد كانت تصيبني بالقرف وتجعلني كارهاً المدينة، بحيث لم أكن أتردد عليها إلا في شأنٍ ضروري للغاية.

بعد أن سرنا عبر عدة شوارع وطرقات، من خلال بيوتٍ مختلفة في عمارتها وعهود بنائها وأحجامها، وصلنا إلى ساحةٍ محاطةٍ بقصورٍ شامخةٍ ومعابدَ ذي أعمدةٍ ضخمة، تتصاعد النيران من مواقد عملاقة أمامها بين تماثيل من البازلت الأسود لأسودٍ وطيور ورجال برؤوس حيوانات مختلفة، وفي

مواجهتنا بابٌ خشبي مرصع بقطع من الزجاج الملون وأشكال من معدنٍ براق ومزدانة بوريقاتٍ من الذهب الخالص يؤدي إلى قصر شاهقٍ مبني من المرمر الأبيض على أعمدة رمادية ضخمة وعالية، لا وصول إليه إلا عن طريق درجات كثيرة ممتدة جداً يساراً ويميناً.

كانت اسراب الحمام قد خرجت من مكامنها وأعشاشها في جدران البيوت بعد أن خفت وطأة المطر، لتبحث عن فتات الطعام الذي جرف المطر معظمه أو نهبته الجراذين التي كانت تشتهربها المدن القديمة او لتمارس تمارينها اليوميةجماعاتٍ وفرادى.

نزل الفارس من جواده، فنزلت أيضاً، وإذا بخادمٍ يركض ليأخذ منا الجوادين، في حين هبط حارسان مسلحان جيداً من أعلى الدرجات ليمدا أياديهما إشارة إلى أسلحتنا، فإذا بالفارس يدير وجهه عن الحارسين ويعود أدراجه دون أن يقول لهما شيئاً، وهو ممسك بزمام جواده الذي سار وراءه بذيلٍ طويل يهتز يمنة ويسرة، وكأنه سعيد بأداء واجبه في ذلك النهار، فأخذ الخادم زمام جوادي مني في حين سار الحارسان إلى جانبي درجةً درجة، وبيد أحدهما سيفي، باتجاه القصر، قصر الملك الميتاني (توشراتا). وعندما وصلنا إلى أعلى الدرجات التي زادت عن الأربعين، نظرت إلى الوراء فإذا بسحبٍ داكنة تتفرق رويداً رويداً عن بعضها، وأطرافها تتلون بلون أحمر تتخلله شرائط زرقاء. وقرقعة نعال جوادٍ يخف على مهل وهو يبتعد عن المكان. ودخلت القصر وأنا لا أعلم شيئاً عن سبب استدعائي إليه حتى تلك اللحظة وعن المدة التي سأبقى فيه.

بعد أن تجاوزنا عتبة قاعة صغيرة، كان فيها ضابط وسيم جالساً خلف طاولة جميلة عليها بعض الزهور في أواني رائعة الصنع من الفخار والزجاج، نهض الضابط ماداً يده للتحية، وأخذ سيفي من الحارس ووضعه على طاولته بهدوء، فعلمت أنه على علمٍ بمجيئي، وبلطفٍ على غير عادة العسكريين الذين كنت أكره ثيابهم التي تشبه لفائف المومياء المصرية، والتقي بهم في المدينة أو خارجها، قال: «مولاي الملك ينتظركم في جناحه الخاص»، وسار أمامي، في حين وقف الحارسان بجانب طاولته وكأنهما صنمان.

في تلك الأثناء، كانت أفكاري كلها منصبة على اللقاء التاريخي في حياتي مع ملك ميتان، الذي كان يدعى بملك مملكة (خانا) أيضاً، ولم أكن قد التقيت به من قبل، ولم أره سوى في المناسبات الرسمية عن بعد، ولذا لم يكن في بالي الاهتمام آنذاك بشيءٍ آخرٍ سوى بكيفية أداء التحية له وبأي كلماتٍ أبدأ الحديث معه، أو بالأحرى كيف سأجيب عن أسئلته، والسؤال الأهم الذي كنت أبحث له جاهداً عن جوابٍ كان على الدوام: «ماذا يريد مني الملك؟»

مررنا عبر صالةٍ ضخمة، مفروشة بالسجاد الثمين وتضيئها مشاعل معدنية من علو، مزدانة وبراقة، فينعكس ضوءها على بعضها، فتبدو الصالة وكأنها مليئة بدررٍ منثورةٍ في ضياء الشمس، ورغم المطر الذي خلّف وراءه رطوبةً شديدة في المدينة، فإن صالة القصر كانت دافئة بسبب سماكة جدرانها وقيام بعض العبيد والخدم على تدفئتها بإيقاد النيران في

مواقد كبيرة على أطراف الممرات بداخلها.

وصلنا إلى بابٍ كبيرٍ من خشب السنديان المدعوم بمساميرَ ضخمة من المعدن والمرصّع بشرائط من القصدير البراق، ففتح لنا الباب حاجبان يقفان على جانبيه لتصفع وجوهنا، أنا والضابط المرافق لي، روائحُ البخور والعطور المختلفة الممتزجة برائحة زيت القناديل المحترق، وتساءلت في نفسي حال دخولنا الحجرة الواسعة المزينة بجلود الحيوانات البرية ورؤوسها المحشوة بالتبن وبمختلف أنواع الوسائد والسجاجيد والشراشف الحريرية عما إذا كان الملك قد اختنق في حجرته لشدة امتزاج تلك الروائح ببعضها.وتذكّرت في لحظةٍ قول أحد أصدقائي لي بأن العطور والبخور التي عبقت من حول سرير زواجه في ليلة أول دخولٍ له على عروسه صدمته بحيث أغمي عليه، وظنت العروس أنه فقد وعيه خوفاً منها، فشعرت برغبةٍ حادة في الضحك، إلا أن الضحك في موقفٍ كهذا قد يأتي بالموت للضاحك...

وقف الضابط في مكانه وأشار عليّ بالمرور عبر الحجرة إلى مكانٍ مفروشٍ بروعةٍ ملحوظة بكل ما يلزم الملوكَ للاستلقاء والاسترخاء، ثم عاد أدراجه دون أن يلفظ كلمة، وسرعان ما تم إغلاق الباب وراء ظهري، فشعرت بالضيق ولم أتحرك من مكاني. وبعدانتظارٍ شعرت بأنه طال، سمعت صوتاً رقيقاً لامرأة تناديني من دون أن أراها: «تقدّم، تقدّم!»، فتقدمت خطوةً إلى الأمام وعيناي تحدقان في الحجرة شبه المعتمة إلا من ضياء قناديل زجاجية صغيرة الحجم معلقة بسلاسل طويلة بالسقف

العالي الذي كان على شكل قبة في وسطها كوةٌ مؤصدة بزجاجٍ مخروطي ذي ألوان عديدة.

وبعد لحظاتٍ بدت عمراً طويلاً استغربت فيه لسماع صوت امرأةٍ غير موجودة، ظهر الملك (توشراتا) من خلف ستائر حريرية تتماوج بتأثير حزماتٍ من الهواء العليل الذي كان يلامس أطرافها عبر نافذةٍ كبيرةٍ في آخر الغرفة، وهو يرتدي إزاراً أزرق اللون، بسيطاً، فضفاضاً ومطرزاً بعروقٍ مذهبة، يخفي معظم جسده، بحيث لا يظهر سوى صدره الكبير وساعداه القويتان.

كان الملك بلا مظاهر الأبهة الملكية وشعر رأسه كان قصيراً وكأنه شاب في العشرين خرج حلاقه لتوه من عنده، إلا أن ذقنه الكثيفة التي تتخللها شعيرات بيضاء والتجاعيد التي ارتسمت مع الأيام تحت عينيه السوداءتين الواسعتين كانت تفصح عن عمره الذي لم يقل آنذاك عن الخمسين عاماً. أي بفارق ثلاثين سنة عني على أقل تقدير. وبمجرّد أن تقدّم خطوةً من مكانه، أحنيت بدني من جذعي وأخفضت رأسي وقلت بصوتٍ مسموع: «أحييك مولاي» فأجاب: «حسناً... أتعلم لماذا طلبتك يا ولدي؟» فأجبت متلعثماً لتأثري بكلمة «يا ولدي» التي خرجت في أرق الصور اللفظية من فمه الذي كان قد سقطت منه بعض الأسنان، فاستعاض عنها بأسنان ذهبية: «لايا مولاي». فقال وهو يقترب مني ليحدق في وجهي برهة: «أنت تشبه أباك. أنا لا أنسى وجوه الرجال الشجعان والأذكياء، وكما سمعت فإنك شجاعٌ مثله، إضافةً إلى أنك ذكي لإجادتك عدة

لغات». ثم مال إلى متكأٍ عالٍ ووثير الوسائد وجلس على بعضها وأشار لي بالجلوس في الطرف الآخر من الحجرة وهو يشير إلى قفص ذهبي فيه طائر أخضر اللون، لم أرَ في حياتي شبيهاً له. ثم تابع كلامه: «تلك هي السيدة التي نادتك: تقدّم... تقدّم... إنها سجينتي في قفصٍ ذهبي وكأنها أميرة... هذا هو الطائر الناطق الذي يقلّد الناس بألفاظهم، هوماي. لقد أرسلته لي أميرة فينيقية تدعى (آشتارا) مقابل الإفراج عن جاسوسٍ من أقربائها كان معتقلاً لدينا... سمعت بأن الفينيقيين يجلبون ما هو غريب علينا من أوطانٍ تقع خلف البحار، لا ندري عنها شيئاً... أعتقد أنكم تعلمتم عنها في المدرسة». فلم أحرّك ساكناً لأني ما كنت أعلم كيف أتصرف وأتحدث بين يدي ملك معروف عنه بأنه شديد العقاب ولا يقبل المزاح وتكرار الأخطاء حتى من أتباعه المقربين المخلصين له. كنت حتى ذلك الحين ثابتاً في مكاني كعمودٍ صخري، فألقى الملك قطعةَ قماشٍ بيضاء على القفص بحيث لم يعد بإمكاننا رؤية الطائر الذي يسميه ملكنا بهوماي، ولم يعد بإمكانه رؤيتنا ثم قال الملك: «هل لديك أي سؤال؟»

أردت أن أسأل: «لماذا طلبتني يا مولاي؟» ولكني وجدت السكوت أفضل وأسلم، فالملك سيتطرق إلى الموضوع بنفسه حتماً. ثم شعرت فجأة برغبةٍ في قول شيء ما لنزع الخوف من صدري الذي ضاق تماماً، ولم أتمالك نفسي بعد أن سألني الملك وتحدث معي كرجلٍ إلى رجل، فسألته بأدبٍ جم وبصوتٍ لا يسمعه أحد سواه: «مولاي، لم أرَ في ساحة المدينة حراساً كثيرين، فكيف يكون قصر ملكنا العظيم بلا حراسة مشددة،

والمجرمون يهاجمون الناس على مقربة من أبواب المدينة؟» فسأل الملك عما إذا هاجمنا أحد ونحن في طريقنا إلى المدينة، فأجبته: «نعم، مولاي».

لامس الملك أدنى لحيته الصغيرة بيده اليسرى وهو يبتسم كثعلبٍ مراوغ، فبان ذراعه عارياً كذراع مصارعٍ شديد، ثم صفق مرةً واحدة، فإذا بصبيةٍ بيضاء البشرة، فائقة الجمال، شبه عارية، تدخل الغرفة وتحيي الملك بخفض رأسها دون أن تقول شيئاً، فقال الملك لها: «هاتوا لنا ببعض العصير وأضيئوا علينا قنديلين آخرين». فأحنت الصبية جسدها من خصرها النحيل العاري، وخرجت، في حين حدّق الملك طويلاً في السقف العالي، دون أن يتكلم، وإذا بالخادمة تعود وعلى يديها طبقٌ أنيقٌ من معدنٍ مطعم بالذهب، عليها كوبان كبيران مليئان بالعصير، وخلفها خادم طويل القامة يحمل قنديلين مضيئين فيضعهما في كوتين جداريتين تطلان علينا من فوق رؤوسنا مباشرة.

شرع الملك يقول لي أثناء انشغال الخادم الطويل بمهمته: «هؤلاء الذين هاجموكم ليسوا قطاع طرق. إنهم مرتزقة مدفوع لهم المال الكثير من قبل البابليين ليعيثوا في بلادنا فساداً وليثيروا الرعب في نفوس الواشوكانيين، بل كل الميتانيين والهوريين، فيظن الناس أن ملكهم (توشراتا) من سلالة (كيرتا) العظيم ضعيفٌ غير قادرٍ على تأمين أمنهم وحماية أموالهم وأعراضهم، وبذلك يفتح الباب بسهولة أمام الغزاة لاقتحام ديارنا وسلبنا حريتنا. لقد توقفت الحرب بيننا وبين البابليين، وهذا جيد لنا ولهم، إلا أن مكائدهم ستدوم عبر الزمن، في حين أن شعبنا الميتاني منخدع بهذا السلام

الهش، وأبناء واشوكاني لا يفكرون سوى بالطعام والملبس وبالإكثار من المال الشخصي ومضاجعة النساء، فالرجال يمارسون الجنس كالقرود ويحبونه أكثر من الدفاع عن أطفالهم وزوجاتهم في أيام الشدة، ونساؤنا أشنع حالاً منهم، فلا يلدن سوى طفلين أو ثلاثة، إذ يعتبرن أنفسهن قد خلقن لقضاء الليالي في الخمارات ومراقص المعابد وحفلات الزفاف».
وفجأةً توقف عن الكلام ثم تابع بعد برهةٍ قصيرة: «هل أنت تصغي إليّ أم تفكَرفي شأنٍ آخر؟» ثم رفع كوبه الزجاجي الجميل ورشف رشفةً من الشراب. وتابع: «عصير الرمان مفيد للغاية، اشرب». فرفعت الكوب الذي أمامي، وقلت: «أنا أصغي إليك يامولاي وأفكر بما سيجلبه لنا عدم الانجاب من مشاكل في المستقبل، في حين تتكاثر الشعوب من حولنا». فأضاف الملك بعد أن رشف من العصير رشفةً ثانية: «كالجراد والنمل والنحل». ثم قال بنبرة ناعمة: «لم أكن أعلم أنك مهتم بالسياسة وبمستقبل ميتان أيضاً... ولكن اعرف أنك تجيد فنون القتال والنزال ورمي الرماح والنبال، مثل أبيك، وسؤالي هو عما إذا كنت ذا تأهيل قتالي؟» فأجبت: «لم أذهب إلى الحرب بعد، وفي المدرسة لم نتعلم هذه الفنون، وأنا معفى من الجندية لأني الولد الذكر الوحيدٌ لأبوي، ولكن أبي كان يعلمني بنفسه، وإضافةً إلى ذلك فأنا ياسيدي أجيد قيادة العربة الهيتية ذات العجلتين وقذف الحجارة بالمقلاع، ورمي السهام الكاردوخية، وهي رياضة محبوبة إليّ كرمي الرماح».
ضحك الملك ضحكةً صبيانية بدت لي بريئة. وتكلّم عن حق شعبنا

في الأمن والاستقرار وعن ضرورة العمل لذلك ليل نهار، وأن الملوك الأقوياء العادلين لا يحتاجون إلى حماية خاصة، أما الذين يهتمون بنهب شعوبهم وإذلالها فإنهم يعيشون خائفين مذعورين على الدوام، حتى إنهم لا يقدرون على النوم مرتاحي الضمير، ولا يقدرون على مضاجعة نسائهم وجواريهم ومن حول سررهم حراس عديدون، لكثرة ما ينسجون لأنفسهم من أوهام حول المؤامرات التي قد تحاك ضدهم وتودي بحياتهم.

كلامه قد يقنع كثيرين لأنه صحيح، إلاّ أني كنت أعلم جيداً بأن مملكة ميتاني أو (خانا غالبات) في خطرٍ مستديم... وكأنه قرأ المخاوف التي تسيطر على فؤادي، فنظر إلى وجهي نظرةً فاحصة وراح يشرح لي الواقع بأن البابليين في الجنوب من حدود ميتاني لن ينسوا الهزيمة النكراء التي ألحقها بهم الميتانيون قبل فترة جنوب مدينتنا (نوزي) بالقرب من قرون النار الشيطانية الصاعدة من أرض بلاد ما بين النهرين، حيث فقد البابليون الكثير من الجنود والعتاد وتم تدمير مخافرهم الأساسية. والهاتيون في الشمال الغربي، الذين هم أبناء عمومتنا نحن الخانيين وآريون مثلنا، ويعبدون إلهة الشمس (آرينا) ولديهم عقيدة «روح الطبيعة»، حيث يرون مثلنا أن كل ما في الطبيعة يمتلك روحاً إلهية، من النبات والطيور والحيوانات والتضاريس، وحتى الغيوم والبرق والمطر ، إلا أنهم يجدون أنفسهم أحق بحكم بلادهم وبلادنا معاً، بذريعة أن مملكتنا ضعيفة وشعبها يريد أن يُحكَمَ من قبل غزاةٍ طموحين وأقوياء مثلهم، وهم يمتلكون مناجم عميقة للبحث عن الذهب والفضة ومادة الحديد

التي يستخدمونها ببراعة في صنع أنواع مختلفة من الأسلحة ولتجهيز العربات القتالية التي تثير كثرتها في أيديهم حسد وغضب شعوب المنطقة. إنهم يعملون على إثارة القلاقل بين العشائر الميتانية-الهورية، وبخاصة بين الكيكانيين والآسبيين في (واشوكاني) وأطرافها، حتى صار اسم (الهاتيين) بين الشعوب التي حول بلادنا وفي ميتان بالذات مقروناً بالفزع. كما أن فراعنة مصر لن ينسوا محاولات الملك الميتاني الراحل (شاوشتات آر) الذي جمع قواته وجهزها بقصد الهجوم على أرض كنعان التي كانت تحت احتلال المصريين، ولكن المشاكل الكبيرة في مصر وكذلك في سوريانا حالت دون الحرب بين ملك ميتان والفرعون المصري، فلجأ إلى أسلوب التقارب السلمي بيننا والدعوة للمصاهرة بين المملكتين. ثم قال بعد أن ألقى عليّ درساً في تاريخ المملكة وما يحيق بها من أخطار: «المصاهرة السياسية ليست إلا تضحية ملكٍ بأخته أو ابنته في سبيل منفعةٍ أو لحماية شعبه. وهذا ما فعلته تماماً وعن قناعة بأن ما يفعله هو لمصلحة شعبي الميتاني – الهوري».

بعد أن رشف رشفةً أخرى من العصير، قال: «بعض الملوك الذي سفكوا دماء كثيرين من الأعداء والأقربين الطامحين في عروشهم، ماعادوا يثقون بأحدٍ من رعاياهم، فيتصورون أن كل طارقٍ بأبوابهم إنما جاء ليقتلهم، وأن كل طعام يوضع أمامهم لتناوله مسموم، وأن الأفاعي مخبأة تحت أغطية سررهم، أما أنا فلا أخاف حتى الجلوس لوحدي مع شابٍ يمكن أن يخنقني في غفلةٍ من حراسي القلائل».

ولما رآني الملك مندهشاً لسماع ما يقول، تابع قائلاً: «أريد أن أكلفك بمهمة سرية وخاصة». فتقدمت خطوة إلى الأمام وانحنيت بجسدي من جذعي إحتراماً له وقلت:» أنا رهن اشارتك يا مولاي».

قال بعد أن جال بنظره في الغرفة الواسعة ونهض من متكئه وتقدّم صوبي حتى أصبح على مقربة مني: «ستكون عقوبتك الموت في أبشع صوره، إن نطقت عن هذه المهمة بحرفٍ واحد لأي كان. لقد أمرت بأن لا يزورني أحدٌ بعد ظهر اليوم إلى ما بعد طعام العشاء، حتى من طبقة (الماريانو) المقرّبة مني ووزيري الأول وقائد جيشي فقد أمرتهم جميعاً بعدم الدخول علي، وكذلك نسائي اللواتي لا يطقن الابتعاد عني أبداً.»..

سألت نفسي عما تكون هذه المهمة الخطيرة حتى يمنع من الدخول عليه طبقة الأشراف ووزيره الأول وقائد جيشه ونساءه، فقلت وقد ثقل لساني في فمي: «لن أبوح بشيء لأحدٍ عنها ولو قطّعوني إرباً اربا أو أحرقوني حياً». هذا ما قلته والدم يندفع إلى وجنتي وإلى أنفي وأذني من شدة انفعالي، فهذه أول مرة أكلَّف بمهمةٍ ملكية من قبل الملك ذاته، ومن دون معرفتي مضمونَها».

قال الملك: «حتى طائر ي هوماي الذي أحبه أكثر من أي مخلوقٍ آخر في هذا القصر سيتم ذبحه كي لا يكرر لفظ كلمةٍ مما سمع منا اليوم». ثم عاد إلى متكئه ليجلس في هدوء، مما اضطررني للاقتراب منه، وقلت له بلطف:» كل شيء إلا هذا الطائر الناطق يا مولاي». فأجاب وابتسامة عريضة ترتسم على محياه: «خذه معك» فقلت: «هذا الطائر جاءك كهدية

يا مولاي». ففكّر لحظةً كمن اقتنع بصحة كلامي، ثم تابع: «لا حاجة لأن تمر على قصر أبيكَ فأنا سأرسل له من يخبره بأنك بخير وأنك في خدمة الملك فترةً من الزمن. سأعطيك ما يكفيك من المال لإنجاز مهمتك، وذلك على شكل نقود ذهبية وفضية، كما سأعطيك لك بعض الرقع الجلدية الرقيقة المكتوبة التي تثبت ملكيتك لمنازل ومزارع وعبيد، تكون ضامنة لك في كل الممالك التي لنا معها معاهدات، وسأكلّف عدداً من الحراس والخدم ليخدموك ويحرسوك أثناء أدائك مهمتك، وعندما تؤديها بنجاح ستصبح لدي من أغنى الناس، وأقربهم إلي في عاصمتنا واشو كاني».

لقد كان عرضاً سخياً ومغرياً حقاً، لم اسمع بمثله من قبل، فقلت: «إن أعطيتني يا مولاي شيئاً أم لم تعطني فسأنفذ المهمة دون قيدٍ أو شرط، ولو فقدت حياتي بسببها، ولكن لي طلب واحد منكم، إن كان مسموحاً لي التوجه به إليكم».

حدق الملك في وجهي بإمعان وقال: «هيا، أنا لن أخزيك». فقلت: «أن يصحبني ذلك الفارس الشجاع الذي رافقني من دار أبي اليوم». فسكت برهة وكأني طلبت منه مفاتيح خزائنه كلها، ثم قال برقة وهدوء: «هل لك طلب آخر؟» ففكرت قليلاً ثم أجبت: «لا يامولاي». فقال مبتسماً: «يبدو أن اتفاقنا قد أُبرِمَ دون عوائق. والآن أخبرك بمهمتك». فانتهبت جيداً لما سيقوله لي عن هذه المهمة التي ستكلفه الكثير من المشاكل والأموال حسب ظني.

قال الملك بصوتٍ خافت: «أنت لست متزوجاً لذا لا تعرف ما مدى

حب الإنسان لأولاده، ولستَ ملكاً لتعلم مدى صعوبة منح ابنتك لتصبح زوجة عدوٍ لك، قد يسترقها كعبدة له بعد أن يقضي منها وطراً. إنها تضحية عظيمة في سبيل الوطن، ولكن الناس لا تقدّر ذلك... عرض علينا السلام فرعون مصر (أمينوحوتب الثالث) زوج الملكة (تى جى)، الذي يسميه البابليون ب«نيموريا» والإغريق ب«أمينوفس الثالث»، أن أزوّجه ابنتي (دوتى خيبا) التي كانت آنذاك قد دخلت لتوها عامها الثاني عشر من العمر فوافقت صوناً لبلاد ميتان من غزو جيوش فرعون التي إن مرّت على مدينة فإنها لا تبقي على شيءٍ من معالم الحياة والعمران فيها. مثلما أرسل الملوك الميتانيون من قبلي بناتهم للملوك الأعداء أو أخذوا بنات ملوك أعدائهم لدعم السلام من حول مملكتهم. والآن، بعد أكثر من خمس سنواتٍ من تلك المصاهرة السياسية جاءت أخبار مؤسفة عن ابنتي الجميلة دوتى خيبا.

لم يتمكن من متابعة كلامه، وتجمّعت الدموع في عيونه، وهو الملك الذي عرف عنه بأنه قاسٍ كجلمود الصخر، وبدا لي أنه سيبكي إن استمر في الحديث، فسألت بلطف: «مولاي الملك، لماذا زوّجتَ ابنتك لفرعون وهي لا تزال صبية؟» فأجاب: «لأن الفراعنة يقبلون من أعدائهم ومن حلفائهم البنات الصغيرات بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر فقط حتى يتم تربيتهن حسبما يريدون، ولأن السلام كان ضرورياً لمملكتنا (ميتان)». وبدا لي أن لسانه قد تصلّب في حلقه، فقلت: «مولاي الملك، من قبل تزوجت السيدة شقيقتكم (كيلو خيبا) من فرعونٍ مصري، أفلم

يكن هذا كافياً لتحقيق السلام بين (ميتان) وبلاد الفراعنة؟» فقال وهو يلوّح بيدٍ وكأنه ممتعضجداً لما حدث: «صحيح، لقد زوّج أبي شقيقتي (كيلو خيبا) بفرعون مصروأرسل معها أكثر من ثلاثمائة وصيفة من مختلف الأعراق والأقوام وأحمالاً من الهدايا النفيسة إلاّ أن ثمن السلام اليوم صار أغلى كما يبدوالآن».

لم أشأ طرح سؤال آخر عن شقيقته، فهذا قد يزعجه، إلاّ أنه قال بنفسه: «إنها الآن امرأة هرمة حزينة ولا حيلة لها، وهي مهملة من العائلة الفرعونية بعد رحيل زوجها وغير قادرة على أن تقوم بشيءٍ لنا، وتتردد على المعابد كثيراً ولا تكلّم الناس».

لاحظت أنه غير قادرٍ على ضبط نفسه حيث تورّدت وجنتاه من شدة الغضب، وبدا لي أنه غير سعيد بالمصاهرة بين مملكته وبلاد الفراعنة، فقلت بسرعة: «مولاي. سأعود إليكم غداً، إن شئتم». فهزّرأسه موافقاً، وأردف: «أخرج من ذلك الباب الذي تراه في عتمة الزاوية. سيصحبك الحارس إلى غرفة النوم المجهزة لك، ولا تتكلم مع أحد في طريقك. غداً في مثل هذا الوقت عد إليّ من الباب ذاته فسأكون في انتظارك». فحييته بتحيةٍ أشبه بما يفعله أحد ضباط جيشه، حيث يضربون بيدٍ على صدورهم، وانطلقت في الحال من مكاني كي لا أرى ملك ميتان الشديد القاسي، الذي يهابه أعتى المعارضين في بلاده، يستبد به الحزن أويبكي أمامي. وبعد أن فتحت ذلك الباب، إذ بخادمٍ يشبه جلاداً واقفاً كالطود في مواجهتي، فسار أمامي بخطواتٍ سريعةٍ وأنا أتبعه. فمررنا من بين

غرفٍ كثيرة على طرفي ممرٍ ضيّق، كلها مليئة بالجنود المسلحين المتأهبين لكل طارىء، وحينما نزلنا إلى طابقٍ أدنى في أسفل القصررأيت عربات قتالية وخيولاً كثيرة وأسلحة لا تعد ولا تحصى، وعندها أدركت سبب عدم وجود حراسٍ للملك في داخل قصره أو أمام الباب الرئيسي سوى اثنين، فهو يخفي قوته عن الأعين ولا يعرضها كالملوك الآخرين.

وفي الحقيقة فإن الملك (توشراتا) قد وصل إلى الحكم عن طريق ثائرٍ من غير العائلة الملكية يدعى (أوتخي) الذي استغل موت الملك الكبير (شوتارنا الثاني)، وحدوث اهتزازٍ كبير في السلطة الميتانية بسبب رحيله، وتم اغتيال الخليفة الشرعي، إبنه (أرتا شومارا)، وكان هدف (أوتخي) جعل (توشراتا) شقيق (أرتاشومارا) الضحية مجرّد دميةٍ في يديه، إلاّ أن (توشراتا) حرر نفسه من سيطرة ذلك الثائر المغامر، وسعى لتثبيت نفسه كملكٍ شرعي لمملكة ميتان، وسعى لإقامة علاقاتٍ مع الممالك الأخرى، ومنها مصر التي تسعى باستمرارللسيطرة على جميع بلاد (سوريانا) الفاصلة بين مملكة (ميتان) وبلاد (كنعان) التي يستحكمون بها، وسَعيُ ملكنا لتحقيق السلام مع بلاد الفراعنة كان عن طريق تزويج ابنته القاصرة (دوتى خيبا) للفرعون (أمينوحتب الثالث)، أما الثائر (أوتخي) الذي فشل في تحقيق أهدافه فقد اختفى تماماً وظهر فيما بعد تحت اسم (آرتات ما الثاني) وهو غير(أرتات ما الأوّل) جد (توشراتا) وخضع لنفوذ الهاتيين الذين استغلوه للضغط به على المملكة الميتانية ردحاً من الزمن، كما ساعد الآشوريين للتخلص من نفوذ الميتانيين، وقد أعلَمَ ملك ألاشوريين

(أوبلط) فيما بعد فرعون مصر (أخناتون) ولد (أمينوحتب الثالث) في رسالةٍ مدوّنة بتحرير شعبه من سلطان الميتانيين، من دون أن يذكر كيف نخر دود الشجرة الميتانية (أوتخي) في جذع شجرته التي نشأ منها وعاش على خيراتها... وحقيقة فإن الشجرة تسقط إذا نخرها الدود من داخلها، هكذا قال الأجداد وهكذا ستبقى الحكمة صحيحةً عبر التاريخ.

فكرت طوال الليل بالمهمة التي تنتظرني، والتي علمت منها أنها تتعلق بابنة الملك. ولكن ماذا يجب عليّ القيام به، فهذا ما شغل بالي ولم يدعني أنام مرتاحاً.تصورت في لحظةٍ من اللحظات وأنا أسير عبر الصحارى وحيداً ظامئاً، وتهاجمني الذئاب الجائعة، وتلاحقني الأفاعي السامة، وأتلمّس طريقي في ممرٍ معتمٍ ثم يغمر ما حولي نور ساطع، لتظهر من وسطه حورية رائعة الجمال، فتمسك بيدي وتطير بي من فوق حدائق واسعة لتحط بي أمام عرشٍ كل ما حوله من الذهب اللامع، حيث تجلس (دوتى خيبا) في أثمن أزيائها وسط خادماتٍ جميلات، وهي تشير بإحدى يديها إلى ناحيتي وتهمس بما لا أسمعه...

في اليوم التالي مكثت في غرفتي المفروشة جيداً. وكانت خادمةٌ حسناء تأتيني في النهار كما في الليلة الماضية بأنواعٍ مختلفة من طعامٍ ومشروباتٍ وفواكه، منها ما لم أره في حياتي، رغم أسفاري وتجوالي السابقة، ولكنها لم تأتني بأي خمرٍ من الخمور، حيث قالت لي بأن الملك قد أمر ألاّ تُقَدَّمَ لي المشروبات التي تسلب المرء عقله، إلا أنها ابتسمت وأنا مستلقٍ على سريري الوثير وقالت بأنوثة لا مثيل لها: «أستطيع أن أعوّضك عن

الشراب المسكر بهذا»، ودفعت إلى الأمام بصدرها شبه العاري الذي بدا لي في تلك اللحظات أجمل ما رأيته لدى النساء على الاطلاق، إلا أن الوضع الذي وجدتني فيه كان مقلقاً ومحرجاً لي، فقلت لها: «في وقتٍ آخر». فتفهمت المرأة الحسناء موقفي ووضعي، ولم تحاول اغرائي ثانية. وأمضيت ليلتي ونهاري في غرفتي برأسٍ ملأته الأفكار التي سرعان ما تزول لتأخذ سواها مكانها في تلافيف دماغي الذي صار كجمرةٍ كبيرةٍ من النار في رأسي.

خرجت في المساء، بعد قضاء النهار كله في غرفتي، ونفحة هواءٍ باردٍ تهب على وجهي، فإذا بالفارس الذي رافقني من القرية ينتظرني قبالة الباب، وكأنه جاء لتوه، حيث لم ألاحظ عليه أثر إعياءٍ من طول انتظار ووقوف، فسار أمامي عبر ذات الممرات صوب الطابق الأعلى حيث القصر الملكي، من دون أن يحدثني بشيء، وفتح باب الجناح الملكي الخاص لأدخل إليه وأغلق الباب ورائي، وأعتقد أنه اتخذ مكانه في الحراسة خلف الباب من جديد.

نظرت في الصالة الملكية الصغيرة، فرأيت الملك واقفاً ينظر من خلال نافذة مطلّةٍ على أسوار المدينة، حيث ثمة جنودٍ يتحركون يمنة ويسرة. فحييته تحية تابعٍ مخلصٍ ومطيع وانتظرت سماع أوامره. فقال: «آمل أن تكون قد تمتَّعتَ بليلةٍ هنيئة ونهارٍسعيد... سأختصر الكلام». ثم مضى شارحاً لي ما كنت أعلم أكثره من قبل: «بعد أن تزوّج فرعون مصر (أمينوحتب الثالث) بابنتي أصيب بمرضٍ شديد، وتوفي على أثر

ذلك، فتولى الحكم ولده (أمينوحتب الرابع) الذي غيّر اسمه الآن إلى (أخناتون)، واتخذ ابنتي (دوتى خيبا) كزوجةٍ ثانيةٍ إلى جانب (نفر تيتي) ذات العنق الطويل والرأس الطويل. لقد أنجبت ابنتي طفلاً لأخناتون وقد يكون عمر الطفل الآن ثلاث سنوات أو أكثر ».

صمت الملك برهةً وكأنه احتاج إلى تنفّس كمية أكبر من الهواء، ثم تابع: «نعم اقترن الفرعون أخناتون إلى جانب زوجته (نفرتيتي) بنت الكاهن الكبير(إي جي) بابنتي (دوتى خيبا) التي كانت زوجة أبيه،». وسكت برهةً، فقلت : «هذا الزواج يسميه العرب بزواج المقت». فهزّ رأسه بالإيجاب، ثم أضاف جملةً حادة: «هذا زواج الفحش». فقلت في قلبي: «نعم سيدي هذا زواج الفحش والمقت». فتابع: «على كل حال، ستذهب إلى مصر كطالب علم السحر أو الطب، حيث المصريون مشهورون بكلا العِلمَين، وهناك تعمل للاتصال بفلذة كبدي «دوتى خيبا» التي تعاني من ظلم حماتها (تي يى) وحسد ضرتها (نفر تيتي)، التي لم تنجب سوى البنات لزوجها، ست بنات، واحدة بعد الأخرى... ومما لا شك فيه أن ابنتي ستستقبلك عندما تسمع بأن رجلاً باحثاً عن العلم قد جاء من ميتان، بلاد آبائها وأجدادها، أمها وأبيها، وهناك ستجهد يا (لاوى هوري) لمعرفة أحوالها وكل شيء عما أنجبته للمصريين، حيث أنها قد أنجبت ولداً و لذا فقد أخفت (نفرتيتي) حفيدي حسداً منها. أو قتلته، لا أدري بالضبط..». فظهرت علائم الغضب على وجهه، إلاّ أنه سيطر على مشاعره بأن عض على شفته السفلى بقوة، ثم قال: «أنت

تعلم الآن بأني أريد رؤية حفيدي بأي ثمنٍ كان، حتى ولو باختطافه إن استطعت». قال هذا وارتسمت ابتسامة أملٍ كبير على محياه بعد أن انزاح الغضب من محياه تماماً. ولربما تصورني الملك في تلك اللحظة وأنا عائد في عربةٍ مذّهبة الأطراف من وادي الملوك إلى مملكة (ميتان) بشعرٍ أشعث وإلى جانبي ولدٌ صغير العمر تبتسم لجماله ونظافته الطيور والسحب وتنحني له الأشجار وكل البشر.

توقف الملك لحظاتٍ شعرت فيها بأنه إنسان حزين وضعيف مثل أي أبٍ آخر غاب عنه ولده أو حفيده أو غابت عنه ابنته أو حفيدته. ثم تابع كلامه: «سيصبح حفيدي في يوم من الأيام ملكاً مثلي، فإن لم يتم له ذلك في بلاد الفراعنة فليكن في بلاد (خانا) الميتانية». فقلت مستفسراً: «وماذا عن ابنتكم يا مولاي؟»

فكر الملك قليلاً ثم قال، وهو يمشي في الغرفة وأنا متخلّف عنه خطوتين: «حسب عقد الزواج الذي أصبح به فرعون مصر صهراً لي، تم الاتفاق على أنّ لابنتي الحق بعد إنجاب وليدها في قضاء وقتٍ طويل لدينا في واشوكاني، والمصريون يتحملون نفقات مجيئها وعودتها وحمايتها في الطريق ذهاباً وإياباً». فقلت: «مولاي، طالما هذا متفق عليه بينكم، أفلا تستطيع ملكة مصر (دوتى خيبا) المجيء إلى واشوكاني دون عراقيل؟» فأجاب: «نعم، تستطيع، إلاّ أن المصريين لن يقبلوا بإحضارها وليدها معها ويتذرعون لذلك ببعد المسافات وكثرة العصابات التي تهاجم القوافل على الطريق الهائجة كعادتها ولخوفهم على وليدها من المرض

والموت عبر (سوريانا) التي تنهشها الاضطرابات والقلاقل باستمرار، كما يزعمون، ثم إنهم ينكرون عليها إنجابها وليداً ذكراً، بل وضعوا في حضنها مولوداً أنثى، لا أدري أهذا الوليد الأنثى مسروقٌ من امرأةٍ من عامة الشعب أم مأخوذ عنوةً من عبدة أنجبته أم أنه من سلالةٍ شيطانية أو ساحرة. وهذا ما أريدك الكشف عن حقيقته، ولا يهم أن تأتي (دوتي خيبا) أم لم تأتِ، فقد حكمتُ عليها بالموت لحظة قبولي طلب يدها من قبل فرعون مصر، المهم هو حفيدي، أين أخفوه وماذا فعلوه به، أريده حياً إن كان على قيد الحياة، أو أنت تسرق لي جثمانه الصغير إن كان ميتاً. هذا ما أريدك التأكد منه، والقيام به».

شعرت بأوصالي تتقطع من الحزن وأنا أرى أمامي ملك (ميتان) الشديد يضطرب كقاربٍ هبت عليه الرياح، وتخيّلت أن وحشاً هائجاً لايعرف الرحمة يغرس أنيابه في صدر طفلٍ تركته أمه خلفها في غابةٍ.

وهنا فهمت جيداً بأن جوهر مهمتي هو التأكد من ولادة حفيد وليس حفيدة للملك ميتان والاتيان به مهما كان الثمن غالياً. فقلت له: «سأفعل كل ما في استطاعتي لتحقيق طلبك يا مولاي، ولكن ألن تكون لعمليةٍ كهذه نتائج سلبية على علاقاتكم بصهركم فرعون مصر ؟».

«لقد فكرت في هذا ملياً، ولكن طالما ينكرون إنجاب ابنتي ولداً ذكراً لهم، فلن يعودوا للقول بأنها أنجبت ذكراً، أو أني اختطفت ولي العرش الفرعوني، أليس كذلك؟».

قال هذا ومد يده اليمنى صوبي وكأنه ينتظر مني موافقةً على قوله،

فقلت: «صحيح يا مولاي، وعندئذٍ بإمكانك طلب الملكة الكبرى (نفر تيتي) كشاهدة على أن ضرتها الأميرة (دوتى خيبا) قد أنجبت أنثى وليس ذكراً».

بعد قليلٍ من الصمت ضحك الملك الحزين وكأنه شعر بالسعادة بعد أن أفضى لي ذلك السر الذي كان يحز في فؤاده، ثم قال: «أنت ذكي حقاً وتقرأ أفكاري. ستشهد طويلة الرأس والرقبة (نفرتيتي) طوعاً وستقسم اليمين على أن ابنتي (دوتى خيبا) لم تنجب ذكراً وهذا سيسعدها تماماً. هذا ما فكرت به أيضاً».

وبعد برهةٍ من السكوت التام، قال لي: «أعلم أن هذه المهمة صعبة للغاية لرجلٍ واحد، بل تتطلب عصبةً من الرجال الأشداء والأذكياء، ولكني أخاف من أن ينتشرسر المهمة. فكل سرٍ جاوز الاثنين شاع، لذا أكلّفك وحدك بها وسيكون حارسك الفارس الذي أحضرك من قرية أبيك، وسيكون هناك دائماً من يتعقبك عن قرب ويحميك من شرور اللصوص والمعتدين، إن أردت ذلك، من دون أن يعلم أحد أهداف سفرك من واشوكاني».

عندها ازددت جرأةً لما وجدته من صراحةٍ وفصاحةٍ ونباهةٍ وجودة تخطيطٍ لدى الملك الميتاني المعروف عنه بأنه صارم وحازم ولا يتكلم إلا نادراً وكلامه الذي يتفوه به ليس إلا قانوناً أو أوامر، في حين أنه حدثني طويلاً في جلستين وكأنه معلمي الكاهن الرقيق الألفاظ (خور بَرَست) وليس ملك تهابه حتى الوحوش الضارية، فقلت: «مولاي، لماذا تخفي

هذا الأمر وهذه المهمة عن وزيرك الأول؟» فأجاب: «حقيقةً انت كثير السؤال. أنت لا تعلم بأن وزيري الأول سيفعل كل ما في استطاعته من جرائم ومؤامرات لأن تنتقل السلطة في ميتان إلى عائلته، بالتعاون مع أعداء (ميتان) والخائن (أوتخي)، وهو في انتظار أن تحين الفرصة، وهذا سربيننا عليك أن لا تبوح به لأحد».

هبت موجةٌ عاتيةٌ من الظنون على فؤادي، فنظر الملك محدقاً في عينيّ وكأنه رأى فيهما ما أشعرت به، فقال: «على كل حال، كل هؤلاء الأطباء والسحرة خاضعون لسلطة الوزير، ولا أحد منهم يمكنه الدخول عليّ إلا بعد الاستئذان منه، إلا أنت كما ترى».

قلت للملك الذي لاحظت أنه يريد التحدث إلي بثقة: «أتساءل عما إذا كان الهجوم عليّ وأنا في الطريق إليكم كان مدبراً من أحد». فقال: «لا... لا... لا أعتقد. فإن عداء البعض لي لا تزال سياسية والنار لم تندلع في البيت الميتاني بعد. وسأبذل قصارى جهدي على ألا تندلع». فسألت: «وفي أسوأ الأحوال؟» فأجابني بسؤاله: «ماذا تقصد؟» فقلت: «في حال اكتشاف أمري ومهمتي للمصريين؟» فأجاب على الفور: «ستنشب حرب طاحنة بين قواتنا وقواتهم المتواجدة في سوريانا ولكن نارها لن تصل إلى بلادنا، وسننتصر فيها لأن أحوال الشعب المصري متردية جداً بسبب المشاكل التي تثيرها العائلة الفرعونية، في عهد الجفاف والقحط هذا الذي تشهده بلدان المنطقة، فيعتبر المصريون مايصيبهم من جوع وكوارث بسبب تخلّي آلهتهم القديمة عنهم، إضافةً إلى السياسة الضرائبية

المرهقة التي انتهجها فراعنة وادي النيل قروناً من الزمن قبل (أخناتون)، الذين اعتبروا أنفسهم آلهة. إنّ عدد الهاربين من جيش مصر في تزايدٍ مستمر لأن القائم على خزائن الفرعون لايستطيع تسديد رواتب الضباط في أوقاتها ويرهق الضباطُ الجنودَ بأعمال السخرة، وخاصة في بناء المعابد والقصور الفرعونية والمقابر الملكية، ولأن أفراد العائلة الفرعونية يخفون أكداس الذهب في الكهوف أملاً في الاستفادة منها بعد الموت، إضافةً إلى خسران الكثير من قواته ضد المناطق المتمردة على سلطانه وعلى محصّلي الضرائب بالقوة الفظيعة فيما يحتله المصريون من بلاد (سوريانا). في حين نحن أقوياء ومتماسكون، إن لم يهاجمنا أقرباؤنا (الهاتيون) فجأة، أو جيراننا البابليون الذين لنا معهم عهد وميثاق».

توقف الملك عن الكلام قليلاً، وكـأنه يتأكد من أنه لم يقل لي شيئاً خاطئاً، وفي تلك اللحظة تذكرت خيانة (أوتخي) المتمرّد وقلت لنفسي بأن الملك يتجاهل أو ينسى تلك الخيانة فيقول: «أقوياء ومتماسكون!»

تابع الملك قائلاً: «وسأكون ممتناً لك إن أخبرتني لدى عودتك بالمزيد عن سائر أفراد العائلة الفرعونية وعلى وجه الخصوص عن أرامل الفراعنة ونسائهم ودسائسهن... وبخاصة عن (نفر نفر) التي تبدو وكأنها هي مالكة بلاد الكيميت وشعبها وذهبها، والتي تمارس سحرها على السحرة..». فسألت: «تقصدون نفرتيتي أليس كذلك ياسيدي؟» فابتسم وقال: «نعم، هي صاحبة الرأس الطويل والعنق الطويل نفرتيتي..». فعلمت من لهجته لدى ذكراسم الملكة المصرية أن ملكنا

يكره هذه المرأة الجميلة التي تسيء إلى ابنته. ثم تابع: «لا ترسل أخبارك مع حمامٍ زاجل أو مع أحدٍ من ناقلي الأخبار الراكضين، فإذا ما تم إلقاء القبض عليه فإنهم سيسلبونه رسالتك، وتكون بذلك نهايتك ونهايته». فقلت: «والحمام الزاجل قد يقنصونه بسهامهم؟» فابتسم ابتسامةً تنم عن عدم قدرته على إيجاد وسيلةٍ أمينة للتواصل بيننا، ولذا وجدت أن من الأفضل المغادرة على الفور، وقلت: «سأفعل كل ما تطلبه مولاي، فهل لديكم أوامر أخرى؟» حدّق برهةً في وجهي، وكأنه يرتب أفكاره قبل التلفظ بها، ثم أجاب، وهو يرتّب إزاري بأصابعه على صدري كما كان يفعل أبي قبيل ذهابي إلى المدرسة: «أنت تتكلم (الهورليلي) لغة الهاتيين أيضاً كما أعلم». فأومأت برأسي إيجاباً، دون أن أقاطعه، فتابع كلامه: «ستذهب أولاً إلى بلاد الهاتيين كتاجر أو طالب علم، حتى لا تثير شكوك أحدٍ في واشوكاني، وهناك ستذهب إلى الملكة (خاتى) لتطلب منها دمية من الخيزران. كنت صنعتُها أنا لدوتى خيبا بيديّ هاتين، وأهدتها ابنتي للملكة (خاتى) مقابل عقدٍ من المجوهرات الثمينة، عندما جاءت لزيارتنا بمناسبة تجهيز(دوتى خيبا) للزواج، ووعَدَت الملكة (خاتى) بأن تعيد لها تلك الدمية فيما إذا أصبحت أماً لتهديها لطفلها الاوّل. فإذا ما رأت (دوتى خيبا) الدمية التي صنعها أبوها لها فسيرتاح قلبها لزيارتك وستثق بك ثقةً عمياء».

أردت التأكّد من أن سلسلة أفكاري مكتملة الحلقات، وأن خطة الملك مكتملة أيضاً، فسألت:» ولكن هل ستعطيني الملكة (خاتى) الدمية إن

كانت لا تزال موجودة لديها؟» فأجاب: «الملكةخاتى لن ترمي هديةً من بنت ملك ميتان دفعت من أجلها عقداً من المجوهرات... هذا وإن معظم النساء ينخدعن ببريق الذهب وبإظهار المحبة لهن... وحسب معرفتي بالملكة (خاتى) فإنها تحب الرجال الغرباء الأقوياء، وهي تسهر على أن ينعم ضيوفها بشتى أنواع اللذة طوال اقامتهم في عاصمة الهاتيين (هاتوشا)». قال ذلك ومد يده إلى وسادةٍ فأخرج من تحتها قلادةً من الذهب المرصّع بالجواهر تكفي لإغراء مدينة تعج بالنساء للقتال من أجلها وأعطاني اياها. فقلت: «مولاي، وكيف أصل إلى الملكة خاتى؟» فحرّك رأسه الكبيريمنةً ويسرةً وقال: «بقي أن ترسلني عوضاً عنك! لا بأس ...لا بأس... سأخبرها باستخدام الألغاز بأن تاجراً سيزورها من قبلي..». فقلت على الفور: «بل طالب علم يامولاي، فأنا لا أفهم في التجارة جيداً» فقال: «لا بأس، سأخبرها بذلك». ولم أعلم كيف سيخبرها ملك ميتان وهي في مدينة (هاتوشا) عاصمة مملكة (هاتي) قبل وصولي إليها... ثم سألت: «وماذا عن الملك الهيثي يامولاي؟» فابتسم قليلاً وأجاب: «إنه منصرف عنها في أغلب الأحيان لكثرة ما لديه من جواري حسناوات ومشاكل مع الرعية... أتعلم ما أحَبُّ هواياته في القنص؟» فقلت: «لا يا مولاي». فضحك ضحكةً عالية الصوت وقال: «إنه يحب صيد عشاق الملكة (خاتى). وعندما يقتنص أحدهم فإنه يشويه على نارٍوسط المدينة (هاتوشا) كما تشوى الخنازير والخراف في معسكرات الجنود... لا تخف ولا تهتم كثيراً لأنه سيكون هناك من يفتح لك الأبواب

ويهتم بصحتك، من دون أن يعلم شيئاً عن مهمتك».

صعقت حقاً لما سمعته من أخبار ملك (هاتي)، ولذا استعجلت في طلب مخرجٍ للهروب من عند الملك، فقلت ومعدتي تسعى لإلقاء ما فيها: «هل تنصحني يا مولاي قبل ذهابي؟» فأغمض عينيه برهةً وقال: «إن جواسيسي في أرض الفراعنة سيكونون لك عوناً لرؤية ابنتي دوتى خيبا، ولكنك قد لا تتعرّف عليهم أبداً، وإنما هم سيعلمون بقدومك إلى تلك الديار... فهل تقسم لي على أنك ستقوم بمهمتك، حياً بقيتُ أم ميتا؟» فقلت: «نعم أقسم ولكن بماذا عليّ أن أقسم؟» فأجاب:«بإله الشمس (خور) وإلهة الشمس (آرينا) أو بإله الريح والطبيعة (تيسوب) أو بأي إلهٍ مما يعبد هذا الشعب في معابد (ميثرا) و(هيبات) و(فارونا) و(آندرا) و(ناساتيا)..».، فجلستُ أمامه على إحدى ركبتيَّ وطأطأت رأسي له وقلت: «أقسم يا مولاي بالذي خلقني كما خلق أبي وأمي أن أنفّذ المهمة التي كلفتني بها قدر استطاعتي، وإن مت من أجلها، سواءً بقيتَ يامولاي حياً أم رحلتَ إلى مملكة الشمس الأبدية». فربت بيده على كتفي وقال: «أحسنت اختيار الإله الذي تقسم به... أحسنت...انتبه جيداً لخطواتك واحذر ممن تحسن إليهم، فالوردة التي تسقيها ماءً قد تؤذيك بشوكها، والأفعى التي تنقذها من الفخ قد تلسعك... » ثم أضاف قائلاً: «أعتقد أن عليّ الآن الذهاب إلى قاعة الاستقبال، فقد حان موعد حضور الوزير الأول ومراسلي النقاط الحدودية الذين تعثروا في الوصول إلينا في النهار».

وهنا فهمت أن ملكنا (توشراتا) لايعترف بكل تلك الآلهة التي يعبدها

شعبه، إلاّ أنه لايملك الشجاعة والقوة الكافية للتخلص منها ومن معابدها وكهنتها الأقوياء والذين يمارسون السحر بشكلٍ مرعب حقاً على الملك وكل أتباعه الأقربين، ويخافهم الشعب أشد الخوف.

ما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي أتبع الفارس ذي الرداء الأسود من جديد، وسط قهقهة الجنود والحراس حول نارٍ عظيمة أسفل القصر الملكي، وليس في عقلي شيء آخر سوى تصوراتي عن بلاد الفراعنة وعن آلهتهم وعظمة العمران الذي ينجزونه في تلك الأرض المصرية الحارة، وسعة بحورهم في مجالات الهندسة والطب والسحر والنقش وفلسفتهم عن الحياة والموت، وكذلك تصوري عن الدمية التي صنعتها أيادي ملك ميتان لابنته (دوتى خيبا) وهي في صغرها، حتى رأيت خيالها يرتسم على الجدران التي تضيئها النار الموقدة في ذلك الممر الرطب، وهي تحرك لعبةً في يدها، وشعرها الأسود يهتز على كتفيها، في حين تعكس عيناها ألسنة لهيب النار.

- 2 -

كان علي الخروج من (واشو كاني) دون اثارة انتباه الناس، فالجدران لها آذان والشوارع لها عيون، والمرء يخاف حتى من ظله، وكان علي وضع مخططٍ لطريقي صوب عاصمة الهاتيين (هاتوشا)، التي تقع في اتجاه الغرب وليس في اتجاه البلاد المصرية، الواقعة في الجنوب، فقلت للفارس المرافق لي في سواده المخيف: «هيا لنجهّز ما نحتاج إليه لسفرنا إلى هاتوشا». فسأل الفارس بكلمة واحدة مستغرباً».هاتوشا؟» فأجبت دون أن يعلو صوتي حتى لا يسمعنا مَن على مقربةٍ منا من الجنود والناس: «نعم، هاتوشا. ولقد سمح لي الملك بأن آخذ ما أرغب من فرسانٍ مرافقين وخدم». فقال بلطف: «لن تحتاج إلى فرسان مرافقين سواي يا سيدي». وفيما بعد طرحت على نفسي قبيل النوم ذات السؤال: «هاتوشا؟» وكان الجواب هو أني أسافر إليها لسببين، الأول هو للحصول هناك على دمية للأطفال، إذ بدونها لن تتأكد الأميرة الميتانية (دوتى خيبا) من أنني مبعوثٌ سري قادم إلى مصر من طرف أبيها، والثاني هو التمويه على المرحلة الثانية من طريقي صوب وادي النيل، إلى أرض الفراعنة، عبر فينيقيا أو عن طريق بلاد سوريانا التي تعصف بها الاضطرابات والقلاقل أو عن طريق

البحر الذي لا تطيقه معدتي، مع اتخاذي الحذر التام كي لايعلم أحد في (هاتوشا) أيضاً شيئاً عن هدفي النهائي من هذه المغامرة الكبيرة، فإن هجوم المجرمين عليّ وعلى الفارس (باد) قبل وصولنا إلى المدينة قادمين من منزل أبي، جعل الملك (توشراتا) أيضاً يفكّر في مزيدٍ من التمويه على سفرنا إلى بلاد (كيميت).

دفعتني رغبةٌ عارمةٌ للذهاب إلى معلمي في اللغات (خور بَرَست – عابد الشمس)، الكاهن الكبيرلمعبد إله الريح (تيسوب) الذي يسميه أقرباؤنا الجبليون (ڤايو) و(بايو) عساه يعطيني فكرة عن أقصر وأفضل الطرق صوب (هاتوشا)، فوجدته في حوض ماءٍ ساخنة بين جاريتين عاريتين تهتمان بتدليك جسده الضخم وباسقائه خمراً في كأسٍ زجاجي غريب الشكل، حيث يتم صنع ذلك الخمر في القرى المحيطة بهاتوشا من العنب الأسود، فلمحني من خلال البخار المتصاعد من الحوض الدائري الكبير، وقال: «تعال انضم إلينا يا (لاوى هوري)، يا أذكى وألطف تلاميذي على الاطلاق». فقلت له بعد أن جلست على أريكة جميلة من المرمر الأبيض مفروشة بالوسائد الناعمة الحمراء والبرتقالية الألوان على حافة الحوض في مواجهة معلمي: «سيدي، اعتذرلمجيئي إليك وأنت تبغي الراحة والسكينة في يوم عطلتك هذه، ولكني مررت بالقرب من دارك فشعرت برغبةٍ حادة في القاء التحية عليك». فضحك ضحكةً اهتز بها بطنه المنتفخ من كثرة ما فيه من دهون مكدسة وخمور معتّقة، وقال: «التلاميذ الأذكياء لا ينفكون عن تذكّر معلميهم عند الحاجة، فهاتِ ما عندك من الأسئلة

والمشاكل بدون مقدماتٍ زائفة مختلقة، إذ لدي الكثير مما أرويه لك عندما نجلس إلى طعام الغداء معاً. آمل أن يكون لديك متسع من الوقت اليوم».

فقلت: «معلمي الكبير، أنا وصديقٌ لي تجادلنا البارحة حول أقصر الطرق وأشدها أمناً صوب عاصمة الهاتيين (هاتوشا)، فاختلفنا على ذلك، فهل تدلني على أسهل وأفضل طريقٍ إليها؟» فقال دون أن يفكر في المسألة طويلاً:» أفضل الطرق وأحسنها أمناً هو أن تذهب إلى مدينة كركاميش غرباً، وهناك تركب مركبةً نهرية وتتجه شمالاً في نهر (بورانتو) باتجاه مدينة (إيسووا) آخر الدرر الميتانية في الشمال حتى موازاة مدينة (نيسا) الهيتية، فتسير غرباً إلى المدينة، ثم من هناك تتجه شمالاً فتعبر نهر (هاليس) الذي يقع بين (نيسا) و(هاتوشا). وهذه الطريق أفضل لأنها محروسة باستمرار من قبل عساكر الميتانيين ثم من قبل أقربائنا الهاتيين وعليها تتحرك القوافل التجارية يومياً بين مملكتي (ميتان) و(هاتي)».ثم نادى بصوتٍ جهوري، أن يأتوه بشرابٍ لذيذٍ، فإذا بشابٍ طويل ورفيع القامة يخرج من بابٍ خلفي مطلٍ على مكان الاستحمام وعلى إحدى يديه طبقٌ خشبي رقيق عليه كوبٌ فخاري كبير وقدحان من البلور المرصّع، وقبيل الوصول إلى حيث أجلس، تزحلقت قدماه بسبب زيتٍ للغسل كان قد انسكب على المرمرمن دون أن يراه، فاندفع نصفه العلوي إلى الأمام وتطاير الطبق من يده، وكاد يقع على وجهه في حوض الماء، وترتطم قدماه بالدرجات الحجرية إلاّ أنني أمسكت به بسرعة وأنقذته من وقوع لابد وأنه كان سيؤذيه جداً، فصرخ معلمي الكبير وقال بأنه سيعاقب الشاب

بعشرين جلدة حتى يتعلّم كيف يمشي من دون أن يفقد حياته.

شكرت الكاهن (خور بَرَست) ورجوته أن يعفو عن الشاب المسكين هذه المرّة فوافق بعد تردد، فإذا بالشاب يتمتم بالشكر للكاهن ولي وينصرف بسرعة ليحضر الشراب من جديد، إلا أنني اعتذرت وحاولت الافلات من بين يديه لأن المكوث عنده سيطول بسبب أحاديثه الشيقة التي يؤدي كل حديثٍ منها إلى الذي يليه دون انقطاع. فاستأذنته للانصراف، فهز رأسه موافقاً، ثم قال بصوتٍ عالٍ لايتعدى خطوتين عن الحوض الذي يتصاعد منه البخار الممتزج بالعطور: «لا تنسى أن تُحضِر لي معك بعض رقائق الكتابات اليونانية التي يجلبها معهم تجار بلاد آرزاوا من غرب بلاد الهاتيين، فاليونان، هذا الشعب الصغير الذي قفز حديثاً إلى مسرح المدنية، منطلقٌ لبناء حضارةٍ جديدة مختلفة عن حضاراتنا الشرقية، قائمةٍ على الفلسفة والعقل، وليس على تكريس الأمجاد وتخليد الملوك، كما نفعل». وعندما وصلت إلى بوابة المنزل سمعته يقول بصوتٍ مبحوح: » انتبه للثعالب والذئاب ولا تعد إليّ عارياً». ففهمت أنه يريدني اتخاذ الحذروهو لا يقصد الثعالب والذئاب الحيوانية بالتأكيد. وكان آخر ما سمعته منه: «ماذا ستفعل في هاتوشا التي يسودها طاغية لايرحم؟» ولكني لم أرد عليه لأنني ما أردت أن أكذب على أهم معلمٍ ممن علمني شيئاً في الحياة.

بعد أن جهّز الخدم الملكي لي ما أحتاج إليه في الطريق من الطعام ووسائل الراحة والطهي وتم تزويدي من قبل ضابطٍ مقرب للملك جداً بالكثير

من القلائد والأساور وقطع الذهب في تلافيف قماشية صغيرة، يمكن إخفاءها في سترتي من الطرف الداخلي.

انطلقنا في فجر يومٍ ربيعي لطيف الأجواء، أنا والفارس الملثم الصامت على جوادينا، يتبعنا خادمان على بغلين محملين بحوائج وقدور وأطعمة معدة في أكياس صغيرة من جلود البقر، منها اللحوم والفواكه المجففة والجبن واللبن وأنواع مختلفة من الخبز، ومنها الخبز الرقيق الذي أحبه جداً بسبب السمسم المنتشر عليه، إضافةً إلى العديد من قراب الشراب المصنوعة من جلود الماعز. أما الماء فلم تكن لنا حاجة بنقله معنا لكثرة ما في طريقنا عبر السهول الفسيحة من ينابيع وأنهار. وبدا لي أن كل شيءٍ على ما يرام، سوى أنني لم امر على أبي وأمي، وهذا ما آلمني، حيث كانت أوامر الملك صريحة بصدد عدم الذهاب إلى داري. فعقدت الآمال على عودةٍ سريعة للقاء أحب الناس إلي، وبخاصة أمي التي ما كانت تطيق فراقي ليومٍ واحد.

انطلقنا ساكتين وأنا أفكّر فيما إذا كان ثمة أبٍ وأمٍ للفارس الذي شرع في مرافقتي في سفرٍ لاندري هل نعود منه، وسرنا دون مصاعب صوب مدينة (كركاميش) التي تبعد عن (واشوكاني) غرباً مسافة يوم أو أكثر على ظهور الخيل حسب تقديري. وكنت متشوقاً لرؤية التماثيل الضخمة في تلك المدينة التي كانت تعتبر أول محطة تجارية هامة بين (واشوكاني) صوب بلاد الهاتيين وآرزاوا غرباً، وظل الهاتييون يطمحون في السيطرة عليها وضمها لمملكتهم بحد السيف، وكنت قد سمعت الكثيرمن

القصص عن عماراتها الجميلة وهياكل الملوك القدامى ذوي الرؤوس الحيوانية كالأسود والصقور والافاعي، كما سمعت عن مغنياتها الجميلات اللواتي يغنين طوال الليل ويرقدن في أحضان المسافرين، دون أن يسرقن نقودهم التي يخبئونها في أطراف أرديتهم وفي أحزمتهم وأحذيتهم الجلدية السميكة.

سارعنا في المسير حتى نبتعد عن (واشوكاني) بسرعة قدر المستطاع، دون أن نلفت إنتباه المسافرين الآخرين والعائدين إلى المدينة، وبالفعل فقد قطعنا مسافةً طويلةً دون أن يبدو على خيولنا التعب والارهاق، وتوقفنا في مكانٍ ذي شجرٍ كثيف بالقرب من قرية متلاصقة المنازل على تلة عالية، وكأنها في مجموعها حصن حصين من الطوب وجذوع الشجر الغليظة والقديمة، تكاد كل بيوتها بدون نوافذ، وتتجه أبواب منازلها جميعاً صوب الجنوب، بحيث تتراصف البيوت خلف بعضها بتراتبٍ لا مثيل له كدرجات القصور، وفي حين بدأ الخادمان في اعداد الطعام لنا، شرع الفارس الملثم في تفقّد مكان استراحتنا، وكأنه كان يتوقع هجوم أشقياءٍ علينا من جديد، ثم عاد وجلس على صخرة مقابل الصخرة التي أنا جالس عليها، فتشابكت أصابع يديه القويتين المحيطتين بركبتيه، وظل صامتاً كعادته دون حراك.

سألت الفارس الذي بدا لي أشدّ اقتراباً مني عن ذي قبل: «ما اسمك؟» فأجاب بعد برهة من الصمت: «باد». فقلت مازحاً: «أي الريح أم أنك باهوز (عاصفة)؟» فأجاب مبتسماً: «أنا اسمي باد، ولكن قد يتحول

(باد) إلى (باهوز) في كل لحظة». وقبل أن أخبره عن اسمي قال بصوتٍ خافت: «أنا أعلم عنك ياسيدي الكثير وأعلم أنك تدعى لاوي هوري». ففكرت في شأن هذا الذي يعلم عني الكثير ولا أعلم عنه شيئاً سوى اسمه، وتوقعت حينذاك أن الطريق الطويل الذي أمامنا والاستراحات التي سنقضيها معاً ستزيدني معرفةً بمن وضع الملك الميتاني حياتي رهن سيفه، إن شاء صان حياتي من كل شروإن شاء قضى عليّ، ثم تذكرت أني طلبت بنفسي من الملك مرافقة هذا الفارس لي، وفي الوقت الذي كانت تراودني هذه الأفكار والخواطر جاء أحد الخادمَين وتكلَم كلاماً لم أفهمه في البداية، ثم علمت أنه لدى جمع الحطب لإيقاد نارٍ لتحضير الطعام قد رأى أحد رجال القصر الملكي الميتاني مع ثلةٍ من الفرسان متجهين صوب مدينة كركاميش التي نحن ذاهبون إليها أيضاً. وفي حين كان ما سمعته عن تلك الثلة من الفرسان بالنسبة لي أمراً اعتيادياً، لاحظت أن وجه الفارس (باد) قد تجهّم كمن سمع خبراً سيئاً للغاية، فنهض فجأة من مكانه، فسألته عن سبب امتعاضه، فقال لي بأدبٍ جم: «هذا الرجل من أتباع الوزير الأول، وقد حذَرني الملك من كل من له علاقة بوزرائه وأتباعهم». فقلت بعد أن نهضت من مكاني أيضاً: «لا أعتقد أن أحداً يعلم عن سفرنا شيئاً». فأجاب والارتباك بادٍ على وجهه: «هذا هو اعتقادكم يا سيدي، ولكن الوزير الأول يضع جواسيسه خلف كل بابٍ من أبواب القصروكل ستار من ستائره، وفي كل زاوية من زاويا المدينة، ليعلم كل شيءٍ عن زيارتك للملك في جناحه الخاص، وهذا خطير فالوزير له

علاقةٌ مع المتمرّد الشقي (أوتخي)، أخطر أعداء الملك». فسألت: «وما العمل الآن؟» فقال: «لقد نبّهني مولاي الملك إلى احتمالٍ كهذا، لذا علينا تغيير مسارنا والوصول قبل هذه الثلة من الفرسان إلى مدينة كركاميش، دون أن يعلم رجل الوزير الأول عن مكان اقامتنا فيها، وكذلك عن لحظة خروجنا منها. إنه يعلم عن خلودنا إلى الراحة هنا الآن، ولكنه لا يتوقع أن نسبقه بسلوكنا طريقاً أخرى. هيا يا سيدي، علينا عدم تضييع وقتنا في النقاش حول ما يجب أن نقوم به».

ما أن قال الفارس جملته الأخيرة حتى حمل الخادمان الطناجر المعدة للطبخ وامتطينا الجياد والبغال بسرعة، وانطلقنا وراء الفارس الملثم والريح التي صارت أعتى من قبل تلفح وجوهنا، ولكن كنا قد سلكنا طريقاً غير طريق القوافل، وهذا يعني أن المخاطر أكبر لأن الأشقياء المجرمين كانوا يختبئون بين الصخور والأشجار، بعيداً عن الطريق العام، ولا يظهرون إلا قبيل إقدامهم على عملية نهب أو هجوم مفاجئ على المسافرين والقوافل التجارية. ولذا نظر (باد) مرة نحو الوراء من على صهوة جواده الذي بدا لي وكأنه غراب يطير في الفضاء وليس جواداً يحمل رجلاً على ظهره، وصاح بنا جميعاً: «هيا أسرعوا الخطى» وفي الحقيقة لم يكن لدينا من سبيل سوى الإسراع عبر السهول الواسعة الآن للابتعاد عن ذلك المسلك الخطير والوصول إلى مدينة كركاميش قبل من بدأنا نظن أنهم مرسلين لمتابعتنا أو هم وراءنا للتخلص منا، وبدون أن يعلموا عن إقلاعنا من مكان استراحتنا.

بعد سباقٍ طويلٍ مع الزمن أطلت علينا كركاميش بمداخنها التي تنفث الدخان الكثيف وبقلعتها القديمة التي بدت وكأنها على وشك الانهيار لكثرة ما شهدته من هجماتٍ متلاحقة للأعداء، ورأيت البوابة الشرقية الكبيرة والمفتوحة للمدينة ذاتالمصراعين الخشبيين الثقيلين المطعّمين بمساميرَ حديدية كبيرة، إلا أن الفارس الملثم تابع مسيرته ماراً من أمامها صوب الغرب ونحن لا نزال من ورائه، لنمُرّ على عدة جسورٍ خشبية صغيرة مضى عليها حين من الدهر فتآكلت أطرافها واسود لون خشبها الذي امتص الكثير من الماء فصار يبدو سميكاً وهشاً مع الأيام، ثم انحرفنا إلى بوابةٍ أخرى مفتوحة على مصراعيها من جهة الجنوب، كانت تقع بالقرب من النهر العظيم (بورانتو)، فنزل الفارس عن صهوة جواده ونزلنا أنا والخدم أيضاً، وسرنا وراءه عبر البوابة حيث أوقفنا بعض الحراس المدججين بالرماح والتروس والسيوف والخوذات المعدنية ذات القرون الحادة المعقوفة والطويلة، كأنهم ثيران وحشية، وقال كبيرهم وهو يحدّق في وجوهنا التي أعياها السفر: «يبدو أنكم مرهقون من الركوب. هل أنتم من سوريانا؟» فأجاب (باد) بالإيجاب بهزةٍ من رأسه، ووضع في إحدى يدي الضابط قطعة نقدية التمعت، فظننت أنها ذهبية. فنظر إليها الضابط نظرةً فاحصة وقال: «هل لديكم رغبة ما سوى المكوث في المدينة؟» فأجاب الفارس: «نعم. إن سألكم أحد عنا فقولوا إن السوريين لا يحبون كثرة السؤال عنهم». فضحك الضابط ضحكةً اشبه بنهيق حمار، وضرب بيده على مؤخرة جواد الفارس، وقال: «أنتم مضحكون أيها

السوريون. السوريون لا يحبون كثرة السؤال عنهم... ها...ها... ها... هذا أمر ممتع حقاً».ونظرت إلى الفارس الذي أدار وجهه نحو الوراء، فابتسم لحظةً، وكأنه يقول:» هذه الثيران الغبية صدّقت أننا سوريون».

أشد ما استرعى انتباهي كان المعبد المرتفع في شرقي المدينة المنخفضة وذلك الأسد المجنح الضخم من البازلت الأسود الذي سيبقى في مكانه مهيباً وسط كركاميش عصوراً طويلة عبر الزمن، يحكي عن عظمة هذه المدينة التي يرتادها أصحاب المال والقوافل التجارية من كل مكان، من سوريانا وميديا ومصر وفينيقيا وبابل، ومن هاتوشا وواشوكاني وآلالا وخلمان في الجنوب الغربي منها، وسواها، هذه المدينة التي لا تشعر فيها بالغربة أبداً وتتمتع فيها بشتى الملذات وتعبق برائحة الحياة التي تجري مياهها في عروق ساكنيها وضيوفها. وتذكرت أثناء ذهابنا إلى خانٍ لإيواء المسافرين قول معلمي (خور بَرَست) لي مرةَ: «المدن التي تقع على ضفاف الأنهار العظيمة أو البحار أشد حيويةً من المدن البعيدة عنها، كالغانيات اللواتي تتمتعن بالحب الذي لا يرتوي الإنسان منه أبداً».

لم يكن بمقدورنا التعرف جيداً أثناء غروب الشمس على هذه المدينة التي تعود في بداية عمرانها إلى أزمنةٍ سحيقة جداً، وحافظَت على وجودها رغم الهجمات العديدة للملوك البابليين والهيتيين، واعتمدَت أسلوب الانفتاح السياسي لكسر شوكة الغزاة ولتطوير اقتصادها ولمرور القوافل التجارية عبرها، ينعمون فيها بالأمن والراحة من أسفارهم المضنية والخطيرة. وفي الحقيقة فإن مدينة كركاميش التي توالى على حكمها غزاة

كثيرون ما كانت لتصمد أمام النكبات والحروب لولا الاهتمام الفائق لشعبها بالإنجاب وبالزراعة والرعي، فكانت ذات اكتفاءٍ غذائي على الدوام، رغم نهب الحكام والغزاة عبر الزمن، وصدّق من قال بأن التنمية تحقق الأمان والاستقرار للشعوب، مثلما الأمن والاستقرار يحققان التنمية.

كان صاحب المأوى الذي أوينا إليه مازحاً ومبتسماً حتى في آخر الليل وبعد يوم كاملٍ قضاه في خدمة النزلاء القادمين من كل حدبٍ وصوب. وشعرنا بأننا من علية القوم بين ذلك الحشد الكبير من ضيوفه التجار الأثرياء، ولربما لأنه شعر بأننا غرباء عن المدينة، قد تطول اقامتنا لديه فيستفيد من وجودنا استفادةً كبرى، حيث لم يكن يعلم أننا سنتابع مسيرتنا مع الفجر التالي مباشرةً. لقد عرض علينا الغانيات العاملات في الفندق اللواتي كن يتنقلن بين هذه الجماعة وتلك من النزلاء، وهن شبه عاريات ومبتسماتٍ دائماً كخادمات متعةً جسدية بأرخص الأثمان، إلا أن طبيعة مهمتنا وحذرنا الشديد من اقتراب الناس منا أكثر من الضروري قد يفسد علينا سفرنا واقامتنا في تلك الليلة، جعلنا نشكره برفقٍ ونضع بعض الدراهم في أيادي الغانيات، دون أن ننال منهن وطراً.

قبيل ذهابنا إلى مضاجعنا سأل الفارس (باد) الخادم الذي كان قد أبلغنا عن مرورثلة الفرسان الميتانيين بالقرب من مكان استراحتنا فيما مضى، عما إذا كان كبير ذلك الفرسان قد تعرف عليه أو قال له شيئاً، فأجاب الخادم الذي بدا لي رجلاً متزناً في الأربعين من العمروذي تجارب وعانى من آلام شديدة في حياته: «سيدي، لقد كنت خادماً في بيت الوزير الأول

قبل انتقالي بأمرٍ منه إلى خدمة القصر الملكي، وكان كبير هؤلاء الفرسان، وهو رجل قد فقد عينه اليسرى في الحرب ضد البابليين، يتردد كثيراً على بيت الوزير الأول، ولذلك فهو يعلم جيداً أني من خدام الملك، لقد نظر إليّ باستغراب، ولكنه لم يسأل عما أفعله بالقرب من طريق القوافل بين مدنيتي واشوكاني وكركاميش، دون أن أكون في خدمة الملك أو في خدمة أحدٍ من أتباعه». فنظر إلي الفارس نظرة تساؤل، ثم قال: «أليس هو الذي هاجمنا قبل وصولنا إلى (واشوكاني)؟... برأيي، كبير الفرسان يعلم تماماً عن شأننا، لذا علينا التحايل عليه،» فسألته: «وكيف نتحايل عليه؟» فأجاب: «نترك الخادمين يتجولان صباح الغد في أسواق كركاميش، وننطلق نحن قبل أن تطلع الشمس على المدينة. فلا بد وأن يتجول الفرسان في المدينة غداً ليعلموا عما إذا كنا قد وصلنا إليها أم لا، وإذا رأوا الخادمين فسيلحقان بهما ليهتديا إلى مكان تواجدنا. وفي نهاية الأمر سيعود الخادمان إلى واشوكاني مع قافلةٍ من القوافل ليخبرا الملك بأننا ملاحقون من قبل ثلة من الفرسان الذين لا ندري ما هدفهم من وراءسفرهم إلى كركاميش».

دهشت فعلاً لذكاء الفارس وقدرته السريعة على إيجاد مخرج لنا، فوافقت على رأيه ودخلت إلى غرفتي لأخلد إلى الراحة والنوم، إلّا أن الهواجس استبدت بي ورحت أتقلب في فراشي يمنة ويسرة، دون أن أنام حتى طلوع الفجر، حيث سمعت طرقاتٍ خفيفة على باب غرفتي، وإذا بي أرى (باد) جاهزاً كعادته بثيابه السوداء وسيفه الطويل على يساره،

فأسرعت إلى غسل وجهي بالماء البارد، وارتديت إزاري وحملت سيفي، ووضعت قدميّ في الحذاء، وما هي إلا لحظات ونحن نودّع صاحب الخان الذي شكرنا على سخائنا وتمتم بدعاءٍ غير مفهومٍ لنا.

سأل صاحب الخان ذي الكرش المنتفخ والذقن الكثيفة الحمراء ونحن نخرج من عنده: «وماذا عن خادميكم؟» فقلت: «دعهما يتمتعان بنومهما فقد تعبا البارحة جداً، وسيلحقان بنا فهما يدريان في أي ناحيةٍ من المدينة سنكون ظهر اليوم». ويبدو أنه لم يفهم تماماً السبب من وراء خروجنا من فندقه فجراً وتركِنا خدامنا لديه، إلا أن المال الذي أعطيناه كان كافياً لأن يقتنع بكل جوابٍ منا. وخارج الفندق كان ينتظرنا سائس بجوادينا وحوائجنا التي على صهوتيهما، فامتطينا الجوادين بعد أن أعطيت السائس قليلاً من النقود المعدنية وانطلقنا صوب مرفأ قريبٍ كان على نهر (بورانتو) العظيم.

عندما ارتفعت الشمس في السماء بقدر ذراعين كانت سفينة نهرية صغيرة تحملنا مع جوادينا وبعض المسافرين الآخرين ودوابهم وتمخر في النهر باتجاه الشمال، إن قلة النوم ليلاً وأشعة الشمس القوية والدافئة التي كانت تسقط علينا من ناحية الشرق والنسيم العليل الذي كان يلفح وجهي، والهدوء التام على ظهر السفينة، في صباح ذلك اليوم، كل ذلك أرغمني على أن أغمض أجفاني وعدم الاستمرارفي التمتع بمرأى المناظر الجميلة على ضفتي النهر، فانخفض رأسي رغماً عن مقاومتي الضعيفة حتى لاصق فكي السفلي صدري العاري، وسرعان ما استبد بي نعاس لا

مثيل له. ولا أدري كم طال نومي وأنا جالس على طرف مقعدٍ خشبي في الطرف الأيمن من سطح السفينة. وكل ما أتذكره من تلك الجلسة حينئذٍ كان صوت ولدٍ ضعيف الجسم يناهز العاشرة من عمره، وهو يصرخ في الاسماك التي كانت ترافق السفينة سعياً وراء ما يرميه المسافرون من الفضلات. ولا أدري إلى هذا اليوم، أكنت أنا ذلك الولد أم أنه كان موجوداً معنا على السفينة فعلاً، إلا أن صوته الذي كان أشبه بطنين النحل في أذني لا يزال يذكرني بأيام صباي حيث كنت احاول مع أصدقائي اصطياد الاسماك من نهر خابير في معظم أيام العطلات.

حاولت أن أنعش صدري بأمنية في العودة إلى بيتي ووالدي، حال انهائي مهمتي، ولكن حاجتي إلى النوم كانت أكبر من قدرتي على إعطاء جوابٍ لتساؤلي وعن الحلم بالعودة السريعة.

مرّ وقت طويل كما يبدو وأنا غارق في حلم غريب، فقد كنت أراني مطلاً من صخرة عالية وعارية على وادٍ عميق كثيف الشجر، ومن ورائي يقف عملاق ضخم الجسم يدفعني صوب الأمام ليرمي بي إلى ذلك الوادي، وهو يقول: «لو تعلم ما بين ذلك الشجر لرميت بنفسك دون حاجة لك بي».

في تلك الأثناء بالذات فاحت بالقرب من أنفي رائحة سمك مشوي، ففتحت عيني بالكاد لأرى يداً كبيرة تمتد إلى مقربة من وجهي، فذعرت حقاً، وإذا بشيخ عجوز ذي شعر أبيض وطويل يغطي كتفيه، وذي عينين غائرتين في جحرين كأنهما مغارتان متجاورتان، بينهما أنف كبير،

وأسنان بيضاء قوية، يقدم لي طبقاً خشبياً عليه سمك مشوي، وهو يقول: «عزيزي... عزيزي... لقد نمت طويلاً، ولا بد أنك جائع الآن». ورأيت (باد) واقفاً بجانبه، ويأخذ الطبق من يده، ويقول: «هات عنك يا عم، أنا حارسه الشخصي». ففركت عينيّ براحة يدي وكأني أزيح مخاوف حلمي بذلك، ونظرت حولي بإمعان محاولاً استرداد ما غاب عني منذ أن غلبني النعاس وخلدت للنوم فوجدت أني لا أزال على ظهر تلك السفينة التي تمخر نهر(بورانتو) صوب الشمال في الاتجاه المعاكس لسيلانه، والشمس قد اجتازت منتصف السماء، فنهضت من مكاني وشكرت الشيخ الذي كان يرتدي إزاراً أبيض اللون وبيده اليسرى عصاً طويلة ذات رأسٍ يشبه رأس نسر، واتجهت صوب مقدمة السفينة، حيث إناء خشبي ضخم لأغسل وجهي ويدي من الماء الذي فيه، وعدت لأجلس في المكان الذي كنت قد نمت فيه...

أومأت للشيخ العجوز أن يجلس بجانبي. ومد الفارس (باد) طبق السمك إليّ وهو يقول: «هذا من كرم الشيخ آزر الذاهب إلى هاتوشا مثلنا». فاستغربت كيف يذكر (باد) وجهة سفرنا أمام شخصٍ لا أعرفه، فلاحظ (باد) الاستغراب على وجهي، فسارع إلى تبرير ما قاله. فذكر لي أنه تعرّف على الشيخ منذ أن أخلدت للنوم. وكان الشيخ كما حدثه بنفسه طبيباً لملك الهاتيين الراحل منذ سنواتٍ طويلة، ثم ترك عمله لينصرف إلى التعبد والتفكّر في الكهوف والجبال، وأنه أحد الهوريين الجبليين مثل أبي ومن أفضل العائلات في مملكتي ميتان وهاتي على الاطلاق، وهو لا يتردد

على أي معبد، ويعتقد بأن الذي خلق الأرض والسماء، والشمس والقمر وكل الكواكب والمخلوقات أكبروأعظم من أن يسعه أي معبدٍ كان، أو أن يتجسّد في أي صورةٍ كانت، كما أن شيخنا يجيد شوي أفضل أنواع السمك.

سألتُ الشيخ الذي كان ينصت للفارس مبتسماً وكأنه يؤكّد على صدق كلامه: «يا عم، هل تفسر الأحلام أيضاً؟» فأجاب: «الأحلام تعبير عما يختلط في فؤاد الإنسان من شجونٍ وأمنياتٍ ممتزجةٍ بما يمر عليه أو يتوقع أن يمر عليه من أحداث... فهل رأيت حلماً مرعباً أم جميلاً؟» فسردت عليه ما حلمت به قبل ذلك من إطلالتي من أعلى جرفٍ عالٍ، وخلفي عملاقٌ قوي يدفعني، فأجاب: «أنت قادم على ما ينتظرك مما نسميه قدراً مجهولاً، فالإنسان لا يدري ما سيلاقيه، ولذلك كان الوادي أمامك كثيف الشجر لا تعلم ما بين أشجاره وتحت أغصانها المتشابكة، والعملاق الذي كان يدفع بك من خلفك هي الرغبة الجامحة لك في استكشاف المستقبل أو المصير الذي ينتظرك،» وسكت برهة ثم تابع: «ولكن بإمكانك تغيير مسارك بنفسك!» فسألته: «كيف؟» ورغبة جامحة قد سيطرت عليّ لمعرفة المزيد عما يقوله هذا الشيخ الزاهد في الحياة، الذي لا يملك سوى إزاره وعصاه كما يبدو، والذي ترك قصور الملوك وراءه ليعيش في البراري. فأجاب بهدوء يشبه مرور السفينة التي تقلنا من بين الهضاب العالية والأشجار الباسقة على ضفتي النهر، دون أي قرقعة تحدثها: «أن تعودَ إلى المكان الذي جئت منه وتدع السفينة تتابع مسارها من دونك مثلاً».

شعرت بأن هذا الغريب ينظر إلى أعماق فؤادي وما فيه من أفكار ووساوس، وأنه يقرأ في أعماق نفسي بعينيه المرهقتين اللتين انطفأت فيهما شعلة القدرة على الرؤية بهما، فوضعت طبق السمك الذي لم آكل منه بعد جانباً وبدأت بطرح أسئلةٍ عديدة عليه، وكأني أعرفه منذ صغري وأثق به ثقةً تامة. كان مبتسماً طوال فترة جلوسه إلى جانبي وكان يجيب عن أسئلتي العديدة عن الحياة والموت، عن السلطان والثروة، عن الحقيقة والخيال، عن الحب والكره، وعن الآلهة، هل هي موجودة حقاً أم أنها من نسج خيال الإنسان. فكانت أجوبته تملأ فؤادي إيماناً بالإنسانية وحباً للطبيعة وإدراكاً ومعرفة بالحقائق الكونية، إلا أن أشد ما أثار اهتمامي هو تطرقه لموضوع الآلهة، إذ أنه كان مصراً على كونها أدوات كالسيف والرمح وقوس النشاب تم ابتكارها واعدادها من قبل فئاتٍ ذكية وقوية لاستمرار ودوام سلطانهم على من دونهم من البشر.وعندما انتهى من ذلك كله، قلت له: «ولكن يا عم، أنا أشعر في قرارة نفسي بأنه خارج أبعاد الكون وأعماق العقل ثمة منظّم عاقل في منتهى القوة لهذا الكون العظيم المنتظم في حركات كواكبه ونجومه وشمسه وقمره، وتناوب الفصول والأجواء، ونمو النباتات بانتظام وتوالد البشر والحيوانات بشكل بديع». فأجاب وهو يربت على كتفيّ بإحدى يديه الكبيرتين: «هذا السؤال أطرحه أنا أيضاً على نفسي... نعم، هناك كون بديع منتظم لا يمكن أن ينشأ بهذه الروعة والعظمة من مصادفاتٍ وأحداثٍ كونية عشوائية، وهذا ما يحير عقول العلماء والحكماء في كل مكانٍ وزمان. نحن

نأتي إلى هذا العالم مثل الحشرات والطيور وسنابل القمح، لنا دورة حياة قصيرة الأمد، ثم نموت... ولكن لماذا وكيف، فهذا يصعب عليّ الإجابة عنه حقاً».

منذ ذلك اللقاء الممتع بيننا، ازداد حبي واحترامي للعجوز الزاهد، الذي لم أسأله أبداً عن اسمه وأصله وموطنه والذي رافقنا إلى مدينة هاتوشا لا لشراء أو بيع أو لاغتنام مال أو غرضٍ من أغراض الدنيا، وإنما لزيارة صديقٍ عزيزٍ عليه، وحسبما علمت في جلستنا تلك، فإن العجوز الزاهد الذي يحمل معه سلةً كبيرة هو أحد أعلم الناس بالعقاقيروعلاج الأسقام بين هاتوشا وواشوكاني وكيركاميش،..إنه الطبيب المحبوب الذي لا مثيل له، للملوك ولعامة الناس.

بعد حديثنا الشيق الطويل، شرع الناسك العجوز في تقطيع قالبٍ من الجبنة إلى ثلاث قطع، كان قد أخرجها من كيسٍ معلق بكتفه الأيسر، ثم وزّعها علينا، وهو يسألني: «لا تؤاخذني، من أين أنتما قادمان الآن؟» فلم أشأ الكذب على رجلٍ مثله يشع صدقاً وجدية، فأجبت:» من ناحيةٍ في أطراف واشوكاني». فهزرأسه مصدقاً، ثم قال: «واشوكاني التي ترقد على ثرائها كالحمل الوديع على العشب الناعم، لا يدري أن حوله في الغابة ذئاب ضارية».ونظر حوله بتمعّن كمن يبحث عن شخصٍ أو شيءٍ يهمه ثم تابع: «قبيل صعودي إلى السفينة التقيت بعصابة من الفرسان الواشوكانيين الذين كانوا يفتشون الحوانيت وأكواخ الصيادين بحثاً عن فارسٍ واشوكاني مثلك». فسألته بشغف: «وأين صعدت إلى السفينة

يا عم؟» فأجاب:» في اول محطة شمال كيركاميش». فنظرت إلى (باد) مستفسراً بعيني عما إذا كان هؤلاء الفرسان هم ذاتهم الذين نظن أنهم يلاحقوننا، فرأيت تساؤلي مرتسماً على وجهه أيضاً، وقد فغر فاهه وظل دون حراك ولم ينبث ببنت شفة. فقلت له بصوتٍ خافت في محاولة لتقليل حجم الاكتشاف الذي اكتشفه والمخاوف التي استبدت بي على الفور: «هذا لا يهمنا، أليس كذلك؟ ما يهمنا هو أن تمخر السفينة نهربوارنتو صوب الشمال، ومن ثم نذهب إلى مدينة إيسووا آخر المدن الميتانية المتاخمة لبلاد هيتيت». وقال الناسك العجوز: «ما آمله هوأن ننزل من هذه السفينة الخرقاء ودماؤنا لاتزال تجري في عروقنا». ثم سار من عندي متكئاً على عصاه، وكأنه مجرّد هيكلٍ عظمي بلا لحم أو شحم. وبعد ابتعاده قليلاً دنا مني (باد)، وهمس بالقرب من رأسي، وكأنه شعر بخطرٍ مقترب: «سيدي، يبدوأن الفرسان اكتشفوا أمرنا من خلال مساءلة السائس الذي أعطيتَه بعض النقود، أو الخادمين اللذين تركناهما في كركاميش، وأرى أن هؤلاء الباحثين عن فارسٍ ميتاني قادمون بموازاة النهر أو قد يفكرون في أننا على ظهر سفينة ما صوب الشمال». فأجبته: «كلامك صحيح. علينا النزول من السفينة في المحطة التالية واتخاذ طريقٍ بري صوب مدينة (نيسا) التي سنرتاح فيها قليلاً ومن ثم نتابع طريقنا إلى هاتوشا».

سمعت مسافرين يتحدثون بأصواتٍ عالية من مؤخرة السفينة مع قبطانها الذي كان يتودد إليهم قائلاً: «وماذا أفعل عندما يأمر قائد المنطقة العسكرية الشمالية لمملكة ميتان بضرورة منع أي مسافرٍ من تجاوز آخر

مخفرٍ حدودي على النهر إن كان لا يملك إذناً مسبقاً بالسفر ، أخذه قبل ركوب السفينة في كيركاميش». فيرد عليه أحدهم غاضباً، وهو يفرك لحيته الكثيفة: «ولماذا لم تقل لنا ذلك قبل صعودنا إلى سفينتك؟ لماذا تخبرنا بهذا النبأ قبيل وصولنا إلى حدود دولة (هاتي)؟» فيقول كثعلبٍ ماكرٍ وقع في كمينٍ أُعِدّ له بإحكام: «وكيف لي أن أعرف بأن فلاحينَ مثلكم ممزقي الثياب فقراء ليس معهم سوى حميرهم وبعض أكياس الطحين أو البصل مسافرون إلى منابع نهر بورانتو؟ لقد سألتموني عما إذا كنت متجهاً صوب الشمال فأجبتكم بـ (نعم)» فيقول أحدٌ آخر ضخم الجثة يكاد يتفجر وجهه من الغيظ: «لماذا لم يقل لنا أحدٌ شيئاً عن هذا الفرمان السيء؟ فماذا نفعل الآن؟ أنت لم تذكر لنا شيئاً عن صدور هذا الأمر لأنك تريد مسافرين أغبياء على سفينتك، لا أكثر ولا أقل». فأجاب الربان: «أنا لا يهمني من يركب سفينتي، فأنظر إلى أدناها حيث تجد اسطبلاً للحيوانات أيضاً. المهم أن يدفعوا ثمن ركوبهم عن كل محطة على النهر، وكلما اجتزنا واحدةً منها عليهم دفع ثمن الركوب إلى المحطة التالية». وعندما هم الرجل الضخم بدفع الربان بكلتا يديه القويتين إلى الوراء، انطلق (باد) كالسهم باتجاههم، وامتشق سيفه وقال للمسافرين الغاضبين: «هيا إلى مقاعدكم. أنا سأحل المشكلة عندما نصل إلى آخر محطة ميتانية على النهر». فتوجّس المسافرون منه خيفةً ورجع كل منهم إلى مقعده الذي انتفض منه، وكأنهم شعروا بقوة المملكة الميتانية كلها تتصدى لهم من خلال لمعان سيف (باد) أمامهم، وجلسوا صامتين ينظرون باهتمامٍ فائقٍ إلى ملابس

وهيئة الفارس الذي فاجأهم بطلعته المهيبة تلك. فنهضتُ من مكاني وذهبتُ إليهم لإظهار تضامني مع مرافقي الذي حياتي ومماتي في يديه، هذا الفارس الشجاع الذي تخاف منه جماعةٌ من رجالٍ أشداء وضخام الأجسام، فالتقيت هناك بالناسك العجوز أيضاً، الذي ظهر من خلف سارية، فسألت وعيناي لا تفارقان وجه الناسك: «سيدي الحكيم، ماذا تقول أنت؟» فأجاب بهدوءٍ ورقة: «أبنائي الكرام، ما حدث قد حدث لا يمكن تغييره أبداً، ولكن يمكننا التقليل من الخسائر الناجمة عن حدوثه. أنتم لم تسألوا أحداً قبل صعودكم السفينة عما إذا كانت هناك أوامر وقيود جديدة على السفر، ويبدو أن الربان لم يعلم بسفركم إلى بلاد الهاتيين البعيدة، فالمشكلة بينكم ناجمة عن الجهل فقط، والآن حيث اقتربنا من خط الحدود لابد وأن نجد حلاً يرضينا كلنا». فسألت: «وماذا تقترح؟» فقال: «حقيقةً لا أدري، سأتكلم مع الضابط المسؤول على الحدود، فقد كان من تلاميذي، وعندما فشل في تعلّم الطب ورآه مهنةً لا تليق بقوته وفتوته التحق بالجيش. اصبروا فالصبر من أعظم شيم الرجال».

تيقنت أن ربان السفينة قد أخفى عنا أيضاً ما كان يعلمه عن ذلك الأمر الجديد، على الرغم من أنه لاحظ اختلافنا في ملبسنا وهيئتنا عن المسافرين الآخرين الفقراء، ولكن من ناحيةٍ أخرى كان الخطأ من طرفنا أيضاً، حيث لم نذكر له أننا مسافرون معه حتى أبعد نقطة يمكن للسفينة الوصول إليها عبر المضائق الجبلية التي يصعب الوصول إليها بسفينة تمخر النهر الجارف بقوة في عكس مسارها، ولذا لم يكن باستطاعتنا لوم

الربان أو التضييق عليه، ولم يكن في خلدنا ذكروجهتنا وأهمية سفرنا أمام أناس غرباء، فهذا غير لائق بسرية مهمتنا. وانتهى بذلك النقاش الذي بدأ حامياً. فرجعت إلى مكاني، في حين بقي (باد) هناك، وكأنه أراد التأكد من أن المسافرين لن يهاجموا ربان السفينة بغتةً.

كان الوقت عصراً، وكان نسيمٌ ربيعي عليل يهب علينا من ناحية الغرب، حيث الأرض سهول خضراء وهضاب كثيفة الشجر، وتزيِّن السهولَ حقول زهورٍ ونباتاتٍ مختلفة الأجناس والألوان تبهر عيونَ الناظرين وتلقي في نفوسهم أسئلة عديدة عن سر هذا التنوع العظيم، ومن تلك الأسئلة: «كيف يحدث كل هذا التنوع والاختلاف المذهل في الأشكال والألوان على أرضٍ بذاتها، وتروى من ماءٍ واحدة؟»

كانت تطل على النهر من ناحية الشرق تلالٌ ذات أشجارٍ كثيفة، وعندما نظرت إلى السماء وجدت غيوماً عظيمة تتجمع فوق رؤوسنا، وهبت ريح عاتية وباردة، وفجأة تساقطت قطرات من المطر، ولمع برقٌ لم أرَمثيلاً له من قبل، تبعه رعدٌ يلقي الروع في القلوب، مما أربك الحيوانات في أسفل السفينة فصارت تتحرك مذعورة وتصدر أصواتاً تبعث على التشاؤم وكأنها أدركت حالاً أن ما سيحدث الآن لن يكون حسناً لها ولأصحابها. وازدادت الغيوم سواداً وكثافة تغطي السماء، وانهمر مطر شديد لا شبيه له حتى في فصل الشتاء في تلك النواحي، على الرغم من أننا في فصل الربيع، ثم تحول المطر الغزير إلى حبات بَرَدٍ كبيرة منها ما هو بحجم بيض الحمام، وإذا بها تسقط على رؤوسنا وما حولنا محدثة قرقعة ومثيرة

لمزيدٍ من الارتباك بيننا نحن المسافرين وبين الحيوانات في أسفل السفينة، وأشد الناس خوفاً في ذلك الحين كان ربان السفينة وفريقه والعاملون معه على خدمة المسافرين. فصاح الربان في المسافرين بصوتٍ عالٍ: «هيا إلى خيولكم وحميركم وغادروا السفينة حالاً، فإن البَرَد الغزير الثقيل سيؤدي إلى غرقها»، واختلط صوته وهو يعطي الأوامرفركض من استوعب خطورة الموقف ليخرج دابته من الاسطبل ومنهم من سعى لحمل متاعه وحاجياته. وفي ذلك الحين كانت السفينة تلامس ضفة اليسار من النهر، فتحدث صوتاً وارتجاجاً مزعجين، وما كنت أدري ماذا أفعل في حالٍ كهذه، سوى أنني حملت ما استطعت من متاعنا وانطلقت صوب ضفة النهر، بينما ركض (باد) والبَرَد يتساقط عليه كالحجارة الصغيرة لإخراج جوادينا قبل أن يتعثر ذلك. وفي وقتٍ قصير كنا قد نزلنا إلى اليابسة التي تحولت لمسافاتٍ بعيدة إلى ما يشبه بحيرةً ملحية من شدة انهمار البَرَد.

استبد بي الخوف وأنا أنظر إلى المسافرين الذين فاجأتهم الطبيعة بما لديها من أدوات قهر، ووجدوا صعوبةً في إرغام دوابهم على النزول من السفينة في تلك الحال الصعبة، وتذكرت الشيخ العجوز الذي لم يكن يرتدي سوى رداءٍ رقيق لا يقيه من البرودة ولا يحمي جسده الهزيل من وقع البَرَد المتساقط بشدة، فرميت ما كنت قد حملته على كتفي جانباً واتجهت صوب السفينة لأساعد الشيخ العجوز على النزول، فوجدته متدثراً بما يشبه لحافاً داكن اللون، وهو يتلمس الحبل الذي على طرفي القطعة الخشبية المعدة سلفاً لتكون بمثابة سلم أو درجٍ للصعود إلى السفينة والنزول منها.

فتقدمت منه ومددت إليه يدي اليمنى وأتيت به إلى حيث الأمتعة التي تعرضت لمزيد من انهمار البرد في تلك الأثناء، وقلت له: «لننتظر حتى يأتي الفارس بالجوادين». فقال: «لقد رجوته أن يأتيني ببغلي أيضاً». فسررت لسماع ذلك لأننا كنا سنجد صعوبة في متابعة السفر دون وجود ما يركبه الشيخ العجوز.

هدأت عاصفة البرد الشديد التي ألحقت بشراع السفينة أضراراً جسيمة، وأعاقتها من متابعة السفر، حيث كان يجب على عمالها افراغها من البرد والماء قبل حلول المساء. سألت الشيخ العجوز:» والآن؟» فأجاب: «أعتقد أن الانتظارهنا حتى يتم تهيئة السفينة ومن ثم الإقلاع نحو مدينة (إيسووا) شمالاً لم يعد مجدياً. وكما أعلم فإنها مدينة ينتشر فيها الرعب الذي تزرعه في القلوب عصابات النهب والسلب المتنافسة فيما بينها على اغتنام الثروة والعبيد، ومن ورائها يقف ضباط عسكريون من كلا الدولتين الميتانية والهيتية لا يرحمون من لا يزيدهم ثراءً فوق ثرائهم. ولذا لا حاجة لنا بالذهاب إليها، وإننا إن اتجهنا صوب الشمال الغربي وأسرعنا الخطى قبل حلول الليل فسنصل مدينة «نيسا» الهيتية قبل شروق الشمس أو ظهر الغد، وهكذا لا نحتاج إلى متابعة السفر بالسفينة شمالاً، ثم الاتجاه غرباً نحو (نيسا)».فأجبته وأنا أنظر إلى (باد) المهتم بالأمتعة التي بدت وكأنها ألقيت في حوض ماء: «الأرض موحلة وهذا سيؤثر على سير الحيوانات سلباً». فأجاب: «ماء النهر سيزداد بعد هذه العاصفة ومسير السفينة سيصعب أيضاً، وكلما اتجهت شمالاً صوب (إيسووا)

يصبح التيار أشد قوة ويضيق المجرى إلى أن تضطر السفينة للوقوف، ولذا سيستغرق السفر وقتاً أطول. الحياة برمتها صعبة وما علينا إلا مواجهة الصعاب بصدرٍ رحب».

سألته عما إذا كان البَرَد قد هطل على مساحاتٍ واسعة من تلك المناطق، فأجاب بأنه لا يعلم ولا يتحدث عما لا علم له به، ولكن قد يهطل البَرَد حسب معرفته على منطقة محدودة جداً من الأرض، وأكد على أن سيرنا في الأرض الموحلة لن يدوم مسافةً طويلة، حيث في آخر السهل الذي علينا اجتيازه نقطة حدودية بين مملكتي ميتان و هيتيت.

كان المسير صعباً لجوادينا ولبغل الشيخ العجوز لأن التراب الأحمر في تلك الأرض السهلية قد تحول إلى وحلٍ لزج، ولذلك أضطرنا إلى الترجّل من ظهور الحيوانات بين الحين والحين، بل وحمل بعض الأمتعة الثقيلة عنها أحياناً، وكانت الرائحة الزكية للأرض التي تشرّبت ماء المطر والبَرَد تمتزج برائحةٍ نتنةٍ من عرق الحيوانات، منبعثة من تلك الأمتعة التي نحملها بمشقة على أكتافنا، أنا و(باد)، إلا أن نسيماً عليلاً كان يهبّ من ناحية الغرب ويلفح وجوهنا مما خفف عنا عذاب المسيربعض الشيء، ودفعني تعثرنا وتأخرنا على الطريق الترابية الضيقة عبر تلك السهول مسافةً طويلة لأن أقول للفارس (باد) الذي كان يحمل أغلب الأمتعة على كتفه العالية بأن ترك الخادمين وراءنا كان خطأً كبيراً، ولكنه أجاب بهدوء: «وماذا عن الفرسان الذين كانوا يبحثون عنا في كيركاميش».
فقلت: «صحيح بالتأكيد... بالتأكيد».

أما الشيخ العجوز الذي اضطرنا لحمله إلى ظهر بغله بعد أن فشل في السير بقدميه العاريتين في الطريق الموحلة، حيث تجمّع الماء في الحفر المتتالية، وبعد أن توقّف المطر عن الهطول، وسطعت الشمس من جديد، فقد ظلّ لفترةٍ صامتاً تماماً، حتى ظننت أنه يغط في نوم عميق، إلا أنه أشار بإصبعه إلى هضبتين عاليتين أمامنا، بينهما ما يشبه جداراً عالياً من الحجارة الضخمة المتراصفة، في وسطه بوابة خشبية مطعمة بمسامير حديدية كبيرة تلتمع من بعيد، فقال: «تلك هي بوابة المدخل الحدودي إلى بلاد هيتيت، إن أسرعنا سنصلها قبل غروب الشمس».

بعدها بدأت الشمس تنحدر من علٍ، في حين تجمعت خيالات داكنة اللون في رأسي من شتى الأنواع، فإن اسم «هيتيت» أو اسم ملكه (هاتوشيلي ابن زانداتا) لوحده كان يرعب الناس في مختلف البلدان المحيطة ببلاد (هاتى)، لما تمّ نسجه من أساطيرَ مرعبة عن وحشيته في المعاملة مع رعيته ومع أعدائه بشكل خاص. ومما زاد الأمر مهابةً وضغطاً على صدري كانت الغيوم المثقلة بالمطر التي كادت تلامس الهضبتين وتتحرك قطع رمادية منها صوبنا وكأنها وحوش كاسرة تقترب لافتراسنا،

سألت الشيخ الراكب على بغله أمامنا بصوتٍ عالٍ حتى يسمع صوتي، ونحن الاثنان نمشي وراءه على الأقدام ووراءنا الجوادان المرهقان مثلنا: «لا أدري كيف نعبر نقطة الحدود». فأجاب بصوتٍ مسموع: «هذه مشكلتي. والآن هيا امتطيا جواديكما حتى لا تظهران كالخدم أو العبيد». وسكت برهة ثم أضاف: «في سائر مملكة هيتيت، عندما تسمعان اسم

الملك (هاتوشيلي) أو اسم أبيه (زانداتا الكبير) يجب أن تخرّا ساجدين فوراً، دون تأخّر،أو تجدان أنفسكما على خازوقين حادين تموتان عليهما بعد عذابٍ شديد».

قلت بين مصدّق وغير مصدّق بما قاله: «أتمزح يا عم؟» فسكت دون إجابة، وعلمت في الحال أن أمثاله لا يمزحون، لذلك قلت بارتباك تلميذٍ لم ينجز وظيفته أمام معلمه: «أرجو أن تقبل اعتذاري». وعلمت حينذاك أن مجرّد تعلّم لغة قومٍ دون التعرّف على حياتهم وعاداتهم في بلادهم ليس كافياً، وأن معرفتي للغة (الهورليلي) ليست كافية أيضاً للتعرّف على (هاتوشا) وشعب الهاتي وعاداته. وإذا بالفارس (باد) يضحك ضحكةً مسموعة إلى جانبي لأوّل مرة منذ أن جاء إلى دار أبي، فظننت أنه يهزأ من خوفي الذي بدا على وجهي لدى سماعي كلام الشيخ العجوز،إلاّ أنه قال لي بعد ضحكته بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه الشيخ العجوز: «أعتذرمنكم يا مولاي لقلة تأدبي. أنا أضحك بمنظرنا ونحن نحمل هذه الأمتعة». فأومأت برأسي له قبولاً لاعتذاره ومسامحةً لما وجده هو من قلة انضباط ذاتي، وامتطينا جوادينا، وأنا في قرارة نفسي سعيدٌ لرؤية مَن حياتي في قبضة يديه ضاحكاً وليس باكياً أو مكفهّر الوجه. أما الشيخ فلم يتكلم بعد ذلك وظل وراءنا وكأنه جذع شجرةٍ رفيعةٍ على ظهر بغله.

شرائح حمراء وبنفسجية ترتسم فوق الأفق الغربي وتختلط بسواها من اللونين الأزرق والأبيض، وهدوءٌ لا مثيل له يخيم على السهل الذي قطعنا منه شوطاً كبيراً وراح اخضرار أعشابه وزرعه يتحول إلى سواد في غياب

الشمس، وفجأة سمعت بالقرب من أذني الأيسر أزيزاً كصوت رمي حجرةٍ مدببة أطرافها بمقلاع أحد الرعاة من على جرفٍ عالٍ، مما أخاف الجوادين والبغل معاً واثار التساؤل عن مصدره وسببه في عيون (باد) أيضاً، ثم سمعت صوت ارتطام شيءٍ ما بصخرةٍ كانت على بعد خطواتٍ من طريقنا محدثاً قرقعة شديدة، فإذا بالفارس (باد) ينطلق بجواده بسرعة ويدور به حولنا في حركةٍ تشبه زوبعةً عاصفة، وكأنه أراد بذلك التأكيد لنا بأنه سيحمينا من أي هجومٍ أو عدوان، فقال الشيخ العجوز بهدوء، وقد أصبح بجانبي: «إنه قرص رقيق مسنن من مادة الحديد يرمى بآلة خشبية مشدودة الذراع بأوتار من جلد البقر». فسألت وأنا أحاول إخفاء خوفي: «هل رمانا به حراس البوابة الهيتيون؟» فأجاب: «أعتقد أن الذين رمونا به مختفون وراء تلك الشجيرات على التلة هناك».

أردت أن أسأل عدة أسئلة، إلا أن الشيخ العجوز قد حسم الأمر بسرعة، قائلاً: «لن نضيّع وقتنا بالقتال ضد من يريد بنا سوءاً الآن... هيا أسرعا لنصل إلى بوابة الحدود، قبل أن يصلوا إلينا». وبالفعل وجدتني ألبي أمر الشيخ العجوز، في حين وجدت (باد) غير مذعور، ينظر يمنةً ويسرة، وإلى الخلف مراتٍ متتالية ليحمينا من هجومٍ متوقّع أو من هجومٍ قد بدأ فعلاً.

توقفنا أمام بوابة المدخل الحدودي لبلاد هيتيت والشيخ يتقدمنا على صهوة بغله المرهق، فأطل حارسٌ عملاق على رأسه خوذةٌ بقرنين كبيرين من على جدران المدخل الذي كان جداراً حجرياً قوياً وعالياً، وصاح بنا

بصوتٍ عالٍ: «سوريون أم ميتانيون؟» فأجاب الشيخ بصوته الضعيف: «أنا طبيب الملك العظيم وهذان تلميذان من تلاميذي، مثلما كان ضابطك الذي يغط الآن في نومه أو يضاجع عاهرةً كعادته». فارتبك الحارس من كلام الشيخ العجوز، وأمر الحراس بفتح البوابة لنا دون أن يطرح أي سؤالٍ آخر. ولدى عبورنا البوابة التي ما كانت تفتح لولا تعاون عدة حراسٍ على إبعاد شقيها عن بعضهما بعضاً، شعرت بخوفٍ واضطراب لكثرة ما سمعت من الأهوال التي يلقاها المسافرون في حال ارتكابهم أصغر الأخطاء شأناً في بلاد الهاتيين. وبعد أن صرنا خلف السور تماماً تم إغلاق البوابة خلفنا بصوتٍ مفزع حقاً، وعلمت آنذاك أن الذين رمونا بقرص الحديد الحاد لا بد وأن يجدوا حيلةً للعبور عبر البوابة، ولربما يدفعون رشوةً كبيرة لذلك.

- 3 -

قضينا ليلتنا في موقع خاص بضابط حراسة الحدود الذي كان ثملاً معظم الوقت، إلا أنه كان شاباً عازباً في الثلاثين من العمر، كريماً للغاية ولطيف المزاح، وقال مراتٍ ومرات بأنه نادمٌ لانتسابه إلى الجيش عوضاً عن متابعة الدراسة لدى الشيخ الذي ظل في جلستنا يبعث فيه الأمل بالترقي والوصول إلى أعلى درجات العسكرية، فدولة الهاتيين محاربة ومستعدة للحرب أبداً وتحتاج إلى دماء شابة ورجالٍ يجيدون فن القتال وإدارة الجيوش، إلا أنه كان يبدي بين الفَينة والفينة تذمرّه من فكرة الحرب ويشك في وجود أي إيجابيات لها، في حين أن السلام منتج ومفيد لبني الإنسان وهو الأصل وليس الحرب. وكانت المائدة المليئة بشتى أنواع المأكولات والشراب تغري المرء بمزيدٍ من الأكل، لدرجة أنني ما عدت أطيق النظر إلى لحم الاوز المشوي أمامي على السفرة الكبيرة وسط الغرفة، إلاّ أن كلام الشيخ العجوز كان يجذبني بقوة فلم أنهض من مكاني إلا بعد أن استبد النعاس بالشيخ ذاته، وبخاصة ما قاله في نهاية سهرتنا: «السلام هو ما ينشده كل عاقل، والحرب هو ما يختاره كل شرير»، في حين أن الفارس لم يأكل ويشرب إلا قليلاً جداً وكانت نظراته لا تفارق الضابط المستلقي

على جانبه كما كان ينظر إلى باب الموقع بين الحين والحين، وكأنه كان يتوقّع أن يهاجمنا أحد في غفلةٍ منا. وفجأة نظر (باد) إلى الشيخ واستغرق في تفكيرٍ طويل واحتقن وجهه. واثناء نهوضنا للذهاب إلى مكانٍ معدٍ للنوم قال لي: «سيدي، لنكن حذرين». فاستغربت من ذلك، فقلت: «أعتقد أننا أشد أمناً هنا من قصر ملك ميتان. لماذا نظرت إلى الشيخ فجأة واحتقن وجهك بعد تفكير؟» فأجاب: «سأقول لك عندما نصل إلى باب غرفتك».

بعد أن حمل الفارس الضابط الثمل إلى مأواه، واختفى الشيخ العجوز خلف باب غرفة مقصورته الصغيرة، تبعني الفارس عبر ممرٍ ضيقٍ إلى مرقدي المتواضع، وقال لي بصوتٍ خافت: «سيدي، لقد سمعت آخر جملةٍ من كلام الشيخ (آزر) قبل هذه الليلة أيضاً»، فأمسكت بذراعه الأيمن وسحبته إلى داخل غرفتي وسألت:» كيف؟» فأجاب: «قبيل مجيئي إلى داركم لأخبركم بأن ملك ميتان يطلبكم، تم استدعائي إلى القصر، فدخلت على الملك الذي كان جالساً مع شخصٍ لم أرَ منه سوى منكبيه العاليتين النحيفتين وبياض شعر رأسه، كان ذلك الشخص يتحدث، والملك يصغي بانتباه، وأتذكر أنه قال ذات الجملة التي قالها الشيخ (آزر) قبل قليل: (السلام ينشده كل عاقل، والحرب هوما يختاره كل شرير)، وأتذكر أن ما رأيته من ذلك الشخص والنبرة التي تحدث بها لا يختلفان عما رأيته وما سمعته الآن من كلام الشيخ».

فسألت (باد): «ألم تنظر إلى وجه ذلك الضيف لدى الملك؟» فابتسم قليلاً، ثم قال: «ألا تعلم بأن من ينظر من الأتباع إلى وجوه الضيوف في

القصر الملكي سيعرّض نفسه للكي بحديدةٍ ساخنة حتى لا يبقى عليه جلد، ويموت بعد عذابٍ لا مثيل له أو يقطع رأسه دون محاكمة فيما إذا كان محظوظاً؟

مرّت في تلك اللحظات آخر جملةٍ مما قاله الشيخ آزر في ذهني كجوادٍ يسابق الريح: «السلام ينشده كل عاقل، والحرب هو ما يختاره كل شرير».

بعد أن فكرت برهةً قلت لمرافقي: «هذا يعني أن شيخنا (آزر) على درايةٍ بمهمتنا، والتقاؤنا به على السفينة القادمة إلى بلاد هيتيت لم يكن مصادفة... دع الأمور تجري على هواها، ولا تخبره بما يمكن أن يثير الظن لديه، سنكون حذرين، فإن كان مبعوثاً من قبل الملك الميتاني فهذا لن يضرنا، بل سينفعنا، كما نفعنا اليوم هنا، ولربما يكون في مرافقته لنا عون كبير، وإن كان جاسوساً للوزير الأوّل فإنه لاطاقة ولا حول له طالما نعرف أنه ليس بمسافرٍ كسواه من المسافرين». فأجاب (باد) بلطف: «حسناً، سأحرس مرقدك طوال الليل». فرفضت ذلك لأن أمامنا يومين من السفر ونحن بحاجة إلى قواه الجسدية في حال تعرّضنا إلى خطر. فذهب إلى مأواه، وأنا على يقين بأنه لن ينام مرتاح البال طوال الليل.

ضحى اليوم التالي ودّعنا ضابط حراسة الحدود بحرارة، وجلب لنا أحد جنوده سلةً كبيرة مصنوعةً من الخيزران، مملوءةً بأنواع مختلفة من اللحوم المجففة والتمور والخبز، وانحنى من جذعه تحيةً واحتراماً للشيخ العجوز، وتقدّم صوبي ومد لي ذراعه لأرى على راحة يده ما يشبه سواراً معدنياً عليه نقوش مسمارية، وقال: «آمل أن لا تبخلا على معلمي (آزر) بأي خدمةٍ

من الخدمات، فهذا الإنسان أحب إليّ من أبي... و خذ هذا السوار معك، إذ بمجرّد أن يراه حراس نقاط التفتيش التالية هذا في معصمك فإنهم سيفتحون لكم الطريق ولن يفتشوا حاجياتكم، وقد يكون لكم عوناً على تجاوز عقباتٍ عديدة». ثم تابع: «أنا أدعى (هيتو)» فأجبت: «شكراً على كرمك وحسن ضيافتك»، فانتزعت خنجراً معلقاً بوسطي وأهديته إياه فأخذه فرحاً وأجاب مازحاً: «كنت أعتقد أن الميتانيين لا يجيدون سوى السباق على ظهور الجواميس. فها أنتم تعلمتم صنع الخناجر الجميلة أيضاً».

أردت القول له بأن رجالاً أشراراً يتعقبونا، ولكني تمالكت نفسي لأن ذلك سيثير أسئلةً وظنوناً حول سفرنا إلى هاتوشا، ففضلت عدم ذكر ذلك كلياً.

انطلقنا والشيخ يتقدمنا بوقارٍ على ظهر بغله باتجاه الشمال الغربي صوب مدينة (نيسا) الهيتية.

على الطريق إلى (نيسا) رأيت قصوراً فاخرة على مختلف الهضاب التي مررنا بأسفلها، ورأيت كثيراً من قطعان الماشية والخيول والبقر، ومزارع لا تعد ولا تحصى، يعمل فيها العبيد الذين تم سوقهم من بلادٍ مختلفة حول المملكة بقوة الحراب، وكانوا من النساء والرجال والفتيان، ثيابهم رثة ووجوههم حزينة وأجسادهم تبدو مرهقة، وبينهم بعض الجلادين الذين بأياديهم رماحٌ أو سياطٌ طويلة يلدغون بها ظهور المتكاسلين والمنهكين أو المرضى غير القادرين على متابعة العمل. إنه منظر مقرفٌ حقاً سيلاحقني

أبداً، فلاحظ الشيخ آزر الحزن المرتسم على وجهي حين التفت مرةً إلى الوراء ورآني كئيباً، فتأخر في السير حتى صرت إلى جانبه وقال: «نعم، أيها الشاب الرائع، هناك القصور المشيدة التي تستلقي نساؤها في أحواض الماء تحت أشعة الشمس، وهنا العبيد الذين يتم لسع ظهورهم بالسياط لتزداد تلك النساء رفاهية وثراء. هذه هي حال البشر في كل العصور والبلدان مع الأسف. في هيتيت وميتان وآرزاوا وبابل وعموريا وكنعان وبلاد الفراعنة، قلةٌ قليلةٌ في النعيم وكثرةٌ في الجحيم. بل إن الإغريق الذين يتسلقون سلم الحضارة حديثاً يبتدعون لهذا الوضع الخالي من العدالة والإنسانية فلسفةً مسندةً بالمنطق وعلم الكلام».

أردت التعليق على كلامه هذا، إلا أنني وجدت جوفي فارغاً من أي معنى إنساني يمكن أن يتحول إلى ألفاظٍ وعبارات... أما (باد) الذي كان يقود جواده خلفنا، فقد كان هادئاً جداً وكأنه يمر بغابةٍ من الأشجارو ليس ببشرٍ تم تحويلهم إلى دوابٍ للعمل يعاقبون على ضعفهم بضرب السياط وطعن الرماح.

وكان أول ما استرعى انتباهي في مدينة (نيسا) هو الثراء الفاحش الذي كان عليه الناس، وكثرة وتنوع المواد المعروضة للبيع في سوق المدينة، الذي لم أرَ مثيلاً له من قبل، ولكن ما صدمني حقاً هو تجمّع بعض الجنود حول عدة أشخاصٍ تم طرحهم أرضاً بعد تعريضهم لتعذيبٍ شديد وهم يرفعون أحجاراً كبيرة بأيديهم ويهوون بها على رؤوسهم وظهورهم والضحايا يئنون من آلامٍ جديدة فوق آلام التعذيب البادي على ظهورهم

ووجوههم، وإلى جانبهم شخصٌ آخر يضربونه بالعصي على وجهه وظهره وأطرافه، حتى سقط جميع المعذّبين مضرّجين بدمائهم وفارقوا الحياة بعد عذابٍ مهين. وبعدما انتهى الجنود من فعلتهم النكراء تلك، صاح ضابطهم بصوت جهوري: «يحيا هاتوشيلي زانداتا»، فإذا بالناس جميعاً يسجدون واضطررت إلى فعل الشيء ذاته عندما لاحظت أن الشيخ (آزر) والفارس (باد) يسجدان أيضاً كالآخرين، وعندما تأكّد الضابط الذي كان واقفاً على مصطبةٍ عالية من أن الناس قد سجدوا جميعاً، سجد هو الآخر، كما لاحظت بعد انتهائنا من تلك المذلة الجماعية. وأعتقد أن ما رأيته في ذلك اليوم في مدينة (نيسا) هو أحد أسباب كرهي لكل أنواع النظم القمعية أياً كانت، دينية أو غير دينية، ملكية أو عسكرية، لأنني شعرت بمهانةٍ حقيقية لي وللجنس البشري برمته، وهذا ما ترك له آثاراً لا تزول في أعماقي، وأجدني منذ ذلك الوقت ملزماً بالكفاح ضد كل ما يهين كرامة الإنسان، أياً كان، عبداً أو حراً، رجلاً أو امرأة، غنياً أو فقيراً، يتكلم لغتي أو لغة أخرى، له هذا اللون أو ذاك، وأياً كان موطنه ودينه وأصله و حالته الاجتماعية، ولو كلّفني ذلك حياتي.

اقترب مني الشيخ (آزر)، وأنا أنظّف جبهتي من التراب الذي أصابه من السجود، وقال مبتسماً لتبدو معظم أسنانه السليمة: «بماذا فكرت وأنت تضع جبهتك العالية على التراب؟» حقيقةً لم أجد جواباً لسؤاله، فبقيت ساكتاً، فقال وهو يربت على كتفي، وأنفه المعقوف كمنقار نسرٍ يلقي ظلاً ليرتسم على التراب الذي سجدنا عليه: «هذا هو شأن

الملوك الذين إن اعتلوا عرش مملكةٍ يعتقدون أنهم آلهة، فيذلّون الأشراف بأشكال وصور مختلفة ويرفعون من شأن من لم يكن له شأن، فيتحولون إلى حيواناتٍ مفترسة مثل هؤلاء الذين رأيتهم الآن يقتلون الناس تعذيباً تترفّع الوحوش الضارية عنه».

قال هذا وسار من دون أن ينتظر حتى أقول شيئاً، وكأنه يعلم بخلو رأسي من الأفكار الثمينة التي لديه، وهنا سألت نفسي فجأة دون مقدماتٍ عن سبب تسمية الشيخ ب «آزر»، فتذكّرت أن الرجل الحكيم الناصح في لغة قومنا في منطقة جبل (غوديئين) الذي يسميه العرب ب(جودي) يدعى «آزر»، وأسعدني هذا الاكتشاف، فأسرعت الخطى للحاق به بعد أن تأخرت عنه قليلاً، يتبعني (باد) دون تلكؤ. وبالفعل كان ذلك السؤال الذي طرحته على نفسي في أعماقي بمثابة مخرج صغير للهروب عبره من تلك المذلّة التي لحقت بنا ونحن نسجد لملكٍ تخافه الناس.

منذ خروجنا من مدينة (نيسا) وعبورنا نهر (هاليس) باتجاه عاصمة مملكة هيتيت، وصور أولئك المعذّبين بوحشيةٍ لا تفارق ذهني، في المدينة التي كنت منذ صغري أحلم برؤيتها، وكنت أتصورها مثل جنةٍ كبيرةٍ وواسعة، بل إن تلك الصور الصارخة في وحشيتها قد طغت على كل المناظر الجميلة التي رأيتها في حياتي، ومنها البيوت العامرة ذات القبب المخروطية وكذلك التي تشبه خوذات الجنود المختلفة في أشكالها، وجداول الماء الذي ينساب في حيويةٍ تبعث الهدوء والرحة للنفس، والأسواق العامرة التي تمتزج فيها روائح السمك المشوي مع مختلف أنواع العطور والتوابل المجلوبة من

بلدانٍ بعيدة، وصراخ الباعة الذين يبيعون الحلوى مع نداءات الدلالين وأصوات الحيوانات المعروضة للبيع... لقد احتلت صور ذلك التعذيب المنحط كل مساحات الشعور والاحساس لدي، ولم أعد أفكر في شيءٍ سوى الابتعاد عن مدينة (نيسا) التي تحوّل جمالها في عينيّ إلى أدنى درجات الانحطاط. وحاولت أن أستعيد صوراً جميلةً من مدينتي (واشوكاني) بينابيعها العديدة ومروجها الشاسعة وقصورها المزدانة ومعابدها الكبيرة، إلاّ أنني فشلت في ذلك.

لاحظ الشيخ العجوز (آزر) أن وضعي ليس على ما يرام، فراح يسرد لي عن بلادٍ لم أسمع بها، وعن مخلوقاتٍ التقى بها في أسفاره لم اسمع بها أيضاً، وفكرت في أوّل الأمر أنه يسرد لي أسطورةً قديمة لا أعرفها من أساطير الجان التي كانت منتشرة في بلاد الهوريين وكان الناس يصدقونها ويخافون بعد سماعها من الخروج ليلاً إلى أبعد من آخر بيتٍ من بيوت قراهم، وكانوا يعززون أقفال بيوتهم بما يمكن أن يحفظهم من شرور الجان، بل إنهم كانوا يسدّون ثقوب الأبواب الخشبية، خوفاً من أن تنزلق الشياطين والجن من خلالها إلى مساكنهم ويؤذونهم. وعلمت في النهاية أن الشيخ (آزر) الحكيم قد لاحظ حزني لما رأيته من مشاهد الاستعباد، فحاول تسليتي بقصصٍ لا صحة لها بل كانت من نسج خياله، فقد كانت القصة من أعظم أسلحته لجذب الناس إلى دروسه وتعاليمه، ومن ثم لتعليمهم أسرار الطب والمعارف الأخرى.

ومن بين تلك القصص الشيقة التي رواها لي الشيخ (آزر)، قصة ملك

هوري القديم، قبل نشوء الدولة الميتانية، ولا أدري أكانت أيضاً من نسج خيال الشيخ أم أنها حدثت حقاً، فذكر بأن كان لملكٍ هوري ولد واحد فقط، رغم أنه كان يمتلك العديد من النساء ومئات السبايا، التي منها من اغتنمها في حروبه، أو من جاءته كهدية من قواد جيشه أو من ملوك الممالك المجاورة، ولأن أم ولده ما عادت تنجب الأطفال، فقد حزن الملك حزناً شديداً، ولفرط حبه لها لم يسمح لنفسه بأن يلد له ولد آخر من أي امرأةٍ أخرى.

في إحدى أمسيات السهر مع أتباعه وضيوفه وقعت عينا طبيبٍ ساحر على ابن الملك هوري، فقال للملك بأنه يعلم شيئاً عن مستقبلٍ ولده، ولكنه لن يبوح بذلك إلا بحضور الملك وحده دون غيره. وعندما اختلى الملك به، قال له: «مولاي العظيم، لا أحد سيقتل ولدك، فإنه لن يموت إلا ببراثن وحشٍ من الوحوش الضارية».

غضب الملك غضباً شديداً، ونهره ثم ألقى إليه بكيسٍ من النقود وهو يهدده بالقتل إن حدّث أحداً بما يعلمه عن مستقبل ولده. ثم أمره بالخروج من قصره على ألاّ يعود إليه مرةً أخرى.

أمر الملك بأن تقتل كل الوحوش الضارية التي كانت في أقفاصٍ أو في حديقته الملكية، وهدد المواطنين بالقتل في حال إخفاء أحدهم وحشاً ضارياً في المدينة، بل شرع يخرج باستمرار ومعه عدد كبير من الأتباع لصيد الأسود والذئاب والضباع والدببة خارج مدينته التي حولها إلى قلعةٍ متينة، وبنى في وسط حديقته الملكية بيتاً ذي سورٍ حجري عالٍ وقوي الجدران،

وجعله مسكناً خاصاً لولده الذي وضعه تحت رقابة دائمة.

مرّت الأيام، ونشأ ولده في كنفه وتحت رعاية مشددة حتى لا يمسه إنسان أو حيوان بأذى، إلى أن صار شاباً قوي الشكيمة، فطلبت أمه من زوجها الملك أن يأتي لولدها بزوجةٍ جميلة تخدمه وتسعده في قصره المنيع ذاك. وكان على الملك أن يزوّج ولده لتبقى السلطة في عائلته، فبحثوا له عن فتاةٍ جميلة من بين بنات الملوك الآخرين الذين لهم نزاعات مع مملكة الهوريين، حيث كانت العادة أن تتم في ذلك الوقت القديم أيضاً مصاهرات سياسية بين الممالك لعقد الصلح وتأمين الأمن والسلام من خلال زواجٍ ملكي باهظ الأثمان وعقد قرابةٍ تصرف عليه أموال كثيرة وتتسبب بنقل ملكياتٍ وجواريَ وعبيداً كثيرين بين طرفي النزاع على أثر تلك المصاهرات السياسية، فاختار الملك الهوري لولده من قبائل البارثيين القوية أميرةً رائعة الجمال، وأحضرها له، وبعد احتفالٍ دام سبعة أيام تعطرّت فيها المدينة واستحمت في الخمور ورقدت على أكوامٍ من مختلف صنوف الطعام واشعلت نيرانٍ عالية اللهب كانت ترى من الهضاب البعيدة خارج أسوار المدينة، دخل الأمير الشاب على العروس التي تزيّنت له بأجمل الأثواب وكحّلت عينيها وأحاطت عنقها البلوري بطوقٍ من الذهب المزيّن بالمرجان واللالىء لم تره عينا احدٍ من شباب المدينة من قبل، واقتربت منه راضيةً لتشاركه فرحه وسعادته باوّل لقاءٍ جسدي له مع إنسانٍ آخر، وإذا به لا يقدر على الكلام لفرط تعلقه بجسدها الذي لم يكن يضاهيه جسد أنثى في تلك المملكة، فاعتلت العروس جسمه وراحت تضغط بيديها على طرفي قفصه الصدري

في نشوةٍ لامثيل لها، فأغمض عينيه ليدعها تتلذذ برجولته في غياب نظراته التي كانت تثيرفيها سعادةً وأنوثةً شديدة الرغبة وقوية الشهوة. وإذا بها في لحظاتٍ قلائل تنقلب إلى ذئبةٍ قويةٍ كذئاب جبال زاغروس القوية والشرسة، من دون أن يلاحظ تحولها من إنسانٍ إلى حيوان، من امرأةٍ إلى ذئبة، ولم يمر سوى برهةٍ من الزمن حتى صار للذئبة الجالسة على بطنه أسنان حادة ومخالب وجسم يكسوه شعر رمادي، وإذا بالذئبة تنتزع أجزاء من جسم الشاب وتلتهمها من دون أن يقدر على المقاومة في تلك الليلة التي كان يتوقع أن تكون أجمل ليالي عمره».

لم أتمالك نفسي لدى سماعي نهاية القصة الرهيبة، فصرخت: «كفى يا عم... كفى..».، ويبدو أن الشيخ قد لاحظ تأثري الشديد بالقصة وروايته الرائعة لها فقال لي: «يبدو أن السفر الطويل على ظهور الخيل قد أعياك».

وفي الحقيقة لم أعد أرَ أمامي سوى سوادٍ في سواد، وشعرت بأن حولي أضواء تطفأ، وتذكرت لوهلةٍ خادمةً مسنة كانت تقوم بإطفاء نار قناديل الزيت الصغيرة في أرجاء قصروالدي، وأنا صغير العمر، أشدّ طرفاً من ثوبها وأرجوها ألا تقوم بذلك، لأنني كنت أخاف العتمة... ولم أعد أشعر بشيء من آلام أو سعادة وكأنني تحولت إلى جذع شجرةٍ ميتة، بل لم أعد أعلم ماذا حدث لي بعد سماعي تلك القصة، ونحن كنا قد اقتربنا من بوابات مدينة هاتوشا التي ألقت الرعب في قلوب الشعوب المحيطة ببلاد هيتيت ردحاً طويلاً من الزمن.

سمعت الشيخ آزر يقول لي من خلال ضبابٍ كثيفٍ لم أدرِ بدايةً أكان

حقيقياً أم من تصوراتي: «أحتاج إلى وقتٍ لأتأكد من أنك لست مصاباً بمرضٍ خطير. لقد هويتَ من على ظهر جوادك، ولحسن حظك سقطتَ على طرفٍ من الطريق كان العشب قد نما فيه بكثافة.ولولا العقاقير التي عندي لكنت الان ضيفاً لدى أجدادك القدامى في مكانٍ ما في هذه السماء الواسعة أو في مغارةٍ عميقاً تحت الأرض». فسألت باهتمام:ر«ماذا حدثٍ؟» فابتسم الشيخ ونظر إلى الفارس الواقف إلى جانبي تحت خيمةٍ لا تبتعد إلا قليلاً عن أسوار المدينة، ثم نظر إلى وجهي الشاحب الذي استعاد الحياة وأجابني: «لقد تعب (باد) تعباً شديداً في رفعك وحملك والاهتمام بك. أنا أرى بأن جسمك سليم ولكن قد يكون هناك شيء ما في داخلك لا أعرفه عنه الآن، ولذا سأهتم بطعامك وشرابك وبكل ما تقوم به حتى بما يفرزه جسمك من..». فقاطعته دون استئذان: «شيخي الحكيم، أشكرك وأشكر (باد)، ولكن أنا لست مريضاً، ربما أصابني الإعياء وقد انتهى كما ترى».

فهم الشيخ (آزر) أنني لا أريد إظهار الضعف، على الرغم من أن قصته طعنت صدري كخنجرٍ حاد، فالمرأة التي عرفتها أمّاً وشقيقةً وحبيبةً وجارةً لا يمكن أن تكون ذئبةً تنهش أجساد الرجال، وما يُقال عن «المرأة الذئب» ليس إلا أسطورةً، لا أكثرولا أقل. وسألته مداعباً: «يؤسفني أنني لم أرَ مثلكما كل ما كان في الطريق». فابتسم الشيخ ابتسامة أكبر، وقال: «وماذا هناك سوى التلال والوديان والأشجار والغزلان والطيور... وقوافل تجارية... وأشباح فرسانٍ وراءنا على التلال». فسألت: «أتقصد الشرذمة التي كانت تتابعنا؟» فشحب وجه الشيخ، وحاول التهرّب من

الإجابة، ولما لاحظ الإلحاح في السؤال في عينيّ، قال: «حتى الآن لم يظهروا عدوانيتهم بعد، ولكن آمل أن لا يصلوا إلى هاتوشا، فأنا أخاف كيد من أرسلهم ليتعقبوك». فسألت: «ماذا تقصد بهذا الكلام؟» فأجاب وهو يحك جلد رقبته: «إذا ما فشلوا في القضاء عليك، فإنهم قد يلجأون إلى اختلاق أكاذيب ليوقعوا بها لدى ملك هيتيت بك». وأطرق مفكراً بعد قوله هذا.

وهنا حيث وجدت لدى هذا الشيخ الغريب الذي التقيت به مصادفةً على ظهر سفينة اهتماماً كبيراً بي، تذكرت فجأةً قول ملك ميتان لي: «لا تخف ولا تهتم لأنه سيكون هناك دائماً من يفتح لك الأبواب ويهتم بسلامتك، من دون أن يعلم شيئاً عن مهمتك».

أردت البوح عما اكتشفته من أمر الشيخ (آزر) في تلك اللحظات، إلا أنني ضبطت نفسي وآثرت أن يقول لي الشيخ بنفسه أنه مرسل من قبل ملك ميتان ليكون مشرفاً على صحتي ومستشاراً لي، دون أن يعرف حقيقة مهمتي، مثلما هو (باد) مسؤولاً عن حمايتي دون أن يدري سبب رحلتي». وتذكرت أن ذهابي إلى بلاد الهاتيين لم يكن فقط من أجل لعبة أطفال من الملكة (خاتى) وإنما للتمويه التام على رحلتي الأساسية صوب بلاد الفراعنة. فآثرت السكوت عوضاً عن الكلام الكثير، خوفاً من أن تكشف زلة لسانٍ ما أخفيه عن الشيخ (آزر)و(باد) معاً.

خرجت من الخيمة لأرى امتدادات أسوار هاتوشا شرقاً وغرباً، فجلست تحت ظل شجرة صنوبرٍ عاليةٍ وكبيرة، جذعها عملاق وفروعها أثخن

من الثعابين الضخمة، وفي يدي جبنة كبيرة أحاول الأكل منها، وحولنا سلسلةٌ من التلال، في أسفلها وادٍ كثيف الشجر، والطريق الذي يمتد يسرةً ويمنة إلى أبعد ما يمكن رؤيته، بحيث نستطيع مراقبة القادمين من الجانبين، قال لي الشيخ (آزر) وهو يتقدم من الخيمة صوبي: «عندما نصل إلى هاتوشا انتبها باستمرار إلى ألا تهينا آلهة الهاتيين، فهم لا يسامحون ضيفاً أو زائراً لا يحترم عقائدهم». قال هذا وقضم من قطعة لحم مجفف بأسنانٍ قوية كأسنان الشباب وأغمض عينيه وهو يتمتع بأكل ماً قدّمه له (باد) الجالس إلى جانبه.

هنا تذكرت كهنة معابد واشوكاني، الذين منهم من قلنسوته السميكة العالية تكفي لإشباع جوادين معاً، فيما لو ملئت حنطةً أو شعيراً، والذين منهم من تكفي ثيابه المؤلفة من عدة طبقاتٍ رقيقة مختلفة الأحجام والتطريز مرصوفة فوق بعضها ويضمها إزار طويلٍ مزركش وبألوانٍ مختلفة، فيبدون في كبريائهم كالطواويس المقدسة في معابدنا، وحاولتُ عبثاً مقارنة حال هذا الشيخ الذي يبدو بسيطاً للغاية، في ملبسه ومشربه ومأكله وفي حياته كلها، مع حال أولئك الكهنة الذين يلقون الفزع بمرآهم في قلوب العابدين والزائرين، ولكن الإرهاق الذي كان مستبداً بكل جسدي عكر عليّ تماماً التفكير في شيءٍ آخر سوى الوصول إلى هاتوشا التي صارت على مرمى حجرٍ منا.

- 4 -

ماكنت أعلم أن الشيخ (آزر) معروفٌ لدرجة أن كل ضباط وجنود المدخل الجنوبي للمدينة سيرحبون به ترحيباً يعبّر عن احترام كبير، إذ بمجرّد أن لمحه ضابط يمتطي جواداً ضخماً وبيده سوط طويل، أمر جنوده بدفع الداخلين إلى المدينة وتفريقهم لإفساح المجال للشيخ (آزر) الذي كان يتقدمنا على بغله، وما هي إلا لحظات حتى كان بالقرب من الضابط الذي رحبَ بالشيخ باللغة الهيتية، وطلب منه أن يتبعه، فردّ الشيخ تحيته شاكراً وقال بأننا نحن الاثنان برفقته، فهزّ الضابط رأسه بترحاب ووقار، وطلب منا أن نتبعه عبر سورين من الأحجار الثقيلة والمختلفة الأحجام والأشكال، المرصوفة فوق بعضها بارتفاعٍ يعلو رؤوسنا ونحن نمتطي الخيول، وبسماكةٍ تزيد عن ذراعين، بحيث لا يمكن رؤية ما وراءهما من بناءٍ أو خلاء، ولكن بين الفينة والفينة كنا نلمح وجوهاً مهيبة لجنودٍ يحدقون بنا من خلال ثقوبٍ مخصصة لرمي النبال وطعن بالرماح، وعلى الجانبين تمثالان ضخمان من البازلت الأسود لأسدين عملاقين يلقيان الذعر في أفئدة الزائرين. قال الضابط بصوتٍ عالٍ وبلكنةٍ جبلية خشنة من دون أن ينظر إلى الوراء، وصوته يختلط بقرقعة ونعال الخيول

على الطريق المرصوفة بالأحجار بين السورين: «أنتم الآن تدخلون إلى هاتوشا عاصمة مملكة (هاتي)، وعلي أن أنبّهكم مثلما هو واجبنا لتنبيه كل زائرٍ إليها بأن مملكتنا تنعم بالأمن والاستقرار ولا نسمح لغريبٍ أن يعكر علينا صفو أمننا واستقرارنا، لذا يجب أن تسيروا على الطرقات المسموحة لكم في المدينة والمخصصة لقوافل التجار في سائر أنحاء المملكة. إن حياتكم وأموالكم وأعراضكم أمانة في أعناقنا منذ دخولكم بلادنا وإلى لحظة خروجكم منها، لا يحق للأجنبي العمل في بلادنا إلا بعد أخذ الإذن المسبق من الجهات المسؤولة، ويحق لزوجاتكم التخلي عنكم والزواج من رجالٍ آخرين، عندما يشعرن بأن هؤلاء الرجال يمتعوهن بشكل أفضل منكم، ولكن على الجدد من الأزواج أن يقدموا تعويضاً للقدامى، ليس في بلادنا مكان للضعفاء وغير القادرين على القتال أو الإنتاج، لذا يفضل المواطنون التخلّص من مرضاهم والضعفاء منهم حتى لا يلحق بهم العار، الزواج على سنة القبائل الوحشية الغربية بين الأخ والأخت ممنوع لديناً منعاً باتاً، إلقاء جثث الموتى في الأنهار والينابيع جريمة عقابها الدفن حياً، فالماء مقدس في مملكتنا. المتمرد على الملك إن كان أميراً من المملكة أو من أمراء الممالك الأخرى فإنه يرغم على القتال وجباية الضرائب في ساحات القتال والمناطق الحدودية حتى يثبت ولاءه للملك فيتم العفو عنه، وإن لم يكن أميراً فإنه سيرسل إلى مملكة الجن ليعمل فيها كالعبيد مدى الحياة. ليس لدينا قوات مرتزقة، وكل الهاتيين جنود محاربون، فإن شاء أجنبي التطوع في جيشنا فهذا أفضل طريق ليصبح مواطناً لمملكة

(هاتي) التي ستسيطر قريباً على كل ممالك الشرق».وهنا توقف لحظة، وأدار رأس جواده صوبنا ليتغيّر إيقاع قرقعة سنابك الخيل، ونظر إلينا برهةً من الزمن، ثم قال: «هذا يكفي الآن... ولكن تذكروا أن الموت في ساحات القتال أهون من العم لفي مملكة الجن... لا تنسوا هذا أبداً طالما أنتم على أرض مملكة (هاتي)... وإذا ذكر أحدهم اسم ملكنا العظيم فخروا له ساجدين أينما كنتم، وإلا فسيتم سلخ جلودكم وأنتم أحياء... تفضلوا إلى هاتوشا، فأنا مضطر للعودة إلى بوابة المدخل». قال ذلك وودّع الشيخ بتحية عسكرية بأن ضرب صدره المحصّن بدرعٍ نحاسي لامع بقبضة يده التي يحمل بها السوط، وعاد أدراجه.

لم أعد أطيق صبراً في ذلك الممر ، لما سمعته من الضابط الذي كان يتلو علينا كلامه وكأنه حفظه عن ظهر قلب منذ صغره، فسألت الشيخ (آزر): «كنت أعتقد أن مملكة الجن من نسج خيال الحكواتية، كما كنا نسمع في طفولتنا، ولكن هذا الضابط تحدث عن عملٍ شاق في مملكة الجن، فماذا يعني هذا؟» فأجاب الشيخ (آزر) : «نعم، هناك مملكة الجن، ولكن بدون جن، إنما فيها بشر من العبيد الذين يكدحون ليل نهار بحثاً عن الذهب والنحاس، ولتوسيع المملكة التي ستكون ملجأً للشعب الهاتي عندما يحل شتاء قاسٍ طويل الأمد، وفيها من الجلادين والإداريين والجنود مايكفي للدفاع عن مدينة، إنها ليست من نسج الخيال، وإنما هي مدينة موجودة ومأهولة فعلاً تحت الأرض على الطريق من هاتوشا إلى حدود المملكة جنوباً، ولكن لم يصفها أحد من الرحالة في الأزمنة الغابرة حسب علمي».

بعد انتهاء السور المزدوج بأسدين آخرين لايقلان هيبةً وجمالاً عما شاهدناه من قبل، تابعنا مسيرنا صوب أول ساحةٍ عارمةٍ من ساحات هاتوشا التي كانت تبدو كثكنةٍ عسكرية لأن سائر الناس كانوا يحملون أسلحةً من سيوفٍ أو نبالٍ أو رماحٍ أو مقالعٍ لرمي الحجارة، ومنهم من كان يحمل سلاحين، إلا أن ثيابهم لم تكن ثياب جنودٍ وإنما خفيفة من قطعتين، أعلاهما على شكل قميصٍ مفتوح الصدر وأدناهما تنورة مزركشة من أطرافها الدنيا تكاد لا تخفي الركبة، من ألوانٍ مختلفة تنم عن ذوقٍ رفيع وخبرة طويلة في ارتداء الملابس.

سألت الشيخ (آزر) ونحن قد نزلنا عن صهوة الجياد، عما إذا كان الضابط يكرر هذا الكلام على مسامعه كلما زار هاتوشا، فأجاب بأن الكلام كان موجهاً لنا نحن الاثنين، أنا و(باد)، حتى نظل حذرين ولا نقع في أخطاءٍ قد تؤدي بنا إلى حتفنا أو إلى استعبادنا ونفينا إلى مملكة الجن.

كان أوّل وأفضل مانقوم به هو إيجاد مأوى في المدينة التي سماؤها تتلبّد بالغيوم وتتمازج فيها الألوان الحمراء والصفراء والزرقاء قبيل غروب الشمس، إلا أن كثرة العربات ذات الدولابين الكبيرين المدججين بالحراب في الشوارع كانت تفرض علينا اتخاذ الحذر الشديد، وفي الحقيقة شعرت وكأن المدينة على أهبة الاستعداد للقيام بغزوٍ أو للدفاع عن نفسها في وجه هجومٍ منتظر.

كانت أصواتُ جماعةٍ من الرجال الذين يتناقشون بصوتٍ عالٍ على طرفٍ من ساحةٍ مليئة بشتى أنواع المتاجرة وبيع الخضار والفواكه تعلو

بحيث يسمعها القاصي والداني على تلك الساحة... كان أحدهم يقول: «إن الحدود الشرقية لمملكتنا هاتى تقع في شرق مدينة كركاميش، ولن يمر وقت طويل حتى نستردها من هؤلاء الميتانيين الخاملين... سترى أننا قادرون على ذلك».وكان آخر يرّد عليه قائلاً: «وهل تعتقد فعلاً أن ملكنا قد حشد المئات من العربات القتالية ودرّب عشرات الألوف من المحاربين على قيادتها والقتال بها من أجل ضيعةٍ ذات قباب غريبة تدعى كركاميش؟ أنت معتوه إن كنت ضيق التفكير إلى هذا الحد».

تورّدت وجنتا الشيخ (آزر) في تلك اللحظة، ثم ابتسم ابتسامةً تنم عن أخذه كلام أولئك الرجال محمل الهزء والسخرية، فسألته:» شيخي العليم، ألا تصدّق ما يقوله هؤلاء؟» فأجاب: «بل هذا ما أخافه حقاً... إذ بقدر ما يزداد حجم قواتٍ عسكرية لمملكةٍ من الممالك يزداد شره ملوكها لابتلاع بلدانٍ أخرى. أنظر إلى بابل فقد رأيت فيها تناسباً تاماً بين تزايد عدد جنودها وتنامي قواها العسكرية وبين انتشار مثل هذه الأفكار والرغبات في التوسّع والاحتلال».

وجدتني عاجزاً عن النقاش في هذه الأمور التي كنت أرى نفسي أضعف من المساهمة فيها. ولاحظ الشيخ سكوتي فقال: «لا تخف، وأشكر إلهك على أنك لم تأتِ بزوجتك معك، فرجال الهاتيين الأشداء كانوا سيسلبونها منك». وألحق كلامه هذا بضحكةٍ تعكس روحه المازحة. فضحكت أيضاً وقلت:» أنا لست متزوجاً يا شيخي». فأجاب: «أما أنا فإن زوجتي قد هربت مني لتعيش مع ملائكة السماء منذ أكثر من عشرين عاماً». فقلت

في نفسي: «ولكنك لا تقل عن الملائكة رقةً ولطفاً ياسيدي».

في تلك الأثناء، كنا قد اقتربنا من خانٍ للمسافرين، فأخذ منا (باد) لجام جوادي وبغل الشيخ (آزر)، وسار باتجاه الاسطبل، في حين صعدنا نحن درجاتٍ قلائل صوب مدخلٍ خشبي هائل ذي ستائر مخملية تنبعث من داخله روائح أطعمة شهية ممتزجة بأصوات غانياتٍ يعزفن على آلاتٍ موسيقية بدائية ويغنين عن الحب والورود واللقاء بين الأحباب في ظلام الليل بعد فراقٍ طويل...

في ليلتنا الأولى لم نتحدث إلى أحدٍ من نزلاء الخان، سوى أن الشيخ (آزر) تحدث على انفراد في زاويةٍ شحيحة الضوء مع صاحب الخان النحيف الجثة الذي بدا كصديقٍ قديم له، في حين كنت إلى جانب (باد) ننظر باستغراب إلى راقصةٍ تتلوى كالأفعى وسط رجالٍ يمدون أياديهم المليئة بقطع النقود المختلفة إلى سيقانها العارية، وهم يصرخون في سكرٍ تام، فلا تأبه بهم وكأنها تحتقرهم بحركاتها الخلاعية، وهذا رأيته للمرة الأولى في حياتي، مما جعلني أزداد كرهاً للحانات والمراقص وأماكن اللهو. فالمرأة في نظري بهذا الوضع المبتذل تفقد من دلالها وأنوثتها وعزتها وعفتها، وتتحوّل إلى مادون الإنسانية، ولا أدري ماذا كان يجول في رأس (باد) الذي بدا لي في ذلك الحين كتمثالٍ من الرخام وليس كإنسانٍ ذي لحم ودم.

في صباح اليوم التالي، حيث كانت شمس دافئة ترمي سريري الكبير بأشعتها الذهبية عبر نافذة من الزجاج الملوّن الذي يشبه مالدينا في دارنا

بالقرب من واشوكاني التي صارت الآن بعيدة حقاً، نهضت من الفراش وأنا لا أدري كيف سأبدأ نهاري وتحقيق هدفي الذي هو الأمر الوحيد الذي جئت من أجل تحقيقه إلى هاتوشا المرعبة. وعندما جلست بين الشيخ (آزر)و(باد) في صالة الخان التي ملأها النزلاء لتناول الفطور، قال الشيخ (آزر) يجب أن تخفي فيها ما لديك من مال، ففي المدينة جماعات مسلحة تستولي على أموال الغرباء بقوة السلاح، فإن كشف أمرها فإنها تعطي المال المستولى عليه لخزينة المملكة، وتجد لفعلتها النكراء ألف ذريعة، وبيت المال لا يردّ مالاً، وإن لم يكتشف أمرها لقلة حيلة الغرباء وخوفهم، فيصرفون ذلك المال في اللهو والعربدة». فنظرت إلى (باد) الذي ابتسم ابتسامةً فيها مسحةٌ من سخرية، فقلت: «أعتقد أنني لن أحتاج إلى من يحميني أو يحمي مالي طالما معي (باد)». فلاحظت أن وجنتي الفارس توردتا، فقال الشيخ (آزر) بعد برهةٍ من الصمت: «على كل حال إعلم بأنك لن تنهي مهمةً وجيوبك فارغة». فاتضح لي أن الشيخ عارفٌ بأنني في مهمة، ولكن أيعلم عنها كل شيء؟ هذا لم يكن واضحاً لي.

ثم دار الحديث بيننا حول أهمية البيض المسلوق والعسل وعصير الرمان، إلى أن سأل الشيخ: «وماذا تريدان القيام به اليوم؟» فبحثت في ذهني عن أمرٍ ما، فلم أجد سبباً، فقلت: «سنقوم بجولة في أسواق المدينة». فأجاب الشيخ: «كونا حذرين ولا تدعا أحداً يجرّكما إلى مشادة أو يرغمكنا على مقاضاة، فالغرباء هنا ليست لهم حقوق كالمواطنين الذين هم في الحقيقة جنود تابعون لضباط شرسين يحمونهم في السراء والضراء، وهذا ما تراه

في سائر الممالك الشرقية مع الأسف».

في الحقيقة، كنت محتاجاً إلى خزينةٍ أخفي فيها ما معي من المال وهدية الملك الميتاني الثمينة للملكة (خاتى)، التي لقائي بها من أهم الأمور، ليس في نظري فحسب وإنما في نظر ملك الميتانيين أيضاً، ولكن كنت متيقناً من مغادرتي مدينة هاتوشاحالما أحصل على الدمية التي أتيت من أجلها إلى هنا. ولذلك، سارعت في غرفتي قبل الخروج من الخان إلى إعادة ترتيب وإخفاء ما منحني إياه ملك ميتان من ذهب في ربطاتٍ قماشية صغيرة وزعتها بشكلٍ متقن في جيوب سترتي من الطرف الداخلي،بعد أن انتزعت منها حشوتها القطنية السميكة، وخلف حزامي العريض، وبحيث لا يلاحظ أحد وجود القلادة الثمينة. وأعطيت (باد) العقود الجلدية الرقيقة التي دونّ عليها ملك ميتان صكوك ملكية لي ليخفيها في ثنايا ثيابه مثلما فعلت.

تجولنا أنا و(باد) في المدينة طويلاً، في حين مكث الشيخ في الخان، أو لربما ذهب لقضاء امرٍ يهمه. فرأينا تماثيل عديدة كهيئة طيرٍ أو حيوانٍ مفترس على جسدٍ بشري يتميز بالقوة والوقار، ومعابد بدائية ذاتٍ نيرانٍ عظيمة وكثيراً من أكواب الفخار المختلفة الأحجام والألوان، منها ما يمكن أن يقف في وسطها رجل طويل القامة، بعضها للماء وبعضها للخمور وسواها للزيت، في خدمة كهنةٍ ليست لهم صلاحيات تعلو صلاحيات ملك مملكة (هاتى)، فهو القائد الأعلى للجيش وكبير الوزراء والقاضي الأعلى في المملكة و هو رئيس الكهنة، إذ تتجمّع أطراف السلطات الدينية

والدنيوية جميعاً في يديه، وحسبما فهمت من بعض الموالين للملك فإن الكلام الذي ينطقه هو القانون وهو الشرع الذي يخضع له كل المواطنين دون استثناء، في حين أن الكهنة في سائر الممالك الشرقية الأخرى قد نحتوا لأنفسهم مكانةٍ أعلى من عروش الملوك، بين الآلهة التي يحرسونها وشعبهم الذي يسيطرون عليه بأدواتهم المختلفة، منها الملك والسحر والشعوذة، ويحركون الجميع كيفما شأوا ويرشدونهم ويحذرونهم ويسيرونهم بتفويض من الآلهة التي ابتكروها بأنفسهم لتعكس رغباتهم وشهواتهم وحبهم لجمع الثروات ومضاجعة النساء والغلمان وتوزيع السلطة الدينية كيفما تقتضي مصالحهم.

هنا في هاتوشا يحكم (هاتوشيلي ابن زانداتا) منذ زمن طويل، لا يستطيع أحد الغلبة عليه أو إضعاف نفوذه رغم قيام العديد من الانقلابات الدموية على حكمه، كان الفشل مآلها جميعاً، ولربما لا يزال هناك من يخطط لانقلابٍ آخر غير معروف النتائج.

لم أجد في شوارع هاتوشا التي لم تكن قذرة كلياً سوى بعض الغرباء الذين معهم قرود صغيرة ترقص وتلعب على عزفٍ خاص على الدفوف، أو الذين لديهم أفاعي ترقص على أنغامٍ يجيدون استمالة الناس بها إلى عروضهم، وبعض المقامرين الذين يخدعون المارة بألعابهم ويسلبونهم أموالهم بحيلٍ ذكية، كما رأيت قليلاً من السحرة، حيث أن من يطلق على نفسه اسم «ساحر» عليه الحصول قبل ذلك على إذنٍ مسبق من الجهات المسؤولة، بعد القيام لديها ببعض العروض المفروضة التي تثبت

فيما إذا كان ساحراً حقاً أو أنه مخادع وكاذب. ولقد وجدت قليلاً جداً من المتسولين والمتسولات لأن هاتوشا ترمي بهم جميعاً إلى خارج أسوار المدينة، في حال ثبوت عدم الحاجة إلى التسوّل، ولذلك يمكن القول بأن هاتوشا لاتشبه مملكة ميتان التي جئت منها، والتي فيها الحياة تميل إلى المدنية والحرية والتعامل التجاري، عوضاً عن العسكرة المنضبطة والتشديد في الفرمانات الملكية المرهقة ونمط الحياة الذي يحوّل المواطنين إلى جنودٍ لا هم لهم سوى توسيع أطراف مملكتهم وخدمة ملكهم وتحقير الحياة الإنسانية الناعمة البسيطة.

بالنسبة لي كان تجوالنا في المدينة مملاً إلى حدٍ ما، حيث لم أجد في أي مكان معلماً حوله حلقة من تلاميذه يلقي عليهم دروسه، ولم أرَ في ظل شجرةٍ أو بيتٍ شاعراً يلقي قصائده على الناس أو عازفاً على آلة موسيقية، وإنما كل الكلام عن قوة هيتيت الحربية وضعف أعدائها أمامها، وعن عظمة الملك وكرم عائلته وجمال زوجته (خاتى) ولكن بالنسبة لمرافقي (باد) فكان يبدو كطفلٍ دخل محلاً للحلوى لا يريد الخروج منه. إذ كان يتنقل من محلٍ للسلاح إلى آخر، ينظر بإمعانٍ إلى السيوف ويلوّح بها بيده في الهواء وكأنه يبارز منافساً أو عدواً له، وكان يسأل الكثير عن أسماء الأسلحة ومكان صنعها والصنوف المختلفة من صناعتها، وبدا لي وكأنه يريد أن يصبح مختصاً في مجال معرفة السيوف الهندية والمصرية وأقواس النبال الكاردوخية التي لاتقل عن ذراعين طولاً ولا يستطيع إلا مقاتل شديد استخدامها وكذلك الخناجر التي كانت تصنع في سوريانا وميتان، ولذا

فإنني كنت أفسح له المجال لأن يشبع رغباته في نبل مزيدٍ من المعارف في الأسواق التي يباع ويشترى فيها السلاح بمختلف أنواعه. إلى أن ذكّرته بضرورة الذهاب إلى مكانٍ نتناول فيه الطعام بعد تجوالنا الذي دام فترةً طويلة من نهارٍ مشمسٍ في أسواق مكتظة بالبشر.

باختصار فإن هاتوشا كما وجدتها ثكنة هائلة الحجم كثيرة الجنود يتكدس فيها السلاح لأهدافٍ مجهولةٍ لي، ولذا فإن خوفي منها قد ازداد مما كنت عليه من قبل لدى أوّل زيارة لي إلى أسواقها العامرة.

قلت للفارس (باد)، ونحن في طريق عودتنا إلى الخان وقد أعيانا المشي: «أنا حتى الآن لا أعلم عنك شيئاً ياصاحبي». فأجاب: «صحيح. أنا ابن صانعٍ للسيوف، قضى حياته في خدمة ملوك (واشوكاني) وكان مبارزاً يصعبُ على أحدٍ سلبه سيفه منه، وهو الذي رباني وأشرف على تعليمي صناعة السيوف وأرسلني إلى مختلف مدارس فنون النزال، وإخوتي الأصغر مني سناً سائرون أيضاً على الطريق ذاته. هذه هي حياتي باختصار». فسألته، دون الخوض في أموره الشخصية الخاصة: «قل لي يا (باد) هل تودّ العيش في هذه المدينة التي تفيق على لمعان السيوف وترقد على سنان الرماح أم في واشوكاني التي تؤمن بإله الحكمة (إندرا) مثل إيمانها بإله النور وإله الطبيعة عوضاً عن آلهة الحرب التي هنا في هاتوشا؟» فأجاب بلطفٍ وأدبٍ جم: «أنا مكاني حيثما يكون سيدي. ولا يهمني إن كان في ظل آلهة السلم والحكمة أم في ظل آلهة الظلام والشر ». ففهمت أن الرجل لا ينوي إظهار شيءٍ من مشاعره أمامي، لا سلباً ولا إيجاباً

بصدد هذه المدينة التي كل ما فيها غريب لي ومثير له جداً. ثم نظر إلي برهةً وقد توقف عن المشي وقال: «لقد التقيت بمحاربٍ آشوري كان قد حضر إلى واشوكاني برفقة أميرٍ لهم، فذكرلي بأن إلههم (آشور) ليس إلا (إندرا) الميتاني». فقلت له: «نعم... هذا سمعته من معلمي (خور بَرَه ست) أيضاً، فالشعوب تأخذ عن بعضها الأديان كما تتعلم من بعضها الثقافات وفنون العمران والحروب، كما أخذ الآشوريون الصاعدون على سلّم المدنية والقوة الحربية معظم ثقافتهم من البابليين والسومريين، بفارق أن ليس لمليكهم مثيل في الوحشية أثناء الحرب، لايعرف الشفقة وقادته العسكريون مشهورون بالحزم والتطرّف العنصري وتنفيذ الإبادة الجماعية ضد الأقوام والممالك الصغيرة وباجراءات معاقبة الثائرين عليهم من خلال التشويه الجسدي. والدول العسكرية كمملكة (هاتي) هذه و(آشور) الصاعدة». فسألني الفارس الذي بدا لي مهتماً بالمعارف مثلما رأيته من قبل مهتماً بالسلاح دون غيره: «برأيكم ماذا سيحدث لو تصادمت مملكتان محاربتان مثل بابل وهاتي؟ فأجبت: «إنها كارثة بالطبع لنا نحن الميتانيين قبل الآخرين» فقال: «كيف سيتخلّص البشر من شرور الحرب والكراهية والممارسات الوحشية ضد بعضهم بعضاً، فيعيش الآشور والميتان والبابليون والهاتيون جميعاً في سلامٍ ووئام؟» فوجدتني عاجزاً حقاً عن الإجابة، لذلك اكتفيت بالقول: «إن عاشت هذه الشعوب مع بعضها في سلام، فثمة ممالك أخرى ستأتي جيوشها من بعيد لتنغص على شعوبنا الحرية والسلام... الحروب تنشب بسبب الأطماع المادية على

الأغلب، وبسبب النزاعات الدينية، ولا بد أن اليوم الذي يعبد فيه البشر جميعاً إلهاً واحداً قادم، ولكن قد تختلف أسماؤه من لغةٍ إلى لغة ومن أرض إلى أرض... ولربما لن يعبدوا أي إله... وغداً أو بعد غد قد نرى إلهاً حكيماً شبيهاً ب(إندرا) في هذه المدينة المحاربة أيضاً، وقد نجد فيها مفاتن وجوانب ناصعة غيرهذه الأسلحة المكدسة كأكوام القمامة وقد نجد فيها ما نرتاح إليه وكأننا في واشوكاني... لا أدري».وشعرت في الحال أن جوابي لم يقنعه تماماً كما لم يقنعني أيضاً فخيّم علينا السكوت ونحن نصعد درجات مصطبةٍ يجلس عليها الآكلون والشاربون أمام حانوتٍ على بابه رسم يدل على أنه «مطعم» تطل شرفته على ساحةٍ تعج بالمارة والدواب والباعة في كل الاتجاهات، وفي الوسط تمثال لباني المملكة الهيتية (زانداتا) الكبير، وعلى رأسه ما يشبه الخوذة يعلوها رأس حيوان مخيف لا هو بالثور ولا هو بالذئب يثير الرعب في النفوس.

كان الطعام جيداً وكانت الخدمة بطيئة وكان منظر الخدم مقرفاً للغاية، وكأنهم كانوا في سخرة أو أجبروا على القيام بعملٍ دون مستواهم، وكانت النظافة شبه معدومة، والذريعة الوحيدة لذلك الجانب السلبي كان على حد زعم صاحب المطعم كثرة توالي الزبائن، وكثرة المصاريف وبخاصة العاملين، على الرغم من أنهم حسب ظني كانوا يتقاضون أجوراً متدنية، وهذا ما قرأته في سيماهم الفقيرة المرهقة.

سألت صاحب المطعم عما هو جديد في المدينة، فقال لي: «ألست ميتانياً؟» فلم أجاوب. فقال: «حسناً... لا يهم... فهذا يبدو على محياك...

هذه الجبهة العالية تقول لي: أنا من ميتان». وأشار باصبعٍ له إلى جبهتي، ثم تابع قائلاً: «على كل حال، كان هنا عصبة من الميتانيين قبلكم، وبدا لي الرجال كمحاربين أو كعصابة من المجرمين وليس كتجارحسب زعم كبيرهم». فسألته: «وكيف كان كبيرهم؟» فقال: «كان ضخم الجثة قوياً كجاموسٍ قذرٍ يدعى على أطراف نهربورانتوولكنه بعينٍ واحدة يبدو أنه فقدها في قتال». فنظر إليّ (باد) فجأةً وقال: «سيدي، دعنا نذهب فالشيخ (آزر) ينتظرنا». وبالفعل سددت ما طلبه مني صاحب المطعم ثمناً للطعام الذي لم ناكل منه إلا القليل لرداءته، وانطلقنا بسرعة صوب الخان الذي خرجنا منه ضحى يومنا». وقبيل دخولنا الخان قال (باد): «سيدي، أنا لا أدري لماذا نحن هنا في هاتوشا، ولكني أعلم بأننا سنلاقي فيها أعداءً يريدون بنا شراً». فأجبته مبتسماً: «هذا صحيح... هذا صحيح يا باد».

في الخان، حيث كان ثمة حضورٍ كبيرٍ للمسافرين، بين آكلين وشاربين، ولاعبين بمختلف ألعاب القمار البدائية وسواها من «شه ش به رك» و «نه به رك» كما نسميها في (ميتان)، وهي عبارة عن (6 أو 9) أحجار صغيرة مصقولة يتم اختيارها من بين سواها على ضفاف الأنهار يتم تحريكها في مربعاتٍ مرسومة على قطع من الخشب، بهدف حصار اللاعب المقابل، وتتطلّب ذكاء وخططاً، كما كان هناك تجارٌ منشغلون فيما بينهم بالنقاش حول أسعار بضائع غير موجودة بين أياديهم ومنتجاتٍ زراعية لم تزرع بعد، رغم الدخان الكثيف الذي ملأ القاعة الكبيرة.

كان الشيخ العجوز (آزر) يجلس وحيداً في زاويةٍ غير مضيئة جيداً، وهو

غارق في التفكير وكأنه في عبادةٍ صامتة، فاقتربنا منه في هدوء، إلا أنه شعر بوجودنا وكأنه شم رائحة ثيابنا، ففتح عينيه المغمضتين في كهفين عريقين في القدم وقال: «لماذا تأخرتما هكذا؟ علينا الذهاب إلى القصر الملكي حالاً». فسألت على الفور، وأنا أجلس في مواجهته وأمد صوبه نصفي العلوي من على طاولةٍ خشبية قديمة: «تقول: القصر الملكي؟ متى؟ ولماذا؟» وفي قرارة نفسي كنت أشعر بفرحٍ كبير لأنني سأقترب بزيارةٍ كهذه من الملكة (خاتى) التي جئت بسببها إلى هاتوشا وليس بسبب زيارة أسواق السلاح وتناول الطعام في مطاعمها القذرة. فنهض من مكانه، وقال:«حاولا أن ترتديا أنظف وأجمل الثياب وتكونا خارج الخان قبل غروب الشمس». فقلت: «أنذهب لملاقاة الملك؟» فأجاب: «وهل تعتقد أنني ذاهب لملاقاة طباخ الملك؟» فقلت: «هكذا بدون هدايا؟» فابتسم وقال: «ملك الهاتيين لايأخذ من طالب طبٍ مثلك ومن حارسه هدايا، وهديتي الكبرى له هذه المرّة أيضاً هي عقاقيري التي تشفيه».قال ذلك وضحك ضحكةً طفولية رائعة. فقلت بصوتٍ خافت: «ولكن عليّ أن آخذ للملكة(خاتى) عقداً ثميناً من طرف الملك الميتاني». فلم يقل شيئاً، ثم عندما ذهبنا أنا و(باد) إلى غرفتينا وارتدينا ثياباً أنظف وأجمل وعدنا إليه، رأيته يحمل سلةً جميلة الشكل والألوان مصنوعة من أغصان الزيتون والقصب، فسألته مازحاً: «هل فيه بيض؟» فأجاب:«انتبه إلى ألا يرى احد العقد الثمين معك».

لم يمض وقت طول حتى كنا نسير باتجاه قصر الملك الهيتي الذي ذكره

يلقي الرعب في النفوس ويخلق لدى الناس قصصاً وأساطير خيالية، والعقد الثمين في كيسٍ حريري صغير، في داخل سترتي. ومررنا على عدة محطات حراسةٍ مشددة، إلا أن أحداً لم يوقف سيرنا ولم يطلب منا سلاحنا، ذلك لأن الجميع كانوا يحيون الشيخ (آزر) كما يحيّون أباهم أو جدهم إلا أنه أثناء دخولنا القصر من بوابته الكبيرة المزيّنة بشتى أنواع التماثيل الصغيرة المعبّرة عن قوة المملكة وعلاقة العائلة المالكة بالآلهة، طلب منا أحد ضباط الحراسة الواقف بين جنديين عملاقين مسلّحين تسليحاً كاملاً أن نعطي المفرزة سيوفنا ـ بل قام جندي منهما بفحص ثيابنا أنا والفارس، حتى أنه مدّ يديه إلى أطراف أحذيتنا الجلدية، وعندما لامست أصابعه الكيس الذي فيه العقد، قلت له: «هذه هدية للملكة». فسحب يده في حين كان الضابط المسؤول يفحص ما في سلة العقاقير التي صارت أمامه على الطاولة، وقال الضابط باحترام: «العفو. بامكانكم الذهاب». فقال الشيخ العجوز : «إذا احتاجت عروستك إلى عقارٍ وأنا في المدينة فلا تنسى السؤال عني في الخان الجنوبية». فردّ الضابط شاكراً: «دواءك سحري فعلاً ياعزيزي ... زوجتي تدعو لك بطول العمر كلما قدمت قرباناً للآلهة... أشكرك... أشكرك».

علمت أن المكان هو قصر الاستقبال الملكي، ولكن لم يكن فيه أحد. فانتظرنا قليلاً، وإذا بنا نسمع قرقعة حذاءٍ على المرمر الصقيل، تزداد علواً باقتراب صاحبه منا، فظهر رجل كبير العمرضعيف القامة في زيّ لا يرتديه إلا الأمراء أو الوزراء من طرفٍ أليسار للعرش الذي كان يعلو

مكان وقوفنا بدرجاتٍ عديدةٍ من المرمر الأبيض، وتقدّم منا دون أن ينحني للشيخ أو ينحني الشيخ له، في حين أضطررنا أنا و(باد) لإبداء الاحترام له، دون معرفة مستواه ومرتبته في القصر، وقال: «هل تأخرت بسبب تحضيرك العقاقير اللازمة لجلالة الملك؟» فأجاب الشيخ في هدوءٍ تام: «وهو كذلك. هل يتألم صاحب الجلالة كثيراً؟» فأجاب الرجل: «سترى بنفسك، وستقيّم الوضع بنفسك، فأنت الطبيب، أليس كذلك؟» فقال الشيخ بصوتٍ ضعيف: «وهو كذلك. هذان الشابان، الذي على اليمين مساعدي وطالبي والآخرهو حارسنا، فالطرقات خارج هاتوشا لم تعد أمينة كما مضى. أليس كذلك؟» فتلعثم الرجل وهو يقول: «وهو كذلك». وسار أمامنا على الفور صوب حجرةٍ تشرف من علٍ على طرفٍ من أطراف المدينة، حيث تحيط بها من طرفين من أطرافها حدائق ذات أشجارٍ عالية وكثيفة، على شرفاتها حراس واقفون كالاصنام، وداخلها الجدران بنوافذ كبيرة ذات ستائر حريرية مزيّنة بشتى رسومات الطيور والغزلان، ولا شيء بداخل القاعة ولا يوحي بأننا في حجرة ملك محارب، سوى سيفٍ طويل في غمدٍ معلّق فوق سريرٍ جميل وعالٍ وكبير، وفي الحجرة فتياتٌ شبه عاريات، في منتهى الجمال والرقة، يقمن بالخدمة، ورائحة البخور تمتزج برائحة زيت الزيتون الذي في مواقد تضيء الحجرة من كل أطرافها.

كان الملك طريح الفراش، لذا لم يأبه بوجودنا وبركوعنا بين يديه نحن جميعا، ولكنه قال مخاطباً الشيخ العجوز بصوتٍ ضعيف، وهويداعب ذقنه التي طالت منذ أن استبد به المرض كما يبدو: «سمعت بوجودك

في هاتوشا، فطلبت مساعدتك لتنقذني من هذه الآلام الشديدة، وطال انتظاري مما زاد غضبي عليك». فقال الشيخ بصوت الواثق من نفسه: «لم أشأ الحضور إلى جلالتكم وليس بين يدي عقاقير نافعة».

قال الملك والألم مستبدٌ به وهو يجهد بمساعدة فتاتين قويتين للجلوس مسنداً ظهره لوسائد كبيرة وجميلة: «حسناً، ها أنت هنا ومعك طلابك كما يبدو. لقد شعرت قبل أيام قلائل بحاجةٍ ماسة لأن أحك جلدي بقوة، هنا» وأشار بأصبع من يده إلى الطرف الأيمن السفلي من بطنه، ثم تابع: «واستمر ذلك أياماً، ثم حدث ما حدث. فاحمرّ الجلد، وتحوّل المكان إلى دملة، لم أعد اتحمّل الألم الناجم عنها». فدنا الشيخ من سريره، آخذاً سلة العقاقير من يد (باد) وحدّق في جسم الملك الذي اعتراه الضعف بسبب تورّم أسفل بطنه بشكلٍ واضح، إضافةً إلى اسوداد جلده، وقال للملك: «هذا خطيروأليم، ولا تنفع العقاقير لوحدها، بل عليّ إجراء عملية جراحية صغيرة لها لإخراج القذارة التي تجمّعت على شكل قيحٍ أصفرٍ، وتؤدي إلى هذه الآلام الحادة». فقال الملك الذي لم يشأ إظهار خوفه من العملية التي سيجريها الشيخ: «أليس هناك سبيل آخر، فقد سئمت المكوث في هذا الفراش؟» فأجاب الشيخ: «في الحقيقة، إن لم نقم بإفراغ هذه الدملة التي ستكبر وستؤدي إلى آلام أشد، سنضطر إلى استئصال أعضائك التناسلية». فصعقت الفتاتان كما لاحظت شحوب وجه (باد)، في حين تمالكت نفسي رغم أن الخبر قد وقع عليّ كصاعقة، أما الملك فقد صرخ بشدة في وجه الرجل الواقف معنا بنبرةٍ فيها سخرية: «لماذا لم يقل

لي ذلك أحد من أطبائنا، يا وزيري؟»وهنا علمت أن ذلك الرجل ليس إلاّ وزير الملك، فرفع الوزير إحدى يديه وفغر فاهه ليقول شيئاً ما، إلا أن الشيخ العجوز أسعفه بجوابٍ سريع: «يبدو أنهم خافوا من غضبك يامولاي». فسكت الملك مثلما ظل الوزير صامتاً وقد تحوّل لون وجهه ليصبح كلون منديل أصفر أصابه الوسخ». وما هي إلا فترة وجيزة حتى جاءت إحدى الفتاتين بإناءٍ فيه ماء ساخن وعلى إحدى ذراعيها مناديل عديدة، وتم تجهيز سرير الملك وتهيئة وضعية جسمه ليقوم الشيخ بعمليةٍ جراحيةٍ له، بعد أن أخرج موسى حادة من سلته وراح يقلّب شفرتها على موقدٍ للزيت ذي لهب ينبعث من منقار طائرٍنحاسي له عنقٍ طويل تم صنعه صناعةً محكمة وجيدة. فاستدار الشيخ صوب (باد) وقال: «تعال، ساعدني»، فعلمت على الفور أنه يريدنا الإمساك بالملك بحيث لا يستطيع الإفلات أو الحركة فيعيقه عن تنفيذ إجراءالعمليةبالشكل الصحيح، وحتى لا يُجرَحَ الملك في موضع آخر سوى موضع الورم. حينئذٍ قال الملك: «إن زالت آلامي خلال ألليل، أيها الطبيب العجوز، فستكون أنت وطلابك ضيوفاً علي غداً مساءً، وإن لم تسعفني العمليةالتي ستقوم بها، فسأرسلكم أنتم الثلاثة للعمل مدى الحياة في مملكة الجن». فابتسم الشيخ (آزر)وقال: «أنا واثق من أنكم ستنامون هذه الليلة نوماً عميقاً ياجلالة الملك. ولا أدري هل الملكة ستسمح لكم بالنوم». فابتسم الملك ابتسامة باهتة وقال: «إنها خارج أسوار المدينة وستعود غداً لترى كيف أقطع رأسك». فضحك الشيخ وقال: «بل سترى الملكة خاتى

كيف نتجاذب أطراف الحديث وأمامنا أكوام من اللحم والفواكه، وأنت في صحةٍ وعافية». فظهرت على وجه الوزير الحانق آثار استهزاءٍ مما سمعه من الاثنين. وبحركةٍ بارعة سريعة من أيادي الشيخ رافقتها صرخة أليمة من الملك الذي أغمض عينيه لكيلا يرى كيف يقوم الشيخ بشق ورمه بالموسى الحادة، فتفجّر القيح الأصفر من الدملة مصحوباً ببعض الدم، وراح الشيخ يضغط على اطراف الدملة، والملك يحاول مقاومة الضغط الشديد الذي مارسه (باد) بيديه القويتين على ذراعيه وفخذه التي في أدنى مكان العملية ، وانبعثت رائحة كريهة من جرحه، إلا أنني لم أشأ إظهار امتعاضي منها ومما يقوم به الشيخ في تلك اللحظات العصيبة. فقال الشيخ: «بالتأكيد، فإنكم ياجلالة الملك قد جُرِحتُم أكثر من مرة في الحروب». فرد الملك الذي بدا وجهه شاحباً من فرط الألم: «بل أكثر من سبع مرات أو ما يزيد... وإنني... لم..». ومال رأسه فجأة على صدره وفقد وعيه. فقال الشيخ للفتاتين في هدوء، وهو يضع مادةً لزجة على قماشٍ نظيف: «هيا لتضميده بهذا العلاج، واحرسا على أن يتم تبديل الضماد ثلاث مرات حتى ضحى الغد، وسأعود لأرى النتيجة». وبعد أن وضع العلبة التي تحوي تلك المادة الرمادية، أشار علينا بالخروج حتى ينام الملك قرير العين. فقال له الوزير الذي كان يراقب حركاتنا طوال مكوثنا لدى الملك: «إن عدم شفاء الملك يعني نهاية حياتك على وجه الأرض، وسأسهر على ألا تهربوا من هاتوشا تحت جنح الظلام». فضحك الشيخ وقال: «أنا واثق من أن أطباءه الآخرين سيفرون هذه الليلة، أما أنا

فسأتناول العشاء غداً مع الملك الهيتي وهو بتمام صحته، فهل أنتم من بين المدعوين أيضاً ياسعادة الوزير؟» فشعر الوزير بإهانةٍ ناعمة فأسرع الخطا وكأنه هارب من الشيخ الواثق من خبرته الطبية.

بعد خروجنا من القصر، وأنا غير سعيد بعدم تمكني من تقديم هدية الملك الميتاني لملكة الهاتيين خاتى الغائبة يومذاك، توجهنا إلى حانوتٍ لا يزال مفتوحاً، واشتريت منه خبزاً وجبناً وعسلاً وعصيررمان، حيث لم يكن ثمة مطعمٍ لم يغلق بعد، فقال الشيخ لي: «آمل أن تتعلّم مهنتي في وقتٍ قصير، فهي ستفتح لك الأبواب أينما سرت».

في طريقنا إلى الخان حيث مستقرنا، كان الشيخ (آزر) يتحدث عن مدينة هاتوشا، ونحن الاثنان نمشي على جانبيه، وأتذكّر حتى الآن بعض ما قاله آنذاك: «هاتوشا هذه تعيش في ظل نظامٍ عسكري صارم ولا تجد فيها تجارةً ناجحة سوى ما يتعلّق بالعتاد الحربي، بصناعة العربات القتالية، وشحذ السيوف وزرع الشجيرات التي تصنع منها الرماح والخيزران للسهام، وتكثر المحلات التجارية التي تشتري وتبيع جلود الجواميس (المقدسة) ودباغتها لمختلف الأغراض العسكرية... فهنا شعبٌ محاربٌ يتفانى في التضحية مما لديه في سبيل تحقيق أحلام ملكٍ يرى أنه الأنسب والأصلح لحكم سائر البلدان المحيطة بمملكة (هاتى) الضيقة هذه... في هاتوشا هذه تجد الصناعة عسكرية، التجارة عسكرية، القضاء عسكري، الإنتاج في خدمة العسكر، والشعب كله ليس إلا جنوداً محاربين ومدربين، لذا لن تجد محاكماتٍ عادية ولا عياداتٍ طبية بخدمة جيدة، ولا تسمع أحاديث

مملة عن حقوق البشر، وإنما كل ما على الألسنة رواياتٌ عن أحلام في التوسع والوصول إلى أعلى مراتب العظمة في خدمة ملك لا يرحم وليس لديه وقتٌ للمناظرات العلمية أو لسماع الأبيات الشعرية عن الحب والجمال، وإنما فقط لسماع المدائح التي ترفعه إلى مستوى الآلهة... ولذا فإن في هاتوشا الكثير من المرضى بعاهاتٍ مختلفة ومستديمة، والشباب المتعلم يفضّل الانتساب إلى الوحدات المقاتلة خارج أسوار هاتوشا على تعلّم الطب على أيادي معلمين غرباء يكاد لا يعرف لغاتهم وأسماء أوطانهم..».

عندما دخلنا الخان، كان عدد قليل من الضيوف في قاعة الجلوس ساهرين، وفجأة نبهني (باد) إلى جماعةٍ جالسةٍ حول طاولةٍ خشبيةٍ كبيرة يحتسي أفرادها خمراً وبينهم ذلك العملاق الذي فقد عينه اليسرى، وعندما وقعت أنظارهم علينا بدأوا يتندرون ويقهقهون، ورأيت كيف يمسك (باد) بمقبض سيفه وكأنه يستعد لنزالٍ مع الجماعة التي تبدو ميتانية الألبسة والزينة، بقبعاتهم المخروطية العالية المحاطة بمايشبه عماماتٍ بألوانٍ رصاصية وبنفسجية، وبأرديتهم السميكة العالية الأكتاف، وسراويلهم الفضفاضة الطويلة، وقمصانهم البيضاء بلون الملح الصافي. ورأيت كيف رفع كبيرهم كوباً فخارياً إلى الأعلى وهو يقول: «أهلاً بأبناء ميتان الهوريين... تفضلوا..». فشعرت بأنه يستهزىء وبأن كلامه ليس ترحاباً بنا، وإنما يريد إيهام الضيوف الآخرين في القاعة بأنه لا يضمر شراً لنا. فقال الشيخ (آزر) له: «تمتعوا بسهرتكم، فنحن عازمون على النوم،

وقد طال مكوثنا في القصر الملكي، فلا تؤاخذونا». فنظر أفراد الجماعة إلى بعضهم بعضاً وكأنهم لايصدقون كلام الشيخ، وراحوا يتهامسون ثم يقهقهون بصوتٍ عالٍ، ونحن نمشي باتجاه غرف النوم الكائنة في نهاية ممرٍ طويل مضيء إضاءة ضعيفة. وعلمت آنذاك أن الشيخ (آزر) قد ذكر القصر الملكي أمام تلك الجماعة الطائشة الشريرة، عساهم يمكثون في أماكنهم ولا يقومون بشيءٍ ضد من قدِمَ لتوه من القصر. ونظرت إلى وجه (باد) الذي كان مستعداً بالتأكيد للدفاع عنا، وأومأت إليه بالمشي أمامي وخلف الشيخ دون أن يصدر عنه ما قد تفهمه الجماعة على أنه تحدٍ لها، إلا أنه رفض المشي أمامي وأصرّ على البقاء خلفي احتراماً لي ودفاعاً لنا فيما إذا هوجمنا من الخلف.

- 5 -

ضحى اليوم التالي، دخل ضابط من الحرس الملكي إلى قاعة الاستقبال في الخان، مما أثار القلق في نفوس أفراد الجماعة الميتانية التي بدت وكأنها ظلت طوال الليل نائمةً أو جالسةً في مكانها ذاته، فحيا الضابط الشيخ (آزر) باحترامٍ زائد وقال: «أنا هنا بأمرٍ السيد الوزير لمرافقتكم إلى القصر العالي يا سيدي». فمررنا في خيلاءٍ ووقارٍ على تلك الجماعة التي كانت تحدّق بنا بعيونٍ جاحظة وأفواه مفتوحة، وإذا بباب الخان عربة ذات دولابين، رائعة الجمال، يجرها حصان ضخم الجثة ويقودها شابٌ في منتهى النظافة والهدوء والجمال، ذا شعرٍ ذهبي يلامس منكبيه ويرتدي حلةً زرقاء وكأنه طاووس من طواويس القصر الملكي، فذكّرتني العربة بأيام تعلمي فنون قيادة العربات القتالية على أيادي أبي الذي كان يأخذني معه في عربةٍ كهذه ويقضي وقتاً طويلاً من نهاره ليعلمني كيف أقود العربة وأخاطب الخيل وأرمي الرماح أو استخدم القوس والنشاب.

صعد الشيخ وصعد الضابط، ثم استدار الشيخ صوبنا وقال: «لا تفسدا يومنا هذا بمشادةٍ مع أحد. لن أتأخّرعليكما». وانطلقت العربة مسرعةً عبر شارعٍ مكتظٍ بالناس في ذلك النهار الدافىء المشرق.

قلت للفارس باد: «أرى أن من الأفضل الذهاب إلى السوق الآن ولانعود إلى الخان، إلا بعد عودة الشيخ من زيارة الملك». فأجاب الفارس: «كما يحلو لكم سيدي». فقلت: «ليس خوفاً من هذه الجماعة التي يبدو أنها هنا لتقوم بحماقة ضدنا، ولكن لا ندري كيف سيكون ردّ فعل شرطة المدينة فيما إذا حدث شجار بيننا». فقال: «لا أدري يا مولاي، ولكن الهروب منهم سيعزز ظنهم بأننا نخافهم». فقلت: «سيعتقدون أننا ذهبنا مع الضابط والشيخ (آزر) ». فأجاب الفارس: «آمل ذلك». ومشينا باتجاه السوق بحثاً عن مكانٍ نجد فيه طعاماً جيداً لنا، وهناك في آخر الأسواق العديدة رأينا العديد من الصوامع التي يخزّن فيها القمح ومعاصر يعصر فيها العنب وأقبيةً للدباغة و سواها لصناعة الخمر، ومعبداً عظيماً يرتاده الناس وهم يحملون أطباقاً عليها طعام جاهز أو مواد غذائية أو يسوقون أمامهم حيواناتٍ لتقديمها كقرابين لآلهة صماء بكماء عمياء منحوتةٍ من الصخر، أحاطوها بالكثير من الأساطيروالهيبة والخوف.

بعد تناول وجبة غذاءٍ جيد في السوق وتجولنا بين الأسواق والمعابد، عدنا إلى الخان عصراً، فلم نجد فيه أحداً سوى خدم يمسحون أرض القاعة وينظفون سجاجيدها. وسألتهم عما إذا كانت تلك الجماعة لا تزال في الغرف الخاصة بها أم خرجت من الخان، فلم يفهم أحد منهم كلامي، فقد كانوا عبيداً من بلادٍ بعيدة، لا يعرفون سوى بعض الكلمات الهيتية حسب ظني.

انتابني وأنا مستلقٍ على فراش وثيرٍ في غرفتي شعورٌ بأن أمراً سيئاً

ما سيحدث، على الرغم من أن الذين كانوا يتعقبوننا منذ خروجنا من مدينة كركاميش خطوةً خطوة، لم يكونوا في الخان آنذاك، أو أنهم كانوا في غرفهم يستريحون. فقد بحثت عنهم قبل دخولي إلى غرفتي في الصالة الرئيسية والبهو المعدّ لخدمة دواب المسافرين. لقد ضاق صدري ونصبت الكآبة خيمةً سوداء عليّ، حتى ظننت أن الباب سيفتح عنوةً على وجه غرة وتهجم علي الجماعة شاهرةً سيوفها، من قبل أن يتمكن (باد) من اكتشاف أمرها من غرفته الملاصقة لغرفتي، إلاّ أن شيئاً كهذا لم يحدث، وإنما وجدتني فجأةً جالساً بشكلٍ مريحٍ تماماً في أرجوحةٍ من الجلد والحبال تحت شجرة صنوبرٍ عملاقة لها من العمر عدة مئات من السنين، على هضبةٍ عالية، أتأرجح برتابة ونسيمٌ عليل يلاطف وجهي الفتي ويداعب خصلةً أماميةً من شعري الأسود الطويل، وأنا أنظر بعينين شبه مغلقتين إلى أبي وأمي، يتعقبان خروفاً صغيراً ورشيقاً على قطعةٍ من الأرض التي كستها الأعشاب، أمام بيتنا الصغير في قرية جبلية نائية من قرى الهوريين، من قبل أن ننزل إلى أطراف واشوكاني عاصمة ميتان، ويدخل والدي في سلك الجيش الميتاني بسنواتٍ طويلة. لقد كانا يركضان بسرعة ولكن لا يستطيعان الإمساك بالخروف، على الرغم من أنهما كانا شابين وليس كما تركتهما منذ أيام، وخلفتهما ورائي دون وداع. ومرّت مناظرٌ من حياتي في أعماقي السحيقة، وكأنها رسومٌ جدارية أمام عيني، فرأيت نفسي وأنا طفلٌ ألعب بجنودٍ وخيولٍ وقلاعٍ خشبية كان يصنعها لي أحد خدام أبي القدامى الذين كانوا قد صاروا مع الأيام جزءاً من العائلة بحكم المحبّة

والاحترام المتبادلين بينهم وبين أبي وأمي، وتذكّرت أيام صباي في قريةٍ هوريةٍ جبلية قبل أن ينتقل أبي إلى (واشوكاني) للخدمة في صفوف الجيش الميتاني، وتذكرت لهوي المليء بالخيال مع فتيان وفتيات القرية، كيف كنّا نتسلّق أشجار التين والمشمش والجوز واللوز، ونسرق البيض من قن دجاج الجيران، ونصطاد الأسماك في النهر بوسائل وطرق شتى، ونشوي لحم الطيور التي نصطادها على مواقد بدائية، ونصنع النبال والرماح، ونبارز بعضنا بعضاً بسيوفٍ خشبية وكأننا محاربون حقيقيون، ونتنازع على مناصب وزعاماتٍ مبتكرة أثناء اللعب، ونتسابق بلا هدفٍ معين، وفي المساء نستلقي على الفراش تحت قبّة السماء الصافية الزرقاء لنشرع في تعداد النجوم، أو لنستمع إلى أساطير الأولين، يرويها لنا كبار السن حتى يغلبنا النعاس وندخل عالم الأحلام. لم نكن نشعر بالفوارق بيننا بسبب الجنس، حيث كنا نستحم معاً في النهر، فتياناً وفتيات، عراةً كما خُلِقنا، وفي ليالي الأعياد كنا نستحم في النهر مع سائر نساء القرية، إلا أن الرجال كانوا يبقون بعيدين عن المكان لسببٍ كنا نجهله ونحن صغار.

كان الناس يضحّون بالحيوانات للآلهة العديدة الأسماء والأشكال والصفات، مثل (ميهرا-العشق) و (ڤايو - الريح)، ولكن كنا نسمع عن النبي (به رهيم - حارس الصنم) الذي رأى في المنام أن الله يأمره بتقديم ولده إسماعيل قرباناً له، فتحدث إلى ولده بالأمر، فأجابه :«إفعل ما تؤمر به يا أبتاه، فأنا رهن أمرك»، إلا أن إله الكون منحه قرباناً عظيماً ليذبحه عوضاً عن فلذة كبده، لأنه نجح في الامتحان ولم يتردد في التضحية التي

لامثيل لها، إلاّ أن رهبان وكهنة معابدنا الميتانية كانوا يخفون هذه القصة عنا ويحرّفون فيها تحريفاً كبيراً حتى تضيع حقيقتها أمامنا، ولنستمر على ما كانوا هم يؤمنون به أو لا يؤمنون، وإنما يستغلون الشعب الجاهل ليسيطروا عليه ويقودوه كما يشاؤون، مستعينين بالسحر الذي كانوا يجيدون علمه وفنونه ويمارسونه باستمرار لترويع المواطنين وتشديد قبضتهم عليهم. ووصل أمر التضحية ببعض كهنة المعابد لدى الشعوب المجاورة بأن كانوا يضحّون بالعبيد من البشر ، ومن النساء خاصةً، على مذابح المعابد وكانوا يحتفلون بذلك احتفالاً مهيباً يبثون به الذعر حتى في نفوس الملوك وحاشيتهم. فهل كان تعويض الولد بذبح من الحيوان دعوةً إبراهيمية لإنهاء التضحية بالبشر؟ هذا هو السؤالُ الذي كان يراودني أحياناً ولا أجد له جواباً شافياً ووافياً.

مرّ وقتٌ طويل وأنا أتصفّح فصول حياتي ولا أجد فيها مغامرةً كبيرة أو متعة مثيرة حيث المغامرات تبعث المتعة في الإنسان، غير أنني لن أنسى تلك الفتاة الجميلة، ذات العينين العسليتين والوجه الأبيض الناعم البشرة والصدر العالي والحاجبين المقوّسين والشفتين اللتين تثيران الرغبة في كل من حولها من فتيان، تلك التي أوقعتني بحبائلها المتينة ولم أعد أفكّر في شيءٍ سواها، بحيث تخليت عن كل الأصدقاء الذين لم أكن أفترق عنهم إلا نادراً، وما كانت نزاعات القبائل والعشائروالعوائل بسبب الماء والكلأ والأموال والأراضي والبيوت أو بسبب اعتداءٍ أو سرقةٍ أو خطف فتاة تبعدنا عن بعضنا بعضاً. لقد أهملت دروسي ورياضتي ومرافقتي

لأبي في الصيد ولأمي في جمع الفطر. ومع الأيام لاحظت أمي، كلما دنت مني تلك الفتاة، أن سلوكي ونمط تعاملي مع من حولي من الناس يتغيّر، وأنني لا أحب العودة بسرعة إلى البيت من بين البساتين والحقول عندما تكون الفتاة (كَينو) معنا حاضرة، فسألتني مرةً عما إذا كنت أحبها، إلاّ أنني لم أتمكّن من الإجابة عن سؤالها، فركضت بعيداً عنها من فرط الحياء. وقد صدمني قولها بعد أيام قليلة وهي ترتّب حزمةً من الورود في سلّةٍ خيزرانية كبيرة: «أبوك مصّر على إرسالك إلى الجنوب لتتعلّم لغة العرب». ثم أضافت: «وعندما تعود، يطلب لك يد بنت مقاتل هوري شهير، وبذلك يكون لك شأنٌ كبيرفي واشوكاني».

لم أتمكّن من قول شيء أردّ به على أمي، لعلمي بأنها بالتأكيد قد تحدثت في غيابي في الأمر مع أبي، ولا أحد في العائلة يحق له مجادلته أو رفض أمرٍ من أوامره.

أثناء تواجدي في الصحراء بين البدو الرحّل لتعلّم لغتهم العربية تزوّجَت من بعدي (كَينو) التي أحببتها حباً جما، فقيل لي فيما بعد أنها أُرغِمَت على الزواج من شخصٍ لم تحبه قط، وساءت العلاقة بينهما في أقل من عام فافترقا وتحولّت حياتها بعد ذلك إلى جحيم لا يطاق، في حين صارت حياتي بعد معرفتي بما حدث لها أرضاً قاحلة لا تنبت زرعاً ولا يتفجر منها نبع ماء، وبدأت أسافر كلما سنحت لي الفرصة لأبتعد عن مملكة ميتان التي اختطفت مني أحب إنسانٍ على فؤادي، وهذا الفراغ الذي لا أزال أشعر به في أعماقي هو أحد الأسباب التي دفعتني لقبول

المهمة الملكية التي أوكلني بها ملك ميتان، فلقد كنت واثقاً من أن عودتي حياً من سفري الطويل هذا من المستحيلات. ولا أنكر أن رغبتي في المغامرة وتعلّم الجديد وسماع المزيد من القصص والخوف من أن يغضب عليّ الملك (توشراتا) فيما إذا رفضت أمره هي أسباب أخرى تكمن وراء ما أقوم به الآن من سفرٍ قد لاينتهي إلا بموتي أو الرمي بي في زنزانة طاغوتٍ من طواغيت البلدان البعيدة عن واشوكاني.

سمعت طرقاتٍ خفيفة على باب غرفتي، فانتفضت من سريري وحملت سيفي الذي كنت قد وضعته بجانبي على السرير، وتوجهت إلى الباب سائلاً: «من الطارق؟» فجاء الجواب خافتاً: «أنا من القصر الملكي». ففتحت الباب لأرى رجلاً كهلاً نحيفاً لطيف المنظرونظيف الثياب ومبتسماً، وقد أحنى رأسه تحيةً واحتراماً لي، فانتظرت حتى يقول شيئاً، وفي تلك الأثناء كان (باد) قد خرج من غرفته ووقف وراء الشخص الذي وجدته غير خطرٍالبتة. وقال الرجل من دون أن ينظر إلى الوراء ليرى من يقف خلفه: «أنا رئيس خدام الملك. أنت مدعو لوليمة عشاءٍ ملكية، يحضرها كبار مسؤولي المملكة وعوائلهم، وبإمكانك إحضار شخصٍ واحدٍ فقط معك. سأنتظرك أمام بوابة القصر الأمامية».

بعد أن تتبعنا بأنظارنا رئيس خدام الملك الذي كان يتمايل صوب الأمام لدى كل خطوة، قلت للفارس باد: «هيا بنا نذهب إلى السوق لنبتاع لكلٍ منا إزاراً خفيفاً وأحذيةً تليق بهذه الدعوة الملكية».

عند المساء، استقبلنا رئيس خدام الملك على أعلى الدرجات المؤدية إلى

قصر الملك هاتوشيلي، وذلك بعد أن استلم منا أحد الحجاب سيوفنا، وأعطى كل واحدٍ منا سواراً جلدياً، عوضاً عن أسلحتنا، وعلّق بكل سيفٍ حلقةً شبيهة بالتي أعطانا إياها، وذلك لأنه كان على جميع الضيوف تسليم أسلحتهم، وبدون تأشيرة ما سيختلط الأمر على الحجاب. فسألت بعد ذلك رئيس الخدام عما إذا كان الملك هو الذي دعانا وعما إذا كان الشيخ (آزر) في القصر، فأجاب: «إنه في القصر وهو الذي دعاك وأرسلني إليك». فقلت مستغرباً: «ولكنه غريب مثلنا، فمن أين له هذه المكانة؟» فأجاب مبتسماً ونحن نجتاز صالوناً كبيراً فرشت فيه السجاجيد المزركشة وأوقدت في أطرافه مشاعل كبيرة رائعة الجمال، وفي كل زاويةٍ منه حراس مدججون بالسيوف والرماح والتروس، وعلى رؤوسهم خوذاتٌ جلدية متينة: «الشيخ (آزر) ليس غريباً البتة، والملك يحبه ويثق به تماماً، ثم إنه أمهر أطباء الملك وناصحيه، والآن أدخلا من هذا الباب فستجدان الشيخ (آزر) في انتظاركما». قال ذلك وهو يشيرباصبع من يده إلى بابٍ كبيرٍ مفتوح، تنبعث منه أصواتٌ عالية لجمهرة من الضيوف، في حين دخل بنفسه من بابٍ أصغر كان على يسارنا، بعد أن ودّعنا بانحناءةٍ حسنة.

فتح الشيخ (آزر) ذراعيه مرحباً بنا وقال: «لقد اشتقت إليكما، فكيف كان نهاركما؟» فضممته إلى صدري وكأنه أبي أو صديق قديم وسألته: «لماذا لم تعد إلى الخان؟ اعتقدت أنك غادرت المدينة بلا وداع». فأجاب وهو يلتفت لاحتضان (باد) الذي لم يتعوّد -كما بدا لي- على هكذا ترحابٍ حار: «وكيف أغادرهاتوشا من دون رؤيتكما ياعزيزي؟»

ثم تقدمنا خطوتين في داخل القاعة المكتظة بالضيوف الجالسين على مصاطب مفروشة بالسجاجيد والوسائد الكبيرة حول طاولاتٍ واسعة كبيرة مع نسائهم وخليلاتهم، حيث تمتزج روائح العطور المختلفة بروائح التوابل التي تم خلطها بالأطعمة الشهية، فقال الشيخ (آزر) : «لاتحاولا الاقتراب من امرأةٍ بدون إذنٍ أو إشارةٍ منها، فقد يؤدي تصرّف خاطئ من أحدكما إلى موتٍ محقق لكما». فسألت دون سببٍ وجيه: «وماذا عن الملك؟» فأجاب: «إنه بخير، بعد أن عالجته طوالَ النهار، وإنه قادر على السهر حتى الفجر إذ لم يعد يشعر بالألم.فسألت: «وهل من جديد في هاتوشا؟» فقال: » لقد أصدر الملك فرماناً اليوم يقضي بأن يعاقب الأجانب الذين يتقاتلون في بلاد الهاتيين بإرسالهم جميعاً إلى مملكة الجن، لذا احذروا التصادم مع الذين اقتفوا آثارنا منذ خروجنا من مدينة كركاميش، ولا تقولوا لأحد بأن كركاميش ميتانية، إذ هنا في هذه القاعة كل الزعماء الذين يعتبر ون المنطقة من كركاميش شرقاً إلى آخر مدينةٍ من مدن آرزاوا على ساحل البحر غرباً أراضي هيتية، فلتكن أحاديثكم في غير عالم السياسة».فقلت: «ولكن يبدو أن تلك الجماعة التي تعقبتنا قد خرجت من المدينة، إذ لم أرَ أي واحدٍ منها، سواءً في الخان أو في السوق. فابتسم الشيخ (آزر) وقال: «لا.. لا... إنهم هنا في القاعة، ويبدو أن أحد جنرالات الجيش الذين لهم قرابة مع وزير مملكة ميتان ومع خائن ميتان (أوتخي) قد أحضرهم معه. لا تقلقا بسبب وجودهم، فهم على علمٍ أيضاً بالفرمان الملكي الجديد، ولذا لن يهاجموا كما أرى... والآن هيا للتّعرّف

على مجتمع النخبة في هاتوشا».

في غضون ذلك، دخل القاعة الكبيرة رجال كثر، معظمهم بألبستهم العسكرية التي تزيّنها النياشين والرموز الخاصة بالقوات الملكية الخاصة، برؤساء الفيالق المقاتلة من فرسان ومشاة، وقواد فرقٍ للعربات المحاربة التي كانت ذات مكانةٍ مرموقة. ومن بابٍ آخر دخلت جماعات من النساء وهن في أجمل وأثمن الأزياء، وكانت في وسط إحدى الجماعات امرأة في الأربعين من العمرقوية الجسم، عالية الصدر العاري، بوجه ذي بشرةٍ بيضاء وكأنه ترس معدني لامع وعينين سوداوتين كعيون الغزلان، تلفت أنظار الرجال إليها بهيبتها وبالقرن المعقوف الذي يزيّن أعلى جبينها وسط تاج من الذهب المرصّع باللؤلؤ .

قال الشيخ (آزر) مشيراً إليها بإحدى يديه: «تلك هي الملكة خاتى».

فسألت بشغف: «وكيف أتمكن من الاقتراب منها لأبلّغها تحيات ملكنا توشراتا؟» فأجاب الشيخ: «دع عنك هذا إلى أن تذهب العطور والخمور بالعقول والعيون، عندها يسهل كل شيء».

في تلك الليلة، عصفت الخمور بالعقول وانطلقت الرغبات الجامحة من الصدور، وتلبدت الألسنة بحيث لم يعد بإمكان المرء التفوه بجملةٍ واحدةٍ صحيحة، وتعانقت الأجساد المسترخية، وضاعت المراتب والمناصب التي تفرّق بين الناس تحت أقدام الغانيات وتلاشت وكأنها لم تكن موجودة أبداً، حتى أن المغنين والعازفين انقلبوا إلى محتسي خمور، شأنهم في ذلك شأن الضباط الذين تحولوا إلى قططٍ سمينة بعد أن كانوا

قبل ذلك نموراً مخيفة وذئاباً مفترسة بأشكالها وأقوالها وحركاتها. كما خف الضياء الذي كان يسود القاعة رويداً رويداً لتبقى مشاعل وشموع قليلة، هنا وهناك، كيلا يرى الحاضرون التصرفات المشينة لبعضهم بعضاً إلا بصعوبة. واغتنم الخدم والعبيد الفرصة لينالوا من الطعام والشراب ما استطاعوا في خفيةٍ من عيون الحراس وجواسيس الوزير.

كان الشيخ (آزر) قاعداً في مجلس الملك هاتوشيلي مع عددٍ من المقربين للملك، وهم يتباحثون حول مختلف المسائل العسكرية والفلكية والسياسية، ويحتسون مثل غيرهم من الأقداح الرائعة الجمال والمختلفة الأحجام والأشكال، شراباً مختلفاً ألوانه.

كانت تتطرّق إلى مسمعي رغم علو أصوات الضيوف من مختلف أنحاء الصالة عباراتٌ مؤثرة من فم الملك الذي بدا وكأنه فرح جداً لتمتّع بلاده في ظل عرش بالسلام، حيث كان جيران الهاتيين يرهبون جانبهم حقاً، ومما سمعته من الملك كانت هذه الجملة التي لن أنساها أبداً: «أنظروا أيها الضيوف الأعزاء! إن جميع الملوك الأشداء الذين يمدون لنا يد السلام الآن كانوا أعداءً لنا بالأمس، وهم سيبقون أعداءً فيما إذا شعروا بأننا ضعفاء، وبدون قوة هائلة نحن ضعفاء». ومما سمعته من الشيخ (آزر)كان لايقل تأثيراً في نفوس السامعين عما قاله ملك الهاتيين، إذ قال بصوتٍ مسموعٍ من بعيد: «القوة من دون معرفة أشبه بوضع سيفٍ حادٍ في أيادي أطفالٍ لايدرون ماذا يفعلون به، فيلعبون ويجرحون به أنفسهم قبل الآخرين». فضحك الملك هاتوشيلي على أثر ذلك وقال: «الأطفال

يتحولون إلى رجال عندما تضع السيوف في أياديهم... أنا لا أضع في أيادي فتيان هاتوشا سيوفاً فحسب، بل الكثير من العربات القتالية التي تفزع قرقعة دواليبها ملوك الشرق والغرب وفراعنة مصر على حدٍ سواء».

كنا نحن الاثنين، أنا و(باد)، من القلائل الذين لم تسيطر عليهم الرغبة الجامحة في شرب الخمور اليونانية والهاتية العتيقة، وكان جلّ همي الاقتراب من الملكة خاتى التي كانت تبدو بتاجها الجميل وقرنها المثيروبشعرها الأسود الطويل أشد إثارة وجمالاً من كل النساء حولها، في حين كان اهتمام (باد) منصرفاً إلى الجماعة التي تعقبتنا طوال سفرنا من كركاميش، يحسب لها كل حساب، ولذا لم يكن ورائي أو بجانبي عندما وصلت إلى مكانٍ أستطيع منه مراقبة الملكة عن كثب، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما همست إحدى وصيفاتها في أذن الملكة (خاتى) وهي تشير بأصبعٍ صوبي، فنظرت الملكة إلي وابتسمت ثم أومأت إلي بالاقتراب منها، فوقفت أمامها بحذروهي تجلس على أريكةٍ عالية وثمينة للغاية، وانحنيت من جذعي احتراماً وخشوعاً. فسألتني: «أنت الفارس الميتاني لاوي هوري، أليس كذلك؟» فاستغربت من معرفتها بأمري وقلت متلعثماً من فرط الدهشة: «نعم، مولاتي». فنظرت إلي بعينين فاحصتين، ثم قالت: «لقد جاءتني رسالة مع حمامةٍ جميلة من عزيزنا الملك توشراتا. تعال اجلس هنا بالقرب مني». فلم أدرِ أين وكيف أجلس بالقرب من ملكةٍ تعرّفت إليها لتوي، فارتبكت وكدت أسقط بين يديها مغمى عليّ. فنكَزَت الملكة كتف وصيفةٍ لها بطرف عصاً مذهبةٍ وصغيرة كانت بيدها اليسرى، وهي

تقول: «هيا إذهبي إلى حيث العبد الأسود» فنهضت الوصيفة مسرعةً غير متذمّرة من مكانها وذهبت من هناك لأجلس عوضاً عنها ولايزال مكانها دافئاً من أثر قعودها فيه. ثم أمرت الملكة بإحضار شرابٍ لذيذٍ لي لم أذق مثيلاً له من قبل، ولم أعرف ممَ تمّ إعداده.

قالت الملكة بصوتٍ خافت، بعد أن جرعت جرعة شراب: «هيا إلى ذلك الممر حيث يقف العبد الزنجي مع وصيفتي التي أعطتك مكانها، فهو سيأخذك إلى مكانٍ تنتظرني فيه». فنهضت من مكاني وذهبت لتوي إلى العبد الزنجي، مما أثرت بذلك انتباه الجماعة الميتانية التي كانت تترصد حركاتنا بشكلٍ مستمر، فلحق بي (باد)، إلا أن العبد طلب منه بأدبٍ جم البقاء حيث هو، في حين سمح لي بالسير عبر الممر الذي بدا كدهليزمقفر، فشعرت بشيءٍ من الخوف لأني لم أرَ من قبل رجلاً مرعباً بهيكله الضخم وملامح وجهه الفولاذية كهذا العبد الأسود من قبل، بل عشت فترةً من الزمن بين عربٍ سمر الوجوه، كان لديهم عبيد من الرجال السود، إلاّ أن هذا كان من نوعٍ يثير بنظراته الفزع في أفئدة صناديد الرجال.

سار الرجل الضخم أمامي إلى آخر الممر على مهل، ثم فتح باب غرفة صغيرة، جدرانها مغطاة بصفائح معدنية تعكس ضوء شمعةٍ كبيرة تظن أنها عدة شموع متقابلة، بل ترى نفسك من سقفها مقلوباً معكوسا. ثم أغلق الباب من جديد، فظننت أنه سيظل واقفاً خارج الغرفة إلى حين خروجي منها أو سيذهب إلى مكانه السابق. نظرت حولي فإذا بي أرى عدة كراسي متقابلة أيضاً كالشموع التي تعكسها الجدران، ولم أدرِ لوهلةٍ

أيٌ منها الكرسي الحقيقي وأي منها صورة منعكسة. وبعد أن اهتديت إلى الأصلي الذي كان على طرفٍ من الباب بالبحث والتلمّس جلست عليه ورأيت نفسي في الجدران اللامعة وكأني أنظرإلى طائرٍ مرتعدٍ في قفص، ودقات قلبي تزداد سرعة ودمي يسيل في عروقي كنهرٍ في حالة طوفان وحرارة جسمي ترتفع. وانتظرت...

في تلك الأثناء، تذكّرت معلمي الكبير، الكاهن «خوربَرَست» وهو يحدثني ومجموعة من تلاميذه، في وسط حديقةٍ كبيرة، ويقول: «إن سبب كل مشاكل الإنسان هي و(ستبقى) خضوعه لشهواته، ولن يتمكن من التحرر التام إلاّ إذا قضى على هذه الشهوات الجسدية والروحية، وإن أكبر العاهات هي الجهل والذنب والطمع... بإمكان الإنسان أن يسيطر على شهوات جسده وتجويع بطنه إلا أنه لا يستطيع بسهولة ترويض روحه، فذلك يتطلّب مهارة وصبراً على الشدائد وطول تفكيروزياضة روحية لا تقل جهداً عن رياضة الجسم..».

حاولت المقارنة بين ماتذكرته من أقوال معلمي وما رأيته في تلك الليلة من فسقٍ وفجورٍ في قصر ملكٍ معروف بقساوته على شعبه، فلم أوفّق في ذلك، وظلّت تخيّم عليّ جملةٌ في علم السياسة تعلمتها من معلمي، ألا وهي: «عندما يضطر الملوك إلى الفساد للسيطرة على رعيتهم، فإنهم لا يتوانون عن نشر الفساد فيها. بل إن الفساد أحد أسلحتهم التي يجيدون استخدامها بمهارةٍ فائقة».

مرّوقت طويل، وأنا أتنقل بين ذكرياتٍ مرت وأحلامٍ لم تتحقق ولكن

التفكير فيما ستقوله الملكة وعما إذا كانت ستعطيني تلك الدمية التي جئت من أجلها إلى هاتوشا أم لا، كان يقلقني جداً، وما زاد في نفسي من مخاوف هو أن الملكة (خاتى) أرادت الإنفراد بي في هذه الغرفة الغريبة، فماذا سيحدث لي إن كانت لها نوايا سيئة، وبخاصة فإن (باد) قد مُنِع من المجيئ معي إلى هنا؟ أو ماذا سأفعل إن هاجمتني الجماعة التي تتعقبناالآن وأنا أعزل وبدون حماية؟

وأخيراً فتح بابٌ في الجدار المقابل لي، فإذا بفتاةٍ رائعة الجمال، في ثيابٍ رقيقة لا تغطي إلا قليلاً من مفاتنها، وأحنت برأسها احتراماً وقالت: «تفضل يا سيدي». فنهضت وسرت وراءها إلى وسط غرفةٍ أكبرومزدانة بزينةٍ لا تخطر على بال، كل ما فيها ثمين وغريب، و كل جدرانها مغطاة بستائر كبيرة، بحيث لم أرَنافذةٍ أو باباً سوى الذي خرجت منه. وأشارت علي بالتوقف في وسط الغرفة التي في وسطها كرسي عظيم ظننت أنه مصنوع من العاج ومرصّع بشرائط من الذهب. واختفت الفتاة وراء الكرسي فلم أعد أراها، ورحت ألتفت حولي دون هدفٍ معين سوى التمتّع بالنظرفي آثار الثراء الكبير للعائلة الحاكمة في هاتوشا، وإذا بالملكة تخرج من خلف الكرسي الكبير والعالي، وهي في أجمل وأغلى حلةٍ نسائية تعكس رغبتها في أن تسيطر على كل من تقع عيناه عليها، تفوح منها رائحة عطرٍرائع وقد وضعت عن رأسها التاج والقرن الغريب، فوجدتها امرأةً لا يقدر أي رجل على رفض أمرٍ من أوامرها لفرط جمالها وسطوة أنوثتها وحسن اختيارها لألوان ثيابها، وبسبب رقة ألفاظها وهدوئها

لدى الحديث.

أخرجت من داخل سترتي الجلدية القلادة الذهبية التي أعطاني إياها ملك ميتان لتكون هدية الملكة (خاتى)، فلما وقعت عيناها على القلادة المرصّعة بالمجوهرات، سألت بشغف: «هل هي منك؟» فقلت وأنا أقدمها إليها: «إنها هديةٌ متواضعة لكِ ياسيدتي». فابتسمت ابتسامة لم أرَ أي امرأة تقدر عليها، إذ لم أفهم أكانت ابتسامة ساخرة أم دليل قبولٍ بما قلت، وقالت: «إنه غير مسموح لنا في عائلة الملك أن نأخذ هدايا سوى من الملوك والأمراء، فهل أنتَ أمير؟» فأجبت: «لا يا مولاتي، إني لست أميراً ولكن هذه القلادة هديةٌ لجلالتكِ من ملك ميتان توشراتا». فحدقت جيداً في عينيّ لتتأكّد من أني صادق القول، فشعرت بسبب نظرتها الفاحصة تلك بضعفٍ سرى من رأسي إلى ركبتي، وفي لحظةٍ من اللحظات تراءى لي أن الجارية التي فتحت لي الباب من قبل، تسيرعبر الصالة الكبيرة صوب الملك وتنحني باحترام له ثم تهمس له بكلامٍ سمعته لوحدي من دون كل الناس هناك، وهي تقول: «هناك شابٌ غريب انفردت به سيدتي الملكة في مضجعها». فيصفّروجه الملك الهيتي ثم يحمر، ينتفض من مكانه كذئبٍ غاضب على من حوله ويصرخ باتجاه وزيره الذي يراقب جميع من في القاعة من على مقعدٍ عالٍ وكأنه عُقابٌ جبلي ينظر إلى السهل من مكمنه بين الصخور لينقض على فريسةٍ ما. كما تراءى لي كيف يمتشق الحراس سيوفهم ويسرعون صوب الباب الذي يحرسه العملاق الأسود، ويطعنون معاً (باد) الذي كان لايزال يحاول اقناع العملاق بالسماح له

للمجيء إلى حيث أنا، في حين ينهض الميتانيون الذين كانوا يتعقبوننا من قبل ويركضون أيضاً صوب الباب ذاته، وفجأة سمعت صوت الملكة (خاتى) وهي تقول: «هل تسمعني؟» فاختفى الوزير والعبد الأسود والميتانيون و(باد) وكذلك الجارية، ووجدتني أشبه بصنم بلا سمع وبصر في حضرة الملكة لوحدي، كما كنت قبل ذلك بلحظات. فقلت وأنا أتلعثم: «لاتؤاخذيني سيدتي، فلقد غفلت لحظةً في حضرتكِ». فضحكت وهي تأخذ القلادة من يدي وتضعها على وسادة زرقاء عالية وكبيرة كانت على طرفٍ من مصطبةٍ مفروشةٍ بسجاجيدَ ثمينة وقالت بلطف: «هل تعتقد أن نظراتي قد سحرتك؟ لا تخف فأنا لست ساحرة وإنما امرأة مثل سواي من نساء الدنيا. الناس تخافني عندما يكون التاج ذو القرن العالي المعقوف على رأسي، ولكن ها أنا ذا كما تراني مجرّد امرأة». فشعرت بأن الملكة(خاتى) صادقة فيما تقول، فالقرن المعقوف ليس إلاً رمزاً من رموز القوة وجبروت السلاطين في سائر المعمورة وهو أداةٌ من أدوات بث الرعب في نفوس الرعية عندما يرون الملوك ونساءهم عن كثب، وفي الحقيقة إنها امرأة لابد وأنها تمارس الجنس مستلقيةً مع زوجها وينتابها الضعف أمام الرجال الوسيمين الأشداء، وقد تكون أمّاً لأطفالٍ تخاف عليهم كما تخاف الأرنبة على صغارها، وتسهر عليهم وتبكي لأقلّ سوء يصيبهم. لذا تمالكت نفسي وقلت: «سيدتي، لا أريد أن آخذ من وقتكِ الكثير، فاسمحي لي بالسؤال عما إذا..». فقاطعتني برقةٍ ممتزجة بأنوثةٍ طاغية، وهي تجلس على طرف المصطبة، بحيث رفعت إحدى

ساقيها لتضعها على كرسي صغير، فانزاح ثوبها عن ساقها العاجي اللون، في حين أسندت ظهرها إلى تلك الوسادة، حيث كانت القلادة تلتمع بجانب كتفها : «ستحصل على ما تريد... انتظر... أنا أعلم لماذا أنت هنا... هذا المجنون توشراتا أرسلك من ميتان من أجل دمية خيزرانية، أليس كذلك؟» فأجبت: «نعم يا سيدتي الملكة». وبنظرةٍ خاطفةٍ مني إلى ساقها اندلعت في قلبي نار رغبة حادة للتقدّم صوبها واعتلاءها قبل أن تتفوه بكلمةٍ أخرى، إلا أن جملةً من كلام الملك الميتاني لي، أثناء تكليفي بمهمتي، أعادتني إلى رشدي على التو، حيث قال: «إن ملك الهاتيين (هاتوشيلي) يحب اصطياد عشاق نسائه. وعندما يصطاد أحدهم فإنه يشويه على نارٍ وسط المدينة (هاتوشا) كما تُشوى الخنازير والخراف في معسكرات الجنود..».

يبدو أن الملكة (خاتى) كانت تعلم شيئاً عن مهمتي، فقالت: «لن أثنيك عن مهمتك وسأطلق سراح الحمامة التي جاءتني من الملك توشراتا لتطير إليه عائدةً برسالةٍ مني». وشعرت أنها ما كانت لتغامر معي بمتعة سريرية عابرة، في تلك الليلة، أنا الغريب غير المنحدر من عائلةٍ ملكية رغم أن معظم الضيوف الحاضرين سكارى، أو أن كل ما سمعته عنها من فم الملك الميتاني لم يكن إلا غراميات خيالية ليس لها أساس، وصلت إليه عن طريق مسافرين أو تجارٍلم يروا الملكة (خاتى) إلا عن بعد، أو هي أخبار ملفقة نشرها جواسيس بين رعية الملك الميتاني بهدف إلهائها بقصصٍ مختلقة ليبدو الجواسيس بسردها وكأنهم يعلمون تفاصيل العلاقات

العائلية للملك (هاتوشيلي) في مدينة (هاتوشا)، وليس هناك من يتأكد فيما إذا كانت رواياتهم صحيحة أم كاذبة. فرأيتني مضطراً لإنكار وجود أي مهمة لي، ولكني لم أتفوه بكلمة خوفاً من أن تشرع في طرح أسئلة أخرى فتحفر بها في عقلي أعمق وأعمق، وأنا منجذب إلى جسدها الذي يثير في نفسي شهوةً رجولية قاتلة، فأقول لها شيئاً عن مهمتي، وأفشل في كتمان الأمر، وهذا ما سيعرّضني للقتل بمجرّد أن تطأ قدمايَ أرض ميتان. وفكرت للحظة في احتمال أن الملك الميتاني هو الذي طلب من الملكة (خاتى) السؤال عن مهمتي ليعلم عما إذا كنت قد أخبرتها بها أم لا. لا أدري... ولذلك آثرت الحصول على الدمية والخروج بها من حيث أتيت في أقرب فرصة.

نظرت إليّ الملكة وهي تغطي ساقها العارية بإحدى يديها، فتصورت في لحظة أنها تقول لنفسها: «هذا الغبي لم يفهم إشارتي له بأني اودّ مضاجعته». ولكن تصوّري لم يكن سوى ظن، والظن لا يغني عن الحقيقة شيئاً، ثم صفّقَت بكفيها مرةً، فإذا بتلك الجارية تحضر وتنحني في إجلال، وفي يدها كيس قماشي صغير، فقدمته للملكة وتراجعت خطوتين إلى الوراء ووقفت صامتةً بلا حراك في مكانها، فأخرجت الملكة من ذلك الكيس دميةً صغيرة تزيد قليلاً عن حجم يدي ووضعتها أمام ناظريّ واقفة على قدميها، وقد تم تزيينها بثوبٍ من الحرير الأبيض فتبدو كعروسٍ في ليلة زفافها، ثم أوعزت بإشارةٍ من يدها للخادمة التي أحنت رأسها ثانيةً وذهبت. ثم قالت لي الملكة وهي تنهض من مكانها وتتجه صوبي، حتى

لامست أطراف إزارها ركبتي التي سرت فيها قشعريرة قوية، ومدّت إلي الدمية بعد أن وضعتها في الكيس ثانية، وقالت: «هيا أربط الكيس عليها كما يقفل الرجل الباب على عروسه بعد دخولها بيته، ولا تحدّث أحداً بأنك استوليت عليها». ولما لامست أصابعها يدي التي امسكتُ بها الكيس شعرتُ بأنها في الحقيقة ساحرة وانكارها ذلك لم يكن إلاّ تمويهاً على حقيقتها، و قالت هامسةً: «أنقل سلامي ومحبتي لصاحبة الكيس، ولعنتي ألفظها على من يضر بها ويؤذيها». فأردت السؤال عما إذا كانت تعرف هدفي من طلب الدمية التي أهدتها إياها (دوتى خيبا)، إلا أني علمت أن لم يبق ثمة سببٍ من الأسباب لقولٍ شيء آخر أو لبقائي لديها، فاستأذنت بالانصراف، بعد أن قلت: «آمل أن تصل الحمامة إلى واشوكاني بسلام». فهزّت رأسها بالإيجاب، ورجعتُ خطواتٍ إلى الوراء قبل أن أنحني احتراماً لها، فقالت وأنا أتوجه إلى باب الغرفة: «أعلم أنك لاتحتاج إلى مال، ولكن رغم ذلك سأرسل لك قليلاً منه إلى حيث أنت تقيم». وقبل أن أعترض على كلامها، كانت قد خرجت من ذلك المكان الذي لن أنساه مدى الحياة. وقلت لنفسي وأنا سائرفي الممر الذي جئت عبره من قبل: «لا بد أن يكون بين ملك ميتان وهذه الساحرة الجميلة أسرار..». ثم ردّ على ذلك من أعماقي صوت آخر: «وما علاقة ذلك بمهمتك؟ أسكت يا رجل وأخرج من هاتوشا في أسرع وقت».ولذا، فكرت في أن أهم شيءٍ علي القيام به بعد أن حصلت على الدمية التي أخفيتها في أحد جيوب سترتي الداخلية الواسعة هو الخروج من ذلك الممر الذي انقلب في نظري إلى

نفقٍ طويلٍ ومعتم، فأسرعت الخطى للالتقاء من جديد ب(باد) وتوديع الشيخ (آزر) الذي تيقنت في قرارة نفسي أنه مرسلٌ من قبل ملك ميتان لمساعدتي في الوصول إلى حيث الملكة خاتى والخروج من عندها بما قد جئت من أجله إلى هاتوشا، وصار أملي الوحيد الخروج من المدينة باتجاه الجنوب، صوب البحرو من هناك إلى وادي الفراعنة، ولا شيء آخر .

» لا... لا... لقد نسيتُ أمراً هاماً، ألا وهو الخروج من المدينة من دون أن تتعقبنا الجماعة الميتانية بعد الآن«.

رأيت العملاق الأسود لا يزال واقفاً على الباب، ولمّا سمع وقع أقدامي أفسح لي المجال للخروج وأحنى رأسه إحتراماً من دون أن يتفوه بشيء، في حين قال (باد) الذي بدا قلقاً حينذاك:

«لاتؤاخذني، هذا الرجل لم يسمح لي بالمجيء إليك، فلو حدث لي هذا خارج القصر لقطعت رأسه».فابتسم العملاق وقال بلطف:

«كل الذين خنقتهم بيدي هاتين حتى الآن تمنّوا قطع رأسي مثلك». وعاد إلى وقفته في منتصف باب الممر.فربتّ على كتف (باد) وشكرت العملاق الأسود وأنا أضع في يده قطعة نقود ذهبية، فأخذها دون أن يرفّ له جفن وكأن من مثله لايهتم بالذهب أبداً.

من بعيد، كانت عيون كلٍ من وزير الملك، الراصد لكل حركات وتصرفات الضيوف والخدم والعبيد، وعيون الرجال الميتانيين تحدّق بنا، وكأننا قمنا بما لا يليق بتلك السهرة العامرة، إلاّ أنها كانت الفرصة الوحيدة لي للالتقاء بالملكة (خاتى) في تلك الليلة، ولأن التقائي بها تكلل

بالنجاح في الخطوة الأولى من مهمتي لذلك لن أهتم بأي رد فعلٍ يبدر من أيٍ كان. فاتجهت إلى بابٍ كبيرللخروج وكلي أمل في أن يتبعنا الشيخ (آزر) لأتمكن من توديعه، عساه يخبر الملك الميتاني بأني قد حققت نجاحاً في هاتوشا.

- 6 -

خرجت مع (باد) من القصر، وأخذنا سلاحنا من الحجّاب ونزلنا إلى ساحةٍ واسعة، حيث كان يهب عليها هواء عليل، كنت بحاجةٍ ماسةٍ إليه، بعد أن سبب لي القلق الذي انتابني في حضور الملكة (خاتى) وجع رأسٍ شديد، وما كرهته في الصالة من العطور وروائح اللحوم المشوية وعرق الضيوف المتخمين، وكم كان يزعجني منظر أولئك الضباط الذين يحتضنون جارياتٍ شبه عارياتٍ وهم سكارى، في ذلك الجو الخانق والهواء الفاسد، في حين كانت السماء خارج القصر زرقاء وصافية تتلألأ فيها النجوم التي سحرت قلبي على الرغم من شعوري بشيءٍ البرودة، ونحن في انتظار الشيخ (آزر) الذي لن أغادر هاتوشا من دون معانقته وتقديم الشكر الجزيل له.

يبدو أن الشيخ (آزر) رآنا ونحن نغادر القصر، فإذا به بعد قليلٍ من الوقت يلتحق بنا، فوجدته يسعى صوبنا هابطاً الدرجات العديدة بحذرٍ شديد، إما لأن عينيه ضعيفتان أو لأنه كان ثملاً بعض الشيء، فقال وهو يقترب منا: «أراد الملك أن يضع عربةً لنقلي إلى الخان فاعتذرت». فسألته: «وكيف ترفض إرادة ملكية؟» فقال: «وددت أن أتكلّم معكما قليلاً في

الطريق، بعيداً عن آذان من في الخان». فقلت: «تفضّل أيها السيد العزيز». فقال ونحن نسير معاً في الساحة على مهل، حيث كان يتوسطنا أنا و(باد): «لا أدري لماذا أرسلك ملك ميتان إلى هاتوشا، إلاّ أنه طلب مني مساعدتك في الوصول إلى الملكة (خاتى)، ولكنك تصرفت بشكلٍ خاطئ ولا أدري أين اختفيت عن أنظاري فجاةً بعد أن جلستَ بين يدي الملكة. لقد نبهتكما من قبل إلى أن تصرفاً خاطئاً من أحدكما قد يؤدي بكما معاً إلى الموت. لا أدري ماذا قالت لك الملكة إلاّ أنني سأزورها غداً، وستكون فرصةً سانحةً لك للالتقاء بها في عرينها الذي يحلم كل رجال هذه المدينة في الدخول إليه مرةً في الحياة». فقلت: «أشكرك من أعماقي ياعم، لا حاجة لي بذلك، فأنا نقلت إليها تحيات ملك ميتان، وسلمتها هديته الثمينة، وقالت بأنها سترسل لي بعض المال غداً إلى مكان إقامتي. وغداً سأخرج من المدينة، وأملي هو أن تخبر ملك ميتان بأن كل شيء يسير على ما يرام». فابتسم الشيخ وقال: «أراكما تخفيان عني ما هو أهم من نقل تحياتٍ ملكٍ إلى ملكة!» فأجبت: «لن أكذب عليك ياعم، فأنا جئت إلى هاتوشا من أجل الحصول على «دميةٍ»كانت بحوزة الملكة (خاتى)، وقد أخذتها منها أثناء حديثكم مع الملك هاتوشيلي». فكم كانت دهشة (باد) كبيرة عندما سمع ما قلته أخيراً، إذ فغر فاهه وحدّق فيما حوله وكأنه خاف من أن يسمعنا أحد فينقض علينا من أجل تلك الدمية التي لا بد وأن تكون ثمينة للغاية.

- «أجئتَ إلى هاتوشا من أجل دمية!» قالها الشيخ غير مصدّق كما بدا

لي.

-«نعم من أجل دمية. لا أكثر ولا أقل».

-«لا أكبر ولا أصغر!»

وراح يستعين بإحدى يديه راسماً في الهواء شكل الدمية التي لم يرها بعد. فأضطررت أن أخرجها وأريهما كليهما تحت ضوء قنديلٍ كان معلقاً بجدارٍ قريب. فسكت الشيخ ولم ينطق بكلمةٍ أخرى، ولم أتمكن من متابعة الحديث مخافة أن يطرح الشيخ (آزر) أسئلةً لا أودّ الإجابة عنها. لذا سرنا صوب الخان من دون أن نستمرفي الحديث.

تراءى لي وأنا فرحٌ بحصولي على «الدمية» الملكية بأني أصعد على درجاتٍ عالية كثيرة إلى حيث تجلس ملكة مصر (دوتى خيبا) الميتانية في وقارٍوأبهةٍ لا مثيل لهما، فأتقدّم صوبها محني الظهروالدمية العروس على طبقٍ ذهبي من دون أن أنظر إلى الملكة التي رؤيتها قد تكلّفني عنقي، حيث النظر من الرعية إلى وجه أحدٍ من العائلة الفرعونية ممنوعٌ بتاتاً، وعندما أصل إلى حيث تستطيع (دوتى خيبا) أخذ دميتها، تخرج من جانب العرش امرأة وتضرب بيدها الطبق الذي أحمله عالياً فوق مستوى رأسي، فتطير الدمية في الفضاء، وأقع على الأرض متألماً حزيناً. وفجأة صاح (باد): «إنتبه للدرج»، فعدت إلى رشدي، وإذا بنا أمام باب الخان، حيث بعض المسافرين يدخلون عبره إلى صالة الاستقبال وآخرون يخرجون. وفجأةً سمعت صرخةً من الخلف، فإذا بخمسةٍ رجال من الجماعة الميتانية التي يرأسها الرجل الضخم ذي العين الواحدة تكاد تحيط بنا، وقد امتشق

أحدهم حسامه، وقال وهو يقترب مهاجماً على (باد): «هذه نهايتك هنا في هاتوشا يا قاتل أخي».

ما هي إلا لحظات حتى كان ينزف دماً بغزارة على رصيف الطريق، حيث سل الفارس سيفه وطعنه في بطنه بسرعة عجيبة،» فصرخ كبير الجماعة: «ألا تراه ثملاً يا قاتل؟»، ولا أدري كيف انقلب الوضع فجأةً إلى نزالٍ بالسيوف بيننا، والشيخ (آزر) يحاول أن يمنعني بما أوتي من قوة، ويدفعني إلى الوراء ما أمكن، وهو يقول: «لا تكونا أحمقين... لا تكونا أحمقين»، إلا أن الجهل استبد بنا وبهم والغضب جرفنا وإياهم آنذاك، وسقط ثلاثة آخرون من رجال الجماعة الميتانية قتلى بسيوفنا أنا و(باد)، في حين لاذ كبيرهم الأعور بالفراروهو ينزف دماً من وسطه ويحاول إيقاف نزيفه بكلتا يديه المخضبتين بدمٍ بدا قاتماً في الظلام الذي يكاد يخفي كل ما حولنا، إلا أن ضوء القناديل العالية المضيئة في الجدران الخارجية للبيوت كان يسمح لنا ببعض الرؤية. توقفنا مذهولين لما جرى ونحن نعلم بأن هذه الفعلة النكراء ستغيّر مجرى حياتنا، ولربما إلى الأبد.

نظرت حولي إلى الجثث التي تسيل منها الدماء التي تبدو في سيلانها كأفاعي سوداء في الليل، وسألت (باد) عن سبب قتله شقيق أحد هؤلاء المهاجمين، فأجاب: «يبدو أن أحد الذين قتلتهم يوم مجيئنا من داركم كان أخاه».

التفتُ صوب مصطبةٍ كانت على الطرف الأيمن من باب الخان لأرى الشيخ (آزر) مستلقياً وهو يضغط بيديه على وسطه، فركضت صوبه

لأعلم ماذا حدث له، فإذا به يقول: «أخرجا من هاتوشا قبل أن يُقبَض عليكما فتهلكان». وإذابه يرفع إحدى يديه ويتابع: «يا للشيطان، لقد مزّق أحدهم أحشائي». ففكرت لحظةً في أن أتركه على تلك الحال قبل أن يتم اعتقالنا الذي سيجلب لنا الموت بالتأكيد، فناديت (باد): «هيا بسرعة، اجلب خيولنا لنخرج من هاتوشا فوراً» ولدى محاولتي رفع الشيخ (آزر) ضغط بيده الملوثة بالدم على ذراعي وهو يقول: «دعني، وأهربا بسرعة... أرسلني ملك ميتان لأفتح لك الأبواب، ولكن... هذه الدمية... أنا... أنا..». وكان ذلك آخر ما تمكن النطق به، فلقد شعرب ببرودة جسده بين يدي، وذرفت دموعاً سقطت من وجهي على وجهه، إلا أنها كما شعرت في تلك اللحظات الرهيبة لن تعيده مهما كانت صادقة ووفية. ولم أدرِ كم تجمّع من المسافرين والسائرين حولي في تلك اللحظات العصيبة، وسمعت (باد) يناديني وهو يُبعِد عني الناس ملوّحاً بسيفه بينهم: «سيدي... هيا... هيا بنا..». ولكن لم يمض وقت طويل على مجيء العسس الليلي الذي كبَل أيادينا إلى جانب بعضنا بجنزير طويل وثقيل وبارد، وتم اقتيادنا إلى جهةٍ مجهولة، من دون أن أعلم هل مات الشيخ (آزر) أم أغمي عليه وإلى أين هرب الرجل الأعور الضخم!!!

- 7 -

لم تكن محكمةً كالتي زرتها مرةً في مدينة (خلمان) أو (هه له با) في شمال سوريانا أثناء عودتي من بادية العرب، ولم تكن محاكمة عادلة، على الرغم من إلحاحنا وإصرارنا على أن الجماعة من بني قومنا الميتاني هي التي هاجمتنا فدافعنا عن أنفسنا، والقاضي الذي كان أشبه بالسائر نائماً أو أنه كان ثملاً، ما كان ليفهم جيداً دفاعنا عن أنفسنا، واكتفى بأن قال قبيل النطق بالحكم الجائر: «لقد قمتما بتجاوز فرمانٍ ملكي، وعقوبة ذلك لديناقاسية. لذا فإلى مملكة الجن وهذا قصاص رادع أعلنه عليكما باسم الملك هاتوشيلي بن زانداتا، حتى لايتقاتل الأجانب في بلادنا. وسيلحق بكم كل من ساهم في نزاعكما الدموي في هذه المدينة الآمنة أيها الغرباء الجهلة!» فخرّ الجميع ساجدين، ونحن أيضاً لدى سماع اسم الملك، وبالفعل كان ذلك السجود أشد وقعاً عليّ من الحكم الذي نطق به القاضي، الذي لايعرف الرحمة ورمى بنا في جحيم لايطاق وأقفل علينا سبعة أبوابٍ خلف بعضها بعضاً مصنوعة من مادة الحديد إلى آخر حياتنا.

من شدة ألمي في تلك اللحظات العصيبة، صرخت بالقاضي: «أنت بنفسك قلت لنا بأننا غرباء فكيف تحكم علينا بهذه القساوة، فنظر من على

كتفه الأيسر وهو يغادر ديوان المحكمة ويحاول السيطرة على أقدامه حتى لايقع من شدة سكره أو لحاجته الماسة للنوم، وأظنه أراد الرد عليّ هكذا: «وهل تعتقد أنني سأحكم بخلاف مرسومٍ ملكي لمجرّد أنكما غرباء جاهلون؟» وإذا ب(باد) يربت على ذراعي ويهمس: «لا تفقد الأمل، فسنجد حلاً ولربما قبل وصولنا إلى مملكة الجن. المهم الآن أن نفكّر في أمرين: البقاء حياً رغم المشاق والتأكّد من أن الشيخ (آزر) لايزال على قيد الحياة». فقلت والدموع تتجمع في عيني:» أو أنه فارقنا إلى الأبد!».

لم نعد نتحدث مع بعضنا، حيث تجمّع العساكر الخادمون في المحكمة حولنا وراحو يشتموننا ويسخرون منا ومن جهل الواشوكانيين الميتانيين، وهم يدفعوننا ويركلوننا صوب عربةٍ عليها قفص معدني كبير، تفوح رائحة نتنة من داخله، وقد أسدلت ستائر سميكة من جلود الحيوانات على قضبانه الغليظة من جهة الداخل، فصعدنا إلى داخله، ورائحةٌ نتنة تنبعث من القش الذي لم يُغيّر لسنوات والذي سيكون فراشنا حتى نصل إلى «مملكة الجن».

في داخل القفص الذي تم إقفاله من الخارج بشكلٍ محكم، كان قليلٌ من الضوء يتسلل من خلال الفراغ بين قطع ستائره بحيث يسمح لنا ببعض الرؤية، وكان يقبع رجلان بثيابٍ رثة ومظهرٍ لا تتقبله العين لأوّل وهلة، إضطجع أحدهما على طرفٍ من القش المفروش دون اكتراث بوجودنا، وتظهر أسنانه الأمامية الكبيرة التي معظمها مغطى بقشرة من الذهب، فأشار علينا الرجل الجالس إلى جانبه في هدوء بما

يشبه الهمس بأن لانتحدث كثيراً لأن الرجل المضطجع مشكوك بأمره، فقد يكون جاسوساً ينقل الأخبار لمسؤولين شأنهم معرفة كل شيءٍ عن المساجين، ولربما هو يقظ ويصطنع النوم، فأومأت برأسي صوبه شاكراً على هذه المعلومة، ولكن (باد) همس في أذني قائلاً: «ربما يكون هذا أيضاً جاسوساً». فتعجبت لحذر (باد)، فانتفض المضطجع عندما طلب منه (باد) أن يفسح لنا المجال للجلوس في الطرف المقابل له، فبدت أسنانه المذهّبة في أشنع صورةٍ مكروهة، في حين ابتسمنا نحن ساخرين من مرآه، حيث كان وجهه يبدو كوجه دبّ جبلي عظيم. وفي الحقيقة فنحن من أبناء (واشوكاني) لانطيق هكذا أوضاع لا تليق بالبشر، إلاّ أننا وجدنا أنفسنا فجأةً في أرذل وضع، وسأل الشخص الضخم: «أأنتما أخوان؟» فأجبت على الفور: «لا... نحن أصدقاء». فقال الآخر: «أنتما غرباء عن هاتوشا»، فأجاب (باد) دون أن ينتظرني: «نحن من جنوب سوريانا، من بلاد سوتو». فقال الرجل ورائحته تشبه رائحة كلبٍ نفق منذ أيام: «ستخبرونا خلال رحلتنا التي قد تدوم ثلاثة أيامٍ عن نساء سوريانا وأسواقها وموسيقى شعوبها..».

هنا سألت الرجلين: «قبل ذلك سنستمع إلى قصة اعتقالكما، حتى نزداد تعارفاً. فمن يبدأ منكما بالحديث؟»

نظر الرجلان إلى بعضهما بعضاً، ثم قال الذي كانت أسنانه أيضاً صفراء ومنخورة: «على كل حال، لابد لنا من الحديث وسرد القصص لأن الطريق طويلة، وفي الحقيقة قد لا نصل إلى نهاية طريقنا فنقتل على أيادي

الحراس أو اللصوص الأشقياء الذين يهاجمون القوافل والمسافرين، ولا يريدون ترك شهود عيانٍ على جرائمهم أحياءً وراءهم، فيقتلون السجناء القابعين في الأقفاص أيضاً. لذا سأسرد لكم قصتي، بعد أن نبتعد عن (هاتوشا) وقبل أن نقع في أيدي قتلة لا يرحمون».

وبالفعل بعد مرور أكثر من يومٍ كامل ونحن على تلك الحالة المزرية في طريقٍ غير ممهّد بما يناسب سيرٍ العربات، ومن دون أن ينتظر موافقتنا على الحديث شرع في الكلام عن نفسه وعائلته والفقر الذي عاش فيه دائماً، وتحوله في النهاية إلى لصٍ محترف، همه في الحياة أن يحصل على ما يسد رمقه ويقيه من البرد والحر. أما البيت فلم يكن سوى كوخٍ صغير وحقير لا يأوي إليه إلاّ نادراً، بل كان يحاول إيجاد مكانٍ ينام فيه في البيوت المهجورة أو غير المسكونة أو لدى أصدقائه وزملائه في المهنة، وأحياناً كان يأوي إلى الكهوف عندما يكون برفقة آخرين ليتمكنوا معاً من الدفاع عن أنفسهم ضد هجمات الدببة والذئاب والأشقياء المسلحين. وذكر بأنه نام مراتٍ لا تحصى في أقبية السجون، ولكن هذه هي المرّة الأولى التي يتشرّف بدخول قفصٍ ينقله من قذارة المدينة وفقر القرى إلى مملكة الجن التي وصفها ب«العظيمة»، حيث كانت جريمته الأخيرة كبيرة في رأي القاضي الذي تسلل اللص إلى بيت أحد أقرب أصحابها الأثرياء، وتم القبض عليه من قبل الخدم والعبيد، فأقسم الثري الغاضب بأن هذه ستكون آخر سرقةٍ يقوم بها اللص في حياته. وقال في ختام قصة حياته التي سردها لنا: «لقد عانيت الكثير من الآلام والحرمان والجوع والعذاب

المختلف الألوان، وكنت أعلم أنني أقوم بعملٍ سيء، إلا أني عرفت مع الأيام أن الناس مهما ازدادوا مالاً كانوا أشد تعاسةً مني أنا اللص، وكنت أشعر بحريتي من دون أي ارتباطٍ فعلي بالمجتمع الذي تحوّل في نظري مع الأيام إلى مجرّد لصٍ عملاق أشد حذاقة وبراعة منا نحن اللصوص الصغار، لما رأيته وسمعته مما يجري في أسواقه وقصوره من معاملاتٍ أحقر وأدنى مما كنا نحن نقوم به». فسألته: «ألم تكن تشعر بالندم وأنت تسرق ماليس لك؟»

صمت قليلاً ثم رفع عينيه إلي وقال:«يبدو أنك سيد عاقل ومهذّب. فهل قضيت يوماً واحداً في حياتك جائعاً؟ أنا لم أسرق لأصبح ثرياً، ولكن الأثرياء يسرقون أموال الآخرين وهم يملكون كل شيء وغير جائعين مثلي».

فكّرت لحظةً فيما قاله اللص، وكدت أجد ما يقوم به من سرقات صحيحاً، إلا أني تذكّرت وجوه تلك النساء العجائز اللواتي يجلسن في شوارع مدينة هاتوشا وواشوكاني بهدف بيع أشياء رخيصة وبسيطة، وأحيانا لايقدرن على بيع شيءٍ طوال النهار، ويقضين فصل الشتاء القارس شهوراً صعبة للغاية مثل أولادهن الفقراء، إلاّ أنهن يرفضن التحوّل إلى ما عليه هذا الرجل الذي يستطيع القيام بعملٍ ما. هنا سأله (باد): «ألم تفكّر يوماً في أن تصبح رب عائلة؟»

ضحك اللص ضحكةً غريبة وقال: «بلى، فكرت في ذلك مراراً، وكنت أتساءل عما إذا كان أولادي سيصيرون لصوصاً مثلي أيضاً، لذلك كنت

أتراجع عن اتخاذ خطوةٍ في هذا المجال. إذ كان الخوف يخيم عليّ فأتراجع. إلا أن الخوف الأكبر كان بسبب بقائي هكذا وحيداً. فماذا سيحدث لي عندما أصبح هرماً وغير قادر على السرقة، فمن سيساعدني على الاستمرارفي الحياة». فقلت وأنا أضّرب بيدٍ على يدٍ له وقرقعة الجنازير التي تكبّلنا ترّن في مسامعنا: «يبدو أنك بدأت تفكّر في الاتجاه الصحيح!» فأجاب على مهل وكأنه اصطدم بهذه الحقيقة باستمرار: «كنت أستعين على نسيان هذه الحفرة الواسعة في طريق حياتي بالأحلام. كنت أحلم أحياناً بسرقة كنزٍ كبيرٍ يعينني على البقاء في شيخوختي، وأحياناً بالسفر إلى بلادٍ بعيدة فيها كل ما تشتهي الأنفس لكل الناس، أثرياءً وفقراء، أذكياءً وأغبياء، صالحينَ وأشرارا، كما كنت أحلم بالزواج من امرأةٍ عاقلة تربّي لي ولداً صالحاً يصبح موظفاً عالي المقام في دائرةٍ حكومية..».

هنا قال الرجل الآخر بصوتٍ عالٍ وكأنه يتابع كلام زميله: «ليسرق الولد بالنيابة عنك بقبض الرشاوي الكبيرة..». فنهره (باد) قائلاً: «تكلّم عندما يأتي دورك». فإذا بهذا الرجل ذي الأسنان المذهبة يجيب بتذمّر: «ومن قال بأني ساسرد عليكم قصة حياتي في هذا القفص الحقير؟»فقلت: «هذا يعني أننا لن نسرد عليك شيئاً عن بلاد سوريانا». فمسح أنفه بكم قميصه القذر، وقال: «لا أصدّق أنكما تعلمان شيئاً عن سوريانا، بل لا أصدّق أحداً في هذا الكون، بعد كل الغدر والكذب والدجل الذي تعرّضت له في حياتي

وجدت الرجل منغلقاً على نفسه بسبب مشكلةٍ ما حدثت له، فقلت:

«لابد وأنك عانيت كثيراً من قلة الأصدقاء الأوفياء». فهزّرأسه موافقاً ثم قال:«تصوّر أنني تزوجت مرتين، واكتشفت أن المرأتين خائنتان ولا تستحقان الحياة تحت سقف داري». فسألت: «وماذا بعد؟» فقال: «المشكلة ليست في الخيانة ذاتها، فالخيانة متفشية بين الناس في كل العصور والبلدان، وإنما في أنهما كانتا تعاشران من اعتبرتهم أقرب الأصدقاء لي». فوجدته مستعداً للبوح بأكثر مما توقعت، فسألته: «وماذا فعلتَ بزوجتيك الخائنتين؟» فأجاب: «أما الأولى فذبحتها مع عشيقها في عقر داره وأما الثانية فقد كنت على وشك رميها في حفرةٍ مليئة بالأفاعي، عندما استولى عسس الليل علي فجأةً ولم أتمكن من إنجاز عملي واقتادوني إلى القاضي الذي قال لي بأنه ربما كان يصدر بحقي عقوبةً أقل من إرسالي إلى مملكة الجن لو كنت أنجزت ما بدأت به من جريمة».

استغربت كيف يتصرّف قاضٍ بهذا الشكل وكيف سينطق بحكمٍ أقل على جريمةٍ كهذه لو نفذّها هذا الإنسان، فلما رأى بصمات الاستغراب على وجهي، قال الرجل: «لأن زوجة القاضي كانت قد هجرته قبل محاكمتي بأيامٍ قلائل لتعيش مع رجلٍ يلبي رغباتها الجسدية بشكلٍ أفضل من القاضي العجوز، ولأن عشيقها التاجر كان يملك قصوراً وأموالاًلا يملكها القاضي». فقلت مؤنباً: «أنت تهين النساء بهذا الكلام». فسأل بتهكّم: «هل أنت متزوّج؟» فقلت: «لا... لست متزوّجاً بعد». فأجاب وكأنه أعلم بكل شيء منا: «وماذا تعلم عن النساء إن لم تكن متزوجاً بعد؟» فعلمت أن الخوض في هذا الموضوع لايفيد، لأن الرجل

له قناعة لايمكن تغييرها بسهولة كما يبدو، فقلت: «أعتقد أن علينا الآن وقد سرنا مسافةً طويلة إقناع سائق العربة بالوقوف بعض الوقت لنقضي حاجتنا، أليس كذلك؟» فصرخ الرجل المتذمّربصوتٍ عالٍ: «هل يمكننا قضاء حاجتنا ياقائد المفرزة؟» فإذا بجوابٍ قصيرٍيأتي من خارج القفص على شكل أمرٍ عسكري صادرٍ من آمرٍ صارم لسائق العربة: «توقفوا» ثم بعد أن توقفت العربة فعلاً تابع الآمر قائلاً: «أنا لا أريد لهذا القفص أن يفوح برائحة روث هذه الجواميس طوال الطريق. أخرجوهم». وفجأةً لبّى سائق العربة طلب سيده، وارتفع طرفٌ من الغطاء الساتر عن القفص، فإذا بنا وسط غابةٍ قبيل المساء، قد هدأت الطيور والعصافير فيها عن إطلاق أصواتها المختلفة، وتكاد تختفي جذوع أشجارهاالعملاقة في الظلام، وسمح لنا الحراس الذين كانوا ستة فرسان مدججين بالسلاح أن ننزل من القفص والانتشار ليس ببعيدٍ عن أعينهم لقضاء الحاجة، ونحن مكبلون في الأصفاد التي كانت طويلة إلى حدٍ ما وتسمح بالحركة واستخدام الأيادي بشكلٍ لا بأس به.

وفجأة سمعت صوت سهمٍ منطلقٍ شديد القوة ورأيت إصابته صدر أحد الفرسان، بحيث مال إلى جانب وسقط من يده سيفه الذي كان قد امتشقه لدى خروجنا من القفص، وما هي إلا لحظات حتى كانت النبال تسقط من كل حدبٍ وصوبٍ حولنا، فتصيب جذوع الأشجار وقضبان القفص الحديدي ورأس فارسٍ آخر. ورأيت مسلحين آخرين ملثمين يرتدون ألبسة سوداء تهاجمنا من عدة أطراف، فركضت صوب

أحد الحراس وقد سقط على الأرض بسبب إصابته والتقطت سيفه بهدف الدفاع عن نفسي، في حين رأيت (باد) قد التقط سيف الحارس الآخر الذي كان يتلوّى على الأرض من شدة آلامه، وشرع في مقاتلة المهاجمين وكأنه بلا أصفادٍ تعيق حركة يديه الرشيقتين، كما رأيت قائد المفرزة وهو يهوي بسيفه على رؤوس وأكتاف المهاجمين ومن حوله الفرسان الباقون يدافعون عنه وعن العربة الفارغة. وما هي إلا لحظات حتى وجدت عدد المهاجمين يتناقص وقواهم تتضاءل أمام المقاومة البطولية التي أبديناها جميعاً وبسبب شجاعة (باد) التي لا مثيل لها وقائد المفرزة الذي لم يكن ينازل أحداً إلا ويقتله بسرعة.

انتهز الشخصان الآخران المكبلان مثلنا الفرصة السانحة للهروب من دون أن يساهما في قتالٍ أو يتعرّضا إلى قتل، ولكنهما لم يجدا طريقاً سوى من جهتي، فنظرا إليّ بعيونٍ تعكس التوسل بأن لا أعترضهما، فأفسحت لهما المجال وسيفي يكاد يلامس رقبتيهما من علٍ، وانطلقا عبر جذوع الأشجار ليختفيا في سرعة مثل دبين هاربين من الصيادين، في حين أضطررنا للقتال حتى التخلّص من آخر مهاجمٍ علينا، وكان رجلاً ضخم الجثة قوي الشكيمة، لم نتمكن منه إلا بمهاجمتنا إياه من الأمام ومن الخلف، فوقع جانباً بعد اصطدامه بجذع شجرةٍ مقطوعة، يبدو أنه لم يره لأن الظلمة كانت تخفي الجذع إلى حدٍ ما، وقبل أن أهوي على رأسه لاحظت أنه ليس إلاّ ذلك الرجل الميتاني الأعور الذي كان يلاحقنا منذ خروجنا من مدينة كيركاميش.

قلت له: «وأخيراً تمكنا منك أيها القاتل السافل، لماذا كنت تتبعنا وتسعى لقتلنا». فإذا به يقول: «هذا أمروزير الملك الميتاني... قال لي بأنك ستجلب شراً كبيراً إلى مملكة ميتاني». فسألت مستغرباً: «وماذا يعلم الوزير عني؟»، فابتسم ساخراً وقال: «سيدي الوزير يعلم كل شيء في مملكة ميتان. لقد سمع ماذا دار بين الملك (توشراتا) ومعلمك خور برست عنك، فالملك أراد منه رجلاً أميناً وشجاعاً».وهنا عرفت سبب هجوم هذا القاتل وجماعته علينا بعد خروجنا من دارنا، يوم ذهابنا أنا والفارس (باد) إلى واشوكاني.

في تلك الأثناء كان (باد) يمسك بتلابيب ثيابه محاولاً رفعه عن الأرض، إلا أنه كان ثقيلاً جداًَ فركض لمساعدة (باد) ثلاثة من الحراس الذين كانوا لايزالون على قيد الحياة ولكنهم جرحى جميعاً، فاقترب قائد المفرزة ولايزال الدم يتقطّر من سيفه المسلول، وهو يقول من دون أن يترجّل عن جواده الضخم: «ضعوه مع ذلك المهاجم الجريح في القفص عوضاً عن الهاربين الآخرين».

وهكذا تم إعادتنا إلى العربة المحصّنة وأسدل علينا الستار، بعد أن وضعت الأصفاد في أيادي الضيفين الجديدين علينا، الأعور الضخم وأحد الجرحى من أتباعه الذين تركنا جثثهم للحيوانات المفترسة في غابةٍ لا أدري أين تقع وما اسم المنطقة التي قتلنا فيها من لانعرف عنهم شيئاً، سوى أنهم كانوا يسعون قتلنا.

- 8 -

ليس سهلاً على المرء أن يشعر بالطمأنينة وهو يجد نفسه محصوراً في قفصٍ حديدي شبه معتم، وهو مكبّل بالأصفاد، وفي ذات المكان الضيّق يجلس عدوٌ له يتحيّن الفرص للانقضاض عليه. وعلى الرغم من أن إمكانية الهجوم المباغت لهذا العدو ضئيلة في هكذا وضعٍ غيرَ مناسبٍ لأعمال طائشة، إلا أن حدوث ما فيه أذى ولربما الموت ليس من المستحيلات، ولذا بدأت في نفسي بالبحث عما أدرأ به قيام هذاالعملاق الأعور بما قد ينغص عليّ حياتي أو يضع لها حداً. لا أدري حتى الآن بماذا كان يفكّر (باد) في ذلك الحين إلاّ أن ثقتي التامة به كانت تخفف عني المزيد من الوساوس والهموم. كان يجلس إلى جانبي بحيث يلاصق ذراعه الأيمن ذراعي الأيسر وكأنه يقول لي بلغةٍ غير مسموعة: «لا تخف فأنا حذرٌللغاية وسأنقضّ على هذا الغول لحظة شروعه في الهجوم عليك أو عليّ».

كان لا يزال ثمة مسافة يوم من المسير أمامنا، وكان علينا النوم قبل ذلك قدر المستطاع، إلا أنّ سيل الأفكار والهواجس على قلبي كان في تدفقٍ عارم بحيث شعرت بأن في رأسي جمراتٌ متقدة من النار، كنت أنظر بإمعانٍ إلى وجه عدوي الذي يريد رأسي لأفهم سرّ عداوته ولاقرأ أي رمزٍ أو تعبيرٍ

يعكس إمكانية التوصّل معه إلى حالةٍ من السلم الإنساني، حتى ظننت نفسي قائداً عسكرياً يواجه قائداً أشرس منه في القتال ولا يدري كيف يتصرّف حياله، فسألته باللغة الهورية: «نحن في حالةٍ سيئة الآن، فهل ثمة أمل لديك في العودة حياً إلى مملكتنا ميتان؟» فلم يحرّك ساكناً ولكنه أطرق واجماً، فعلمت أنني أصبته في نقطة ضعفٍ ما، فقلت: «لو كان ثمة أمل في العودة، لكان ثمة مبرر لهذه العداوة التي لا أعرف حتى الآن سبباً لها. أنا لم أرتكب جريمة أستحق عليها الملاحقة والقتل أو الإيذاء، فهل تشرح لي سبب كرهك لنا وتعقبّك إيانا من بلاد ميتان إلى هنا وسعيك لقتلنا؟» ففتح فمه لحظةً وكأنه أراد قول شيءٍ ما، إلا أنه ظل صامتاً، فتابعت: «ماذا يريد السيد الوزير الميتاني مني؟» فبدأ بالحديث بكلماتٍ متباعدة وغير مترابطة جيداً: «قلت لك ما قاله الوزيرلي». ثم ذكر بأنه لا يعرفني وليست له معي مشاكل، وإنما سيقطع الوزير رأسه ويرميه لوحوشه الضارية التي يمتلكها للتخلص بها من جثث قتلاه، إن لم يعد إليه برأسي». فأردت التأكّد من أنه لايعلم شيئاً عن مهمتي التي كلفني بها ملك ميتان، فسألته: «وهل تعلم سبب وجودي في بلاد الهاتيين؟» فأجاب بحدة: «هذا لايهمني البتة. ما يهمني هو العودة برأسك في كيسٍ من الأكياس المحشوة بثلج الجبال، إلا أنّ مرافقك هذا قد أفسد علي الأمر أكثر من مرّة». فما كان عليّ إلاّ أن أربت على كتف (باد) وأنا أقول: «لولاك ياصاحبي لكان رأسي الآن داخل كيسٍ من ثلج الجبال في طريقه إلى هاتوشا من دون جسدي». فابتسم (باد) وحدّق في وجه الغول الأعور في صمت مريع. اعتقدت بادىء الأمر أن بالإمكان اقناع عدوي

اللدود بأهمية عقد السلام بيننا، وكلانا مكبلان بالأصفاد، في حال‘ يرثى لها، وفي بلادٍ غريبة، ونحن نساق دون إرادتنا إلى مكانٍ لا نعلم عنه سوى أن نهايتنا ستكون فيه مأساوية، إلاّ أنّ اعتقادي كان خاطئاً كما يبدو، إذ قال الرجل الذي لم يكن آبهاً بحالنا المزرية في القفص البارد: «نعم... إما رأسك وإما رأسي... وستمضي الحياة برتابتها المعهودة كما هي دائماً بدون رؤوسنا أيضاً». فقلت في نفسي وأنا مسندٌ رأسي إلى قضبان القفص: «هذا الإنسان لم يقرأ الواقع الذي نحن فيه جيداً، وآمل أن يتغيّر تفكيره وسلوكه بعدما ندخل مملكة الجن». ورحت أعزز مالديّ من أملٍ وأنا أقول في أعماقي: «طالما لا تزال روحي في جسدي ورأسي في مكانه وقلبي يخفق في صدري فلن تتغلّب جحافل اليأس عليّ..».

وفجأةً تراءى لي وجه فتاةٍ في ربيع عمرها، على رأسها تاجٌ ذهبي بسيط، وشعرها الطويل والغزيريكاد يطير من حولها لشدة الريح التي كانت تعصف بها، وهي تمشي في ثوبٍ فضفاضٍ أبيض وسط غابةٍ كثيفة الشجر، يتسلل قليلٌ من النور من بين أغصانها العالية ليلامس أعشابها الكثيفة العالية. سمعت همساً من همسات الفتاة وهي تقول لي: «إلى متى أنتظرك، أيها الفارس الهوري؟ فأنا قد سئمت الانتظار..».، وعندما عاد لي رشدي قلت لنفسي: «إنها دوتى خيبا... إنها دوتى خيبا التي لا أعرف كيف تقضي أيامها بين المصريين، بعيداً عن وطنها ميتان وعن أمها وأبيها..». وشعرت في تلك اللحظة بحاجتي إلى من يساعدني للوصول إلى أرض الفراعنة، فجلجل نداءٌ خفي في أعماقي: «رباه، يا خالق هذا الكون العظيم...

ساعدني». وسيطر علي نعاس لم أتمكّن من التغلّب عليه بعد ذلك.

بعد ظهر اليوم التالي، كان جوُّر بيعيُّ جميل قد أكّد على وجوده بشمسٍ ساطعةٍ وهواءٍ عليلٍ وأصوات العصافير والطيور وشتى انواع الحيوانات التي كانت ترعى فرادى وفي قطعانٍ بين المراعي الثرية الأعشاب التي زادت جمالاً بنمو الزهور المختلفة، وبخاصة شقائق النعمان بينها. كنت أحدّق في تلك المناظر الخلابة على الطرف الأيمن من الطريق لأن قطعةً كبيرة من الساتر الجلدي الذي منع الرؤية علينا من قبل كان قد سقط ليلاً في مكانٍ ما أثناء المسير. كان يوماً دافئاً إلا أنني شعرت برجفةٍ في أوصالي، ربما انتابتني لأني لم أكن متدثراً جيداً في الليل. ولما نظرت صوب الغول الأعور وتابعه الجريح وجدتهما منهكين وقلقين ويبدوان أصغر حجماً مما كانا عليه أثناء الهجوم علينا وعلمت أنهما جائعان ومرهقان من قلة النوم مثلي، فرحت أقول لنفسي: «ألا ما أضعف الإنسان مهما كان قوياً!»

سألت (باد) الذي كان واجماً وقد أسند رأسه إلى قضبان القفص: «هل نمت ليلاً؟» فأجاب: «لا يا سيدي». ونظر إلى الرجلين الجالسين أمامنا، وكأنه أراد القول: «وكيف أنام وهذان الوحشان لا يزالان على قيد الحياة؟» ثم استدار نحوي وقال: «أراك ترجف يا سيدي!» وهمّ بخلع إزاره الأسود عنه لأتدثّر به، فأومأت إليه ألا يفعل ذلك، وقلت له: «أعتقد أننا وصلنا، فها قد توقفت العربة». وبالفعل، رفعت الستائر كلها عن القفص، فإذا بنا على شفا خندقٍ عميق، وليس ببعيدٍ عنا ثمة تلالٍ عاليةٍ بيضاء وأمامنا قبب صخرية طبيعية ومخروطية الأشكال، وكأنها قوالب ملحية، وقليل منها

رمادية اللون، وكأنها طرابيش كهنةٍ أوسحرة. وطلب منا الحراس أن ننزل من العربة، فكان الأعور الضخم أول من نزل وتبعه تابعه الجريح بصعوبةٍ بالغة، فنظرت إلى ما حولنا من مشاهد، فرأيت مئات الرجال والنساء المكبلين في سلاسل من الأصفاد يقادون جماعاتٍ وفرادى في اتجاهين متعاكسين، منهم الضعفاء وكبار السن وفتيان وفتيات، ولما هممت بالنزول اقترب منا أحد الحراس الثلاثة الناجين من الهجوم، وكان قد ترجّل من جواده، فقال لي هامساً. «اشكرك لأنك أنقذتني من موتٍ محقق في الغابة... لاتظهر نفسك الآن مريضاً فسيقضون عليك قبل أن تدخل مدينة الجن. » وأشاربإحدى يديه إلى مدخل كهفٍ ذي بوابةٍ خشبيةٍ ضخمة كبوابات القلاع الحصينة، مطلية جوانبها بالقير الأسود، وعلى أعلى البوابة رأس تيسٍ ذي قرنين كبيرين بلونٍ أبيض، بينهما شمس بيضاء ذات شعاعاتٍ كثيرة، تدل حسب ظني على أن البادئين في بناء المدينة كانوا يعبدون إله الشمس (خور)، في حين كان على كل طرفٍ من البوابة ثعبانان كبيران باللون الأسود يتدليان على ذنبيهما وبقامةٍ أطول من قامة رجل، متعانقين ولكن برؤوسٍ عديدة وألسنةٍ متشعبة رفيعة وطويلة. فبدا لي الكهف قديماً جداً لاختلاف الرموز على بوابته: التيس والشمس والأفعى، التي تدلّ على دياناتٍ قديمة مختلفة.

أوقفنا الحراس على حافة جرفٍ عميق وظهورنا إلى الجرف، حيث كانت موجات الريح تتدافع بشدة من ورائنا فتلدغ برودتها رقابنا العارية، ثم نزل قائد المفرزة من جواده وذهب إلى ضابطٍ أعلى منه رتبةً كما يبدو، كان

جالساً خلف طاولةٍ حجرية كبيرة، عليها أكواب ولفائف جلدية مكتوبة وسوط كبير. وبعد أن تبادلا بعض الكلمات، نهض ذلك الضابط من مكانه حاملاً سوطه في يده وجاء إلينا، فحدّق في الأعورالعملاق برهةً ثم سأل قائد المفرزة: «أهذا هو الغول الذي قتل ثلاثةً من رجالك؟ فأجابه: «نعم ياسيدي، وهذا الذي يليه من أتباعه، أما هذان الآخران فلولاهما لكانت نهايتنا في تلك الغابة». فابتسم الضابط قليلاً ثم قال: «أما هذا القاتل الأعور فليتم وشمه على ذراعيه، فإن فقد ذراعاً يبقى الوشم على ذراعه الآخر، واسملوا عينه السليمة حتى لا يرى نوراً بعد اليوم، وانزلوا به إلى الدرك الأسفل من المملكة، ليعمل طوال حياته حتى يموت من الإرهاق جزاءاً له على ما ارتكبته يداه. فكيف يتجرأ غريب من الغرباء على قتل جنودٍ من الهاتيين؟» وعندما انتقل إلى الرجل الجريح الذي بدأ يبول بثيابه القذرة من شدة خوفه، سأل الضابط قائد المفرزة: «هل هذا الحقير المرعوب مريضٌ أم جريح؟» فأجابه بأنه جريح، فإذا بالضابط يضع مؤخرة قبضة سوطه على صدر الرجل ويدفعه بقوة نحو الخلف ليسقط من الجرف العالي وصدى صراخه يجلجل في مسمعي. وبعد هنيهةٍ اقترب مني الضابط الذي أمسك بإحدى يديه ذراعي بقوة وشدّني إليه، حيث كنت قد رفعت يدي إلى مستوى وجهي في حركةٍ لم أشعر بها لدى رؤيتي للجريح ينقلب إلى الوراء ويهوي إلى أدنى الجرف، فحدّق الضابط في وجهي وهو يضغط على يدي، حتى ظننت أنه سيقطعها من دون حاجةٍ إلى سيف أو سكين، ثم قال: «من أين لك بهذا السوار الثمين في معصمك؟» فارتبكت لحظةً ثم قلت:

«أهداني إياه ضابط الحدود بين مملكتي ميتان وهيتيت». فاستغرب ذلك وهو يدع يدي تفلت من يده، وسأل: «ما اسمه؟» فحاولت تذكّر اسم الضابط الكريم الذي قضينا ليلةً ممتعة في داره، فلم تسعفني ذاكرتي، فقال (باد) بصوتٍ خافت: «هيتو... اسمه هيتو ياسيدي». فحدّق في عينيه الضابط الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال: «لقد سمعت بأنكما قاتلتما ببسالة ودافعتما عن رجالنا». ثم سكت برهةً وتابع بعدها متحدثاً إلى مرافقٍ له كان يقف وراءه إلى جانب قائد المفرزة: «هذان رجلان شجاعان وأنقذا حياة جنودٍ هيتيت، فلا تقوموا بوشمهما ولا تاخذوا منهما شيئاً مما معهما من أموال واشياء ولا تنزلوهما إلى الطوابق الدنيا إلا طوعاً ولتكن أعمالهما غير شاقة». فهزّ مرافقه رأسه مبدياً الطاعة التامة، ففرحت بداخلي فرحاً كبيراً لأن الحراس لن يأخذوا دمية الأميرة الميتانية (دوتى خيبا) مني، أما أن يسلبونا ما معنا من ذهبٍ ورقائق فيها سندات تمليك فلا يهمني. ثم قال لي: «أنتما تبدوان مختلفين عن المعتقلين الآخرين، وسأمرّ عليكما غداً لأسمع منكما أخبار صديقي الوفي (هيتو) الذي كان زميلي اثناء فترة المدرسة الحربية. وهو شقيق زوجتي... هيا إذهبا».

قال ذلك وهو ينظر إلى عربةٍ أخرى قدمت لتوها وشرع حراسها ينزلون المعتقلين فيها وسط الصرخات واللكمات. وسار أمامنا مرافق الضابط إلى مدخل الكهف، وهو يأمر الحراس الذين كانوا يقومون بوشم معتقلين من بينهم الأعورالضخم الذي كانت عينه السليمة قد سملت وتم وشم ذراعيه بالكي فظهر على ذراعيه الكبيرتين كما لدى المصارعين الأشداء

شكل تيس ذي قرنين معقوفين بلونٍ أزرق ينزف من أطرافه الدم، إلاّ أنه كان صامتاً وكأن ما فعلوا به لم يكن مؤلماً البتة. كانت نظرة واحدة إلى أولئك الحراس كافية للشعور برهبةٍ لا مثيل لها، حيث كانوا بأرديتهم وخوذاتهم وأجسادهم الضخمة يبدون كالعفاريت والأبالسة وليس كالبشر العاديين، ومرورنا بينهم إلى داخل الكهف دون أن يسلبونا شيئاً أو يقوموا بوشمنا كان إحدى أحرج لحظات الحياة بالنسبة لي وأسعدها في الوقت ذاته، ولكن الخوف من نظراتهم وحركاتهم سيبقى كامناً في قلبي مدى العمر.

في اليوم التالي، دخل علينا ضابط البوابة في زيٍّ أبيض يتألف من سروالٍ فضفاض يغطي ساقيه إلى أعلى رسغيه، وإزارٍ مفتوح الصدر ومطرّز تطريزاً أنيقاً يصل إلى ما فوق ركبتيه، وقد لفّ عنقه بلفاحةٍ رمادية من الكتان المنسوج الذي تمّ صبغه بمهنية عريقة، وكانت خصلةٌ من شعره الأسود مستلقية في استرخاء على جبينه العالي. نهض جميع من في الحجرة التي تم فرزنا إليها وكنا فيها مع سبعة رجالٍ متشابهين في أزيائهم ووجوههم، وثلاثةٍ من النساء، من قوم الآرزاوا الواقعة بلادهم غرباً من مملكة الجن مسافة ثلاثة أيامٍ من مسير القوافل. وكانوا يتحدثون فيما بينهم لغة اليونانية التي كنت قد تعلمت منها بعض الشيء على أيادي الكاهن (خور بَرَست) في عهد الدراسة. قال الضابط لي بلغة الهاتيين، بعد أن حدّق في وجوه جميع الواقفين واجمين، واحداً تلو الآخر: «لقد جئت لأتأكد من أنك وصاحبك في مكانٍ يليق بكما، وأنا مضطر للذهاب إلى حاكم هذه المملكة التي نحب تسميتها بالمدينة، فالممالك لها ملوك، ونحن مليكنا هو ملك الهاتيين ولا أحد

غيره... أخبرني كيف تعرفّتَ على صديقي وزميلي وقريبي الضابط (هيتو)». فأجبت: «كان في الماضي تلميذاً لدى الشيخ (آزر)، الطبيب المفضّل لدى جلالة ملك الهاتيين. وكان يقدّر الشيخ (آزر) تقديراً كبيراً». فسأل: «وأين هو الآن هذا الشيخ؟» فذكرت له ما حدث للشيخ (آزر) في هاتوشا أثناء شجارنا الدموي مع مجرمين من بني قومي الميتانيين، ففكّر الضابط برهةً، ثم كرر قائلاً: «أنتما في عهدة صداقتي مع الضابط هيتو، فحافظا على القوانين وأنا أضمن لكما حياةً آمنةً في مدينة الجن هذه، إلا الحرية فلن تحصلا عليها إلا بالموت أو بأمر ملكي مكتوب ومختوم. والحرية هي أثمن وأهم ما يبحث عنه المعتقلون هنا، أما الساكنون الذين جاؤوا بأنفسهم إلى المدينة طوعاً فهم قد هربوا مما نسميه بعالم الحرية وهم متأقلمون بها في المدينة من قوانين وأوامر. فإذا كانت لكما معارف وعلوم تستفيد منها المدينة، فهذا سيحسّن من معيشتكما». فقلت: «أنا أستطيع تعليم الأطفال عدة لغات، وصاحبي يجيد فنون المبارزة بشكلٍ عجيب». فابتسم الضابط وقال: «حسناً، أنت ستعلّم جنودنا اللغات وصاحبك سيعلمهم فنون المبارزة هذه، وبذلك ستقضيان بعض الأوقات خارج مدينة الجن في المعسكر. أما تعليم أطفال ساكني مدينة الجن فهي ليست من مهامكما». قال ذلك ثم نظر إلى الرجال الآخرين متوجهاً إليهم بكلامه: «ستعودون إلى بلادكم بعد أيام قلائل لأن ملك الآرزاوا قد دفع من أجل تحريركم ذهباً كثيراً. وهذا لا يحدًث هنا إلا نادراً». فقلت في نفسي: «الذهب يفتح كل الأبواب». وخرج من دون أن ينتظر إجابةً من أحد، وكاد المتحدث يترك في نفسي انطباعاً بأنه ليس ذلك

الضابط الذي رمى بإنسانٍ من أعلى الجرف حياً، وإنما يبدو كطالب علوم أو شاعرٍ أو ابن أحد التجار الظريفين... وساد الحجرة فرحٌ وعلت أصوات الآرزاويين لأن أملهم في الحرية قد أينع، وبالنسبة لنا ظهر بصيص أمل في أن نتمكن من الهروب يوماً ما لأننا سنقضي بعض الأوقات خارج الكهوف العميقة أو يُفرَجُ عنا بصفقة تبادل الأسرى بين الميتانيين والهاتيين، كما يحدث لهؤلاء الآرزاويين، إلا أنني تذكرت فيما بعد أن بين المملكتين سلام وتجارة وليس هناك أسرى حرب بينهما، وأن ملك ميتان قد أرسلني بمهمةٍ سرية، ولذا لن يسأل عني بعد فشلي وأنا لا زلت في المرحلة الأولى من هذه المهمة، فازددت قلقاً.

أفكر أحياناً فيما حدث لي، وأتساءل عن السبب في ذلك، فهل أخطائي قادتني إلى هذه المملكة الغريبة لأقضي فيها عمري في تعذيبٍ وإذلالٍ وعبودية، أم هناك قوة خفية ترسم لي مساري في الحياة من دون أن أتمكّن من تغيير شيء في قدري الذي تم رسمه لي من قبل تلك القوة الخفية، ثم أسترجع الماضي، لترّن في أعماقي كلمات الشيخ (آزر) الذي قال لي ونحن على ظهر السفينة المتجهة شمالاً في نهر بورانتو باتجاه بلاد الهاتيين: «بإمكانك أن تغيّر قدرك بأن تعود من حيث أتيت».

ولكن أنىّ لي العودة من حيث أتيت وأنا في مملكةٍ للجن في بلادٍ نائية، وتحت حراسةٍ دائمة. ورغم هذه الحقيقة المرّة والقاسية فإن أملي في الحرية وفي متابعة سيري لانجاز مهمتي الملكية لن ينطفىء في فؤادي.

- 9 -

مرّت الأيام والليالي والأسابيع والشهور، ونحن في حجرة لم يكن بابها موصداً ليلاً نهاراً و لم تكن لها نوافذ، وكانت حجرةً بيضاءَ من ناحية السقف والجدران بسبب نحتها من الصخور الكلسية غير القاسية، إلا أن الجدران كانت مطلية بارتفاع نصف قامة بطينٍ من التراب الأحمر، قيل لنا بأن ذلك يثير الدفء ويظهر الحجرة نظيفةً حيث يسند الجالسون ظهورهم إلى جدرانها، ولم يكن في الحجرة مرحاض أو مجرى ماء، بل كان علينا استخدام المراحيض العامة في حجرةٍ خاصة وكبيرة يبول ويتبرّز فيها الناس إلى جانب بعضهم بعضاً كالدواب في نهاية ممرٍ يمر بين العديد من الحجرات المتجاورة المضاءة بقناديل تحرق فيها الشحوم أو تتقد بزيت أشجار الزيتون، كما كانت تهويتها جيدة بسبب كثرة الثقوب الضيقة والكبيرة الموجودة في سائرالممرات والتي تم نحتها بدقةٍ فائقة، واكتشفنا مع مرور الزمن أن هناك طبقات بناءٍ كثيرة كلما نزلت صوب الأسفل، يضم كل منها عشرات الحجرات، وأن ساكني المدينة لايقلون عن ألوف عديدة من البشر، منهم العبيد وأسرى الحروب والمجرمون الذين حكم عليهم القضاة الهاتيين بالأعمال الشاقة حتى الموت، ومنهم منتسبو ديانةٍ قديمة كانوا البادئين في

حفر هذه المدينة العجيبة في أعماق الصخور تحت الأرض لاعتقادهم بأن مخلوقاتٍ متوحشة ستهبط إلى الأرض من كوكبٍ بعيد ولن تدع أحداً من ذرية آدم على قيد الحياة، ومن ذلك جاء اسم «مملكة» أو«مدينة الجن»، ومنهم من كان يؤمن بما اعتقده كهنة دينهم أن موجة صقيع طويلة الأمد لا مثيل لشدتها في التاريخ ستعصف بالمنطقة وتقضي على كل الأحياء الذين لم يختفوا في باطن الأرض، كما كان منهم لاجئون هربوا من ملوكهم المستبدين والغزاة الذين لا يرحمون أو بسبب عقائدهم الدينية وظنوا انهم سيلقون حمايةٍ لدى القائمين على شؤون المدينة الغريبة التي لم تكن سوى سجنٍ كبير يدخل فيه الإنسان حياً ولا يخرج إلا جثةً هامدة لتحرق أو ترمى إلى الوديان لتفترسها الذئاب والسباع.

جاء جنديان وأخذا الآرزاويين الذين كانوا لايصدقون ما سمعوا عن إطلاق سراحهم فبقيت الحجرة لنا وحدنا نحن الاثنين، أنا و(باد)، إلا أن الأيام والليالي الكثيرة التي قضيناها مع أولئك الغرباء كانت صعبةً لنا ولهم حقاً، إذ ما كانت الحجرة تتسع للقيام بحركاتٍ جسمية ضرورية في حرية، وبخاصة عندما يحين الليل الذي كان فيه المكان يضيق بنا جداً، ولم يكن المتزوجون منهم قادرين على مضاجعة نسائهم بحضورنا، كما لم يكن يسمح شخير بعضهم لي بالنوم الهادىء في معظم الليالي، وبخاصة فإنني لم أنم طوال حياتي في غرفةٍ تجمعني مع أناسٍ آخرين، حتى في البادية لدى العرب الرحّل، فقد كانت لي خيمة صغيرة خاصة بي اشتريتها بما منحني إياه أبي من مال. وشتان بين حياةٍ في قصر منيف عشت فيه بالقرب من واشوكاني

وحياةٍ في زنزانةٍ تحت الأرض تغص بالبشر. ولذا كنت أتساءل عن مصائر وشعور الآلاف من المعتقلين والسجناء الذين تمر عليهم سنوات طوال وهم مضطرون للعيش والنوم في أماكن ضيقة، تفوح منها روائح كريهة، وتضيق مجالات حرية الإنسان. فيتحوّل إلى كائنٍ غريب الأطوار وتسوء حالته الجسمية والنفسية بحيث يصبح سريع الغضب فلا يقدر على التفكير بشكل سليم، ويستولي عليه خوفٌ مستديم، ويظن على الدوام أنه مريض، وأن العالم خارج زنزانته معدومٌ غير موجود، كما يشعر بأن الذين حوله سيسرقون متاعه أو سيعتدون عليه فيقتلونه أو يؤذونه.

مدينة الجن التي كان فيها من مختلف أصناف وأعراق البشر لم تكن كغيرها من المدن المعروفة في عالمنا، فهي منتشرة في جوف الأرض على خلاف المدن التي تستنشق الهواء العليل وتشرق عليها الشمس نهاراً. وهي قبر كبير بكل معنى الكلام، يعيش فيها العابد والملحد والمجرم والبريء والعالم والجاهل والساحر والمسحور، وفي المدينة ممرات بعضها يمتد لآلافٍ الاقدام، إلى الطوابق السكنية المتواجدة أسفل بعضها بعضاً مسدودة بأحجار الرحى الكبيرة الثقيلة، لايمكن لعدة أشخاصٍ تحريكها من ناحية الخارج، في حين من السهل على شخصين فقط تحريكها من الداخل، وهذا ما دفع بي إلى التساؤل أحياناً عما إذا كان سكان المدينة يخافون على أنفسهم من عدوانٍ خارجي باستمرار، وهل استولى الهاتيون على هذه المدينة في مرحلةٍ متأخرة من بنائها بهذا الشكل الدفاعي الحصين.وقد سمعت فيما بعد أن في أسفل المدينة المحفورة في أعماق الأرض ممرات سرية تؤدي إلى مملكة أخرى

مماثلة يسميها الإغريق ب«كابادوسيا»، وكأن الذين بنوا هذه السراديب والحجرات كانوا في فزعٍ شديد من هجومٍ سماوي أو عدوانٍ خارجي، ولذا نقبوا في الأرض هذه السراديب العجيبة إلى مدينةٍ أخرى، تعيش في الظلمات أيضاً.

كان ساكنو مدينة الجن الذين تم جلبهم إليها كمعتقلين يكدحون مكبلين في الأغلال طوال النهارفي المزارع والمناجم، خارج السراديب المعتمة، وهم منتشرون في السهول والوديان والتلال التي لاتبعد كثيراً، في فرق عملٍ شاقٍ يشرف عليها جلادون في أياديهم السياط يلهبون بها ظهور المتقاعسين، ويرمون بالسهام الساعين للهرب فيردونهم قتلى، ويتخلصون بالنحر والخنق والرمي من الصخور العالية من الجرحى والذين لايستطيعون العملبسبب مرضٍ شديد أو ضعفٍ مستديم وترمى جثثهم لكلاب الحراسة أو تترك فريسةً للحيوانات الضارية، أما القادمون من تلقاء أنفسهم بحثاً عن الأمن وعلى أمل الحياة في سلامٍ في المدينة، فكانوا يقومون بواجباتٍ عديدة في داخلها، ومن دون أصفادٍ وأغلال، ومن تلك الواجبات طحن وغلي القمح والشعير والعدس وإعداد الخبزوالطعام وجلب الماء ورتي الثياب وتحضير الخمور وصنوفٍ عديدة من شراب الفواكه والخياطة وتنظيف المجاري وحفر ممراتٍ وحجراتٍ وقنوات تهوية جديدة في أعماق الأرض، والبحث المضني عن الذهب والمعادن وتصنيعها في أفرانٍ ذات قدورٍ كبيرة، وصنع النبال والرماح والسيوف للجنود، ومنهم من كان يقوم بتربية الماشية خارج المدينة أو في خدمة الجنود والحراس الكثيرين والظالمين. ومن واجبات

القادمين للعيش في المدينة كان ترفيه وتسلية الإداريين وتنظيم الحفلات الماجنة التي تنتهي دائماً في سكرٍ وعربدة لاحدود لهما لمن لديه المال، حيث كان البعض يقدّم امرأته أو ابنته أو شقيقته للآخرين مقابل الحصول على مالٍ أو امتيازاتٍ ترفع من قدره ومستواه في المدينة المنتظمة في طبقاتٍ وفئاتٍ بحكم الحاجة والضرورة و تنامي العلاقات الاجتماعية بين مواطنيها، ولذلك كان ثمة خاسرين ورابحين، هابطين على درجات مجتمعهم المديني ومرتفعين من الطبقات الدنيا صوب الأعلى، كما كان منهم المتمردون الذين يتعرضون لعقوباتٍ قاسية وحرمانٍ من المنافع المادية، على الأغلب، مقابل من يسعى لتصوير الحياة في المدينة التي اسمها القديم (ديرين) وتعني (المَلكية) في لغتنا الهورية - الميتانية، وكأنها فردوس لامثيل له في الدنيا. إلا أن الجميع كانوا تحت رقابةٍ مشددة، حراساً وجنوداً، معتقلين ولاجئين، من أهل المنطقة أو من الغرباء، راضين عن إدارة المدينة أو كارهين لها، بل كان الولد يتجسس على أبيه، والبنت على أمها، والأخ على أخيه، والصديق على صديقه، وكان ثمة من يظهر نفسه غير راضٍ عن الحياة في الذل والعبودية في المدينة، ويظهر نفسه متأوهاً وحانقاً على ما يشاهده من سوء معاملة أو تعذيبٍ لسجين أو إهانةٍ لساكنٍ معه، إلاّ أنه في حقيقة الأمر كان جاسوساً لئيماً ومحتقراً لدى مسؤولي المدينة الذين لم يكن يهمهم سوى ضبط الأمور تماماً وجني المزيد من المنافع التي كانوا يتقاسمونها مع ملك الهاتيين في هاتوشا باعتباره الحاكم المطلق على البلاد التي فيها مدينة الجن أيضاً.

الأمر الوحيد الذي وجدته جديداً في مدينة الجن (ديرين) تلك، كان

حرية العقيدة بالنسبة لمختلف الساكنين، أو هذا ما ظننته في الفترة الأولى من تواجدي فيها، في حين أن الحقيقة الصارخة صدمتني، إذ كان هناك من يعبد إله الشمس (خور)، وهؤلاء على الأغلب من بلاد ميتان وجبال زاغروس حيث النايري القدماء والهوريون والكاردوخ واللولو، ومنهم من كان يعبد آلهةً عديدةً من الجنسين، الذكر والأنثى، ومتنوعةً في الوظائف الكونية، ومختلفةً في التراتب الأسطوري لها، وهم أصحاب أسفارٍ وقصصٍ عن مغامرات محاربيهم الذين رفعوهم إلى مستوى الآلهة (التيتان)، كان معظمهم من بلاد آرزاوا الإغريق والليديين، وهؤلاء كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً في تجلّي الخالق في مخلوقات معينة تحظى لديه بمكانةٍ خاصة، وكانوا يؤمنون بالتجسيم والتقمّص ولذلك ينحتون من الصخور تماثيل وأصنام لربهم ويجعلون بعض أبطالهم ورجال عقائدهم آلهةً لهم .

ومن معتنقي الديانات في المدينة من كان يقوم بتمريناتٍ جسدية يومية وقاسية، كانوا تجاراً جاؤوا من بلاد المشرق، فوقعوا أسرى في أيادي الهاتيين، فيجلس الرجل في صمتٍ ووقارٍ زمناً طويلاً من نهاره، دون حراك ومن دون أن يتناول طعاماً أو يشرب شراباً، ويبدو أنه يمارس عبادةً دينية، إلا أنه لايؤمن بإلهٍ، ولقد سألت ناسكاً عجوزاً منهم عن ديانتهم وأسباب تقشفهم ونسكهم إلى درجة رفض امتلاك أي شيء سوى ما يقيه البرد والموت جوعاً، فقال لي: «يا بني، الحياة شقاء، وسبب شقاء الإنسان يكمن في رغبته في الحياة والتمتع بها، ولا يمكن القضاء على الشقاء إلا بالتخلي عن البحث عن المتعة، ولذلك فإننا زاهدون في الحياة ولانملك شروى نقير كما

ترى، والوصول إلى درجةٍ أعلى في الدنيا يحتاج إلى رؤية سليمة وقلبٍ طاهر وسلوك حسن وخطابٍ مهذّب وباليقظة والاستغراق التام، أي بالدخول في حالةٍ شبه مستديمة في السكون واللافعل..». وأردت أن أقول شيئاً عن ضرورة الحركة والفعل وإلا فإن الحياة ستكون أشد مشقةً لبني الإنسان، فلم أجد الكلمات المناسبة التي تسعفني في موقفي ذاك.

وكان ثمة أفرادٍ قلائل من بلاد (سوتو) من العموريين والكنعانيين والسوريين المؤمنين بوجود إلهٍ واحدٍ للكون الذي نعيش فيه، لا أصنام ولاتماثيل له، بنى ناسك نازح من قوم الكردانيين يدعى (بَرهيم) أوّل بيتٍ لعبادته في بلاد العرب، ويقولون بأن من سلالته سيظهر أنبياء ورسل اختارهم خالق الكون العظيم لهداية الناس، فمنهم من سيقتل وتقطّع أجسادهم وهم أحياء ومنهم من ستتم ملاحقته وإيذاؤه كالمجرمين، أورميهم في الخنادق التي توقد فيها النيران، ومنهم من سيعيش منبوذاً من قومه، إلاّ أن معتقدهم هذا سينتشر على وجه الأرض جميعاً، وأن لا فرق بين الناس كلهم بسبب لونٍ أو لغةٍ أو جنسٍ أو منشأٍ إجتماعي، وعليهم مسؤولية كبيرة فيما يقولونه ويفعلونه في حياتهم وسيتم حشرهم جميعاً بعد بعثهم من موتهم، ملوكاً وعبيداً، أقويا وضعفاء، رجالاً ونساء، في يومٍ عظيم، ليسأَلوا عما جنته أياديهم وألسنتهم في حياتهم الإنسانية، ومنهم من سيعيش خالداً مخلداً في جنةٍ عرضها السموات والأرض، ومنهم من سيعذّب في نار جهنم عقاباً له على ما اقترفه من شركٍ بربه وما وقع فيه من ذنوب وجرائم ضد سواه من مخلوقات ربه، شاء ربه أخرجه من النار

أو تركه فيها خالداً مخلداً، طعامه من ضريع لا يغني ولا يثمن من جوع، وسيحمد الناس إلههم الواحد الأحد هذا بكل لغات البشر... وفي عقيدة هؤلاء : الظلم الأكبر هو أن تجد للخالق شريكاً، فهذا لن يغتفر أبداً.

كانت هذه الفئة التي لاتؤمن بألوهية البشر والأصنام تتعرّض للتضييق من قبل القائمين على شؤون المدينة ومن قبل أصحاب العقائد الأخرى أيضاً وبخاصة من الذين اعتادوا الحياة الماجنة، حيث كان هؤلاء المؤمنون بإلهٍ واحد للكون يدعون إلى حياةٍ بلا فجور ولا مجون ولا تهافتٍ شرسٍ على المتعة والمال الذي يجدون السعي للحصول عليه بكثرة أهم أسباب التناحر والخلاف والإجرام في حياة الناس، فهم يؤمنون بأن ربهم الذي خلقهم سيجمعهم ليوم حسابٍ عسير، ليجزى كلٌ منهم على ما قدّمت يداه من عمل صالح أو شرير، وأن ليس هناك من يفدي أحداً حتى لو كان من أهله ومن أقرب الناس إليه...

وكنت أسأل نفسي أحياناً كيف كان معلمي الكاهن (خوربرست) يعلم هذه الحقيقة الكونية عن الإله الواحد الأحد أيضاً مثل بعض ساكني هذه المملكة اللعينة، ورغم ذلك فإنه يحمل اسم (عابد الشمس) ولايتخلّى عن ديانته ومعبده وأصنامه، وأتذكّر أني سألته مرةً عن سر جرأته ونحن نسير على طريق ترابي بمحاذاة نهر (خابير)، فأجاب: «أتريد الحقيقة؟ إن ديانتنا قائمة على فكرة أن الشمس رمزٌ لعظمة الإله الخالق، وبمجرّد التخلّي عن هذه الفكرة ستنهار ديانتنا التي من دونها لا يمكن حشد كل هؤلاء الأغبياء من البشر في ظل الملك، إذ لا ملك ولا مملكة من دون عقيدة راسخة، ولا

عقيدة راسخة من دون أن يرى الناس إلههم بأعينهم ويتلمسوه في معابدهم ودورهم بأياديهم». ثم سكت قليلاً وتابع قائلاً: «إذهب مرةً إلى بلاد (كيميت) وسترى الدين كله في خدمة الفراعنة. بل إذهب أينما تشاء في هذه الأرض المعمورة، فستجد الدين في خدمة ملوكها، وبمجرّد إحداث خللٍ في هذا النظام فستكون فوضى تلدغ بالمجتمعات، ولذا رمز المصريون بأفعى عظيمة لإله الفوضى، لأن الفوضى تنفث بالسموم في جسد الأمة وتهلكها».

لاأدري تماماً كيف كان عليّ التوسّع في الحديث معه حول الدين والكون والخالق، وأنا جاهل بالنسبة إليه، إلا أنني شعرت في قرارة نفسي بأن الكاهن (خوربرست) نفسه غير مقتنع بما يؤمن به، وأن بقاء المملكة ودوام سلطان ملوكها يفرضان الحفاظ على ما تتلمسه أيادي الناس، وهذا قد يطول قروناً من الزمن حتى يكتشف البشر أن الأصنام التي يخرون لها سجداً ويقدمون لها القرابين ويخافونها ويتضرعون لها لاتغني ولا تسمن من جوع.

كان الأغرب من كل النحل والعقائد في مملكة الجن من يقول بأنه لايؤمن بدين، وإنما يجد حياة البشر لاتختلف عن حياة النمل والجراد والحشرات التي تلد بكثرة وتلتهم كل ما تلقاه وتجده سوى الحجارة ثم تموت لتتحول إلى تراب، لا قيام لها بعد ذلك أبدا، وكان هؤلاء من أكثر الناس ثرثرةً عن الأديان والعقائد التي كانوا يسخرون منها على الدوام، ويرون أنهم أعلم من سواهم من البشر بعدم وجود آلهة أو جن وعفاريت وشياطين وملائكة، ويركّزون باستمرار على أن العلم وحده سيقضي على هذه الأديان التي يجدونها خرافات، إلاّ أنهم يفشلون باستمرار في إعطاءٍ جوابٍ مقنع

عن سبب وجود «العقيدة» أو «الدين» في سائر أنحاء العالم المسكون، وبين مختلف شعوب الأرض، وفي كل الأزمنة، إلى جانب السحروالعلم والفلسفة، في المدنيات المتقدمة وفي المجتمعات المتخلفة، حتى تبدو هذه العناصر الثلاثة مع الدين أركاناً راسخة للحياة الإنسانية، وقد شهدت مدن وممالك مستوياتٍ عليا جداً في الحضارة والمدنية، منها بابل وآشور والصين والهند ومصر ومناطق أخرى بعيدة، كانت متشبثة بأديانها البدائية وجاهلة علمياً بالنسبة للمجتمعات التي خلفتها في الزمان، فيحتار العلماء في قدراتها العظيمة في مختلف مجالات العمران والتنظيم والحروب والإنتاج الحضاري، وبقائها في الوقت ذاته وفية لأديان آبائها وأجدادها. فما هو الدين وما سبب وجوده في الأعماق الإنسانية بشكلٍ عام؟

لم تكن مدينة الجن تخاف ديناً أو عقيدةً سوى ما جاء به إليها الإبراهيميون، ولذلك فإن حملاتٍ منظمة كانت تقاد من قبل القائمين على إدارة المدينة لملاحقة واعتقال وتعذيب بل وقتل هؤلاء سراً، الذين منهم من كان يصرخ تحت التعذيب بأن صفوةً آخرين سيأتون من بعد إبراهيم ليقولوا الشيء ذاته، وأن دين القادم الذي سيقول لكم (فكّروا حسناً وقولوا حسناّ واعملوا حسناً) سيسود على هذه المملكة وما حولها وسيترك بصماته على بوابة مدينة الجن في وقتٍ قريب، وكان الجلادون يستمرون في تعذيبهم ضاحكين وساخرين، وكان أحد أشد الجلادين وحشيةً وقذارة ولا إنسانية يرّد على موحّد يُعَذّبُ بوحشيةٍ لامثيل لها، قائلاً: «كلامٌ جميل، ومن منا ضده، فكر حسن، وقول حسن، وعمل حسن! أليس هذا ما تقوله سائر الأديان يا

جاهل؟»وأعتقد أنه كان لايستطيع رؤية الفارق بين الخالق الذي ليس له مثيل وما تنحته أيادي البشر من صورٍ وأصنام.

ومع الأيام، من خلال ما كنت أتذكره من مملكة الجن وساكنيها، وما رأيته في البلدان التالية وسمعته من الناس المختلفين في عقائدهم وعلاقاتهم، تعلمت أن الدين ينقسم إلى ثلاثة أشكال، فردي وجمعي ومعبدي، أما الفردي فهو إيمان الإنسان بمعبودٍ يخضع له بمحض إرادته ومستوى معرفته ومقدار تقواه وخوفه من عقابٍ يلقاه من معبوده ذاك، وجمعي ينشأ من خلال تقارب وتفاعل وتعاون المؤمنين على بناء ما هو خير لهم ودفع ما هو شر لهم، والتعايش ضمن مجموعتهم، صغيرةً كانت أو كبيرة للغاية، بهدف تنظيم حياتهم وحمل مسؤولياتهم وفق عقيدتهم طوعاً واختياراً، وأما المعبدي فهو نشوء فئةٍ من المؤمنين، الحقيقيين أو الزائفين، الذين يريدون تأسيس طودٍ شامخ يقف بين العابد والمعبود، يعلوهامات المؤمنين، ويسخّر أموالهم لتوسيع نفوذهم وتشديد قبضتهم على أرواح وممتلكات وعقول التابعين، ولا يتوانون عن استخدام القوة والسحر والشعوذة لارغام البشر على القبول التام بسلطتهم الكهنوتية عبر الأزمنة والخضوع لها وتقديم القرابين والضحايا من أجل دوامها.

- 10 -

في يومٍ من أيام الصيف الحار، حينما كنت جالساً مع (باد) في ظل شجرةٍ عملاقةٍ من أشجار البلوط، ليس بعيداً عن البوابة الرئيسة لمدينة الجن، وذلك في فترة استراحة، حيث أعطيت يومئذٍ الحراس المخصصين لحماية المدينة من خارجها درساً طويلاً ومملاً لهم في لغة العرب التي كنت أتقنها، وتعب (باد) من تلقين آخرين منهم فناً خطيراً من فنون المبارزة، إذا بعربةٍ كبيرة تقف أمام بوابة المدينة، فترفع الستائر عن قفصٍ حديدي، ويسوق الحراس من في داخله من معتقلين مكبلين بالأصفاد، إلاّ شيخاً هرماً لم يكن مكبلاً، ساعده الحراس على غير عادتهم في النزول من العربة قبل الآخرين، فقال لي (باد): «هذا شيخنا (آزر) ». فوقع كلامه على مسمعي كسطل ماءٍ باردٍ تم إفراغه على رأسي دفعةً واحدة، وسرعان ما انتفضنا من مكاننا، وتوجهنا صوب العربة التي كانت تفوح منها روائح كريهة. فإذا بقائد المفرزة الذي تولى إحضارنا من (هاتوشا) قبل شهورٍ عديدة ينزل من صهوة جواده ويتقدّم صوبنا. ولما رآنا مستبشرين برؤية الشيخ (آزر)، ابتسم وسألني: «هذا معلمك الذي ذكرته لي، أليس كذلك؟» فأومأت برأسي موافقاً، وما عدت أدري كيف أعانق الشيخ (آزر)الذي اعتقدت أنه قد

مات من جراء الجرح الذي أصيب به، ففتح الشيخ ذراعيه ليضمنا نحن الاثنين، أنا و(باد)، احتضان أبٍ لولديه العائدين من الحرب، وشرع يقبّل رؤوسنا بحرارة، والدموع تترقرق في عينيه. فأمر قائد المفرزة أحد مرافقيه بأن يفسح الطريق للشيخ لدخول المدينة من دون أي إجراءات وتفتيش، في حين حمل (باد) من داخل العربة سلةً كبيرة فيها العقاقير، علمنا أن الشيخ أحضرها معه، واحتفاءً بحضور معلمي الذي أحبه جداً اعتذرت لطلابي الذين كانوا ينتظرون آملين حدوث ما يمنعهم عن متابعة الدرس في ذلك اليوم الحار، كما اعتذر (باد) من الحراس الذين صاروا يحبونه أكثر من قائدهم، لما تعلموه منه من فنون النزال الخطيرة، ومضينا مع زائرنا الجديد إلى داخل المدينة حيث حجرتنا التي لا ترى الشمس، لذا تبقى وكأنها مكيّفة.

في حضور قائد المفرزة الذي جاء إلينا ليلاً لشرب مشروبٍ ممزوج من عصير البطيخ والرمان معنا، أحضره معه، وللتعرّف على معلم صديقه وزميله وقريبه الضابط (هيتو).

سرد الشيخ (آزر)كيف عالج جرحه البليغ بنفسه، وكيف اقتنعت المحكمة ببراءته، ومن ثم سؤال الملك هاتوشيلي عنه وإخباره بعلمه عن اللقاء السري بيني وبين الملكة (خاتى)، وكيف أن الملك لم يصدّق بأن ذلك اللقاء قد تمّ من أجل الحصول على (دمية)، إلاّ أنه ضحك ضحكاً عالياً، ولكنه لم يتقبّل الرجاء منه للإفراج عني وعن حارسي (باد) لأنه لايمكن له اتخاذ قرارٍ يتعارض مع قانونٍ أصدره بنفسه، فهوصادق الوعد والوعيد. وفي الحقيقة كنت فرحاً جداً بمجيء الشيخ (آزر) إلى مدينة الجن، وبأنه

لا زال حياً يرزق، إلاّ أن ما قاله عن رفض الملك هاتوشيلي الإفراج عني وعن (باد) قد جعل الشراب يتحوّل إلى علقم في معدتي. ثم كان لابد لي من السؤال عن سبب حضوره إلى هذا المعتقل الرهيب وعما إذا كان قد تلقّى أي خبرٍ من ملك ميتان (توشراتا)، إلا أنني اكتفيت بالسؤال عن سبب مجيئه فقط، وتركت ما يتعلّق بأخبار وطني (ميتان) إلى حين ذهاب قائد المفرزة من حجرتنا. فأجاب الشيخ (آزر) : «بعدما رفض ملك الهاتيين الإفراج عنكما بفترة، سمعت بأن مرضاً ينتشر في مدينة الجن فيبدأ بتقيؤٍ شديدٍ ثم يعقبه إسهالٌ متواصلٌ ذي رائحة كريهة فيقضي على كثيرٍ من ساكني المدينة الضعفاء منهم على الأغلب، والمدينة تحتاج إلى طبيبٍ يكتشف الأسباب حتى تستمر في وجودها كمدينة منتجة».

وهنا قال قائد المفرزة: «هذا صحيح. ولقد حاولنا إبقاء أمر المرض سراً قدر المستطاع وطلبنا من (هاتوشا) إرسالٍ طبيبٍ لمساعدتنا في تقليل عدد ضحايا المرض الذين نقضي عليهم قتلاً خوفاً من انتشار المرض حتى لايصبحوا عالةً على المدينة». فتابع الشيخ: «سألني ملك الهاتيين فيما إذا كنت مستعداً لتقديم المساعدة في هذا الأمر، لأنه كان قد أرسل معظم أطبائه الآخرين إلى بلاد (سوتو)، ليداووا جرحى الحرب التي شنها الهاتيون على الجيش الفرعوني في جنوب سوريا».

سألت الشيخ (آزر) وأنا أتفاجىء بأخبار الحرب في المنطقة بين مكان تواجدي والمكان الذي أريد الوصول إليه: «ماذا تقول؟»

«نعم هناك حرب ضارية شمال مدينة (ميغيدو) الكنعانية شنها جيش

مملكة (هاتي) الذي انطلق جنوباً عبر سوريا كالسهم، وتمكن من إقناع الملك السوري بالتضامن معه، ضد جيش مصر الذي لا يضاهيه جيش آخرفي عظمته وعلو شأنه في القتال والتنظيم والإدارة».

وعندما قرأ الشيخ (آزر) التساؤلات المختلفة على وجهي، قال: «نعم، كان الميتانيون يتخوفون من أن يهاجمهم الهاتيون فجأةً، ولكن كان للهاتيين طموحات أخرى كبيرة في سوريا وبلاد كنعان والعموريين. وقد طلب ملك (هاتي) من ملك (ميتان) مساعدته عن طريق إرسال عددٍ من الأطباء نظراً لارتفاع عدد جرحى الهاتيين». توقف الشيخ قليلاً ليشرب جرعةً من الشراب، ثم تابع قائلاً: «على كل حال، لقد أجبت ملك الهاتيين العظيم بأنني مستعدٌ لخدمته طبيباً في مملكة الجن التي تمدّه بمعدن الحديد والذهب والغذاء، وهكذا دخلت خدمة الحرب التي أكرهها كالطاعون بطريقةٍ غير مباشرة ووعدني الملك بإصدار عفوٍخاص عمن أحبه في حال قضائي التام على المرض الذي يقلل من قدرات هذه المدينة. » فقلت له: «معلمي (آزر) الحكيم، سواءً في الحرب أوفي السلم فأنت طبيب تعالج وتداوي الناس الذي هم بحاجةٍ إليك، وبذلك أنت جندي للسلام أينما كنت». فابتسم قليلاً ثم قال: «من المؤسف أن كثيرين من الجنود الذين يتلقون العلاج يعودون إلى ساحات القتال ثانية بعد شفائهم». ثم أطرق واجماً وكأنه جالس لوحده وليس بيننا.

بعد أن خرج قائد المفرزة من عندنا، ذكر لنا الشيخ بصوتٍ خافت أن ملك ميتان (توشراتا)، قد حنق على وزيره الغادر بعدما سمع عن متابعته لنا

بجواسيسه ومجرميه ومحاولتهم قتلنا، إلا أن الوزير الخائن كان مدعوماً من الولاة وأصحاب النفوذ الفاسدين، مما أضطر ملك (ميتان) إلى عدم التسرع في التخلص من الوزير. وذكر لنا أن الملك لم يحاول إنقاذنا من مدينة الجن حتى لاينكشف أمر مهمتي التي كلّفني بها، إلاّ أنه يطلب منا الخروج بطريقةٍ ما من هذه المملكة الوحشية، وسيرسل من يساعدنا بمزيدٍ من المال لدى وصولنا إلى مدينة أوغاريت الفينيقية على الساحل الشرقي للبحر، وهناك في المدينة حانةٌ شهيرة باسم «البطة الذهبية»، يتردد إليها تاجر (ميتاني) لن يبخل علينا بما نطلبه من مالٍ، لأنه سيسترده من ملك ميتان حال عودته إلى الوطن، والمهمة تبقى كما كانت في الكتمان. وهكذا علمت أن ملك ميتان يعلم أين نحن الآن ولا يزال يثق في أنني سأقوم بمهمتي السرية وأنه كلّف الشيخ (آزر) لتمهيد الطريق لي في القصر الملكي ب(هاتوشا) وأنه لن يتخلّى عني، وبذلك تعاظم الامل في نفسي، فقلت للفارس باد، عندما استلقى الشيخ (آزر) على طرفٍ وهو مرهقٌ جداً: «إن مصيرنا بعد اليوم متعلّق باكتشاف الشيخ (آزر) سرّ المرض الذي تفشّى في مدينة الجن أو بهروبنا من هذه المدينة اللعينة وقدرتنا على الوصول إلى مدينة أوغاريت الفينيقية أو جزيرة آلاسيا البعيدة عن هذه المدينة التي كرهتها منذ أن دخلت إليها أوّل مرّة». فأجاب (باد): «يبدو أن المرض ينتشر بين الجنود والحراس أيضاً، فلقد سمعت من بعضهم أنهم قاموا بقتل بعض زملائهم ليلاً ورموا جثثهم مع كامل أسلحتهم وعتادهم الفردي إلى وادٍ قريب من دون أن يشعر بهم أحد من ساكني المدينة. لذا أرى أن من الصعوبة إيقاف زحف هذا المرض

الذي لا يدري أحد أسباب ظهوره، ولذا علينا البحث عن طريقٍ للهروب من هنا». فقلت: «وماذا عن شيخنا (آزر)؟» فأجاب: «أنا مطمئن لكل ما قاله لنا، ويبدو أن الملك (توشراتا) أعلمه بأنك متوجه إلى بلاد الفينيق، ولا خوف عليه لأنه مرسلٌ من قبل ملك الهاتيين وقد يفشل في القضاء على المرض فتكون نهايته في هذه الكهوف حتى لا يتفشى سرّ مجيئه إلى هنا. وأعتقد أنهم أسدلوا الستائر عليه ووضعوه في القفص مع المعتقلين حتى لايراه أحد على الطريق من (هاتوشا) إلى مملكة الجن».

وجدت كلامه منطقياً ومقبولاً، لذا طلبت منه أن يغطي جسد الشيخ الذي كان قد صارفي عالم الأحلام من قبل أن نتحدث نحن الاثنين همساً بيننا.

قال لي الشيخ (آزر) يوماً وأنا أزور معه مرضى كانوا في الطابق الأدنى من الطابق الأوّل الذي حجرتنا فيه، إذ طلب مني حمل سلة العقاقير التي كانت تبدو ثقيلةً بالنسبة له: «سآخذك معي في زياراتي للمرضى والجرحى لتتعلّم مني علم المعالجة والتطبيب، فهذا العلم سيفتح لك أبواباً واسعة أينما ذهبت وسيقدّرك العظماء والبسطاء، كما جعل منك علم اللغات الذي تعلمتَه من قبل معلماً في هذه المدينة اللعينة عوضاً عن أن تكون معتقلاً مكبلاً بالأصفاد تساق كالعبيد إلى المزارع والمناجم». فرأيت ما قاله حسناً، لذا سألته: «ولكن ماذا عن وظيفتي كمعلّم للجنود والحراس؟» فأجاب: «سأطلب من حاكم المدينة أن يسمح لك بمرافقتي أينما سرت لأنني بحاجة إلى معرفتك للغاتٍ عديدة لساكني المدينة الذين جاؤوا أو تمّ جلبهم من بلادٍ مختلفة اللغات،

فلدي الكثير من الأسئلة أطرحها على سكان المدينة من مختلف الأقوام لمعرفة أسباب المرض». وبالفعل، فقد سمح حاكم المدينة لي بمرافقتي للشيخ داخل المدينة وفي ثكنة الحراس ومراكز انتشار الجنود خارج المدينة. وهكذا تحوّلتُ من عارفٍ باللغات إلى طالب علم الطب على يد خبيرٍ لا مثيل له في هذا الشأن. وهذا ما أفسح لي المجال للتعرّف خلال فصولٍ متلاحقة من أيام السنة على كثيرٍ من أسرار الطوابق الدنيا لمدينة الجن، وإمكانية إيجاد منفذٍ للهروب منها. وطالت فترة تعلّمي علم الطب، واظبت فيها يومياً على تلقي دروس الشيخ مع القيام بمراقبته ومساعدته أثناء قيامه بدراسة أحوال المرضى ومعالجتهم، من دون أن أجد أي منفذٍ للهروب من المدينة، في حين أن أجواء الحجرات المنحوتة عميقاً تحت الأرض وتعدد زيارات الشيخ (آزر) اليومية وكبر السن قد أرهقه تماماً، حتى فقدت الأمل في أن يعيش بقية عمره في حالةٍ صحيةٍ ملائمة لعمله، وفي ليلةٍ من الليالي بدأ يسعل سعالاً حاداً ومتواصلاً، ولم تسعفه العقاقير التي طلب منا مساعدته في شربها، وفقد القدرة الجيدة على الكلام وهو مسندٌ ظهره إلى جدار الحجرة، إلا أنه مدّ يده إلى سلة العقاقيروقال بصعوبةٍ وتؤدة: «خذ هذه السلّة معك، أينما سرت، لأنها ستفيدك جداً، ولقد أصبحتَ طبيباً حسب معرفتي بك، واعملا أنت وصاحبك على الخروج من هنا».ثم أغمض عينيه إلى الأبد، فحزّ ذلك في نفسي ونفس (باد)، ولم نعد ندري ماذا نفعل، فقال الفارس والحزن بادٍ على محياه: «أخاف من أن يتم تكليفك بمعالجة الناس في المدينة، فلن نقدر على الهرب». فقلت. «وماذا تقترح؟» فأجاب: «سنتحدث في الأمربعد أن

نحمل جثمان الشيخ من هنا».

منذ ذلك اليوم، وبعد أن تم حرق جثمان الشيخ (آزر) خارج المدينة أمام حشدٍ من الحراس في ليلةٍ مظلمة، أصبحت طبيباً كما أصبح (باد) مساعداً طبياً لي، بأمرٍ صادرٍ من حاكم المدينة وبوساطةٍ من قائد المفرزة الذي كان يتردد على حجرتنا كلما أحضر معتقلين جدد ويشرب معنا الشراب ويعلم ماذا نفعله وكيف نساعد الشيخ (آزر) الراحل، لأنه كان يجدنا من طينةٍ غير طينة العبيد والمجرمين والسكان الذين يتدافعون من أجل المال والمناصب في مدينة العبودية تلك، ولأن لنا إطلاع جيد على العوالم البعيدة عن مملكة الجن.

قلت للفارس باد ونحن ننظر إلى النار تحوّل جسد الشيخ (آزر) إلى رماد: «لم يعد لنا أمل في إصدار عفوٍ عنا ياباد». فهزرأسه بالإيجاب وقال: » أنظر، احتراماً لمهنة الشيخ (آزر) سمحوا لنا بحرق جثمانه ولم يرموه كجثث الآخرين في الوديان، فمهنة الطب رائعة، إذ حتى بعد موتك يحترمك الناس». ثم سألته عما كان يريد التحدث معي عنه بصدد هروبنا، فقال: «لقد رأيت صبياً في ممرٍ بين الحجرات السفلى، وهو يخفي أرنبةً صغيرة كانت معه، فسألته عما إذا أحضره من خارج المدينة، فقال بأنه وجدها في حجرةٍ فارغةٍ تقع في جناحٍ مهجورٍ من المدينة لايسكنه أحد، فظننت أن الأرنبة ربما جاءت من خارج المدينة ودخلت تلك الحجرة من خلال ثقبٍ من الثقوب». فصار هدفنا الأوّل، منذ سماعي هذا الكلام المشحون بالأمل في النجاة، ليس معالجة المرضى والجرحى وإنما الالتقاء بالصبي الذي يخفي

أرنبةً لديه. وبعد مضيّ أيام عديدة وجدنا ذلك الصبي في المساء وهو يحاول سرقة بعض الخبز من امرأةٍ عجوز وفقيرة كانت تعيش في أدنى الطبقات المسكونة، فأمسكنا به فارتعد خوفاً، مما دفعه إلى ترك أرنبته تسقط من يده لتهرب إلى خارج تلك الحجرة، فقلت له: «أنت تدلنا على الحجرة التي رأيت فيها الأرنبة أوّل مرّة، أو نسلّمك إلى الحراس الذين لن يترددوا في قطع يديك أو صلبك لأنك لص». فما كان منه إلا الشروع في البكاء والقول: «سأريكما الحجرة، ولكن رجاءً لاتسلّماني إلى الحراس، فلم أحاول السرقة إلاّ من فرط جوعي». وأمسك بيدي ليقبّلها راجياً ومذعوراً، فهدأته وأعطيته بعض النقود المعدنية ليطمئن إلى أننا لا نريد به شراً، فسار أمامنا على عجل حتى وصلنا إلى باب تلك حجرة، ولكن الباب كان مسدوداً إلى مستوى نصف قامتي بالأحجار المختلفة الأحجام التي أضطررنا إليى دفعها ورميها صوب الداخل، وبحذرٍ تام حتى لايسمع أحد قرقعة الحجارة. وبعد أن دخلنا إلى الغرفة وجدنا هيكلاً عظمياً بثيابٍ مهترئة وبجانبه قطعة حديدية برأسٍ مدبب، يبدو أن صاحب الهيكل استعملها قبل موته لفتح كوةٍ في الجدار الخلفي للغرفة، فشعرنا بأن ريحاً باردةٍ وقوية وكريهة تلفح وجوهنا ونحن نقترب من الكوّة. فقلت للفارس باد: «يبدو أن صاحب هذا الهيكل العظمي قد فكّر بما نفكّر به، ولكنه مات قبل تحقيق حلمه». فأجاب (باد): «ربما لدغته حية، لا أدري». فقلت: «سننجزما بدأ به، الآن». واغتنم الصبي فرصة محادثتنا تلك، فتمكّن من الإفلات، من دون أن نسعى للقبض عليه ثانيةً. لقد كانت تلك اللحظات سعيدة لأنها الفرصة الوحيدة

لنا للخروج من مدينة الجن اللعينة. قلت للفارس باد وأنا لا أتمالك نفسي من شدة فرحي وتعاظم قلقي في الوقت ذاته: «علينا أن لا نضيّع وقتنا، إذ أخاف أن يفشي سرّنا الصبي». فأجاب (باد): «لا أعتقد أن الصبي سيذكرنا سنواتٍ طويلة خوفاً من العقاب على محاولته السرقة. المهم أن نخرج من هنا في أسرع وقت». فسألت: «وهل نستطيع توسيع الكوّة؟» فأجاب: «سأبدأ بهدّم أطرافها عسى أن نستطيع الخروج من خلالها. ولكننا لانعلم ماذا في خارجها». فقلت: «هيا بنا، فهي مغامرة حياةٍ أو موت من أجل الحرية».

بعد كثير من الهدم بقطعة الحديد المدبب تلك، ومن الزحف على البطن وبصق التراًب مراتٍ ومرات، في عتمةٍ وضيق مكان، وأنا أتبع (باد) وأدفع بيدٍ الأحجار التي يقلعها ويعطيني إياها بمشقةٍ لضيق المجال، في حين أجرّ بيدي الأخرى سلة العقاقير التي لم تكن تفارقني منذ استلمت مهام الطبيب، وصلنا إلى آخر الكوّة التي أدت بنا إلى ممرٍ طويلٍ معتم، تنبعث منه روائح كريهة، وفي نهايته لمحنا قليلاً من الضياء، ثم كوةً أوسع تؤدي إلى الخارج، وتمكّنا من رؤية ما لايعد ولايحصى من النجوم في السماء التي حرمنا من رؤيتها منذ زمنٍ طويل، وتأكّد لي أننا صرنا في وادٍ تحف به تلال صخرية من الطرفين وأن الرائحة الكريهة تنبعث من الجثث الكثيرة التي كانت ترمى في الخنادق والجروف القريبة من المدينة المنتشرة تحت الأرض، وأوّل ما فكرت به ونحن في الحرية: «أين سيقبض الحراس علينا من جديد وماذا ستكون عقوبتنا؟» وكان علينا، قبل أن ننفض التراب عن أرديتنا المتسخة، الابتعاد قدر المستطاع عن تلك الأنحاء، قبل أن يرانا الحراس في

تلك الليلة التي اكتمل القمر فيها، ثم رأينا ما لم يكن في الحسبان، عشرات الذئاب التي تنهش الجثث، ومنها من يحدّق صوبنا في استغراب لتواجدنا أحياءً في تلك الناحية، في حين سرى الجزع في أوصالي، أما (باد) فقد لاذ بالصمت من شدة الخوف أيضاً، إلا أنه تمالك نفسه وقال: «ستصعد أنت ياسيدي تلك الصخور العالية، واحمل معك بعض الحجارة لترمي بها الذئاب، وخذ هذا المقلاع لترمي به الحجارة، وأنا سأسعى للحصول على سيفين من سيوف الحراس القتلى، فإن فشلت في ذلك فاحرص على أن تصل إلى الطرف الجنوبي من الوادي، وكن حذراً حتى لا يلقى القبض عليك». ولما نظرت باستغراب إلى المقلاع الذي كان عبارة عن خيطين سميكين طويلين في وسطهما قطعة جلدية بحجم كف اليد، قال: «كان هذا دائماً معي، معلّقاً بحزامي من الطرف الداخلي». فقلت وأنا لا أدري كيف أتصرّف: «دع الذئاب والسيوف الآن وتعال نخرج من هنا أوّلاً... وهل ستهرب الذئاب من رمي الحجارة صوبها؟» فأجاب بهدوء: «لا أدري ياسيدي، ولكنها لا تختلف كثيراً عن كلاب الرعاة». وانطلق فوراً صوب جثتين قريبتين منا لجنودٍ أو حراسٍ تم التخلّص منهما بسبب مرضهما أو لعقوبةٍ لهما، ونزع سيفي القتيلين، وعاد بسرعة وهو يلوّح بهما فرحاً ويتنفس بصعوبةٍ لأنه أضطر للقفز بين الصخور وعليها في ذهابه وإيابه، في حين لم أتحرك من مكاني بعد. فقال: «الذئاب لا تزال تنظر صوبنا ولن تهاجمنا لأنها ليست جائعة». وأعطاني سيفاً قصيراً ذي غمدٍ جلدي أصابه رذاذ من دمٍ اتسخ بالتراب، وقال: «هيا ياسيدي، قبل أن تغيّر الذئاب رأيها».

بعد أن صعدنا طرفاً من الوادي الذي نظن أنه لا يؤدي إلى بوابة مخفر من مخافر المدينة، بدأنا بركضٍ متواصل دام وقتاً طويلاً عبر سلسلةٍ من الجروف والوديان التي تنتشر فيها رؤوس صخورٍ مخروطية كبيرة من الحجر الأبيض، وبعد أن تأكّدنا من أن وجهتنا ليست صوب البوابة السهلية للمدينة وإنما صوب الجنوب، وذلك بسبب دراستي لما يحيط بالمدينة من فوق الأرض أثناء تعليم الجنود ولمعرفتي الجيدة بمواقع النجوم اللامعة في أعماق السماء، ولم نتوقّف عن الركض إلاّ في حال الإرهاق المضني وعدم القدرة على المتابعة. وعندما صعب علينا الإستمرار توقفنا ونحن لا نقدر على التنفس بشكلٍ صحيح، وجلسنا بين صخورٍ عديدة تخفينا عن عيون الباحثين والسائلين عنا، إن كان ثمة من يطاردنا. وأخلدنا للنوم من شدة الإعياء وكأننا على سررٍ ملكية ناعمة.

في صباح اليوم التالي، قلت للفارس باد: «علينا الذهاب إلى أقرب مدينة أو قرية والسؤال عما إذا كنا قد خرجنا من مملكة الهاتيين، ولشراء ما نأكله ونشربه، ولذا يجب تنظيف سيوفنا وأرديتنا وترتيب أمورنا بحيث نبدو كمسافرين وليس كهاربين من مملكة الجن. فليس على أجسادنا وشم يدل على عبوديتنا أو أصفاد في أيادينا». فقال (باد)، وهو فرح بنجاحنا في الهروب: «أعتقد أننا إذا سرنا مسافةً أخرى صوب الجنوب فسنظل في حدود المملكة الهيتية، أمّا إذا سرنا باتجاه الجنوب الغربي فسندخل بلاد الليديين، فأنا كنت في إحدى المرات في معية أحد أعيان الميتان في زيارةٍ له بموازاة ساحل البحر، وتعلمت من ذلك السفر الكثير عن هذه البلاد. وفي

الحقيقة فإن الهاتيين مسيطرون على بلاد الليديين والآرزاوا بشكل عملي، رغم أنهم يسمحون لمستعمراتهم بشيءٍ من الحكم الذاتي». فوافقته على رأيه، وبدأنا بمسيرةٍ بعضها ركض وبعضها الآخر مشي، طوال النهار وجانباً من الليل، فلم نمر بقريةٍ إلاّ وكانت خاويةً على عروشها، وكأن أهلها نزحوا عنها في وقتٍ مبكر، وكنا نتنقل في هدوء ودون ضجةٍ وبلا ارتباك، وبخاصة في حال اقتراب مسافرين آخرين منا، أو في حال اقترابنا من خيامٍ للرعاة في تلك الأنحاء. ولأني كنت أتكلّم بعض اللغة الإغريقية، لذا كان عليّ وحدي التحدّث إلى من نلقاهم، وحاولت طرح سؤالٍ على شخصٍ اقتربنا منه، فابتعد عنّا فوراً وكأنه توجس منّا خوفاً، في حين أن الخائفين من الناس كنّا نحن. فناديته بالإغريقية قائلاً: «نحن لا نضمر لك سوءاً، ولا نريد سوى سؤالك عما إذا كنا على الطريق الصحيح صوب البحر ». فتوقف الرجل، ونظر إلينا مليّاً ثم قال من دون أن يقترب منا: «إذا ما تابعتم سيركم صوب الجنوب الغربي فستصلون بعد أيام قليلة إلى (أورا) على شاطىءالبحر، حيث مصب نهر (هولايا) في بلاد (تارهوتاسا)، وإذا انحرفتم صوب أليسار وباتجاه الجنوب فستصلون إلى مدينة (تارزي) من المملكة الهيتية، فهي أقرب من الأخرى بكثيروتقع على البحر أيضاً». قال ذلك ومضى دون أن ينتظر منّا جواباً أو شكراً على معلوماته. هنا علمنا بأننا خرجنا من مملكة الهاتيين، أو أننا صرنا في منطقةٍ ليس للهيتيت عليها سيطرة تامة أو أن أحداً من حراس الحدود لم يلاحظ مرورنا بالقرب من مخفره، أو لم يهتم بنا، فقلت: «أعتقد أن الرجل صادق القول، وأننا نجونا بأعجوبة من

حياةٍ في العبودية بعد أكثر من ثلاث سنوات ولم يعد ثمة احتمال في إعادتنا إلى مملكة الجن اللعينة». فابتسم (باد): «حتى لا نقع في الأسر، علينا الحذر باستمرار، فقد يلقي الليديون القبض علينا فيقايضوننا بأسرىً لهم في بلاد الهاتيين». فسألت: «وماذا نقول لهم إن ألقوا القبض علينا؟» فقال ضاحكاً: «هذا لم يحدث بعد، وسنتكلم في شأنه إن حدث، إلا أنك قد تضطر إلى قول ما هو غيرصحيح، فتقول لهم بأنك طبيب من أطباء ملك ميتان». فسألت: «وبماذا نجيب إن أرادوا معرفة سبب وجود أحد أطباء ملك ميتان في هذه الديار ماشياً مع مرافقه في البراري».

فكّر (باد) قليلاً ثم أجاب: «تقول لهم بأنك سمعت بخبر مرضٍ جديد يقتل الناس بسرعة، ولذا أنت ذاهب للقاء أطباء آرزاويين للتشاور معهم حوله». فقلت: «وما الدليل على أني طبيب من أطباء ملك ميتان؟» فأجاب وهو يسرع الخطا إلى جانبي: «سلة العقاقير التي بيدك ياسيدي، وعلى مقبضها الشارة الملكية الخاصة بالأطباء». فتذكرت السلة التي كانت قد صارت جزءاً من أشيائي الشخصية. وكنت أحملها عن الشيخ (آزر) في جولاتنا الطبية في مملكة الجن، ثم وهبني إياها الشيخ (آزر) قبل وفاته لتثبت انتمائي لسلك الأطباء، فابتسمت ساخراً من جهلي، وإذا ب(باد) يمد يده إلى السلة ويأخذها مني وهو يقول: «منذ خروجنا من مملكة الجن وأنت تحملها، فدعني أحملها بعد الآن عنك». فأعطيته السلة وأنا مطمئن إلى أنه سيعيدها لي متى ما طلبتها منه.

بعد هنيهةٍ أضاف: «سيدي، أليس معك ذهب؟ إنه سيفتح لنا كل

الأبواب، فلن ترهق نفسك عندما تكون سخياً وشجاعاً، وأنت سخي وشجاع وقادر على اقناع الناس لقدرتك على التحدّث معهم بلغاتهم».
فوجدته حصيفاً في أقواله ووجدت أن هذا الإنسان الذي وضعت فيه ثقتي التامة ليس مجرّد حارسٍ لحمايتي وإنما هو شخص ذو أخلاقٍ عالية وخصائص عديدة اختاره ملك ميتان للاتصال بي، ولذا أجد الاستمرار في مهمتي من دونه مستحيلاً. فوافقته على ما قاله وأغرقت في صمتٍ مذهل، بحيث لم أعد أسمع سوى صوت خطواتنا على تراب طريقنا الذي لا ندري إلى أين يقودنا.

بعد أن مشينا ما يزيد عن يومين، كان طعامنا فيهما ما يصطاده (باد) من أرانب وطيور نشويها على النار التي كنا نعلم جيداً كيف نوقدها بقدح حجرتين أو باستخدام حد السيف يعكس شعاع الشمس على أعشابٍ ناعمة جافة.

لاحت لنا من بعيد مساكنٌ كثيرة متلاصقة على ضفاف نهر، وسورٌ قاتم اللون كان يخفي بعض تلك المنازل من جهتنا وينتهي طرفاه من اليمين واليساربحيث لا نرى جيداً إلى أين يمتد السور.قلت: «أعتقد أننا قد وصلنا إلى مدينةٍ آمل أن تكون (أورا) التي ذكرها لنا الإغريقي. وذاك هونهر(هولايا)».

وبالفعل، عندما وصلنا إلى بوابة متواضعة للمدينة من خشبٍ سميك وشرائح معدنية تزيده قوة، رفع أحد حراس البوابة إحدى يديه وسألنا أن يشمّر كُل منا عن ذراعيه وصدره، وأن يذكر ما معه من أشياء، وسبب

مجيئه إلى مدينة (أورا)، فقلت: «أنا طبيب من مملكة ميتان وقادم للتشاور مع أطباء (أورا) بصدد مرضٍ تفشّى أخيراً في مملكة الهاتيين، وهذا الرجل الذي يحمل سلتي هو حارسي الشخصي وتلميذي في الطب». فحدّق الحارس في وجهينا وقال لزميلٍ له اقترب منه: «هذان من مملكة ميتانا البعيدة». فنظر إلينا زميله برهةً ثم أفسح لنا المجال من دون عوائق، ولدى مرورنا من البوابة قلت للفارس باد: «لم أتوقّع دخول المدينة بهذه السهولة، وأعتقد أن الحراس أرادوا فقط معرفة فيما إذا كنا موشومين على أذرعنا وصدرينا، ويبدو أن هناك اتفاق بين هذه المدينة ومملكة هيتيت حول تسليم العبيد الفارين».

سرنا باتجاه مركز المدينة التي كانت تطل أطراف منها على ساحل البحر ، حيث تهب من جهته ريح فيها رطوبة ورائحة جديدة بالنسبة لنا، وفي سمائها تطير طيور النورس (اللاروس) بأعدادٍ كثيرة، تثير الفرح في قلوبنا بعد أن مكثنا زمناً طويلاًفي جوف الأرض، وقد استرعى انتباهي أن هذه الطيور حين تحط على جدار فإنها تكاد تتلاصق بأجسامها، وكلها تحدّق في جهةً بحيث يكون هبوب الريح من خلفها. وكان هذا اكتشافاً جديداً لي في تلك البلاد على شاطئ البحر، لم أكن أعرفه من قبل.

كانت المدينة قريةً كبيرة جداً من قرى صيادي الأسماك والحيتان، تفوح من شوارعها الترابية الضيقة وكذلك المرصوفة بالحجارة رائحة أجواف الحيتان التي اصطادوها والأسماك المعلقة على الحبال حيث يتم تجفيفها في الهواء بما تتكرّم الشمس من حرارة، وكانت البيوت المبنية من الحجارة مطليةً باللون

الأبيض أو ألوانٍ زاهية صفراء وزرقاء، في حين أن القرى التي كنا نمرّ بالقرب منها ونحن في هروبنا المضني كانت اشبه بحظائر خالية ومتباعدة عن بعضها، تم تركيبها من جذوع الأشجاروالأعشاب الجافة، دائرية ذات قببٍ عاليةٍ، وبدا لي أن جميع من في المدينة يعرفون بعضهم بعضاً معرفةً جيدة، إذ لاحظ الكل أننا غرباء منذ اللحظة الأولى لسيرنا بينهم عبرسوق الخضار ، فكانوا ينظرون إلينا بحذر، ولذا شعرت بالارتباك، فاضطررت إلى السؤال عن مكانٍ نأوي إليه لنرتاح من سفرنا ونغتسل وننام يوماً كاملاً عسانا نستعيد قوانا الجسمية به وبطعامٍ جيد حرمنا منه زمناً، ولنبتعد عن هؤلاء الذين لا ندري عنهم وعن عاداتهم وسلوكهم مع الغرباء شيئاً.

- 11 -

ضحى اليوم التالي، نزلت من غرفتي في الخان إلى ما يشبه بهواً تدلّت من أعلاه أغصان كرمةٍ منتشرة لم يزل عنبها حصرماً، فعلمت أننا في بداية فصل الصيف، ووجدت (باد) جالساً على طرف طاولةٍ خشبية طويلة عليها أباريق وأواني وكؤوس ذات أشكال جميلة، فنهض من مكانه إحتراماً وجلست إلى جانبه، قائلاً: «لا تقم لي بعد اليوم... فنحن أصدقاء...هل نمت قرير العين؟» فانفرجت أسارير وجهه وكأنه لم يتوقع وصفي له بالصديق، وأجاب: «أجد هذه المدينة هادئة وأهلها منهمكون بالبيع والشراء، وهم يملكون كثيراً من الذهب». فسألت: «وكيف عرفت ذلك؟»، فأجاب بأنه خرج في جولة صباحية إلى السوق الكبيرة ورأى أن التعامل بالنقود الذهبية أكبر منه بالنقود النحاسية، وأن النساء يحملن الكثير من القلائد الذهبية والأساور، ثم ذكرلي أنه وجد حمّاماً للعامة في جوف الأرض، من أنظف ماعليه بيوت الخاصة من الناس، وتخدم فيه الزبائنَ نساءٌ وعبيد. وبالفعل فإن الارتماء في حوض ماء ساخن جداً كان ما نحتاج إليه قبل أي شيء آخر. ولذلك ذهبنا إلى الحمام بعد الظهر ومكثنا فيه حتى حلول المساء، حيث جلسنا وقتاً طويلاً بعد الاستحمام

على مصطبةٍ كبيرةٍ وتبادلنا الحديث مع غرباءٍ مثلنا كانوا قادمين من بلاد سوريانا، وإذا بأحدهم يتكلّم عن فرعون مصر الجديد، (أمينوحتب الرابع) صهر الميتانيين، الذي غيّر اسمه إلى (أخناتون)، ويقول بأن فرعون قد فرّق بين زوجتيه نفرتيتي ابنة أحد الجنرالات المهمين في جيش فرعون و(دوتى خيبا)، ابنة الملك الميتاني، التي تشبه لؤلؤة تلتمع على قمة الهرم العائلي الفرعوني بأن أبعد الأخيرة عن سكنى الأولى، لسبب لايعلمه أحد خارج العائلة الفرعونية، وأن (دوتى خيبا) صارت تعيش لوحدها حزينةً وشبه منسية في قصرٍ لايتردد عليها زوجها إلا نادراً، رغم جمالها وفتوتها، وإنها تبدو لدى ظهورها في المناسبات الملكية ولدى ذهابها إلى المعابد حزينةً وأشبه بشجرة وردٍ جفّت عروقها أو كتمثالٍ لا حراك فيه.

لقد أثار هذا الخبر غضبي لأنه لا بد وأن يكون لذلك التفريق بين مسكن زوجَتَي فرعون سببٌ هام لا تعرفه عامة الشعب المصري، وقد يجعل هذا مهمتي شاقة، ولكن بعد تفكير طويل، قلت لنفسي بأن هذا الفصل بين (دوتى خيبا) و(نفرتيتي) قد يسهّل لي زيارتها في ظرفٍ ملائم أو بذريعةٍ من الذرائع. والأهم الآن هو الانطلاق نحو مصر في أسرع وقتٍ ممكن. ولذلك قررت أن نسافر في صباح اليوم التالي على ظهر أوّل سفينة تمخر عباب البحر صوب الجنوب.

وفي مساء ذلك اليوم، حيث كنا جالسين في حانةٍ تطل على شاطئ البحر ذي الأمواج المتلاطمة العالية، يصل صوت ارتطامها بالصخور الصلدة أسفل الحانة برتابةٍ إلى أسماعنا، والسماء متلبدة بغيومٍ شاحبة اختفت

الشمس للتو من بينها، إذا برجلٍ أشبه بثورٍ يتقدّم صوبنا وهو يقهقه بصوتٍ عالٍ ضاحكاً فتظهر أسنانه الذهبية بشكلٍ يثير الاستغراب. مد يده القوية صوبي وهو يقول: «ألا تتذكرني يا رفيق القفص الحديدي؟»، وهنا تذكّرت الرجلين اللذين هربا من بيننا، عندما هاجمت علينا جماعة المجرم ذي العين المفقأة ونحن على الطريق إلى مدينة الجن. فقلت له وأنا أهزّ بيدي يده التي بدت لي ثخينةً جداً مثل كف دب: «أراك قد سمنت. أين هو صاحبك الذي هرب معك؟» وأومأت له بأن يجلس معنا، وسرعان ما طلب (باد) من الخدام ما يريد شربه، ثم دار حديثٌ طويل بيننا، فعلمت أن السجين الآخر الذي هرب معه قد جُرِحَ أثناء انهماكنا نحن في القتال ضد المهاجمين، ثم نهشته الذئاب الجائعة في البراري فيما بعد، وأن هذا الذي يجلس معنا قد وصل يائساً وجائعاً إلى طريقٍ للقوافل القادمة من آرزاوا فأتت به جماعة من المسافرين معها إلى مدينة (أورا)، حيث تمكّن من استعادة عافيته والعمل بشكل مستمر مختلف الأعمال الشاقة إلى أن أصبح خادماً في قصر حاكم المدينة، وارتقى بعد ذلك في الخدمة إلى أن أصبح من الموثوقين بهم لدى الحاكم. وعندما سألته عن كيفية وصوله إلى مرتبته الخدمية العليا تلك، كشّر ضاحكاً عن أسنانه المخيفة، وقال بصوتٍ خافت: «أنتم السوريون مشهورون بالتجارة في الأسواق، ولكن إذا كنتَ ذكياً ونفّذتَ كل أوامر من يستخدمك فلا حاجة لك للعمل». قال ذلك وحرّك إحدى يديه وكأنه يلوّح بسيف، ففهمت أنه لم يرتفع في سلم الخدمة في قصر الحاكم إلا عن طريق قتل من يريد الحاكم التخلّص

منه. وتذكّرت أننا قلنا له وللسجين الآخر معه في القفص أننا من جنوب سوريانا، وعلم الرجل منا أنني طبيب وأن مرافقي مساعد لي. ووجدت أن من الأفضل الاعتراف له بهروبنا نحن الاثنين أيضاً من مملكة الجن، بعد أن قضينا فيها فترة غيابنا عن بعضنا، من دون أن أعطيه أي معلومات عن هدفنا الأخير ، عسى أن نكسبه كصديقٍ في هذه الديار الغريبة عوضاً عن أن ينشر عنا أخباراً ملفقة تضر بنا.

في صباح اليوم التالي وقفت أمام متجرٍ صغير أحدّق في رقائق صدفية بأشكالٍ وألوانٍ تأخذ بالألباب، في حين كان (باد) كعادته يقلّب سيفاً بعد آخر بجانب بائعٍ للأسلحة على أمل أن يجد ما يعوّضه عن سيفه الذي أُخِذَ منه عنوةً في هاتوشا.وإذا بصاحبنا ذي الأسنان الذهبية يأتي مسرعاً صوبنا، ويقول لحظة وصوله إلى جانبي: «أنت طبيب، أليس كذلك؟ الحاكم يريدك بسبب وعكةٍ صحيةٍ ألّمت به في الليل».، ويبدو أن (باد) قد لاحظ اقتراب الرجل مني، فترك مكانه وجاء مسرعاً وهو يحمل سلة العقاقيرمعه. فسألت الرجل عما آخذه معي كهديةٍ للحاكم، فقال: «أطباؤه الآخرون لا يأتون له بشيءٍ من الهدايا سوى الدواء».

وهكذا سرنا خلفه صوب قصرٍ منيفٍ يقع على رابيةٍ تشرف على ملتقى النهر بالبحر، ودخلنا القصر من غير مساءلة على الرغم من أن كلاً منا كان يحمل سيفاً مزدان الغمد برموزٍ حيثية (هيتية). وعلمت أن وجود خادم الحاكم معنا هو الذي حال دون المساءلة الاعتيادية من قبل الحراس. فقال الخادم ونحن نصعد درجاً من المرمر إلى طابقٍ علوي: «هنا يختلف الأمر

عما عليه في (هاتوشا)، هنا كل شيءٍ مدني وبسيط. المهم أن تكسب ثقة الحاكم فتُفتَح لك الأبواب دون مشاكل».

رحّب بنا حاكم المدينة الذي لم يكن يرتدي بذلةً عسكرية، وإنما ثياباً بسيطة كأي موظّفٍ آرزاوي أنيق في دائرةٍ ملكية إغريقية هامة، وكانت آثار جراح قديمة وملتئمة على إحدى ركبتيه العاريتين وعلى صدره العاري تدّل على أنه كان محارباً، وكان رجلاً قوي الجسم في الأربعين من عمره ذي بشرةٍ بيضاء وعينين واسعتين عسليتين. وقال لدى جلوسنا بالقرب منه على أرائك يونانية الصنع كما يبدو، في حين أومأ للخادم بالانصراف: «في الحقيقة لست مريضاً، وإنما أردت السماع منكما عن أخبار مملكة الجن التي نجهل عنها الكثير، وما يتسرّب من أخبارها وتصلنا عنه أساطيروأكاذيب... أخبرني خادمي أنكما هربتما من مملكة الجن بعد فترةٍ طويلةٍ من بقائكما فيها». وأضطررت إلى أن أجيب عن العديد من أسئلته حول المملكة اللعينة ووجدت أنه سُرّبأجوبتي التي صدّقها كما فهمت من تعابيروجهه، ثم قال: «اليوم مساءً ستكونان ضيفين على مأدبتي». فقلت: «لا تؤأخذنا ياسيدي. هذا شرفٌ عظيم لنا، ولكن علينا السفر جنوباً صوب مدينة (أوغاريت)». فحدّق في وجهي طويلاً ثم قال: «لا بّد وأن الأطباء مثلكم يجوبون الدنيا بأسرها. سأساعدكما بما تحتاجان إليه من مالٍ وأشياءَ للسفر، ولكن لي مشكلةٌ آمل أن تساعداني في التخلّص منها قبل سفركما». ففكرت قليلاً ثم أجبته: «تمام، نحن نساعدكم في حل مشكلتكم قدر استطاعتنا وأنتم تساعدوننا في تسهيل سفرنا». فابتسم،

ورفع كأس شرابه الذي صبّت منه، له ولنا، خادمة صبية وشبه عارية كؤوساً من الشراب قبل ذلك، وقال: «لنشرب نخب اتفاقنا». ولم أدرِ حتى تلك اللحظة عن مشكلته شيئاً.

خلال الفترة التي جلسنا فيها لدى الحاكم علمت منه أن قوات الهاتيين التي تستخدم العربات السريعة قد اندفعت منذ فترة عبر (سوريانا) كالسهم الطائش وارتكبت فظائع لا مثيل لها بهدف بث الرعب في صفوف المصريين الذين تقدموا قبل ذلك عبر بلاد العموريين والكنعانيين إلى الداخل السوري، تحت قيادة محاربٍ عسكري جسور وذكي يدعى (حورمحب)، حيث أضطر ملك السوريين (عُزير) الذي يسميه أهل (أورا) ب«آزيرو» إلى التحالف مع الهاتيين للدفاع عن بلاده ولطرد المصريين، في حين أن البابليين قد شنوا حملاتٍ واسعة على أطراف بلاد (ميتان) من ناحية الجنوب الشرقي، وقال الحاكم بأن سبب هذه الاضطرابات الجنونية في المنطقة كلها يكمن في انتشار الجفاف والقحط، فالملوك لايستطيعون إشباع بطون شعوبهم ويضطرون لشن الحروب ضد بعضهم بعضاً، فهم من جهة يلهون الشعوب بالحديث عن الحرب والمساهمة فيها ومن جهة أخرى يطمحون في انتزاع مصادر للغذاء والمياه والمواد المختلفة من أعدائهم... كما أشار إلى أن ملك السوريين (آزيرو) سيدفع فيما بعد ثمناً باهظاً لتحالفه مع الهاتيين الغزاة لأن فراعنة مصر أقوى من الهاتيين وأقدر على نشر قواتهم، سواءً في البر السوري أو في البحر، وتعرّفت منه على أنه شخصياً لايهتم بالولاء لهذا الملك أو ذاك،

فسواءً سيطر الهاتيون أو الآرزاويون أو سواهم على مدينته فهم لايختلفون في الحكم وفي البطش والوحشية، إنهم يعتبرون أنفسهم سادة وأهل مدينة (أورا) مجرّد دافعي ضرائب، ويشعربأنه ليس إلاّ خادماً حتى في ظل ملوكه الآرزاويين حالياً، في حين أنه يطمح إلى استقلال مدينته حتى لايدفع للمحتلين شيئاً، فيصرفها على شعبه ويحصّن أسوار المدينة ويقوّي جيشها للدفاع عنها. وليست له مشاكل مع الفينيقيين والسوريين الذين تهمهم التجارة الرابحة والشعور بالأمن والراحة حال قدومهم ومكوثهم في مدينة (أورا)، وهو سعيد بذلك، والذي يصيبه بالقرف هو كثرة الأساطير الإغريقية عن الآلهة التي تتخاصم كالملوك وتتفق على استعباد البشر، وتتقمّص صوراً وأشكالاً لا تعد ولا تحصى، وتملأ السماء والأرض وتسكن فوق الغمائم ممسكةً بسهام الصواعق، أو تقوم آلهة الأمواج من مكانها في جوف البحر فلا يعلو مستوى الماء عن نصف قامة إلهٍ من تلك الآلهة، وهو يبعد جبلين عن بعضهما لتمر سفينة ما بينهما ويزعمون أن تحت الأرض ممالك عظيمة من الذهب والفضة ترتاح فيها آلهة على سرر ووسائد من ريش الطيور في قصورٍ صدفية. وقال لنا بأنه لايستطيع اقناع شعبه بأن كل هذه العقائد من اختلاق وابتكار كهنة المعابد المتفقين سراً أو علانية مع الملوك المستبدين...

سألته عن مشكلته التي يريد مساعدتنا له في حلها، فذكر لنا أن ملك جزيرة كريتا (مينوس) قد اتفق معه قبل سنة على ألايهاجم أحد منهما الآخر، ولكن تأكيداً لاتفاقهما على حاكم (أورا) تزوبج ملك كريتا

بابنته (هِستيا)، مقابل حصوله على عددٍ كبيرٍ من العبيد ليبنوا له القلاع وليتمموا بناء سور المدينة، كما سيرسل له كثيراً من الذهب. فسألته: «وما المشكلة في الأمر؟ المصاهرة بين الممالك تؤدي إلى السلام وتساعد في بناء الثقة والعلاقات الجيدة الثابتة بينها، فها هو ذا ملك الميتانيين قد زوّج ابنته لفرعون مصر أمينوحتب الثالث، وبعد موت الفرعون تزوجها ابنه أخناتون ليؤّكد على استمرارالعلاقة الحسنة بين المملكتين». فأجاب بأنه عَلِمَ من مصدر يثق به أن على ملك كريتا تقديم قربانٍ بشري لإلهٍ خرافي له، نصفه العلوي إنسان ونصفه السفلي ثور يمشي على أربعة قوائم، يدعى (سينتاوروس) يعيش في جوف كهفٍ كبيرٍيشبه متاهةً يصعب الخروج منها بسهولة وتطل على شاطئ البحر، وهذا القربان يجب أن يكون فتاةً عذراءَ ذي مواصفاتٍ جسدية تنطبق على مواصفات ابنته التي يحبها أكثر من كلِ مخلوقات الأرض وطيور السماء وما في البحر من أسماكٍ وحيتان. إنه خائفٌ عليها من جعلها قرباناً للإله الذي يعتقد الكريتيون بأنه يختفي في ظلمات ذلك الكهف ويفرض عليهم تقديم قرابين بشرية من الفتيات العذارى، وإلاَ فإنه سيدمّرجزيرتهم كلها.

هنا سألته، والحزن مستبد به: «وبماذا نستطيع مساعدتكم ياسيدي؟» فقال: «أن تقتلا من أرسلهم ملك كريتا لأخذ ابنتي (هِستيا) طوعاً أو كرهاً». ثم علمت منه أن الملك (مينوس) قد أرسل سبعةً من صناديد رجاله المصارعين الذين لن يقدر عليهم كل حراس مدينة (أورا) مجتمعين، وأنه حاول بكل الوسائل اقناعهم بالعودة من دون ابنته ففشل،

فإن أمر الملك (مينوس) لا يُرَد له طلب، إما أن يأخذوا البنت معهم أو يُصلَبون أحياءً لحظة عودتهم إلى جزيرتهم، كما أنه حاول الإيقاع بهم ففشل فشلاً ذريعاً.

هنا نظرت إلى (باد) نظرةً فاحصة، فرأيته صامتاً وحانقاً وكأنه جذع شجرةٍ تحترق، فقلت للحاكم: «سيدي، أنا مجرّد طبيب أنهى تعليمه قبل فترة وجيزة، وهذا مرافقي الذي يتعلّم على يدي، وما تطلبه منا لا أعتقد أننا قادران عليه».فضحك ضحكةً خبيثة وقال: «لقد حدثني خادمي عن القتال الباسل الذي جرى بينكم وبين المهاجمين الأشقياء عليكم على الطريق إلى مملكة الجن».فقال (باد) للحاكم: «لدي فكرة». فقال الحاكم: «هات ما عندك».فأجاب الفارس: «مارأيكم بتنظيم مبارزة بيننا وبينهم، فإذا ما نجحوا في القضاء علينا يحصلون على مايريدونه منكم، وإن قضينا عليهم تتخلّصون من رجال الملك الكريتي؟» ففكّر الحاكم قليلاً ثم صفق بشدة بيديه مما أحدث صدىً في القصر، وقال: «فكرةٌ ممتازة». ويبدو أن تصفيقه كان طلباً لخادمه الذي كان يتواجد في مكانٍ خارج القاعة التي نحن فيها، فدخل الخادم وأحنى رأسه تحيةً، ووقف دون حراك، فقال الحاكم: «هيا إلى سفينة رُسُلِ الملك (مينوس)، لأني أعرض عليهم مبارزةً شريفة مع سبعةٍ من الرجال أختارهم بنفسي، فإن انتصروا فيها فليأخذوا ابنتي (هِستيا) معهم وإن انتصر رجالي عليهم فليكّف ملكهم (مينوس) عن المطالبة بها».

استغربت كيف قبل الحاكم اقتراحاً قد يعرّض حياة ابنته لخطر الموت،

كما استغربت من أنه لم يسألنا عن البلاد التي جئنا منها أو سبب اعتقالنا أو عن طريقة هروبنا من مملكة الجن، فقلت لنفسي: «إنه منشغلٌ الآن بمصير ابنته، وقد سمع من خادمه عن نزالنا الدموي مع المهاجمين علينا ونحن في طريقنا من (هاتوشا) إلى مملكة الجن، وكيف قهرنا مجموعةً من المجرمين أكبر منا بكثيرمن دون أن ينال أحدٌ منا، وهو غير مهتمٍ بمعرفة المزيد عنا، وسؤاله عن مملكة الجن لم يكن إلاّ مدخلاً للحديث عن مشكلته، فلا بد أنه يعلم عنها أكثر مما نتوقع». وبالفعل، لم يعجبني اقتراح (باد)، إلاّ أنني لم أشأ الاعتراض عليه لأنه صديق لي، ولربما اقتراحه يعود علينا بفائدة.

أضطررنا أن نقضي أياما أخرى في مدينة (أورا) لأننا كنا بحاجةٍ إلى مساعدةٍ جيدة لسفرنا، في حين أن خروجنا منها دون تقديم العون لحاكمها كان مغامرةً قد تعرّضنا إلى أخطار، ففضلت البقاء لنرى ما يحدث.

في تلك الفترة كنا ضيفين على الحاكم الكريم الذي لم يبخل علينا بشيء مما نطلبه، حتى وصول الخبر بالإيجاب من رسل الملك (مينوس) الذين ربما أرسلوا لمليكهم حماماً زاجلاً وانتظروا حتى يأتيهم بجوابٍ منه. وتجرأت على سؤال الحاكم عن سبب ثقته بنا ونحن غرباء، فقال بأن ما اقترحه زميلي بصدد المبارزة هي الفرصة الوحيدة التي أمامه لإنقاذ حياة ابنته وبأن ليس لديه فارقٌ بين غريب أو مواطن طالما يعيش في (أورا) بسلام ويقوم بما عليه من واجبات، فوجدت (أورا) مدينةً فاضلة أو هكذا ما كنت أحلم به عن المدن العظيمة، تلك التي لاتفرّق بين البشر ، مواطنين أو غرباء كانوا، بسبب عروقهم وأجناسهم ولغاتهم، فقراء أو

أغنياء، محاربين أشداء أو ضعفاء، متعلمين أو جاهلين...

ولما جاءنا الخبر بأن الكريتيين مستعدون للمبارزة مع سبعةٍ ممن يختارهم حاكم (أورا)، قال لي (باد) مبتسماً: «أعتقد أننا نحن الإثنان كافيان، فالخمسة الآخرون قد يُقتَلون قبل أن يجرَحوا أحداً من الكريتيين. المهم أن نختار الأسلحة المناسبة ونتعرّف على نقاط ضعف الخصوم».

عندما نزل الكريتيون من سفينتهم وجدناهم عمالقةً وقتلة متوحشين وليس بينهم من يمكن القول عنه بأنه من بني البشر. كانوا ضخام الجثة، مخيفين في صورهم وأرديتهم وأسلحتهم التي منها فؤوس كبيرة ورماح طويلة وتروس عظيمة وجنازير وسيوف متينة الصنع، فقد كانوا مجهزين أحسن تجهيزللقتال، وكبيرهم في وسطهم قد أخفى رأسه في خوذةٍ كبيرة صنعت على شكل رأس ثورٍ ذي قرنين كبيرين ليشبه «مينوتاوروس» الذي أسطورته تلقي الرعب في قلوب الناس مواطني (أورا) الذين كانوا يخافون غضب الآلهة التي يؤمنون بوجودها.

لمّا طلب منا حكم المدينة اختيار الأسلحة المناسبة وجدت حرجاً في ذلك، في حين اختار (باد) سيفاً طويلاً وحاداً للغاية وترساً وخوذةّ تغطي رأسه وصدغيه وأنفه، وعلّق بحزامه عصا في طرفٍ منها كرةٌ معدنية بحجم رمانة فيها مسامير حادة مغروسة، وفي طرفٍ منها تم تثبيت جنزيرٍ بطول ذراعٍأو أكثر ، ونظر إليّ مبتسماً وقال: «خذ ياسيدي الأسلحة التي يمكنك حملها فقط». فشعرت بالخجل حقاً من شجاعته تلك، وأضطررت أن آخذ مثل ما أخذه فقط، وانطلقنا إلى وسط ساحة المدينة، وكانت محاطةً

بسورٍ حجرية متواضعة صفّت خلفها بتدرج نحو الأعلى مقاعد خشبية متينة ليجلس عليها المتفرجون جنباً إلى جنب. كنا مع خمسة رجالٍ آخرين من مقاتلي (أورا) المدربين والمدرعين بشكلٍ يعيقهم عن الحركة عبر الساحة المكتظة من أطرافها بالناس التي تصيح (أورا... أورا... أورا...) وتصفّر باتجاه العمالقة الكريتيين، وترمي بالورود علينا من كل الأطراف، إلى أن وقفنا على بعد أمتارٍ فقط من خصومنا السبعة، وكأننا أقزامٌ بالنسبة إليهم، وانتظرنا إلى حين نهوض حاكم المدينة الذي كان يرتدي بذلةً عسكرية ومن حوله عدد كبير من ضباط حرس المدينة ومسؤولي الإدارة الذين نهضوا جميعاً خلفه، من على منصةٍ عالية ومزدانة بالستائر والرايات المختلفة، ثم بدأ الحاكم بالكلام، معلناً لشعبه عن الاتفاق الذي توصّل إليه مع (مينوس) ملك جزيرة كريتا، عبر مقاتليه الحاضرين والجاهزين للقتال حتى النصر على رجال (أورا) أو الموت في سبيل تحقيق مطلب ملكهم. ثم أضاف بأن اثنين من المقاتلين في سبيل (أورا) ضيفان عزيزان عليه، إن ظلاّ على قيد الحياة بعد هذه المنازلة، فإنهما سيذهبان إلى حيث يريدان، وهما محمّلان بما يرغبان فيه من الذهب والحلي، إلا أنه لم يبيّن حتى بنظرةٍ منه من هما هذان الضيفان، فعلمت انه لا يريد الكشف عنا أمام العمالقة الكريتيين، وليزيد المنازلة إثارة بين شعبه الذي يزداد تماسكاً بمثل هذه الحفلات الدموية كما يشتد ولاؤه للحاكم.

بدأت المبارزة حاميةً بيننا بقرع على طبول الحرب ونفخ في الأبواق وبإشارة من يد الحاكم، الذي جلس في مكانه محاولاً ضبط عواطفه الشجية

وخوفه الكبير من ألا نصمد سوى بعض الوقت أمام هؤلاء القتلة الكبار. وتوقفت الجماهير عن الصراخ والعياط وهي تحدّق بنا كعصافير مرتعدة في قفصٍ صغير. كانت معركةّ رهيبة حقاً لايمكن وصفها بكلماتٍ قليلة، وسرعان ما سقط الأوّل ومن بعده الثاني ومن ثم الثالث من طرفنا، مما جعل الجماهير المحتشدة تزأر حانقةً علينا وغاضبة على العمالقة الكريتيين، قبل أن يأمر الحاكم باعطائنا فرصةً قصيرة لتضميد جراحنا نحن أبطال (أورا)، في حين أن السبعة الغرباء كانوا لا يزالون جميعاً بلا جراح، سوى واحدٍ منهم، حيث كان جرحٌ خفيفٌ بطول ذراعٍ من أعلى الجانب الأيمن من صدره إلى أدنى خاصرته على الطرف الأيسر، ينزف دماً ويرغمه على التحرّك محنياً من شدة الألم صوب المقعد الخشبي الطويل على الطرف الآخر من الساحة.

عندما جلسنا على المقعد المعدّ لنا، هُرِعَ الخدم المخصصون للمبارزات صوبنا، لنقل القتلى والمصابين لمداواتهم وشرعوا يضمدون جراحنا الخفيفة، أما الوحيد الذي لم يصب بأذى فقد كان (باد)، الذي بدا وكأنه كان في ملعبٍ للأطفال وليس في ساحة نزالٍ دموي. قال لي: «أنت تحارب أفضل من الجميع ياسيدي. ولكن هؤلاء قد خاضوا الحروب وقاتلوا طويلاً في ساحات النزال، ولن نتمكن منهم إلا بذكائنا وسرعة سيوفنا، فلنحاول باستمرار أن تكون عيونهم صوب جهة الشمس، ولنحرّك سيوفنا بحيث تعكس أشعة الشمس باتجاه عيونهم. وأقفز بالدوس على تروسهم لطعنهم في رقابهم من الأعلى». فقلت: «باد، أرى أن دروعهم

وأرديتهم ثقيلة سترهقهم عندما ترتفع الشمس إلى وسط قبة السماء. فماذا تقول؟» فهزّ رأسه موافقاً وقال: «عندها لن نرحمهم». وعلى أثر ذلك شربنا قليلاً جداً من الماء، على عكس العمالقة الذين شربوا كثيراً وهم ينظرون إلينا كذئابٍ جائعة محدّقة بخرفانٍ في المرعى.

حال سماعنا صوت البوق للبدء بالجولة الثانية من المبارزة، أخذ (باد) رمحاً كان مغروساً في الأرض إلى جانب المقعد ورماه في سرعةٍ وقوة صوب أحد العمالقة، فإذا به يمسك بكلتا يديه الرمح الذي أصابه في صدره من جهة القلب وخرج من ظهره وشرع يترنح ليسقط بعد ذلك ودمٌ غزيرٌ يسيل منه، وسط صراخ عالٍ جداً من المتفرجين، في حين قفز الحاكم من مكانه فرحاً، فهاجمنا الآخرون كثيرانٍ هائجة، إلاّ أنني انحنيت بسرعة وطعنت أوّل المقتربين مني في وسطه، وإذا به يفقد توازنه ويقع كفرسٍ مطعونٌ في ساحة معركة، فتعالى صراخ الناس ثانيةً، بحيث أعاقني عن سماع صوتٍ آخر. وهنا ازداد المهاجمون غضباً علينا ولكني شعرت بأنهم صاروا كالسكارى غير قادرين على اتخاذ القرارات الصائبة ومعرفة كيفية التصرّف معنا، حيث بدأنا نحرّك سيوفنا لتعكس أشعة الشمس باتجاه عيونهم، وهذا ما أفسح المجال لنا لأن نتفادى ضربات سيوفهم، ولانتزعَ أنا بسهولةٍ من يد أحدهم رمحاً وأرميه إلى (باد) الذي طعن به عنق عملاقٍ كان مسرعاً صوبه. وهكذا قضينا على ثلاثةٍ منهم في بداية الجولة في حين أن أحدهم استخدم شبكةً لاصطياد أحد محاربي (أورا) كان على الطرف الأيسر مني فطرحه أرضاً وراح يطعنه بسيفه ويضرب به على وجهه بوحشية.

مرّ وقت طويل من دون أن يتمكّن الأربعة الباقون من إحراز أي نصرٍ جديد علينا، وبدا أن الشمس قد أسرعت في سيرها إلى وسط السماء لتزيد الجو حرارةً أعاقت العمالقة عن الحركة وجعلتهم أضعف مما كانوا عليه قبل الظهر، وكأن الحاكم قد شعر بذلك فلم يأمر باستراحةٍ ثانية، وبذلك تمكّن (باد) بحركةٍ عجيبة من قدميه من رمي أحدهم إلى جانب، حيث شرع أحد محاربي (أورا) في تسديد ضرباتٍ متتالية بحد السيف على كتفي العملاق الواقع على الأرض من دون أن يعرف كيف حدث ذلك، إلاّ أن عملاقاً كان قريباً منه جداً أطاح بسرعةٍ فائقة برأس ذلك المحارب فراح رأسه يتدحرج على التراب باتجاه الجماهير المذعورة.

ظلت المبارزة مثيرةً إلى أن مالت الشمس باتجاه الأفق الغربي ميلاًكبيراً، ولم يبق في الساحة منا سوى اثنين، أنا و(باد) الذي كان نجم الحلبة الدامية، وفي مقابلناكبير العمالقة الذي أصابه الإعياء، فرمى خوذته جانباً لتزأر الجماهير وتصرخ ساخرةً من رأسه الذي بدا الآن صغيراً وبلا شعر، مما أضطرني منظره ذاك إلى القول: «آن أوان تكسير البطيخ ياعزيزي باد». فابتسم (باد) واندفع صوب العملاق بجرأةٍ وهو يغامر بحياته مغامرةً كبرى، قائلاً: «أخرج أنت من الحلبة ياسيدي، ودعه لي وحدي». فعلمت أنه سيقضي على العملاق لوحده، إلاً أنني لم أشأ الخروج والجماهير تنتظر منا البقاء في الساحة حتى النصر النهائي أو الموت، ومن جهةٍ أخرى أردت أن أشارك (باد) انتصاره الكبير، وفي لحظةٍ من اللحظات نظرت صوب منصة الحاكم لأرى كيف يبدووجهه في ذلك الحين، فإذا به واقف

على قدميه ويلوّح لي بيده أن أخرج من الحلبة لتزداد المبارزة في آخرها بين شخصين أشد إثارة، فنظرت إلى وجوه الناس التي رأت مثلي كيف يحرّك الحاكم ذراعه، فما كان مني إلاّأن أخرج من الحلبة وعيناي لاتفارقان صديقي الفارس الذي كان يقفز من مكانٍ إلى آخر محاولاً إيجاد فرصةٍ لتوجيه طعنةٍ من سيفه الطويل إلى العملاق أو بقصد إعياء غريمه بشكلٍ تام. وعندما وصلت إلى السور التي تفصل بيني وبين المتفرجين، بدأت أشعربأنامل النساء تداعب كتفي وبعضهن بصدورٍعارية يهمسن في أذنيّ بعباراتٍ الحب والدعوة السافرة لمضاجعتهن ليلاً. وفجأةً انتزع (باد) من حزامه الكرة المعدنية ذات المسامير المدببة وراح يلوّح جنزيرها في يده بسرعةٍ خاطفة بحيث تحدث الكرة التي صارت تحوم حول رأسه أزيزاً غريباً، وإذا بها تطير باتجاه العملاق لتصيبه في رأسه، قبل أن يتمكّن من تفادي الكرة الطائرة في سرعةٍ مذهلة، وانغرست بعض المسامير عميقاً في رأسه، بحيث لم يعد يتحمّل ألم الضربة التي اصابته بقوة، وركض (باد) نحوه وقفز في الهواء عالياً ليطعنه بسيفه في عنقه، فسقط العملاق بعد أن ترنّح قليلاً، مضرجاً بدمائه على التراب الذي تطاير غباراً من حوله، وعلت هتافات المتفرجين الذين قفزوا من أماكنهم وراحوا يحتضنون ويقبلون بعضهم بعضاً، وارتفع اسم مدينتهم (اورا) في السماء مراتٍ ومرات، وحاول عدد كبير منهم القفز من فوق السور الحاجز بيني وبينهم، فصدّهم الحراس بحرابهم وتروسهم مستخدمين العنف حيالهم. ونهض الحاكم وضيوفه أجمعين وراحوا يتقاطرون من على الدرج إلى

الساحة التي بقينا أنا و(باد) ننظر فيها إلى بعضنا غير مصدقين أننا قد نجونا من الموت وقضينا على العمالقة الكرواتيين السبعة، وأننا أصبحنا منذ اللحظة بطلين من أبطال المدينة التي ستتحدث عنا أساطيرها عبر العصور.

وقف الحاكم بيننا ورفع لكلٍ منا يداً إلى الأعلى فصاحت الجماهير الراقصة المتلهفة لعناقنا «أورا...أورا».ونادى الحاكم في شعبه: «نعم هذان من أبطال أورا». على الرغم من أن خمسةً من أبطال المدينة كانوا قد فقدوا حياتهم وراح خدام حلبة المبارزة يسحلون جثثهم مع جثث العمالقة الكريتيين وراءهم. ثم نادى الحاكم على شخصٍ صنديدٍ كان يقف بين حاشيته ويختلف عن الجميع بهدوئه ووقاره، وقال له: «لقد رأيت بعينيكَ ماذا جرى اليوم في أورا، فعد إلى جزيرة كريتا وحدّث مليكك بما رأيت». فأجاب الرجل والحزن مرتسمٌ على محياه: «هل أستطيع أخذ جثامين أبطالنا معي؟» فأجاب الحاكم: «بل خذ أسلحتهم أيضاً، فلقد قاتلوا قتال الأبطال. وإن لم تأخذ جثامينهم معك فسنقيم حفلة وداعٍ لائقة بشجاعتهم وبشجاعة قتلانا أيضاً قبل أن نحرقهم».

ساد المدينة كلها هرج وفرح طوال يومين متتاليين، على أثر حرق جثامين محاربي المدينة، وأغدق الحاكم على ذويهم كثيراً من المال والأطعمة والهدايا النفيسة، كما أهداهم قطعاً من الأرض تكون ملكاً لهم، ثم التفت إلينا أنا و(باد) بعد أن ضَمَدتُ له جرحاً كان قد حدث في طرفٍ من بطنه، بعد أن خرج ذوو القتلى من عندنا شاكرين وحزينين في الوقت ذاته، وقال:

«الآن، أنتما مواطنان عظيمان في (أورا)، ولكما الحرية فيما تختاران من النساء والأموال والجياد والمركبات والبيوت والمزارع». فاستأذنته بالكلام ثم قلت: «نحن لن ننسى كرمك سيدي الحاكم، إلاّ أنّ أمامنا طريقاً طويلاً فلابدّ لنا من السفر». فاستغرب ذلك، و علا صوته بسرعة قائلا: «البلاد السورية والمصرية وكذلك بلاد أرزاوا، كلها بدأت تعاني من الجفاف والقحط، ويقول المنجمون والفلكيون بأن هذا الجفاف سيدوم طويلاً وسيكون سبباً في اندلاع حروبٍ أكبر في كل مكان، فلذا تجدون القرى خاويةً من السكان، وتتوسّع مدينة (أورا) لأنها على البحر، حيث أمواج كبيرة من اللاجئين والنازحين تنزح إليها، بهدف الصيد أو الرحيل عبر البحارإلى بلادٍ أخرى، ولذا فإن لمدينتنا مستقبل زاهر، وبإمكانكما بحكم مهنتكما أن تصبحا من أثرى الناس فيها، وأنا سأعطيكما ما تريدان. فإن وضعكما في المدينة قد تغيّرفي عيون الناس منذ هذا الانتصار التاريخي». فلم أتكلّم لأني وجدت ما يقوله صحيحاً، إلاّ أن مهمتي كانت أعظم من أن أنحرف عنها لحياةٍ في الثراء والسعادة.

وبعد برهةٍ من الزمن قال الحاكم: «لو كنت أعلم أنكما لن تبقيا في (أورا) لتركت العمالقة الكريتيين يريقون دماءكما في الساحة». فنظرت مدهوشاً إلى (باد) الذي ظلّ واجماً وبدت عليه علامات عدم الارتياح، فتابع الحاكم كلامه ولكن من دون أن يسمعه أحد سوانا: «لماذا أمرتُ باستراحةٍ أثناء المبارزة والشعب متحمّس وهائجٌ يريد استمرارها؟ لقد وضع خادمي الذي أثق به ثقةً عمياء مادةً مخدرة في مائهم الذي شربوه

بنهم، وإلا لكنتما الآن مجرّد هيكلين عظميين بين رماد المحرقة». فوقع الخبر عليّ وعلى (باد) كالصاعقة، إذ وجدنا أنفسنا مخدوعين ولا نستحق الهالة العظيمة من التألق الذي رسمه مواطنو (أورا) حولنا. فنظرت إلى مرافقي وصديقي ثانيةً فإذا به شاحب الوجه، وهمس بالقرب من أذني: «دعنا نسافرياسيدي». وتذكّرت ترنّح العمالقة أمام عيني في تلك اللحظة، فحزنت لنهايتهم حقاً.

قال الحاكم: «على كل حال، أنتما الآن بطلان كبيران، وكنت أطمح في أن يصبح أحدكما صهراً لي، أفتخربه بين الملوك والأمراء... نعم يجب عليّ تكريمكما حتى لايعلم أحدٌ بما جرى حقيقةً. فاطلبا ما تريدان؟» فلم أشأ إغضابه أكثر مما هو عليه، فقلت: «مولاي، لو تكرمتم علينا بقاربٍ صغير نبحر به إلى مدينة أوغاريت، فسنكون لكم من الشاكرين». فسأل بسخرية: «قارب صغير؟ سأعطيكما سفينة وما تشاءان من طعام وشرابٍ ومال وخدم». قال ذلك ونهض من مقعده الوثير من على مصطبةٍ مفروشةٍ بالوسائد الباهظة الثمن والطنافس الرائعة الجميلة، وغادر الصالة وعلى وجهه آثار الغضب لأننا قررنا الرحيل.

- 12 -

كانت السفينة التي منحنا إياها حكم (أورا) صغيرة، إلا أنها كانت متينة وجميلة ومزدانة بمختلف الهياكل الأسطورية الإغريقية وذات شراعٍ كبير وعالٍ، وبداخلها ما نحتاج إليه من صنوف الطعام والشراب، وعددٍ من البحارة من ذوي الخبرة في الرحلات البحرية وكثير من الأوز والدجاج والأرانب وقدور الماء الكبيرة... وقد قام بنفسه بالصعود إلى ظهر السفينة وتفقّد أحوالها.وقبيل الإبحار جاءنا الخادم ذي الأسنان الذهبية مرفقاً بحارسين وحاملاً بين بيديه القويتين صندوقاً لا يقدر على حمله شخصان، فأخذه البحارة منه وهو صاعدٌ إلى السفينة مرهقاً، وقال بعد أن تنفّس الصعداء: «هذا الصندوق من مولاي الحاكم، الذي اعتذر عن المجيء لوداعكما، بسبب موعدٍ له مع رسلٍ غرباء، ربما جاؤوا من مملكة ميتان أو هيتيت، وطلب مني مرافقتكما إلى حيثما تشاؤون والعودة بالسفينة إلى (أورا) إن لم تعد لكما بها حاجة». فقلت: «تمام»، ونظرت إلى الصندوق وأنا واثق بأنه مملوء بالذهب، إلاّ أنني لم أعد أشعر بالراحة لتواجد هذا الخادم الذي يثق به الحاكم جداً معنا على ظهر السفينة، وبخاصةٍ عندما سمعت باحتمال أن يكون لديه زوار من ميتان، فيعلمون بسرعة عن

تواجدنا في (أورا)، فنظرت إلى (باد) وإذا به يبتسم ويهزّ رأسه لي ويقول بلطفٍ على عادته: «تمام... تمام». فعلمت أنه لايثق بالخادم أيضاً. ولدى رفعي الغطاء عن الصندوق وجدت بداخله سترتين مدرعتين كالتي يرتديها الضباط المحاربون قبل البدء بالمعارك، ولكنهما كانتا ثقيلتين جداً، وإذا بالخادم يهمس بالقرب من رأسي: «فيهما من الذهب ما يكفيكما طوال سنوات».

مر وقتٌ طويل من يومنا الأوّل في السفينة، وأنا أحدّق في البحر الهادىء من حولنا، فقد وجدتني في عالمٍ آخر، إذ كل ما حولي كان ماءً أزرق اللون يتماوج فيعلو أطراف أمواجه الصًغيرة زبدٌ أبيض اللون، وفي الليل يتحوّل لون الماء إلى أسود يثر الخوف في قلوب المسافرين الجهلة بالبحر مثلنا، ولا أسمع سوى أصوات طيور النورس، تحلّق حول السفينة وتستريح أحياناً على الصواري الخشبية العالية ذات الأشرعة الكبيرة والقرقعة الدائمة في وسط السفينة التي تعلو قليلاً من جهة الأمام ثم تهبط، فيختلط ما في جوفي مما أكلته وشربته فأشعر بالغثيان، في حين كان يجلس (باد) بين الحين والحين متفادياً المشي على السفينة التي لا تركن أبداً وهو شاحب الوجه وتائه النظرات وكأنه ينتظر إعدامه في آخر النهار. وتأكّد لي أننا نحن الاثنين لم نخلق لعالم البحار وأن ثمة فارقٍ كبير بين السفر بهذه السفينة التي تمخر البحر وبين تلك التي ركبناها في نهر بورانتو الوديع كفرسٍ مدربة جيداً. أما الخادم ذي الأسنان الذهبية فكان يروي أسطورةً عن غولٍ يعيش في أعماق البحر، وعندما يرى سفينةً تقترب فإنه يطلع

بالنصف العلوي من قامته العظيمة من البحر ويطلب قرباناً بشرياً ليلتهمه وعندما يرفض الربان طلبه فإنه يقصم السفينة ويشطرها شطرين بضربة من إحدى يديه ويبدأ باصطياد المسافرين والبحارة كما تلتهم الحرباء النمل بسرعة وبدون رحمة.وكان البحارة المتحلقون حوله يصغون في انتباه مثير للشفقة وعيونهم جاحظة من الرعب.

وفجأة ارتفع صوت أحد البحارة وهو يخرج من الحجرات الدنيا للسفينة التي كان ربانها منهمكاً في عمله، وإذا به يصيح : «سيدي الربان، لدينا لص في السفينة». فإذا بالربان يترك مكانه العالي لبحارٍ أصغر منه سناً، ويهبط الدرجات الخشبية القليلة بسرعة من مقدمة السفينة صوب الرجل الذي كان يجر وراءه شخصاً نظيف الثياب ولاتبدو عليه علائم اللصوص القذرين. فتقدمنا جميعاً صوب البحار واللص، وإذا به فتاة رائعة الجمال دون العشرين من عمرها، فضحك جميع البحارة ساخرين من جهل زميلهم الذي شعر بالخجل، وقال: «في العتمة لم أرَها جيداً». فأمره الربان أن يدع الفتاة التي بدت غير خائفة أومرتبكة، إلاّ أنها تركت مكانها بين البحارة فجأة لتقف بيني وبين (باد)، فقال لها الربان: «لدينا عُرفٌ مشهور نحن البحارة، اللصوص نرميهم في البحر أحياءً أو نقطع أياديهم قبل رميهم، وقد نبقي عليهم أحياناً للتسلية بهم وليقوموا بأعمالنا الشاقة إلى أن نبيعهم عبيداً في أوّل ميناءٍ ننزل فيه ونبتاع بأثمانهم مؤونةً وخموراً». فنظرت الفتاة إليه من رأسه إلى قدميه وقالت: «أنا هِستيا» بنت حاكم (أورا)»، فعلا صراخ الجميع ورموا سيوفهم وحبالهم من أياديهم

وخروا راكعين وساجدين، إلآ الربان الذي أومأ برأسه تحيةً وتراجع خطوةً إلى الوراء، نظر إلينا أنا و(باد) وسألنا عما إذا كنا نعرف الفتاة أو لنا علم بصعودها إلى السفينة، وفي ذات الوقت نهض الخادم ذي الأسنان الذهبية بعد أن شرب طويلاً من قربةٍ جلدية رفعها عالياً من دون أن تلمس فمه، وجاء صوبنا وربت على كتف الربان قائلاً: «نعم. هذه أميرتنا (هِستيا) بلحمها ودمها، ولكن لا أدري كيف صعدت إلى السفينة». فضحكت الأميرة وقالت: «وماذا تفعل أنت هنا أيها الديك الرومي المنتوف، ذي الرائحة النتنة؟» فصدرت من الخادم قهقهة دبٍ كبير، وقال لنا: «هذه هي الأميرة التي قاتلتما من أجلها». فما كنا علينا إلاّ أن ننحني احتراماً لها ونعتذر لعدم تعرّفنا عليها من قبل. ثم عندما حل المساء وجلسنا لتناول الطعام مع الربان، ذكرت لنا الأميرة بأنها صعدت مع أبيها إلى السفينة قبل تسليمها للربان وبحارته بقليل، وكذبت على أبيها قائلةً بأنها ستذهب إلى البيت، إلاً أنها أخفت نفسها بين أكوام الحبال، ثم بعد أن نزل والدها ومرافقه من السفينة اختبأت في حجرةٍ داخلية مظلمة. وعندما سألتها عن سبب ما قامت به، أجابت ومسحة من الحزن على وجهها: «والدي يعتقد بأن ملك كريتا لن يفي بوعده بصدد المبارزة التي قضيتم فيها على عمالقته، ويقول بأن (مينوس) لن يدعه في راحة إلا بعد أخذي منه، ولو كلّفه ذلك حرباً تقضي على الأخضر واليابس وتكون سبباً في قتل كثيرٍ من الناس، لذا قررت الهروب معكما حيثما تذهبان، وسينتشر الخبر حتى يصل جزيرة كريتا أيضاً، وهكذا فقط سيكف (مينوس) عن المطالبة بيّ».

فسألتها: «وأبوكِ؟ ماذا سيقول عندما يكتشف هروبكِ معنا؟» ففكَرَت قليلاً وتركَت لقمة لحمٍ مشوية تسقط من يدها ثم قالت: «سألت نفسي عن سبب إحضاري معه إلى السفينة من قبل أبي، كما استغربت كيف لم يرني مرافقوه وأنا أختبىء على متن السفينة، ولم يسألني أبي عن صرة لثيابي التي حملتها معي». فسألها الربان، الخبير بالناس، الذي فقد معظم شعره الأبيض عبر الزمان: «تقصدين أن أباكِ أراد لكِ الهروب». فسكتت الفتاة دون أن تجاوب عن سؤاله... فتابع الرجل: «أخاف أن يمسني بضرٍ لدى عودتي إلى (أورا)». فقالت (هستيا): «لاتخف أبداً فسأرسل له رسالةً معك. ثم إن خادمه المطيع الذي يثق به أبي سيشهد على أني كنت مختفية في السفينة من دون علمك».

منذ ذلك اليوم زاد العبء ثقلاً على كتفيّ لأنه لا يحق لنا بعد الآن ترك هذه الأميرة دون حماية بأي حالٍ من الأحوال، إلاّ أنها قد تجلب لنا مشاكل ما في سفرنا. ولاحظت بأنها تحدّق بين الحين والحين في عيني (باد) وكأنها مغرمة بالنظر إليه أو أنها أحبته منذ أوّل وهلة. وقبل أن ننتهي من الطعام قالت الأميرة وكأنها تحّدث (باد) وحده أو أنها انفردت به: «كنت على منصة والدي أتفرّج عليكما أثناء المبارزة». وضحكت ضحكةً بريئة لابد أنها ستترك أثراً في نفس (باد) بعد تلك اللحظة، مهما كان هذا المحارب قوياً وصلداً، فإن سهام الأنثى أشد فتكاً ونفاذاً في أفئدة الرجال من سهام المحاربين الكاردوخيين الشهيرة.

في تلك الليلةتعثّر علي النوم بسبب رياح عاتية هبت وكانت تئز خارج

المقصورة التي خصصها الربان لنا في السفينة، في حين كان صراخ البحارة يعلو وهم يسعون لئلا تضر الرياح بمسارنا ولئلا تمتلىء الحجرات بالماء العاصف على شكل أمواج عاتية تصطدم بالسفينة فتهزها بقوة وترفعها عالياً ثم تخبط بها البحر ثانيةً وكأن أسطورة الخادم ذي الأسنان الذهبية تتحقق، في حين كان (باد) يحاول سد باب المقصورة تماماً حتى لا يجري الماء إلى داخلها، وكانت الأميرة التي بدا أنها قد أبحرت مراراً تساعده ضاحكةً ومازحة.

خلال الإبحار المضني صوب أوغاريت، سرد لنا بعض البحارة العديد من الأساطير القديمة، وعن الحياة في مدن آرزاوا الواقعة على ساحل البحروفي جزيرة كريتا، وقال أحدهم بأن في (آرزاوا) ثلاثة أنواع من البغاء، الأوّل هو ما يتم بين رجلٍ وامرأة فيدفع لها بعض المال، والثاني هو البغاء الجماعي الذي يحدث في الأيام المعلومة من السنة كالأعياد الدينية التي يراق فيها الخمور وتجتمع الناس فتتبادل الزوجات والغلمان، ويعتبر نوعاً من الطقوس الدينية فلا يخجل له أحد، والنوع الثالث هو أن تهب امرأة نفسها لمعبدٍ من المعابد وتصبح فيه غانية تقدّم جسدها لكل من يهب المعبد ضحيةً وأموالاً، وهي ترى في ذلك عبادةً تحسدها عليها النساء الأخريات. وقال آخر بأن هذه الأنواع الثلاثة للبغاء منتشرة في العديد من الممالك الأخرى، حتى أن بعض الملوك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من سلالات إلهية يفتخرون بأنهم أبناء الأمهات اللواتي قدمن أجسادهن لخدمة المعابد... وقال آخرٌ كان جالساً في زاوية بعيداً عنهم،

وصوته يمتزج بصوت الأمواج التي تشقها مقدمة السفينة: «وهناك بغاء التطهير». فلما سأله أحد البحارة عن ذلك النوع من البغاء، أجاب: «هناك قومٌ من الأقوام لديهم العروس تقدّم جسدها يوم مجيئها إلى بيت عريسها لكل أقربائه فينالون منها وطراً قبل دخول العريس عليها، ومن ثم لا يحق لها ممارسة الحب مع أحدٍ آخر سواهم ويسمون ذلك تطهيراً لها في بداية عهد زواجها». فاندهش السامعون لما قاله ذلك الشخص بين مصدّقٍ وغير مصدّق، وقال المتحدث الذي سبقه مؤنباً: «هذه العادة السيئة ليست من عاداتنا». فرأيت (باد) يضحك ساخراً من الاثنين، ورأيت أن هذه القصص الجنسية المثيرة ترسم آثاراً عميقة على وجوه السامعين، ولذا كنت قلقاً، بسبب وجود فتاةٍ على ظهر السفينة، مما يزيد من مخاوفنا وأعبائنا، فتحدثت طويلاً مع (باد)، حيث من واجبه بعد الآن حماية الفتاة المغامرة أيضاً، إضافةً إلى حمايتنا نحن الاثنين، وعندما أفصحت له عن مخاوفي من أن تثير هذه القصص المثيرة البحارة الذين تركوا زوجاتهم خلفهم في المدينة، قال: «كل هؤلاء الرجال كانوا حاضرين وشاهدوا مبارزتنا مع عمالقة جزيرة كريتا، لذا لا أعتقد أن أحداً منهم سيتجرأ على ارتكاب حماقة». فقلت له: «الغرائز الجنسية عندما تسيطر على الإنسان قد تحوّله إلى حيوانٍ مفترسٍ». وعرضت عليه أن يظلّ حذراً حتى وصولنا إلى مدينة (أوغاريت) وأن يسكن مع الفتاة الجميلة فيها حال وصولنا إليها، إذ تأكدتُ من أنها تحبه، ولأن رحلتي ستطول أمداً وطريقي محفوف بالمخاطر، فمن الأفضل أن يبقى في أوغاريت حتى عودتي من

مهمتي، وأن يأخذ مايشاء من المال الذي أهدانا إياه والد الأميرة (هستيا) على شكل سترتين محشوتين ذهباً، فما معي يكفيني، إلاّ أنه رفض ذلك العرض وقال في آخر محادثتنا: «لقد أقسمت لملكي (توشراتا) أن أظل مخلصاً لك دون أن أتردد لحظةً عن ركوب كل المخاطر والتضحية في سبيلك بنفسي. سأذهب إلى حيث تذهب ولن أخون عهدي من أجل أميرةٍ أو من أجل خوابي مملوءةٍ بالذهب. فلا تؤاخذني ياسيدي». وهنا علمت بأني غير قادرٍ على اقناع هذا الإنسان الذي وضع واجبه تجاه ملكه فوق كل شيءٍ آخر، وأنه ليس من طينة أولئك الذين لاعهد لهم ويمكن إغراءهم ببريق الذهب أو بمناصب ونساء ومنازل وشراؤهم بثمنٍ بخس. فقررت أن نستريح في أوغاريت يوماً أو يومين ثم نتابع سفرنا جنوباً إلى مدينة (تيروس)، على ظهور الخيول أو بعربةٍ من العربات المتينة أو عن طريق البحر.

وصلنا إلى الساحل الشرقي للبحرمن دون أن يظهر غول أوإله من جوف البحر ليلتهم أحداً منا أو ليقصم سفينتنا، ومن دون أن نتعرّض لهجوم قراصنةٍ قد يأخذوننا عبيداً أو يحرقوننا مع سفينتنا، حيث رأينا بوضوح ميناءً على شكل نعلٍ كبير ووراءه بعيداً مدينة أوغاريت التي ستترك اسمها منقوشاً على جدران الحضارة البشرية إلى الأبد. وإذا بالربان يقترب مني مبتسماً وهو يقول: «ها هو ميناء أوغاريت أمامنا، لقد وصلنا سالمين». فمددت يدي إلى صرّة صغيرة فيها عدة قطعٍ من العملة الذهبية، أخرجتها من داخل سترتي وقدمتها له، فإذا به يقول: «تشكرون يا سيدي.

لقد كلفني حاكم (أورا) بواجبي ودفع لي ما أستحقه وأكثر، وعليّ أن أعود غداً لأبلغه بوصولكم إلى أوغاريت بصحةٍ وسلامة». ولكن لإصراري عليه أضطر لأخذ الصرّة شاكرا. أما الخادم ذي الأسنان الذهبية فقد سألني فيما إذا كان عليه السفر معنا إلى ميناءٍ آخر ، فقلت له: » آمل أن تعود إلى (أورا) وتخبر حاكمها امتناني له وتؤكّد له بأن ابنته ستكون معنا في أمانٍ ونحن مستعدان للموت من أجل الحفاظ على حياتها وشرفها وكرامتها الإنسانية». فأجاب الخادم: «أنا واثق من ذلك ياسيدي، واوّد لو تسمح لي بالسفر معك لأخدمك مدى الحياة». فلم أوافقه على ما أراده، ومضى صامتاً ورافضاً لأخذ أي نقودٍ مني صوب المصطبة الخشبية العالية التي يصعد بها البحارة إلى سفينتهم وعيناه تحدقان فينا خطوةً خطوة. وبتواجده على السفينة العائدة إلى (أورا) ازددت ارتياحاً فقد كنت أحذره مثلما كان (باد) يحذره أيضاً.

في مدينة أوغاريت الهامة والجميلة، علمت من مواطنيها أنها تعرّضت مراراً لغزوات الشعوب من وراء البحار ومن الشمال والشرق وأنها كانت في زمنٍ سابق أعظم بناءً وأكثر حدائق وقصورا، وأنها أوت على الدوام كثيرين من العلماء في مختلف العلوم ونحاتين وأطباء ومعماريين من شتى البلدان، وتشتهر بالتجارة وحب المغامرة والابحار صوب مصر وبلاد آرزاوا غرباً، بل إلى بلاد نجهلها. وإن تجار أوغاريت يعتبرون في التاريخ من أنجح التجار الذين كانوا إحدى أهم أدوات نقل المعارف بين الشعوب والأوطان، والأوغاريتيون منفتحون على الغرباء وقادرون

على التأقلم بسرعة في البلاد التي ينزلون بها، ويمارسون أينما ذهبوا تجارتهم ولا يؤمنون بالحرب والقتال كالهاتيين أو الآرزاويين، ومهتمون بالثقافة وما بعد الموت وبآلهة الحب والطبيعة والجمال التي تفتق عنها خيالهم. وكم كانت فرحتي كبيرة عندما وطأت أقدامنا اليابسة وعرّفني الربان كطبيب بالحراس المستقبلين بثيابٍ أنيقة ووجوه ناضرة، فأبدوا لي احتراماً زائداً وسمحوا لنا بعبور حاجزالدخول من دون عوائق.

مكثنا ثلاثة أيام فقط في أوغاريت، رأينا فيها آثار اً عمرانية كانت مباني ومساكن قد هدمت أثناء الغزوات الدموية والنهب الكبير لثروات المدينة، ومنها قصور وأسوار حدائق ولوحات حجرية بحروف مسمارية وهيروغليفية وسراديب بأبواب غريبة الأشكال بنيت من الحجارة المرصوفة بعنايةٍ فائقة وذوقٍ رفيع، وأباريق وخوابي عملاقة، كما رأينا رسوماتٍ وكتابات هيروغليفية تظهر وجود علاقاتٍ عريقة بين الفينيقيين والبابليين والميتانيين والآرزاويين والمصريين والآشوريين. وزرنا معبد الإله (إيل) الذي بني قبل مجيئنا إلى المدينة بمئات الأعوام على رابيةٍ عالية وكذلك معبد (داجان) الذي لايقل عن الأوّل جمالاً وهيبة، وكان هناك أناس يتكلمون بلغاتٍ مختلفة منها الهورية، فسألت جماعةً منهم عن حانةٍ تدعى «البطة الذهبية» فقالوا بأنها على الطرف الشمال الغربي من المدينة ليس بعيداً عن معبد الإله (بعل) وتشرف على البحر، فذهبنا إلى هناك ووجدناها مكتظة بالزبائن الشاربين والآكلين الذين عصفت برؤوسهم الخمور فجعلتها تنطق بما لا يمكن للمرء النطق به

في حالة إنسانيةٍ طبيعية. و اقتربت من (باد) الذي كانت أميرته «هِستيا» قد بقيت غرفتها في الخان الذي نزلنا فيه منذ مجيئنا إلى أوغاريت، وقلت له: «ربما هذه هي الحانة التي ذكرها لنا الشيخ ((آزر)) أثناء اقامتنا في مملكة الجن». فأجاب: «وهل تعتقد أن فيها ميتانيين ينتظرون قدومنا منذ سنوات؟» فضحكت وقلت: «لا أدري، ولكن ربما نلتقي بطلاب علم أو بتجارٍ ميتانيين فيها».

دخلنا الحانة التي كاد من فيها يختنق مما فيها من هواءٍ فاسد وروائح مقرفة من تمازج عرق الشاربين وما يفوح من رائحة السمك المشوي والخمورالمسكوبة على أرض الحانة عبر الزمان. وبعد أن سرنا بين المصاطب التي يجلس عليها الزبائن سمعنا أصوات بعض الرجال الذين يضحكون وهم يتكلمون بلغتنا الهورية – الميتانية، فسلمنا عليهم بحرارة لشوقنا الشديد لسماع لغتنا في أوغاريت بعد زمنٍ طويلٍ من الغربة، وما هي إلا لحظات حتى كنا نشرب معهم ونختلق الأكاذيب لنموّه على حقيقتنا وسبب تواجدنا في مدينةٍ فينيقية على ساحل البحر، بعيداً عن (واشوكاني). ومن الأخبار التي سمعناها منهم عن الوطن، هو تطوّر الأوضاع على الحدود الجنوبية لمملكة ميتان نحو الأسوأ، حيث البابليون الذين لا تعرف صداقتهم من عداوتهم، لايلتزمون بالعهود والعقود بين شعب ميتان وشعبهم.كما أن الآشوريين الذي يسعون لأخذ مكانٍ لهم تحت الشمس أوسع من مكان سائر شعوب المنطقة لا يترددون في الهجوم على قرانا وقلاعنا كلما وجدوا الفرصة سانحةً لهم. واللاعب الأخطر ضد

الملك (توشراتا) الميتاني هو الثائر الهارب (أوتخي) الذي يتم إستغلاله جيداً من الآشوريين والهاتيين على حدٍ سواء. وذكر اسم هذا الثائر الخائن للعائلة الملكية الميتانية ولشعبنا جعلني أفكّر فيما إذا كان وزير الملك الميتاني كان على علاقةٍ مستمرة مع (أوتخي) هذا، ولذلك أرسل من يتعقبنا من (هاتوشا) إلى (مملكة الجن) بهدف قتلنا. لا أدري.

سرد لنا أحد الميتانيين، ممن سيماهم تعكس صدقهم وجديتهم ومعرفتهم، بعد انصراف معظم الزبائن وهم في حالة سكرشديد، أن الملك الميتاني (توشراتا) كان قد أرسل رسولاً يدعى (كيليا) مزوّداً بكتابٍ بالخط المسماري إلى فرعون مصر (أخناتون) طالباً منه مساعدته مالياً بأن يرسل الفرعون له تمثال ابنته (دوتى خيبا) مصنوعاً من الذهب، كما فعل هو من قبل عندما أرسل مع ابنته للفرعون (أمينوحتب الثالث) تمثالاً ذهبياً للإلهة (شاوشكا) التي تضاهي (عشتار) جمالاً وهيبةً في مدينة نينوى، ووعده بأن يرسل له جيشاً قوياً مدعوماً بمختلف أنواع السلاح والعربات السريعة، في حال حاجة الفرعون له ضد عدوٍ ما.وفي ختام الرسالة عبّر(توشراتا) عن أمله في رعاية الإلهين (تيسوب) الذي يعبد في ميتان و(آمون)الذي يعبد في مصروألا يصدّق ناقلي الأخبار السيئة بهدف تخريب العلاقة الجيدة بينهما. وعندما انتهى الميتاني من سرده ذاك، قرّب فمه من رأسي وقال: «الناس في واشوكاني متذمّرون ومنهم من يسخرمن هذه المراسلات بين ملوك (ميتان) وفراعنة مصر، قائلاً بأن ملكنا يطلب مهر ابنته بعد أن خلّفت بنتاً وهذا سيضربالملك والمملكة التي ينتظر الأعداء

الفرص الملائمة للانقضاض عليها من كل طرف».فأردت أن أقول له بأن (دوتى خيبا) أنجبت ذكراً وليس أنثى، ولكن شعرت بأنه سيشك أكثر في أمرمعرفتي باسرار العائلة الفرعونية، لذا قررت الإنصراف من الحانة بعد برهةٍ قصيرة من انتهاء سرده وبعد أن قلت له: «المراسلات بين الممالك يجب أن تستمر، وقد تكون رسالةٌ جيدة سبباً لسلامٍ يدوم عقوداً من الزمن».

وفي الطريق إلى الخان قلت لنفسي: «أعتقد أن الملك (توشراتا) أراد بإرساله مبعوثاً إلى (أخناتون) التمويه على مهمتي... لا... لا... بالتأكيد فقد (توشراتا) الأمل في بقائنا، أنا و(باد) حياً وفي قدرتي على تنفيذ مهمتي... إن كنا أحياءً...لا... لا... لن أتراجع حتى يأتيني أمرٌ منه بالعودة إلى (واشوكاني)... » ولاحظ (باد) أني مشغول مع ذاتي فتأخر في المشي عني بعض الشيء وكأنه أراد لي البقاء لوحدي بعض الوقت.

لم أسمع جديداً عن (دوتى خيبا) من أفواه الميتانيين، إذ يبدو أنهم زوجوها لفرعون مصروانتهى ذكرها ووجودها في قلوبهم بغيابها عن أنظارهم، وتذكرت أن أباها كان يقلق لأن تختفي حقيقة وجود (دوتى خيبا) في ظل الملكة الفرعونية الكبرى (نفر تيتي)، ذات الرأس الطويل والعنق الطويل، في حين أجد أن اسمها سيبقى حياً في التاريخ لأنها ضحية رغبات وتصرفات الملوك ومظلومة بابعادها عن وطنها وشعبها... وهذه المظلومية لن تزول من أذهان الناس عبر الزمن.

وجدت المكوث في أوغاريت لا يفيدنا في شيء، بل قد يضربنا وبمهمتي

التي كلفت بها. وفي الخان الذي كان نأوي إليه تحدثت مع (باد) طويلاً عما عليه القيام به بصدد الأميرة (هِستيا) التي وجودها معنا سيثير شكوك الناس ويدفع بهم إلى طرح الأسئلة المحرجة، إلاّ أنني لم أتمكن من إقناعه بالزواج منها طالما تحبه الفتاة. وبعدها في غرفتي لا أدري كيف تذكرت فجأة وأنا أحاول النوم بعد سهرتنا الطويلة نحن أبناء البلد في تلك الحانة، ذلك الطائر الناطق الذي أهدته الأميرة الفينيقية (آشتارا) لملك (ميتان) على أثر إفراجه عن أسيرٍ فينيقي من أقربائها كان سجيناً في مملكة (ميتان)، ففكّرت في أن أجد الأميرة (آشتارا) لعلها تفيدنا في أمر سفرنا عبر بلادها من دون مشاكل أو عوائق.

عرضت الفكرة في اليوم التالي على(باد) الذي وجد الأمر صعباً لأننا لا نعلم أين هي تلك الأميرة وهل يمكن لنا الوصول إليها وهل هي مستعدة لمساعدتنا ونحن غرباء في أوغاريت.ثم اتفقنا على أن نبحث عنها لنرى ماذا نحققه.وأوّل من سألناهم كانوا باعة الطيور الجميلة، إلى أن وصلنا إلى أحدٍ منهم، لديه الطيور والأقفاص من كل نوعٍ وشكل، فقال: «أنا أعرف الأميرة الجميلة المتزوجة من تاجرٍ كبير، إنهاً (آشتارا) من سلالة (نيقمادو) الملكية وهي تجيد عدة لغات، وتسكن الآن في منزلٍ جميل على ساحل البحر، فهي تأتي بنفسها في مقصورةٍ محملّة على أكتاف العبيد ومعها خدمها لتبتاع من عندي غرائب الطيور وتدفع ضعف أثمانها كل مرّة». فسألته وأنا سعيدٌ بما سمعته: «ومتى ستأتي الأميرة ثانيةً؟» فأجاب: «كل أسبوع مرة». وعندما لاحظ الاستغراب على وجهي مدّ يده مفتوحةً

صوبي، فأسرع (باد) ووضع فيها قطعةً فضية، فلم يحرّك البائع يده، فوضع الفارس قطعةً أخرى إلى جانبها، فسحب يده القابضة وقال: «تعالوا بعد غد وستجدون جمالها يضيء هذا المكان بأسره». فشكرت الرجل وعدنا من حيث أتينا وأنا فرحٌ جداً، فقلت وعاطفةٌ قوية تعصف بقلبي: «ألم أقل لك ياباد إنها فكرة جميلة؟» وأعتقد أنه كان صبوراً للغاية، فقال: «سنرى ما نحققه بعد غد».

كان لقاؤنا القصير الأمد بالأميرة الجميلة رائعاً، فقد جاءت فعلاًوهي محمولة على أكتاف أربعة من العبيد الأشداء في مقصورةٍ تدل ستائرها العالية الحريرية على ثراء صاحبها، إذ كنا ننتظر قدومها بشغف منذ الضحى أمام حانوت بائع الطيور الغريبة، فرفعت خادمةٌ لها جانباً من الستائر لتنظر الأميرة إلى قفص فيه طائرٍكبير المنقاروذي ألوانٍ عديدة، فاستغلت الفرصة وقلت باللغة البابلية: «هذا طائر جميل ولكنه ليس بأجمل من الذي أهديتِه لملك ميتان (توشراتا) ايتها الأميرة الساحرة الجمال». فنظرت إليّ بإمعان وسألتني بلغة البابليين أيضاً: «هل أنتم من مملكة ميتان؟» فأجبت: «نعم ياسيدتي، أنا طبيب من ميتان وهذا الشاب مرافقي وتلميذي». فقالت وهي توافق بحركةٍ من يدها صاحب الحانوت على السعر الذي طلبه من أجل الطائر : «نعم، أهديت ملك ميتان ببغاءً صغيراً كنت أحبه جداً. ولا أدري هل الببغاءالذي يسميه الميتانيون بهوماي لايزال حياً أم لا». فقلت: «أنا رأيته في قصر الملك (توشراتا) يستقبل الضيوف بصوت امرأةٍ وكان ذلك رائعاً». فقالت: «آمل أن

تنقلوا سلامي للملك (توشراتا) حال عودتكم إلى (واشوكاني)... هل تحتاجون هنا إلى شيء؟» فقلت: «أيتها الأميرة الكريمة، أنا شاكرٌ لكِ على تحدثك معنا، ولي رجاءٌ منكِ هو أن تساعديني بكتابٍ منكِ على التجوال في بلاد الفينيق من دون عوائق كبيرة، فأنا أودّ مساعدة المرضى والجرحى»، فطلبت الأميرة من أحد عبيدها أن ينتزع رايةً من الرايات الأربعة التي كانت تزّين زوايا المقصورة التي هي جالسة فيها وتخفق في أعلاها، فوضع العبيد المقصورة على الأرض، وصعد أحدهم على كتف عبدٍ آخروأنزل رايةً بيضاء صغيرة في وسطها رسم رأس تيسٍ أسود ذي قرنين كبيرين معقوفين باتجاه بعضهما، وقدّمها لي العبد باحترام، فأخذتها شاكراً وانتظرت توضيح الأمر من قبل الأميرة، فقالت وهي تلامس بأناملها الطويلة قفص الطائر ذي المنقار الكبير الذي وضعه صاحب الحانوت بين يديها: «هذه الراية شارة تجارية للسفن التي تمتلكها عائلة زوجي، وكل مخافر الحدود وسيطرات الجيش في مداخل ومخارج المدن الفينيقية تعلم ذلك، فلتكن ظاهرةً معكم أينما ذهبتم، حتى في بلاد الكنعانيين والعموريين، ولربما في بلاد الفراعنة أيضاً، وبمجرّد رؤيتها فسيسمحون لكم بالمرور دون عوائق». وبإشارةٍ من يدها كانت المقصورة قد ارتفعت والستائر أسدلت وابتعدت عنا المقصورة، في حين أننا انحنينا شاكرين للأميرة التي كانت تراقبنا من خلف الستائر على حسن صنيعنا. واقترب منا صاحب الحانوت وهو يضحك، فأخرجت قطعةً نقدية من الذهب من جيوب سترتي وأعطيته إياه، فقبّلها ممتناً وقال: «لابد أنكم

محظوظون... لقد تم كل شيء بسرعة أليس كذلك؟»

ومنذ ذلك الحين، كلما تابعنا سيرنا، كانت الراية الغريبة مغروسة خلف رأس (باد) في إطارٍ جلدي سميك كان يحيط برأسه، مما كان يثير ضحكي أحياناً، وبالنسبة له فقد كان معتاداً على حمل راية ملكية هكذا كما سمعت منه فيما بعد.

اتفقنا على أن نشتري لنا أربعة جيادٍ فتية وسروجاً مع حقائب جلدية لها، وما قد يلزمنا للسفرمن حاجيات النوم والطبخ ومن مواد غذائية، إلاّ أن الطريق التي كان علينا أن نسلكها كانت على الدوام بمحاذاة البحر، وهذا يعني أننا سنمر على العديد من المدن وقرى صيادي السمك، حيث يمكننا شراء ما نحتاج إليه من لحوم ومن مشتقات الحليب المختلفة. وقررت أن أشتري عبداً يجيد الخدمة، من سوق النخاسة التي كانت تشتهربها المدينة، حيث كان يأتي إلبها التجار من بلاد الشعوب البحرية ليبيعوا عبيدهم ويشتروا ما يحتاجون إليه من متاع الحياة، ثم أحرره مقابل عمله في آخرسفرنا وأمنحه بعض المال ليتمكّن من البدء بحياةٍ جديدةٍ له في الحرية. أما السفر على ظهر سفينة فقد أهملناه تماماً لما عانينا من مشقة وغثيان على ظهر السفينة التي جاءت بنا من مدينة (أورا)، ولأن البحرية المصرية تستولي على مختلف السفن التجارية وحتى سفن الصيد الكبيرة والجيدة التي تقترب من سواحل فينيقيا وبلاد كنعان. بسبب ظروف الحرب في جنوب (سوريانا).

وهكذا تابعنا السفرعصر اليوم التالي من أوغاريت إلى حيث لايدري

(باد) حتى الآن حسب معرفتي به وبمهمته التي هي حمايتي من دون أن يلمّ بمهمتي أنا. فقلت له ونحن نخرج من المدينة: «أتعلم إلى أين؟» فأجاب: «البحر على يميننا والشمس فوق كتفنا الأيسر، أي نحن متجهون صوب الجنوب. بينما ظننت أننا سنتجه شرقاً إلى مدينة (هه له با) ومن هناك إلى (واشوكاني)».فقلت: «بل إلى مدينة تيروس».

طال سفرنا بين مدينتي (أوغاريت) و(تيروس) ما يقارب شهراً كاملاً لأن الطريق طويلة ومرهقة للجياد، وكنت مضطراً لتقديم العلاج للجرحى من الجنود والمتمردين حيث كانت تجري أحياناً مصادمات نتفادى الوقوع في معاركها الجارية بين الفينيقيين الجبليين أصحاب البلاد القدامى والشرعيين الذين يستفيدون من الغزاة الهاتيين وبين طلائع الجيش المصري الذي كان قد فرض قبل ذلك الوقت سيطرته شيئاً فشيئاً على معظم البلاد السورية تحت قيادة الضابط الشجاع (حورمحب) الذي لم يكن أبواه من العائلة الفرعونية، والذي سيكون له شأن كبير في بلاد الفراعنة فيما بعد، ولولاه لما تمكّن المصريون من وقف الزحف الهيتي المفاجئ صوب الجنوب والذي وصل إلى مدينة (ميغيدو) في شمال أرض كنعان، حيث قضى عليه (حورمحب) بعد معارك ضارية قضاءً مبرماً، وكان من بين أهداف المصريين بعد ذلك النصر الكبير السيطرة التامة أو عن طريق حكام محليين على كامل البلاد السورية والفينيقية المتاخمة للبحر أيضاً، والوصولُ إلى حدود مملكة (ميتان).

لم تكن هناك عوائق من الحراس والجنود ومحصلي الضرائب في طريقنا

بسبب الراية التي كانت ترفرف فوق رأس (باد) وتظهر للجميع أننا من أتباع تاجرٍ كبير له راية خاصة، ولأنني أبديت المساعدة الطبية قدر المستطاع لكل من طلبها مني، وتأخرنا في مسيرنا لأننا كنا نقف كثيراً لتستمتع الأميرة (هستيا) بما نراه من تلك المنطقة الجميلة والهادئة على شاطئ البحر، فكانت المدن الصغيرة الرائعة تغري المسافرين بالبقاء فيها بسبب الخدمة النظيفة والمعاملة الودية التي يرافقها الاحترام الكبير. ولم نصطدم بأحدٍ من سكان تلك البلاد، إلا مرةً واحدة، حيث حاول نصابون الإيقاع بنا والاحتيال علينا بخطةٍ ماكرة لسلب المال منا، في منطقةٍ تتواصل فيها قرى صيادي السمك وفيها سوق تجاري في ميناءٍ يدعى بالفينيقية (بَعروت) أي (الآبار)، إذ عرضوا علينا عربة سفرٍ متقنة الصنعة ذكرتني بالعربات العسكرية السريعة لقواد الجيش الهاتيين في (هاتوشا)، ثم اكتشفنا في النهاية أنها ليست لأولئك النصابين وإنما هي لتجارٍ قدموا من (هه له با) أو (آلاخا) السورية وتركوها أمانةً لدى بعض صيادي السمك حتى يعودوا من عملٍ لهم في الجبال المطلة على البحر من ناحية الشرق.

لدى جلوسنا على صخرةٍ مطلّة على البحر، طلب (باد) من العبد (موروك) الذي كنا اشتريناه في أوغاريت أن يجمع له بعض الأحجار الرقيقة بحجم يده ويضعها في كيسٍ كان قد علّقه بحزامه العريض، ولم أدرِ سبب ذلك وآثرت ألا أسأله شيئاً فلا بد أن تكون له حاجةٌ بالأحجار . وشرعت أتحدث معه عن الفينيقين، بعد أن سرنا في بلادهم أياماً وليالي

عديدة، عالجت خلالها عدداً من المرضى والجرحى، وتحدثت معهم أثناء العلاج، فكانوا يسردون لي الكثير عن معتقداتهم وأساطيرهم وبلادهم وعاداتهم...

في الحقيقة إن أمر هؤلاء الفينيقين عجيب، إذ يرفضون أن يكونوا من أصولٍ سامية، على الرغم من أنهم يشبهونهم في سيماهم ويظنون أنهم أنموذج إنساني خاص، ربما جاؤوا من كوكبٍ آخروهبطوا أرضهم التي يملكونها الآن، وحسبما يعتقدون فإن لهم من الذكاء في التجارةوالجرأة في التوغل في شتى أنحاء المعمورة ما يكفي للاعتراف بأنهم قوم مختلف تماماً عما حوله من الشعوب التي أنهكتها الحروب عوضاً عن التعامل والتفاعل لبناء حضارةٍ عالمية ثرية لا حدود بين أقوامها وبلدانها. وقد سمعت من بعضهم أخباراً عن فينيقيين صاروا من أثرياء الدنيا في البلاد الواقعة خلف البحارالبعيدة.

لكل مدينةٍ من مدنهم ثلاثة آلهة: أحدهم طاعن في السن، يدعى (بعل) أو (إيل) أو (شميم)، حسب كل مدينةٍ من مدنهم الجميلة والنظيفة حقاً، وهو سيد الآلهة، يرمز للقوة والحكمة، وإلهة أنثى تسمى (عشتروت) وهي ترمز إلى الذكاء والحياة والخصوبة، وإله شابٌ يدعى (أدونيس) و (أشمون) ويرمز إلى عالم النبات والخصوبة الجنسية وتجدد الولادة... والفينيقيون كغيرهم من الشعوب المؤمنة بالأساطير ويخافون القوى الغيبية التي يمكن أن تلحق بهم الأذى وتعرّضهم للكوارث يقدمون الأضاحي من الحيوانات ومن العبيد لآلهتهم، التي لايدخلون معابدها

إلا وهم في طهارةٍ بدنية وبثيابٍ نظيفة، تعظيماً لما نحتوه بأيديهم من التماثيل البازلتية أو من الفخاروالخشب، وقد سمعت من أحد أصحاب الخانات على طريقنا بأن مدينة أوغاريت قد تعرضت فيما مضى إلى غزوٍ فضائي قامت بها عربات نورانية انقضت على المدينة وجعلتها أنقاضاً يعلو منها الغبارفي لمح البصر، وأكّد على أن هذه القصة منقوشة باختصارٍ شديد على حجر من الصوان في طرفٍ من أطراف المدينة، و لا أدري أكان ذلك أسطورةً أو حادثة تاريخية مختلقة لتبرير دمار أوغاريت في الماضي السحيق، وفي عقائدهم تموت هذه الآلهة كما يموت البشر، إلا أنها تحيا من جديد، فينظمون لها المناحات الكبيرة ويعلنون الحداد عليها، ثم يفرحون باحيائها ويسكرون وبقيمون حفلاتٍ عامرة ويسهرون سهراتٍ طويلة ماجنة احتفاءً بتلك الآلهة التي اختلقها خيالهم وصنعتها أياديهم وأدواتهم المعدنية.

أما عن عقيدة بداية التكوين لديهم، فقد نشأ الكون في عقائد الفينيق عن تطور المادة والقوى المتصارعة في الفوضى، وليس بإرادة خالق، وعندهم فإن تمازج الريح والظلام والمجهول قد أنتج «الوحل الأوّل» الذي تكوّنت منه الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوانات والإنسان... والآلهة أيضاً.. وتدعى المخلوقات غير الواعية لديهم ب(زوف شميم)، ومن قصف الرعد ولمعان البرق استيقظت المخلوقات الحية وتحركت، وكذلك انطلقت حزمات الناروألسنة اللهب وانتشر الضياء من جبل «بَراتي»العالي في جنوب بلاد الفينيق التي تلتقي هناك مع

المراعي العالية من بلاد كنعان».

يتبادل الفينيقيون البضائع في البيع والشراء كما لدى الشعوب الأخرى في المنطقة ولكن لهم مثقالٌ شهير معروف في سائر بلاد الشرق لوزن البضائع، وذلك بحكم انتشار تجارتهم الواسعة والمتعددة الصور، حيث كان تجارهم يترددون على مدن (هاتوشا) و(أورا) و(هه له با أو آلاخا) ويمرون منها إلى أدنى النواحي من بلاد ما بين النهرين، وجنوباً صوب بلاد الفراعنة عبر(تيروس) و(ميغيدو) و (بترا) إلى (غازا) ومنها إلى وادي النيل بأسره، كما أن لهم رحلات تجارية إلى بلاد (ليبو) و (تي نيهو) على البر الجنوبي من البحر الفاصل بين بلاد الشعوب السمراء وبلاد الشعوب البيضاء الشمالية، وهم منهمكون في شراء وبيع ونقل الصوف واللحوم والجلود والعسل والحبوب والتوابل والنحاس والذهب والأحجار الكريمة والعاج والكتان والقطن والخيول والدروع والأسلحة، إلا انهم من أقل الأقوام استخداماً للسلاح، على عكس الهاتيين الذين كانت حياتهم قائمة على الرعي وقليلٍ من الزراعة وتجارة السلاح واستخدامه في الحروب. والفينيق في تنقلاتهم بين مراكز الحضارة في مصر وبلاد الرافدين وسوريانا وليديا وآرزوا وحتى بلاد (تارتي) و(ترشيش) الواقعة على يمين أقصى ساحلٍ للبحر صوب البحار المظلمة والبعيدة الواسعة التي لايعلم أحد عن نهاياتها شيئاً.

لدى الفينيق أيضاً كسواهم من الشعوب أساطير قديمة وشهيرة، منها أن (أوزوس) القوي هو أوّل من تجرّأ على ركوب البحر، بعد أن شبّ

حريق هائل قضى على الغابات حول المدن الساحلية في أدنى بلادهم، وكذلك أسطورة مشهورة بين أهل مدينة (تيروس)، فيسردون أن أهل المدينة رأوا ذات ليلةٍ شعاعاً ينتشر في الأجواء، وينبعث من البحر، فتقدموا إلى الشاطئ ليروا فتاة جميلة فسموها (عشتروت) وعبدوها... وهناك أسطورة أخرى يسردها الحكواتية الفينيق عن إرضاع الآلهة من قبل غزالة وسط أشجارٍ مثقلةٍ بالثمار، التي ترمز إلى الشهوة الجنسية والتي صوروها على شكل أفعى ملتوية حول جذع شجرة عالية وتنفث ناراً من فمها عوضاً عن السم.

الكهنة الفينيق لايتزوجون ويبدون عفيفين جداً ومتواضعين ويعيشون حياةً بسيطة دون رفاهية، إلا أنهم يعتبرون البغاء في داخل المعابد مقدساً، ولذا فإن العذارى يضحين ببكورتهن بحرية في معابد عشتروت».

ومن خلال أسفاري السابقة في بلاد (سوريانا) ومروري الآن على مناطق وبلداتٍ عديدة للفينيق، أجدهم والسوريين جميعاً من أمٍّ واحدة، مثلما الهاتيون والميتانيون والكاردوخ الجبليون وكل شعوب سلسلة جبال زاغروس أمة أيضاً.

لدى دخولنا مدينة (تيروس) الجميلة على ساحل البحر في جنوب بلاد الفينيق، التي تعتبر من أقدم وأكبر المدن الفينيقية، والتي بنيت قبل وصولنا إليها بزمنٍ طويل، لاحظت السمرة غالبةً على وجوه أبنائها، ورأيت تسللاً واضحاً للعنصر المصري بينهم، وتأثرهم الواضح في الوقت ذاته بثقافات الكنعانيين والعموريين، الذين تقول الأساطير السومرية عن

إلهم (مارتو) بأن السلاح رفيقه ولايثني ركبته لأحد ويأكل اللحم نيئاً وهو دائم الترحال، لايمتلك بيتاً طوال حياته، ولا يدفن في قبرٍبعد موته، في حين أن الفينيق في الشمال متأثرون بالثقافات الشمالية، الهورية والهيتية والإغريقية، ومؤثرون فيها أيضاً. وكانت المدينة جزيرةً صغيرة، يقول أهلها بأنهم سيردمون مع الزمن ما يفصلها عن البر من ماء لتصبح المدينة من أجمل الموانىءعلى الشاطئ الشرقي للبحر.

رأيت في (تيروس) التي كان يطلق عليها الفينيق أنفسهم اسم (عروس البحر)، ما لايطيقه الإنسان العاقل من أسواقٍ للعبيد ومن بينهم عدد كبير من النساء، أحضرهم تجار النخاسة من شتى البلاد العمورية والكنعانية والسورية ومن وراء البحار ليبيعوهم للأثرياء وللمعابد التي كانت تقدّم البعض ممن اشترتهم بثمنٍ بخس قرابين لألهتهم، وهذا يبدو في نظر الآرزاويين والكريتيين والمصريين والبابليين والآشوريين أمراً عادياً لا يختلفون عليه. وهذا ما كان يثير الاشمئزاز لديّ، لذا قررت الخروج من المدينة في أسرع وقتٍ ممكن، بعد أن أجمع ما أستطيع جمعه من معلومات عما تبقّى من طريقي إلى وادي الفراعنة، وبعد أن أجد حلاّ لمشكلة بقاء الأميرة (هِستيا) معنا، حيث يلفت وجودها الأنظار من حولنا. ولربما أحصل في يومين أو ثلاثة على معلوماتٍ عن (واشوكاني) وعما يجري في قصر (أخناتون) الذي تعصف به العواصف بسبب قفزته الدينية الخطيرة.

وبالفعل، من خلال الاختلاط برواد الحانات الليلية وصيادي البحر والتجار القادمين إلى المدينة من كل حدبٍ وصوب، علمت أن ملك

البابليين يحاول بكل ما لديه من قوة حربية وبالاستعانة بدعمٍ من كهنة معبدي (مردوخ) إله السماء والأرض و(عشتار: إلهة الحب والخصوبة) له تهدئة شعبه الذي ما عاد يطيق السياسة الضرائبية والقمع الواسع له، وهو في أشد معاناته من الجفاف الذي أصابه مثلما أصاب الشعوب الأخرى في المنطقة، وهذه التهدئة تتطلّب إحراز انتصارات عسكرية في بلاد ميتان، وتجلب للخزينة الأموال والسبايا والخيول والمواد الغذائية. وبذلك النزاع الدموي بين البابليين والميتانيين في شمال سوريا سيبقى جنوب سوريا في قبضة المصريين دون منازع ردحاً من الزمن، إلاّ أن ما يحدث في مصر ذاتها من قلاقل واضطرابات وتمرّد واضح من عديدٍ لبعض أمراء الجيش بين (ميغيدو) و (من نف) قد أرغم(حورمحب) للعودة إلى وادي النيل عساه يستطيع إجراء ما يمكن به ضبط البلاد والصعود درجةً أخرى صوب أعلى الدرجات في السلطة، في ظل الفرعون (أخناتون)، على الرغم من أنه مثل الملكة (نفرتيتي) ليس من السلالة الفرعونية، وينعته أفراد هذه العائلة تندراً بالذي «لاتزال القذارة بين أصابعه».

- 13 -

أثناء انشغالي بالعديد من الأفكار المختلفة والمعلومات، نسيت تماماً أن (باد) والأميرة (هستيا) كانا يسيران ورائي عصر يومٍ جميلٍ عليل الهواء في الزقاق المؤدي إلى مأوانا في شرق المدينة، ولكن عندما نظرت إلى الخلف لم أجدهما، فاستغربت، إذ أن هذه هي المرة الأولى التي يختفي (باد) من أمام ناظري، وبعد أن مشيت مسافةً من الطريق، تأكد لي بأنهما غير متواجدين في المكان الذي أنظر إليه، فاتجهت نحو الخان وأنا قلق بصدد تصرفهما ذاك.وقلت لنفسي: «سأنبّه (باد) إلى ضرورة البقاء بالقرب مني باستمراروأن لا يشغله حب الأميرة (هستيا) عن الاهتمام بحمايتي، لأنني حقيقةً كنت أشعر بالضعف من دون سيف (باد) في تلك البلاد التي أنا فيها غريب. ولكن...

كم كانت مفاجأةً كبيرة لي عندما علمت في المساء من (باد) والأميرة الآرزاوية بأنهما قد ذهبا من دون علمي إلى معبد (عشتروت) وتحدثا هناك عن عقد قرانهما بين يدي كاهنٍ يكتب لهما العقد بلغةٍ مسمارية على جلد غزالة، يتم تحضيره لعقود الزواج بشكلٍ رائع، إلاّ أن (باد) اعتذر للأميرة (هستيا) في آخر لحظة وتراجع عن عقد قرانهما، وأصرّ على تحقيق الزواج

بعد عودتنا إلى مملكة (ميتان) لأنه قد أقسم اليمين للملك (توشراتا) ألايكون هناك أمرٌ أهم له من حمايتي، طوال غيابنا عن (واشوكاني)، وتطرّقت الأميرة (هستيا) إلى ما دار بينهما من حديث وهي حزينةٌ للغاية، فسألت (باد) عن الأمر، فقال: «أنا لا أخفي حبي لهستيا وأحبها أن تكون زوجة لي وأمّا لأطفالي، وهذا ما سنقوم به، حال عودتنا إلى (واشوكاني)، قبل ذلك لا وألف لا، فإن واجبي هو حماية شخصكم الكريم ياسيدي، وليس الزواج واللعب مع المرأة أو الأطفال أثناء القيام بواجبي، وحالما يحررني الملك (توشراتا) من مهمتي، فلن يكون ثمة ما هو أهم من عقد قراننا، أنا و(هستيا)». واعتذر عن ابتعاده عن مكان تواجدي وذهابهما إلى معبد (عشتروت)، وأكّد على أنهما كان يخجلان من البوح لي بما أرادا التحدث فيه لوحدهما، وفي الحقيقة كانت فرحتي عظيمة لسماعي ما قاله مَن حياتي في يديه ومَن تركت وطنها وأهلها ومركزها الاجتماعي لتلتحق بنا، ثم تبيّن لي أن الاثنين قد اتفقا على أن يشتريا بيتاً خارج (واشوكاني) ودعوة ذوي الأميرة للمشاركة في حفل زواجهما، وأن تدفع العروس كل مصاريف السكن مما معها من الذهب الذي تحمله على شكل أساور وما تخفيه منه في حزامها الفضي العريض والجميل، فأكّدت لهما أنني سأكون أقرب الأصدقاء إلى جوارهما يوم فرحتهما الكبرى وسأقوم بواجبي تجاه مصاريف حفلة الزفاف وسأكون عوناً لهما مدى حياتي.

قالت (هستيا) إنها لاتريد االبقاء الآن طويلاً في مدينةٍ ساحلية خوفاً من أن يراها أو يسمع بها أحد من تجارأو بحارة بلاد آرزاوا أو جزيرة كريتا

الذين يفدون على المدن الساحلية الكنعانية والفينيقية. وهنا أضطررت أن أقول لهما: «إننا سنتوجه غداً إلى مدينة (ميغيدو)، وهناك سأستأجر لهما بيتاً فيه كل ما يلزم لحياةٍ في رفاهية، ويكون فيه خدم وحراس».

في اليوم التالي غادرنا (تيروس) صوب الجنوب الشرقي. وأنا على أمل في أن يمكث (باد) مع أميرته في (ميغيدو) وينعما بالسعادة والحب إلى حين رجوعي من مصر بعد انتهائي من أداء مهمتي، حيث علينا العودة إلى (واشوكاني) التي أشعر بالحنين إليها دائماً منذ افتراقي عنها.

بين (تيروس) و(ميغيدو) التي يسميها المصريون (ميكيدي) والآشوريون (ماغيدو)، وبخاصة في محاذاة جبل (كارميل) الذي يشبه جداراً عملاقاً يسمى بـ (الجدار الأبيض) أيضاً، كان الطريق آمناً لأنه يقع تحت سيطرة القوات المصرية التي كانت لاتريد الظهور بمظهر المحتل الهمجي، بل بصورة الفاتح المتحضّر، وذلك بهدف اسكات الأصوات الكنعانية المعارضة للاحتلال المصري، وما كانت أسئلة القائمين على نقاط السيطرة إلا في حدود المسموح باوامرَ دقيقة وواضحة عن سبب ذهابنا إلى (ميغيدو) وعما إذا كانت لدينا أسلحة غير التي ندافع بها عن أنفسنا وعما إذا كان معنا من المال ما يكفي لاقامتنا في المدينة لمدة شهرين على الأقل.وبمجرّد إعلام سيطرات الحراسة بأني طبيب كان رجالها يفسحون لنا المجال بعد رؤية سلة العقاقيرويظهرون لي الاحترام ولا يسألون (باد) ومحبوبته شيئاً، ولدى بعض السيطرات المسلحة كان الحراس بمجردرؤية الراية ترفرف فوق كتف (باد) تسمح لنا بالعبور من

دون طرح أي سؤالٍ علينا.

في مدينة (ميغيدو) الواقعة في سهل (يسريل) الذي تسكنه قبائل (الماناسين) الكبيرة بين جبلي (ساماريا) و(غاليليا)، التي شهدت قبل وصولنا إليها بفترةٍ طويلة معارك طاحنة بين الجيش المصري المحتل لها والقوات الهيتية المهاجمة من الشمال، والتي دحرها المصريون بعد تضحياتٍ وخسائر كبيرة وألحقوا بها في النهاية هزيمةً نكراء، رأيت آثار حضارةٍ كنعانية عريقة تعرضت للدمار من جراء الحروب والنزاعات الدموية المتتالية بين المحتلين من الشمال والجنوب، وعلمت أن المصريين أضطروا للسيطرة على المنطقة في عهد الفرعون (أمينوحتب الثاني) ومن بعده (أمينوحتب الثالث) إلى خوض معارك عديدة ضد أهل المدينة وقبائل (ماناسي) الرافضة لوجود المحتلين في بلادها. ومن دون إشراف الفرعون (أمينوحتب الثالث) بنفسه على المعارك ما كان في استطاعة المصريين إلحاق الهزيمة بالقوات الهيتية والمقاومة الباسلة لأهل البلاد.

جلست لوحدي على أريكةٍ أمام مكان اقامتنا وحدقت بعيداً في جبل (تابور) الذي كانت الثلوج تكلل قمته العالية، فتذكّرت جبل (غودي) العظيم في بلاد الهوريين من ناحية الشمال الشرقي لمملكة (ميتان)، كما تذكرت أبي وأمى اللذين تركتهما ورائي من دون وداع، وفكرت في (دوتى خيبا) التي ابتعدت عن ذويها ووطنها إلى ما لا رجعة، للعيش في بلادٍ غير التي ولَدَت فيها ومع أناسٍ مختلفين عن أهلها وأقربائها في عاداتهم وتصرفاتهم، فقمت من مكاني لأذهب إلى غرفتي وأستلقي على

فراشي حتى صباح اليوم التالي دون أن أتكلم مع أحد، حيث كان (باد) مع حبيبته في غرفةٍ مجاورة ويضحكان بصوتٍ عال. وإذا بشابٍ طويلٍ يظهر أمامي في الممر فجأةً ويرفع يداً للسلام عليّ وهو يقول: «معذرةً سيدي! بالتأكيد أنت من ميتان». فاستغربت حقاً ولم أدرِ بماذا أجيب، فقال. «أنا (ناسو). لقد أنقذتني من الوقوع في باحة دارالكاهن (خوربرست)». فتذكرت ما جرى فعلاً، حيث جاء هذا الشاب بالشراب فتزحلق وكاد يسقط في الحوض الذي يستحم فيه معلمي الكاهن، فقلت له: «ماذا تفعل هنا يارجل، تعال لنجلس قليلاً وحدثني عن (واشوكاني) وملك ميتان ومعلمي الكبير (خور بَرَست) ولربما تعلم شيئا عن أبي وأمي».

أمضيت مساء ذلك اليوم في الجلوس مع ذلك الشاب (ناسو) الذي صار بالنسبة لي حبل الوريد مع الوطن الأم وناقل الأخباروالحمام الزاجل الذي لن أدعه إلاّ بعد أن أحصل منه على كل المعلومات التي في حوزته. فذكرلي بأنه جاء في بعثةٍ دراسية مع طلاب آخرين إلى (ميغيدو) أرسلها معبد (تيسوب) في (واشوكاني) لتعلّم لغة العبرانيين، وأنه لم يكن خادماً للكاهن (خور بَرَست)، وإنما تلميذاً من تلاميذه، كما ذكر لي بأن ملك ميتان قد أصابه الضعف نتيجة المرض ولحزنه وكآبته بسبب الجفاف الذي أصاب البلاد وازدياد المواطنين فقراً ولتوالي هجمات البابليين من جهة والهاتيين من جهةٍ أخرى على أطراف المملكة، وبسبب التآمر المستمر عليه من قبل حلف الوزير مع المتمرد (أوتخي)، فقلت في نفسي : «العداوة الداخلية... هذه هي أعظم آفةٍ تصيب شعبي». . ثم قال لي الشاب (ناسو)

بأنه سأل عني بعد خروجي من دار الكاهن (خوربه رست)، وزار أهلي على أمل لقائي وتقديم الشكر لي، لأني أنقذته من الوقوع الذي قد تكون له عواقب سيئة، فلم يجدني هناك ثم توالت زياراته لأهلي لما يزيد عن سنةٍ كاملة، حيث احتل مكاني لديهم في مساعدتهم ومحادثتهم، إلى أن توفي أبي كما توفيت أمي بعده بشهورٍ قليلة، وهذا ما أحزنني جداً، كما ذكر لي أن ملك ميتان قد أمر بدفنهما بما يليق بالمقربين منه وبوضع دارنا تحت حراسةٍ مشددة ودائمة وبأن يقوم الخدم فيه بواجباتهم اليومية المعتادة وكأن شيئاً لم يحدث لأهلي، وسيحصل الخدام على أجورهم من بيت المال الحكومي، من دون أن يعرف أحدٌ الأسباب الداعية لذلك الإجراء الملكي، وهذا ما أثار غيظ الوزير الأوّل والعديد من أشراف طبقة (الماريانو) الذين راحوا يظنون الظنون ولايجرأ أحدهم على سؤال الملك عن سبب اهتمامه بتلك الدار التي تقع بعيداً عن قصره في (واشوكاني)، بل إن طاحونة الأساطير قد بدأت في طحن الأكاذيب ونشرها في أجواء المدينة كلها.

ياللهول، ويا لهذه الأخبار التي عصرت فؤادي بحيث لم أستطع شيئاً سوى ذرف الدموع، فذهبت إلى غرفتي وأنا أترنح كمن شرب خمراً عتيقاً، ولم تعد لي رغبة في عمل أي شيء سوى التحديق في الجدران التي خيل لي أن صوراً باهتة من أبي وأمي قد ارتسمت عليها، وغاب عني الوعي كما يبدو إذ لم أتذكّر شيئاً من تلك الليلة في غرفتي، سوى أن طرقاتٍ متتالية على بابها كانت بالنسبة لي أشبه بقرع طبول حربٍ صاخبة ومزعجة، ففتحت الباب وأنا في حالةٍ من الضعف واليأس لأرى (باد) بكامل ثيابه

وعدته، وتساؤلات كبيرة مرتسمة على وجهه بسبب ما رآه بادياً عليّ. وسأل بلطفٍ كعادته: «هل أنت مريض يا سيدي؟»وأفسحت له المجال للدخول ورفع الستارة عن النافذة لتزداد الغرفة ضياءً بنور الشمس، وجلست على طرف السرير وأغمضت عيني، فقال: «ماذا حدث؟ هل كان طعامكم سيئاً؟ أم شربتم في غيابنا كثيراً؟ فأجبت: «لا هذا ولا ذاك. لقد سمعت نبأ رحيل أبي وأمي». فاستغرب ذلك، فذكرت له عن الشاب الذي التقيته، فحزن حزناً شديداً. فسألته: «أراك جاهزاً!»فأجاب: «أنا دائماً رهن أوامرك ياسيدي».

في ذلك اليوم الذي قضيت نصفه في الفراش، شعرت برغبةٍ في الخروج وعمل شيءٍ ما لأنسى قليلاً ما أصابني من سماع نبأ رحيل أبي وأمي اللذين كنت أحبهما حباً لا يوصف، وبعد بحث وسؤال تسنى لنا رؤية منزلين، اخترت منهما الأجمل والأوسع واشتريته ببعض ما لدينا من الذهب المخفي في داخل سترتي، وكان هدفي من ذلك اقناع (باد) بالبقاء مع (هستيا) في (ميغيدو)، فقلت له عندما سألني عن سبب شرائي بيتاً، وهو يقول: «هل (ميغيدو) نهاية رحلة العذاب هذه؟» فأجبت: «طريقي لايزال طويلاً وسأتابع مسيرتي من دونك بعد الآن، فأنت قد وقعت في حب هذه الأميرة الحسناء، وعليك تقع مسؤوليات بعد الآن، وليس لي إلاّ تمني الحياة السعيدة لكما، وسأترك لكما ما تبقّى من ذهب (أورا) لأنكما ستحتاجان إليه في هذه الديار. والعبد (موروك) سيخدمني في طريقي». فردّ (باد) بصوتٍ جهوري لم يسبق له أن تكلّم به من قبل: «ماذا؟

أتريدون مني البقاء هنا والسفر لوحدكم يا سيدي؟ لا... هذا لن يحدث حتى ولو أضطررت للتخلي عن الأميرة». ولم أوّفق في إقناعه بالمكوث مع محبوبته، فقد قال في نهاية حديثنا: «إسمع مني ياسيدي! لقد تحدثت مع (هستيا) بصدد هذا السفر الذي لا ندري إلى أين يقودنا، والآن أظن أنك مسافرٌ إلى بلاد الفراعنة، حيث سمعتك تسأل بعض التجار في السوق عن أسهل الطرق إليها... أنت بحاجةٍ إلى من يرافقك لأن القفاروالصحاري في الجنوب حيث بلاد العماليق لا تخلو من الأشقياء والقتلة». فلم أتمكّن الكذب على إنسانٍ وضع حياته في خدمتي بإخلاصٍ وتفانٍ وتضحية، فساد السكوت علينا فجأةً وعدنا إلى الخان صامتين.

قررت في ذلك اليوم متابعة السفر، وأن نستغني عن(موروك) الخصي الذي يرافقنا ليقوم بما يؤمر به من قبل (هستيا) التي عليها التصرّف لوحدها في غيابنا، وجلست بالقرب من الأميرة (هستيا) لأعلمها عما قررته، فذكرت لها بأنني ومعي (باد) ذاهبان صوب الجنوب، حيث الصحارى والكثير من الأشقياء واللصوص في الطرق، ووعدتها بأن نعود في أقصر وقتٍ ممكن، وعليها أن لاتذكر شيئاً لأحدٍ عن وجهة سفرنا. فأجابت بأنها ستذهب إلى حيث نذهب، وستحرق نفسها مع البيت كله إن أصررت على بقائها في (ميغيدو).فلم أدرِ ماذا أفعل. وعندما جاء (موروك) ليدعونا إلى الطعام، قلت له: «عندما نعود إلى (ميغيدو) تصبح منذ دخولنا هذا البيت إنساناً حراً، إلاّ أنه رفع رأسه وعيناه تذرفان دمعاً وقال: «ليس هناك شيءٌ في الدنيا أغلى من الحرية

ياسيدي، ولكن إلى أين أذهب، فإن بلادي على الطرف الآخر من البحر، وليس لي أحدٌ هناك أعود إليه، فقد قتل همج الشمال كل أفراد عائلتي، حتى الأطفال والقطط». فوقع كلامه هذا كوقع السهم في صدري ولم أجد الكلمات المناسبة للتحدث معه حول مصابه، فقلت له: «ستكون حراً بكافة الحقوق المترتبة على ذلك قانونياً».

وهكذا، أضطررنا بعد إغلاق باب المنزل إلى البحث عن الشاب الميتاني لأعطيه المفاتيح لعله يهتم بالبيت حتى عودتنا من مصر، وفرح لذلك الشاب فرحاً بادياً على سيماه ووعد بأن يعيش في البيت مع زميلٍ في الدراسة وسيهتمان بالبيت حتى عودتنا. وعليه انطلقنا إلى السفر على ظهور الجياد صوب الجنوب، أنا و(باد) و(هستيا) و(موروك). ولم يكن من السهل علينا اجتياز العديد من التلال والهضاب والجبال والأنهار التي تتوالى في طريقنا صوب الصحراء الواسعة التي تفصل بين (ميغيدو) وبلاد الفراعنة بسرعة.

مررنا في طريقنا على قبائل وعشائر عديدة من الكنعانيين الذين حللنا ضيوفاً عليهم، وهم قومٌ من نسل (سام) في سيماهم وعاداتهم ولغتهم، وهم ضخام الرؤوس، ذوو أنوفٍ كبيرة، معتدلو القامة، بارزو الذقن، كثيفو الشعر وأقوياء في العمل وأشداء في القتال، ومنهم أذكياء لو تسنى لهم امتلاك قليلٍ من المال لأصبحوا من أشهر أثرياء الدنيا لأنهم يعلمون كيف يتصرفون بأقل ما لديهم مما يملكون. ومن عشائرهم التي توقفنا بينها للحصول على طعامٍ أو شرابٍ أو لقضاء ليلةٍ في راحة ونوم: روبين

ولاوي ودان وجاد ونفتالي وغيرها. ولهم آلهة وعبادات وطقوس معقدة وشاقة الأداء أيضاً. ولاحظت أن دق الطبول بكثرة ولوقتٍ طويل من الطقوس التطهيرية لديهم، الغرض منه إبعاد الأرواح الشريرة، وكذلك صهر التماثيل لأنه كان يُتم بالنارالتي لها قدسيةٌ لديهم كما لدى الشعوب الزغروسية، وكانت القرابين توضع في المقابر مع الموتى، وفي بعض الأحيان كانت حيواناتٍ أو هدايا ثمينة وعطوراً وأواني جميلة الصنع، على شكل زهرة السوسن، والاغتسال (التطهّر) يكون بأربعة أشياء لدى الكنعانيين، وهي الماء والزيت والنار والصلاة، حيث الاغتسال بالماء يومياً وبعد الحرب كان ضرورياً لديهم، لأنه يزيل جريمة القتال، والزيت الذي كان يعتبر مقدساً ويستخدمه ملوكهم لما فيه من شفاءٍ للأمراض الجلدية، وكان على الملك قبل اعتلائه العرش التطهّر بالزيت، والنار كانت تستخدم لتطهير الذبائح، ومن ثم الصلاة التي كانوا يقولون بأنها مكتوبة عليهم من إلههم الأكبر(إيل).وأجمل الليالي التي قضيناها بينهم كانت في حفرةٍ دائرية ضخمة في الأرض الصحراوية بنوا في أطرافها من الداخل بيوتاً عديدة، يصعب على الغزاة اقتحامها دون سلالم طويلة، وكان من السهل على سكان تلك الحفر العميقة تكسيرتلك السلالم قبل استخدامها من قبل الغزاة، وكانت البيوت باردة في حين كانت الصحراء من فوقهم تكاد تشتعل من شدة الحرارة. وعلمت من أحد أثرياء الصحراء أن في أسفل مدينة (ميغيدو) التي تركناها وراءنا منذ أيام سراديب وممرات طويلة وعميقة في الأرض كبيوتهم هذه ببرودتها وهدوئها التام، إلاّ أنها

حفرت من أجل إخفاء سكانها من الغزاة في حالات الضرورة، فذكرني ذلك بمدينة الجن العميقة في باطن الأرض.

ومن جماعةٍ من المسافرين إلى مصر بهدف شراء القمح الذي كان رغم الجفاف السائد في مختلف البلدان لايزال وفيراً في وادي النيل، علمت أن الفرعون (أخناتون) قد آمن ب(آتون) وآثر التصادم المباشر مع كهنة معابد (آمون) وسواه، و تخلّى عن الإله (آمون) الذي كان آباؤه وأجداده يعبدونه وهدد بتدمير معابده وأصنامه في العاصمة (طيبه) فأثار بذلك غضب العائلة والشعب على حدٍ سواء». فسألت أحد أفراد الجماعة: «وبماذا يختلف آتون عن آمون؟» فأجاب: «آمون هو إله الريح والخصوبة، وكان يعبد إلى جانب آلهةٍ أخرى للمصريين، في حين أن آتون هو الإله الذي تخضع له كل الآلهة والملوك، ويعتقد (أخناتون) أنه إله الكون الأعظم، ويرمز له بقرص الشمس».

تذكّرت في تلك اللحظة قصة تحطيم (به رهيم) لأصنام قومه الكردانيين، والفارق هنا يكمن في أن (به رهيم) الذي أخذ بعقلي وفؤادي رفض كل الآلهة التي ابتكرها الناس ودعا إلى عبادة رب الكون، حتى أنه رفض عبادة الشمس والقمر، في حين أن (إخناتون) حسبما سمعت عنه من هؤلاء المسافرين قد جعل الشمس رمزاً لمعبوده آتون، ويقترب بذلك من دين (ميثرا)في شرق جبال (زاغروس)، وزعم أنه ابن (آتون) ليكون ممثله الوحيد في الأرض.

وفي بلاد الكنعانيين التقينا بشيخٍ عجوز، جاوز المائة من عمره حسب

ظني، كان جالساً تحت شجرةٍ هرمةٍ على طرفٍ من الطريق، فسألته عما ينتظر تحت أغصان شجرة سقطت منها كل أوراقها، في ظهر ذلك اليوم الحار، فقال بأنه ينتظر «القادم الجديد» الذي سيأتي إلى مدينة (أوروشالمُ) على جبل (أوفيل) الذي سكنته أقوام عريقة في القدم منذ آلاف السنين، وتوالت عليه غزوات العماليق من الجنوب، وسيكون مع القادم الجديد نور الحقيقة التي يبحث عنها الجميع، وسيجعل الكلمة أشد حدةً من السيف، والعفو أقوى من الانتقام، والسلام منتصراً على الحرب، وسيجد تقسيم رغيف خبزه على جماعته من أفضل الأعمال، وسيجتمع تحت كلمته واسمه المظلومون من كل الأنحاء، بعد رحيله، ولن يصعد إلى السماء إلاّ ورسالة الرحمة تغمر بنورها البشر، ومملكته لاتغيب عنها الشمس. فتعجبت لأمر هؤلاء الكنعانيين الذين يتعلقون بالسماء أكثر من الأرض ويهتمون كثيراً بالقادم من المجهول ولذا كنت أفكر عما سيؤمنون بالقادم الجديد حقاً، إن جاءهم الذي ينتظرونه جيلاً بعد جيل!

في الحقيقة، حسب علمي فإن موجات المجاعة قد دفعت عشائر وقبائل كبيرة من سكان جزيرة العرب إلى الهجرة صوب بلاد سوريانا وبلاد الرافدين، لتبدأ حياةً جديدة مع الأقوام الأخرى وتتحارب فيما بينها من اجل الكلأ والماء قروناً طويلةً من الزمن، بنت خلالها حضارات عظيمة حقاً، وتحوّل الإخوة والأقارب مع الأيام إلى أعداء.

وفي بلاد العماليق، التي ينحدر شعبها أيضاً من أصول سامية، ومعظم أفراده مهتمون بالرعي وبقليلٍ من الزراعة، وكان رعاتهم الأقوياء

مشهورين باستخدام المقلاع لرمي الحجارة به إلى مسافاتٍ بعيدة، استطعنا أن نستأجر أحد رماة الحجارة بالمقلاع لمرافقتنا كدليل للطريق، حيث استفدنا منه كثيراً لأنه كان عليماً بالمنطقة كلها، وكان يقول لنا أثناء جلوسنا لاستراحةٍ ما بأنه لايفهم كيف يتحارب العماليق أبناء (إبراهيم) القحطانيين القادمين من صحراء العرب وأبناء العشائر الكنعانية الشمالية، وهم أبناء عم، فكان ردي عليه: «بسبب الأرض». فما كان يقتنع وكان يقول :«بسبب التراب؟ أنا عندي الماء والهواء أغلى وأهم من التراب الذي تحت أقدامنا، فهذا التراب قد تكوّن من لحوم الناس وعظامهم الكريهة». فأعود لأقول له، ونحن نشق طريقنا عبر العجاج الكثيف الثائر على شكل زوبعات كبيرةمتلاحقة صادفتنا: «أنتم قومٌ من البدو الرحل لاقيمة للأرض لديكم، تبحثون عن المراعي أينما كانت، فلا يهمكم العيش في هذا الوطن أو ذاك، والماء التي تحبها يادليل طريقي تخرج من الأرض». فيصرخ صوبي في الريح لأسمعه جيداً وهو يحث جواده على الإسراع إلى جواري: «لا يا سيدي، هذا الماء الذي نخرجه من الأرض بمشقة يهطل من السماء». وحقاً كنت أعجز عن إقناعه بشيءٍ مما كنا نتحدث عنه ونتجادل حوله. حتى أنه كان يؤكّد على أن أوّل من تكلم بالكلام من البشر كان يدعى (عمليق)، وقد يكون «عمليق» هذا أبَ البشرية «آدم» في اعتقادهم، ناسين أن آدم وحواء عاشا في جنانٍ من الأرض قبل طردهما منها وليس في الصحراء، وكان يزعم دليل طريقي بأن شعب (ميتان) منشؤه زواج الجن بامرأةٍ من الإنس، فالميتانيون

وأقرباؤهم من (اللولو) و(الكاردوخ) و(الهوريين) كلهم (أبناء الجن)، وذلك من دون سندٍ ولا دليل، وكنت قد تعلمت في (ميتان) بأن البشر جميعاً من أبٍ واحد وأمٍ واحدة وكانا مثلنا من تراب، ولا يعقل أن يكون الكاردوخ والميتان والهوريون من نسل جن...!

وصلنا إلى رابيةٍ نطل من أعلاها على وادٍ غير ذي زرع، فرأينا جماعةً كبيرة من الأشقياء المسلحين بالرماح والسيوف تحاصر عربة سفرٍ يجرها حصانان، وهم يصرخون ويشتمون بمن في داخلها، فسألت (باد) عما يجب علينا القيام به لإنقاذ المسافرين من الموت المحقق. فأجاب بأن علينا المغامرة بهجومٍ مباغت على الأشقياء من حيث لا يتوقعون ولا يدرون كم عددنا نحن المهاجمين، وفي تلك الأثناء رأينا كيف يجر أحدهم وراءه امرأةً من شعرها على الأرض، فلم يعد أمامنا مجال من الوقت، فبدأنا بالهجوم بأن أطلق دليل طريقنا حجرةً بحجم كف اليد من مقلاعه لتحدث صوتاً أشبه بصوت السوط اللاذع وأزيزاً في الريح وتصيب بسرعةٍ فائقة رأس أحد الأشقياء في جوف الوادي فترميه على الأرض، وفجأة أخرج (باد) أيضاً مقلاعه وحجرةً من الكيس الذي كان معلقاً بحزامه ورمى بها شقياً آخر في الوادي فصرعه، وهنا علمت لماذا طلب من العبد (موروك) في ساحل (بعروت) أن يجمع له الحجارة الرقيقة.

إنطلقنا نازلين من التل إلى بطن الوادي مما أثارهجومنا الغبار حولنا، وبسرعةٍ تمكنا من ضرب اثنين آخرين من الأشقياء الذين ارتبكوا ولم يصدّقوا عيونهم، فتركوا العربة والمرأة هاربين في اتجاهين عبر الوادي

الضيق، فاقتربنا من العربة من طرفيها، وإذا بامرأةٍ ذات جمالٍ ووقار بداخلها وبجانبها تجلس خادمة ترتجف أوصالها من الذعر. وإذا بالمرأةً التي كانت قد نهضت من الأرض تتقدم صوبي وتقول لي والدموع على وجنتيها: «أنا مملوكة السيدة الجالسة في العربة، وقد ضاعت بنا السبل». ثم علمتُ بأن السيدة ليست إلا زوجة أحد ضباط الجيش المصري الكبار الذي يتمركز بقواته في منطقة قريبة، كانت السيدة في طريقها إلى زوجها، وقد أرسلت الحارسين المرافقين لعربتها لاستطلاع طريق يخرجان به من الوادي، فتم قتلهما على أيادي الأشقياء الذين تمكنوا من إيقاف العربة بعد محاولة هروب فاشلة. فوجدت أن مساعدتنا للسيدة وانقاذها مع خادمها ومملوكتها سيفيدنا في تلك الأنحاء، ولذا قررت أن نذهب بها إلى حيث تريد، وكان ذلك المكان المقصود باتجاه مصر، صوب الجنوب الغربي لحسن حظنا. وعندما وصلنا إلى ثكنة المصريين بعد زمنٍ طويل من البحث والعناء الشديد، كان ترحاب قائدها (حابى) بنا كبيراً، وقال بأنه أرسل مفارز في كل الاتجاهات إلاّ أنه لم يجد سوى السباع والثعالب في الصحراء التي تتيه فيه القبائل الاسرائيلية سنين عديدة من دون أن تتمكن من الخروج منها، ولم يتوقّع أن تكون زوجته شمال الثكنة وليس في جنوبها أو غربها، في الوادي الذي لايرتاده أحدٌ من المسافرين عبر تلك البراري. فكانت ليلةً ساهرة وحفلةً لم تنته سوى في فجر اليوم التالي. كما قال الضابط بأنه سعيد بمقتل الحارسين المرافقين لزوجته من قبل الأشقياء المهاجمين لأنه كان سيقتلهما بالتأكيد بسبب غبائهما وتعريضهما زوجته

للخطر، فتولى اللصوص المهمة عوضاً عنه.فشكرته على حسن استقباله لنا وكررت له أنني ومن معي قد قمنا بما يمليه علينا واجبنا الإنساني، وصدف أن كنا في المكان المناسب والوقت المناسب، مما أعاق الأشرار عن ارتكاب جريمتهم.

حاولت طوال سهرةٍ ليلية أخرى بحضور زوجة الضابط (حابى) التي كانت تبدي امتنانها العميق لإنقاذنا حياتها وبحضور زوجات وعشيقات ضباط آخرين أقل منه رتبةً أن أحصل بشكل غير مباشر على معلوماتٍ عن مكان تواجد الملكة (دوتى خيبا) التي ذكرت عنها بافتخاربأنها ابنة ملكنا الميتاني وأردت أن أعلم شيئاً عن أحوالها وعن علاقة الفرعون (أخناتون) بها كونها زوجته الثانية له بعد (نفرتيتي)، فذكرت السيدة الجميلة، التي كانت تجلس بيني وبين زوجها، أن (دوتى خيبا) تبدو مريضةً على الدوام وتعيش حزينةٍ ومنعزلةً عن سائر أفراد العائلة الفرعونية وترى في (نفرتيتي) عدواً لها، إلاّ أنها لاتفصح عن ذلك لمن حولها، وهي غير مكترثة بتربية ابنتها الوحيدة وتعاملها وكأنها ليست أمها التي أنجبتها. وهنا تذكّرت ما قاله لي ملك ميتان (توشراتا)، حيث أكّد لي بأن ابنته (دوتى خيبا) قد أنجبت ذكراً وليس أنثى، إلاّ أنني آثرت عدم ذكر ذلك بين هؤلاء المصريين. وعندما سألتها عن مصدر معلوماتها قالت لي بصوتٍ يشبه الهمس: «النساء كالاسفنج الذي يستخرجه الغطاسون من البحر، فيهن الكثير مما خفي عن الأنظار ، ولدى ضغط بسيط عليهن تراهن يتقطرن أسراراً ... الدنيا تسمي مصر ببلاد الاسرار العظيمة ولكن

نساء مصر يعرفن أن الشرائح العالية في مجتمعنا تشبه منخلاً للدقيق ناعم المسامات».

وقبيل ذهابنا إلى النوم سألت قائد الثكنة (حابى) عن العلاقة بين الفرعون الجديد (أخناتون) والشعب، وعن امكانية لقاء أحدٍ من الشعب بالفرعون، فضحك ضحكةً قوية ثم قال: «الناس من جنس الأموات مثلي ومثلك لايستطيعون النظر إلى وجه أحدٍ من أفراد العائلة الملكية، فلماذا تسأل سؤالاً بلا طعمٍ ولا رائحة؟ فلربما ينتظر الزائر سنةً كاملة حتى يتمكن من دخول قصر من قصورالفراعنة الذين يعتبرون أنفسهم من سلالة الآلهة، فإذا كنت تحلم بالسفر إلى (طيبة) ومقابلة الفرعون فيها فلا تحلم... لربما تتمكن من مقابلة حاجبٍ خصي بلا لسان من حجاب الفرعون، بعد أن تدفع لسمسارٍ قذرٍ بعض المال». قال ذلك مقرّباً سبابته من وجهي، وكأنه شك في سؤالي، إلا أنه حينما لاحظ اكتئابي قال: «على كل حال، أنتم أنقذتم زوجتي التي أحبها أكثر من الشمس والقمر والماء والهواء، ولذا فإنني سأساعدكم في الوصول إلى قائدي الكبير (حورمحب) الذي طلب مني تقديم تقريرٍ مفصّل عن الأمن في هذه الصحراء، ولذا سأكون خلال أسبوعين في مدينة (مين نفر) التي فيها مقره الرئيسي. وسأرجوه مساعدتك في أمرك الذي أنت من أجله آتٍ إلى بلادنا، سأسأل عنك وأجدك، ولكن لا أدري في أي سوقٍ من الأسواق ستكون». فقلت له بأنني طبيب وهدفي من زيارتي لمصر تعلّم المزيد من هذا العلم، ومرافقي هذا هو طالب يتعلم على يدي، فحدّق طويلاً في

وجه (باد) الذي لم يكن يعرف الرقة والظرافة، ثم قال: «هذا يبدو لي كمصارعٍ شديد أو كمحاربٍ عنيد وليس كطالب علم... على كل حال، بإمكانكم تعلّم الكثير من أطبائنا في مختلف المجالات ومن أهمها ثقب الجماجم الحية». وضحك ضحكةً عالية، في حين صارت أصابع يده اليمنى تتحرك فوق رأسه وكأنه يثقب جمجمته بنفسه.. فظننت أنه يسخر منا. ثم قال: «سأبعث معكم عدداً من الحراس الأشداء لمرافقتكم حتى مدينة (مِين نفر)، وعندما آتي إليها سأسأل حانات المدينة وفي مراكز تجهيز الموتى للرحلة الأبدية عن طبيبٍ ميتاني وطالبٍ له يشبه محاربي الأساطير، وقد يكون في ذلك خيرٌ لي ولكما».

- 14 -

عاد دليل طريقنا إلى بلده مع إحدى القوافل وهو فرح جداً بما أغدقنا عليه من أجرٍ كريم، بعد أن مررنا على عديدٍ من القرى الصغيرة والكبيرة وعشرات السيطرات العسكرية للجيش المصري الذي كان يحافظ على النظام بشكلٍ تام بين بلاد الكنعانيين وحتى أسوارمدينة (مين نفر)، محطتنا الأولى على نهر النيل العظيم. وما كان علينا تقديم ثبوتيات عن أنفسنا، إذ أن رؤية العربة التي قدمها لنا أحد القادة المهمين للجيش كافية لفتح الطريق لنا من دون أي تفتيش أو مساءلة، وقبيل افتراقنا عن الحراس المرافقين لنا علمت من كبيرهم أن الضابط الكريم (حابى) من أقرباء القائد الشهير (حورمحب)، الذي كان يتواجد في مدينة (تانيس) في شمال البلاد لأمورٍ عسكرية طارئة حسبما أخبرنا به بعض العارفين من الجنود.

ولدى وصولنا بعد أيامٍ عديدة من السفر بتلك العربة الجيدة الصنع إلى داخل مدينة (مِين نفر) التي يسميها العرب (مِن نف) والإغريق (ممفيس)، فكرت في أن عليَ الانتظار فيها لملاقاة الضابط (حابى) لدى مجيئه إلى (مِين نفر) بأي طريقةٍ كانت، وعلّي عدم إهمال ذلك، رغم أن استضافته لنا في معسكره كانت قصيرة الأمد، وكان في أغلب الوقت ثملاً ويبدو غير جادٍ

في كلامه، فعساه يكون مفتاحي إلى قصر (دوتى خيبا) في مدينة (طيبة) وعساه يحصل لي من قائده (حورمحب) على ما يمنحني ذات التسهيلات لعبور المخافر والسيطرات أثناء عودتي من مصر إلى وطني، ومعي ولد (دوتى خيبا) الذي جئت من أجله إلى مصر، هذا الولد الذي لا أعرف عنه شيئاً وهو لايعرف عني شيئاً أيضاً، ولا أدري كيف سأنتزعه من أحضان مصر التي تعتبر نفسها أم الدنيا وذروة الحضارة، على الرغم من أن عظمة أهراماتها وقصورها وحدائقها ومعابدها تدل بشكل صارخ على عبوديةٍ شاملة لأغلب سكانها، سواءً من المصريين ومن أسرى الحروب والعبيد.

ممفيس، إنها مدينة تعتبر إحدى أعرق الحاضنات التاريخية للحضارة البشرية، إذ بنيت قبل أكثر من ألف عام من الآن، في عهد الملك (نارمر) من عائلة (مينا)، وهو الذي وحّد وادي النّيل لأوّل مرة وجعلها مملكة قوية، وقد كان أهلها يعبدون الإله (بتاح) آنذاك. وموقعها أسفل منطقة تشعّب النيل إلى فرعين أساسيين منحها أهمية اقتصادية وعسكرية في الوقت ذاته.

منذ اللحظة الأولى لدخولنا هذه المدينة المصرية وإلى لحظة خروجنا من بلاد الفراعنة بعد فترةٍ دامت شهوراً من الزمن، كنت أغلب الأحيان في دهشةٍ وذهولٍ لأمرهذه البلاد التي كان كل ما رأيته فيها عظيماً من عمرانٍ وطبٍ وفنونٍ وجيشٍ وأساطيروتقنينٍ رائع لتنظيم وتوزيع ماء النهر العظيم الذي تم عليه وبوجوده بناء كل ما كان لدى المصريين من آثارٍ خالدة لا تمحى عبر الزمن.

وفي الحقيقة فإن مصر هي وادي النيل إذ بدون نهر النيل الذي يشطرها

من الجنوب إلى الشمال ما كانت لتولد وتعلو هكذا حضارة عظيمة وممالك متعاقبة وذات شهرةٌ عبر التاريخ، وإن مصر تعتبر كسفينة نوح عبر العصور، تحمل للإنسانية ما نسجته في غابر الأزمنة من أساطي روما رفعته من عمرانٍ لايضاهيه شيء في روعته، ودقته وتعدد أشكاله، وما تركته من علومٍ ومعارفَ يحتار المرء في مدى عمقها واتساعها، كلما حدّق في الأهرامات العظيمة والمدافن الملكية المتقنة البناء، وباعتقاد الذين سألتهم هنا وهناك فإن المصريين ربما سبقوا بلاد العالم كلها بكثيرٍ من الزمن في ابتكار أساليب الاستفادة من فيضانات النهر المدمرة للمزارع والقرى والمدن، وذلك ببناء شبكاتٍ واسعة من الترع والقنوات على طرفي النيل العظيم في شتى أنحاء البلاد من جنوبها إلى شمالها.

لقد كان هدفي الأوّل في أرض الفراعنة البحث عن حفيد ملك ميتان وأخذه عنوة أو سرقةً إلى جده من ناحية أمه في (واشوكاني) ولو كلفني ذلك حياتي، إلاّ أن ملك ميتان لم يقل لي بأن مصر ساحرةٌ شديدة النفوذ، قادرةٌ على انتزاع فؤادي من صدري وتحويلي إلى قزمٍ لايتمكن من تحرير نفسه من قبضة عملاقٍ قبض عليه. فجذبتني الأهرامات التي ستبقى إلى نهاية العالم رمزاً حضارياً عظيماً وعريقاً للشعب المصري، كما سحرتني سائر المقابر والقصور والتماثيل والرسوم الفرعونية التي رسمت بدقة عالية وذوق فني رفيع والتي تنتشر على ضفاف النيل وتحكي النهضة العمرانية والعلمية والثقافية في هذه البلاد وعلو شأن ملوكها الذين كانوا في مصاف الآلهة لشعبهم، فكانوا مركز كل ما في العالم من شؤونٍ وأعمالٍ وسلوكٍ

وحروبٍ وانتاجٍ وفنون...

وأنا أحدّق فيّ الرسومات الجميلة ذات الألوان الخلابة والدقة المتناهية في رسم مختلف اوجه الحياة والعمل والانتاج، حتى رسوم الممارسات الجنسية لدى المصريين في أوضاع صارخة، وكيفية بناء الصروح العالية من الطين الذي كانوا يحملونه على أكتافهم في سطولٍ ثقيلة ليصبوه في قوالب ضخمة ويوقدونه ليصبح متيناً كالصخورالقاسية وهم لايرتدون إلا إزاراً بسيطاً أو كانوا عراةً ضعاف الأجسام، بدا لي أن الرسامين أرادوا نقل صورةٍ قربية جداً من حياة شعبهم وفراعنة بلادهم للأجيال القادمة من بعدهم، وبذلك يحذرونهم من سوء السلطان المطلق ويروون لهم قصة العبودية التامة لشعبهم الذي لم يكن له في الحياة من هدفٍ سوى تعظيم الفراعنة ورفعهم إلى درجة الألوهية، بمعنى أنهم كانوا ناقدين أذكياء لحقبةٍ طويلة من حياة وادي النيل، فالفراعنة سخّروا من أجل بقاء حكمهم وعلو مكانتهم السحر والطب والدين والفن، مثلما أرهبوا شعبهم بأساطير خلودهم وقصص آلهة الشر التي ستقضي على الناس لولا قدرتهم على التصدي لها ومنع إيذائها للتابعين المخلصين، ومن تلك الأساطير، أسطورة أبي فيس (آبيب) التي تظهرثعبان (الفوضى والظلام) الذي كان على الدوام عدواً لدوداً للإله (رع)، وظل باقياً مخيفاً للمصريين حتى في عهد (أخناتون) إلى جانب الإله (آتون)، و(آبيب) هذا على الضد من الإله (رع) الذي يرمز لمعانى النور والشمس والنظام الكوني واللانهائي فيه وكذلك يرمز إلى الطاقة والحياة والصحة والعقل، بل يرمز إلى كل ما هو نوراني في الكون...

كان أبوفيس (آبيب) الثعبان العظيم، الذي لايمكن لأيٍ كان القضاء عليه كلياً، بل يمكن تقطيعه، مع بقائه حياً، والذي تتحولُ أرواح الذين ابتلعهم إلى رؤوسٍ جديدةٍ له، هو الكائن الوحيد الذي يتجرأ على معاداة ومعاكسة موكب الإله (رع) وهو يتجول في الكون بنوره الذي يضيء كل مكان، إلاّ الجوانب المعتمة التي يتواجد فيها (آبيب) رمز الظلام والفوضى، وكما تؤمن بعض الأقوام بوجود الخير والشر المتناقضين أبداً، فإن المصريين منذ أن عبدوا الإله (هاتور) في بلاد نوبيا قبل قرونٍ عديدة، كانوا يؤمنون بوجود (رع) الذي يقابله ثعبان الفوضى (آبيب)، أما (سيث) الذي يرى بعض العارفين أنه (الشيطان) فقد كان يحمي موكب الإله (رع) مع ثعبان آخر يدعى (محِن)، وينقذ (سيث) الإله (رع) بأن يفتح ثقباً في بطن (أبوفيس) لينقذ (رع) نفسه من خلاله، في حال ابتلاعه من قبل (آبيب)، وإلاّ فإن الظلام سيظل سائداً في الكون، والعالم سيسقط في الفوضى إلى ما لانهاية...

وهكذا فإن الفراعنة الذين زعموا أنهم من سلالة (رع) أو أنهم حلقة الوصل بين المصريين وإلهِهم هم وحدهم القادرون على الاتيان بالنور والسعادة والحياة وعلى انقاذ العالم من الفوضى والظلام اللذين يجلبهما الثعبان (أبوفيس)، ولذا لا يتمكّن أحد من قتل (أبو فيس) وتخليص العالم منه تماماً ليبقى شعب مصر في خوفٍ دائم من الظلام والفوضى والإرهابِ والمشاكل، أي أنه العدو المختلق لسلطان الفراعنة، حيث كل الملوك بحاجة إلى عدوٍهم فإن لم يكن موجوداً يبتكرونه.

ولكن أشنع ما قد حدث لي هو مجيئي إلى مصر في ذات الوقت الذي إضطرمت نار الفتنة الدينية بين المصريين لأن فرعونهم (أخناتون) قد طلع عليهم بدينٍ جديد وسعى إلى تدمير ما كان قبله من معبودٍ يخافه ويعتنقه شعبه بأسره منذ زمنٍ طويل، جاءهم (أخناتون) ليعصف بآلهتهم العريقة، وبخاصة (آمون).

بدأت أسمع من المصريين أنفسهم، كيف بدأ الكهنة يخفون تماثيل (آمون) الذهبية في حفرٍ حفروها في الأرض، قبل أن يستولي عليها ويدمرها أنصار (أخناتون)، على أمل إخراجها وعبادتها بعد أن تعبر عاصفة التدمير الأخناتوني لآلهتهم ومعابدهم.

تذكّرت كيف أن رؤيا ناسك ميتاني عن ظهور أنبياء يدعون إلى عبادة خالق السماوات والأرض وتحطيمهم أصنام الآلهة كانت تقلق كهنة معبد إله الريح والطبيعة (تيسوب) في واشوكاني ومعابد (خيبات) إلهة السماء و(ميثرا) و(فارونا) و(آندرا) و(ناساتيا) التي يسميها الموكيش السوريون ب(آناهيتا).

شعرت في الأيام الأولى من مجيئي إلى مصر برغبةٍ في معرفة الحقيقة عن الوجود والدين والحياة والموت، في هذه البلاد التي بهرت عيني بما أنتجته للعالم في كل المجالات، بعد أن كان الدين بعيداً تماماً عن حياتي الشخصية، على الرغم من أنني كنت مؤمناً على الدوام بأن هذا الكون المنظّم البديع لا يمكن أن يكون من دون ناظمٍ بديع. إلاّ أن مهمتي الكبيرة كانت تلسع ظهري كالسوط فتمنعني من التفكير في سواها وتقلقني كثيراً، وبدأ فؤادي

يضطرب بشدة عندما علمت أن (دوتى خيبا) تسكن مدينة (طيبة) في الجنوب وأن من الصعب جداً الاقتراب من قصرها، وعليّ التفكير في إيجاد سبيل إلى ذلك، ولو أدت مغامرتي هذه إلى تقطيع جسدي في ساحةٍ من ساحات (طيبة) والتي لاتزال بعيدة عني أياماً وليالٍ... ورحت أتلمّس الدمية التي احملها في داخل سترتي على أمل أن تعطيني مزيداً من الأمل في الوصول إلى صاحبتها، والتي كنت أحدثها في خلوتي وكأنها ليست دمية وإنما إنسان صغير جداً.

قلت للفارس (باد): «بإمكاننا القيام بجولاتٍ نرى فيها الأهرامات والشوارع التي تزيّن أطرافها التماثيل العظيمة والأعمدة الهائلة الشامخة، حتى يحين أوان مجيء الضابط الذي أنقذنا زوجته إلى (ممفيس)». فوافق على الفور وانطلقنا ومعنا الأميرة (هستيا) ومعنا العبد (موروك) وذهبنا إلى أماكن عديدة تزيدنا حيرةً في أمر الثراء العظيم للعائلة الفرعونية مقابل الفقر المدقع للشعب المصري الذي يقضي جل وقته في حفر الترع المائية والأنفاق السرية للمقابر الكبيرة، ويجرّ الأعمدة العملاقة ويبني المصاطب العالية وينحت التماثيل في الحيطان وينقش الرسوم المختلفة الألوان، تمجيداً وتخليداً لأفراد العائلة الفرعونية، من دون تذمّر أو تمرّد، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما رأينا في أحد الطرقات عاملين يعجنان العجين بأرجلهما في حوضٍ خشبي كبير، وهما يغنيان معاً، وبالقرب منهما نساءٌ يعملن في داخل فرنٍ يحضّرن الخبز للناس، ومررنا بسَوقةٍ يبيعون على طرفي طريق الكثير من التماثيل الصغيرة ورؤوس الحيوانات المحنطة والأواني الغريبة

الأشكال والعاج والنبال البسيطة، وعلمت أنهم يأتون بتلك الهدايا من تجارٍ قادمين من المناطق المحيطة بمنابع نهر النيل وحيث تتواجد القبائل السوداء البشرة التي تبيع ما تصنعه أياديهم بثمنٍ بخس، مقابل طعامٍ أو منسوجات أو أسلحة يصنعها المصريون الحاذقون، ثم التقينا بكاهنٍ مخلص للإله (آمون) كان يتجوّل في السوق ويتحدّث مع بعض السَوقة فدعوته إلى تناول طعامٍ تحت سقيفةٍ متواضعة مؤلفةٍ من جذوع الشجر ، حيث كانت رائحة لحمٍ سمكٍ مشوي تجذب العابرين، فقبل الكاهن الدعوة لأنه كما بدا لي كان قادماً إلى السوق ليتحدث إلى الناس ضد الدين الجديد الذي يدعو إليه الفرعون أخناتون، وبرأيه أن أخناتون بما يسميه إصلاحاً دينياً سيدمّر النظام الكوني الراسخ ل(رع-آمون) في مصر.وكان الكاهن ناقماً على الفرعون، الذي سيأتي بفوضى (أبو فيس) أو (آبيب) لشعبه وبلاده، فسرد لنا بعض ما يعرفه عن الأهرامات التي لا يضاهيها بناء في العالم، فذكر أنها من حيث العدد كثيرة، ومنتشرة في بلاد مصر كلها، وهي قبور للفراعنة، كل منها باسم من تم دفنه فيه، إلا أنها ذات أسرار لايعلمها سوى العارفون جيداً بشؤون مصر وملوكها وأديانها وأحداثها التاريخية. وأنها بدأت على شكل حفرة صغيرة تحت الأرض، ثم تطورت الحفر إلى عدة حفر متلاحقة لتخزين ما سيحتاجه الفرعون في سفرته في العالم الآخر من أموال وخمورٍ وموادٍ غذائية وجوارٍ وتماثيل للآلهة تحرسه، ومن تلك الحفر ما استغرق حفرها والرسم على جدرانها وطمرها بالرمال أعواماً عديدة، وبنيت مصاطب على تلك الحفر، ثم بنيت الأهرامات فوقها،

ومنها ما استغرق 20 عاماً حتى اكتمل، فتضافرت جهود الآلاف المؤلفة من البشر لجعلها صروحاً يتباهى بها أصحابها بعد انتقالهم إلى العالم الآخر، كما يتباهى به المصريون إلى الأبد. وقال بأن اختيار الشكل الهرمي مرتبط بفكرة نشوء الكون، ويساعد على وصول روح الميت إلى السماء للالتقاء بالإله (رع)، وسادت الفكرة في سائر الأنحاء، بل إن أقواماً أخرى لانعلم عنها إلا القليل من الأخبار غير الدقيقة قد بنت أهراماتٍ مثل المصريين بذات الشكل المعروف. وقد كانت تجلب على مركبات نهرية عملاقة من أماكن بعيدة قطع كبيرة للغاية من الأحجار القاسية الصلدة، وترفع على عرباتٍ ذات عجلات على مصاطب رملية لتوضع في المكان المناسب لها في جسم الهرم. وكان هذا عملاً شاقاً يستهلك طاقات أجيالٍ متلاحقة من شباب البلاد ورجالها، على الرغم من استخدام المهندسين والقائمين على العمل الكثير من الثيران والأفيال والحبال الثخينة لجرّ الأحجار الكبيرة الأحجام، والغريب أن الفراعنة كانوا يمنحون كل عمالهم وعبيدهم وجباتٍ من السمك في أيام عديدة من الشغل الذي كان قاسياً حقاً في فصل الصيف في مصر. وحسبَ أقوال الكاهن الذي أعجبه الطعام الدسم الذي قدمناه له في مطعم متواضع، فإن لبناء الأهرامات بهذا الشكل وفي مواقعها تلك أسرار تتعلّقُ بالأرض التي نعيش عليها وبطلوع الشمس وغروبها وبتواريخ ميلاد الراقدين فيها وبقياس الاتجاهات الأربعة وبمواسم فيضانات نهر النيل، بل وبالكون الذي تدور في فلكه الأرض أيضاً، وسيحتاج البشر إلى آلاف الأعوام لمعرفة تلك الأسرار والألغاز التي ستحيّر

العلماء والسحرة. وقال لي في نهاية شرحه المسهب للأهرامات: «أتعلم أن الكهنة قد سمعوا قبل القيام بمراسيم دفن الفرعون الكبير أنيناً عظيماً في سراديب أحد الأهرامات ظنوه في البداية أنين إنسانٍ جريح أو مريض، ثم علموا أن لا أحد سواهم في تلك السراديب؟» فقلت له: «أعتقد أن أزيز الريح في السراديب الضيّقة يُسمَعُ أحياناً وكأنه أنين البشر». ففتح فمه فاغراً وسألني: «من أين تعلم ذلك؟» فأجبت: «أنا من بلاد ميتان، وفي الإقليم الجبلي لمملكة ميتان ثمة كهوف فيها ممرات ضيقة يحدث فيها ما يحدث في سراديب صروحكم المشيّدة هذه». فأجاب: «بل هي أرواح الموتى التي تتعذّب في العالم السفلي». فرأيت أن الاستمرار في حديثنا عبث لا طائل تحته، فحاولت معرفة المزيد منه عما يجري في (طيبة)، قال لي: «أنظر يا عزيزي الطبيب الغريب! لقد جاءنا عبراني قبل الآن بزمنٍ طويل، وشرع يحدّث فرعوننا الكبير آنذاك عن إلهه الواحد الأحد، فلم يقبل الفرعون ولم يقبل المصريون بما دعا إليه، على الرغم من أنه كان ذا قدرة على الجدال والإقناع، وعندما رفض القبول بألوهية الفرعون لاحقه جنود فرعون ، فاضطر إلى الهرب مع قومه صوب بلاده التي أتى منها، فكيف سيقبل المصريون من فرعونهم (أخناتون) أن يقول شيئاً لا يختلف عما قاله ذلك العبراني؟ أعتقد أن من الأفضل لنا ألا نتحدث في هذه الأمور، فها هم أتباع (أخناتون) يتسللون إلى معابد وقصور (مين نف) أيضاً، أشكرك على حسن ضيافتك، وأتمنى لك ولمن معك إقامةً حسنة في مصر، ونصيحتي لك ألاتتكلّم هنا فيما لا يعنيك، بل تعلّم من أطبائنا ما تفيد به شعبك لدى

العودة إلى ميتانيا».

وقبل أن ينصرف الكاهن عنا، قال بأن هناك في منطقة قريبة من (من نف) مجمّع سكني فرعوني يزيد عن 3000 حجرة، يستحق الزيارة، وهو على شكل سجادة كبيرة تحيط بها الرمال، جدرانها وأعمدتها منقوشة برسوماتٍ ملوّنة تعكس فلسفة المصريين في الحياة وبعد الموت، وتحكي قصص آلهتهم وفراعنتهم في أطوار تاريخية متلاحقة. فأردت القول بأنني لم آتِ إلى مصر من أجل رؤية حضارتها العظيمة وإنما لي مهمة، إلاّ أن قول ذلك ببساطة كان من المستحيل، لذا اكتفيت بالقول بأننا سنذهب إلى هناك بالتأكيد عندما أنهي أعمالي في (مين نف) ووضعت في يده قطعة نقود ذهبية، وقلت له: «لقد بنى المصريون ما أرادوا من صروحٍ وقصورٍ وحدائق عظيمة، إلاّ أنهم لم يحسبوا حساب الرمال التي قد تلتهم كل شيء عبر الزمن. فهزّ رأسه مستغرباً قولي وانصرف وهو يتمتم بما لم أسمعه.

تعلمت من ذلك الكاهن المصري الكثير في ذلك اللقاء القصير الممتع، فقد حضني على تعلّم مهنتي ليستفيد منها شعبي بعد عودتي إلى وطني، فهل هناك أجمل من هكذا نصيحة لي ولطلاّب العلم في كل مكان وكل زمان؟ إلاّ أنني قد جئت إلى مصر في أمرٍ آخر لاعلاقة له بالطب والعلم أبداً ولا بما قدّمه المصريون للبشرية من فنونٍ رائعة، وسأتحوّل لدى تنفيذ مهمتي من طالب علم أو طبيبٍ إلى خاطف أطفال، وهذه جريمة لا تغتفر بالتأكيد إن تم اكتشاف أمري.

- 15 -

مكثنا في (مين نف) فترة أسبوعين، إلاّ أن الضابط (حابى) الذي أنقذنا زوجته لم يأتِ كما ذكر لنا، فقررت استئجار مركبةٍ نهرية متواضعة كان يعمل عليها مصري في الأربعين من العمر مع ولدٍ له في العشرين من عمره، وكلاهما يبدوان قادرين على الملاحة النهرية الجيدة، بهدف الإبحار جنوباً صوب مدينة (طيبة) حيث تعيش (دوتى خيبا). ونقل العاملان مع العبد (موروك) كل ما قد نحتاجه خلال عدة أيام وليالٍ من أكل وشربٍ وأغطية، وأضطرت الأميرة (هستيا) أن تتوقف عن تعليمها بعض الطلاب المصريين النابهين لغة الإغريق، وقد علمت منها أنهم يريدون كتابة بعض الألواح التي ينحتونها في جدران القصور والمعابد بالإغريقية إلى جانب أو اسفل مايقومون بنقشه باللغة الخاصة بهم، حتى يتمكّن الناس بعد أجيالٍ عديدة قراءة النص الهيروغليفي الذي يتألف من رسوماتٍ وصور، من خلال مقارنته بالنص الإغريقي، وعندما سألتها عن سبب اختيارهم اللغة الإغريقية، قالت لي بأن الإغريق سيلعبون مستقبلاً دوراً عظيماً في دنيا الفكر والفلسفة والثقافة الإنسانية ولهم لغة محترمة، والمصريون يعلمون ذلك، ويريدون كتابة بعض نصوصهم مقرونةً بلغةٍ ستنتعش مستقبلاً،

وبذلك يضمنون أن الناس في العصور القادمة سيتمكنون من فك طالسم رسوماتهم ولغتهم، وبالتالي سيعلمون الكثير عن فراعنتهم وآلهتهم.

وقبيل أن نصعد إلى المركبة، وإذا بشابٍ يقل عني عاماً أو عامين في العمر، وسيم ، نظيفٍ وأنيق الثياب، يقترب مني ويحدّق بي ثم يدور حولي دورةً كاملةً، ويفتح ذراعيه كمن يوّد عناقي، فلم أفهم ماذا كان يريد بذلك وظننته لصاً أو محتالاً يود انتزاع ما أخبئه من نقودٍ ذهبية في سترتي لدى معانقته لي أو للإيقاع بي بمصيدة خداع، فقلت له: «أعتذر... فأنا لا أعانق الغرباء». فأجاب على الفور: «وكيف تمنعني من معانقتك ياأعز الأصدقاء، يا هوريك؟» فتعجبت حقاً، إذ لا أحد من شعب ميتان كله يعلم أنني هنا في مدينة (مين نف) المصرية، ويخاطبني باسمي الذي كان يناديني به زملائي في صباي تحبباً وتندراً، (هوريك) عوضاً عن (لاوى هوري)، وإذا به يأخذ بيدّي ويأرجحهما في الهواء ويقول: «هل تتذكر الأرجوحة؟»

تذكرت في تلك اللحظة كيف كنا أنا والفتى الذي اختفى من مجموعتنا الطلابية أثناء زيارتنا لمعبدٍ في وادٍ ذي صخور وردية اللون في جنوب سوريانا نركب الأرجوحة معاً معلّقةٍ بغصن شجرة سنديان عالية وانفرطت الأرجوحة مرّة لأن الغصن المعلّق به قد تكسّر فأصبنا نحن الاثنين برضوضٍ وعدنا متألمين إلى مجموعتنا التي جاءت إلى تلك الديار لتعلم العربية، فأخذته بقوة وضممته إلى صدري، وقلت له: «أنا آسف... أنا آسف... ياكاويك، ظننتك ميتاً أو أن الذئاب افترستك. لقد بحثنا عنك في تلك المنطقة الصخرية كثيراً فلم نجدك». وبعد أن قبلّ رأسي

بحرارة قال: «تعال نجلس في حانة ونتحدث عن الماضي قليلاً».فقلت: «أنا الآن على وشك السفرمع جماعتي إلى مدينة طيبة». فإذا به يقول: » وأنا ذاهب اليوم إلى (خمون)، وسأكون سعيداً أن أرافقك». فسألته: «وأين هي خمون؟» فأجاب: «إنها تدعى لدى الإغريق «هيرموبوليس»، وهي تقع بين (مين نف) وطيبة، على الطرف الغربي من نهر النيل». فسألته: «وماذا ستفعل هناك؟» فأجاب مبتسماً: «سأحدثك الكثير عني. وستحدثني عن مملكة ميتان كلها. أنا الآن معماري ناجح وقد طلبني أعوان الفرعون أخناتون للمساهمة في بناء مدينةٍ جديدة تكون مركزاً له عوضاً عن طيبة المليئة بأعدائه وأعداء دينه والتي فيها أكثر من 14 معبداً كبيراً للإله (آمون) الذي لايطيق (أخناتون) سماع اسمه ورؤية كهنته، وستدعى المدينة الجديدة (أخيتاتون)». فسألته: «هل وصل الأمر إلى هذا الحد من العداء بين الفرعون والكهنة؟» فأجاب بصوتٍ لا يسمعه سوانا: «أتعلم أن الكهنة عندما جاءهم الخبرعن نوايا فرعون تجاه إلههم (آمون) ودعوته إلى عبادة (آتون) قد منعوه من دخول معبدهم الكبير وسط (طيبة)، وهذا لا يعلمه إلا قلائل من أبناء الطبقة العليا بين المصريين، فهددهم بأنه سيمحو اسم ورسم إلههم من كل الجداريات المنقوشة في الحجر». فقلت مازحاً: «هذا يعني أنك صرت في أعلى الهرم المصري وتعلم أسرار الفرعون». فأجاب: «كلا... لست إلاّ معمارياً ولكن المعماريين الكبار لهم علاقات وشيجة حتى داخل القصر الفرعوني لأن فن العمارة من أهم العلوم إلى جانب السحر والطبابة في مصر .

لقد كان لقائي مصادفةً بصديقٍ من وطني ومن أقرب الأصدقاء أكبر مفاجأةٍ لي في مصر، بل شغف كلامه فؤادي بما لا يقل عن السحر الذي سحرتني به هذه البلاد، ولذا قلت: «طالما أنت ذاهب اليوم مثلنا صوب الجنوب، فتعال معنا لأنني لن أدعك بعد اليوم تفارقني ثانيةً وستعود معي إلى واشوكاني ياعزيزي». فاتفقنا على السفر معاً صوب الجنوب بشرط أن يذهب العبد (موروك) معه إلى بيته القريب ليأتي ببعض ما يحتاجه من ملابس ضرورية أثناء فترة مكوثه في المدينة الجديدة لأخناتون. وقبل أن تغرب الشمس، كانت سفينتنا الصغيرة تمخر ماء النيل والفرح يغمرني بشكلٍ ما كنت أتوقعه أبداً للقاء أحد أقرب الأصدقاء الذين اختفوا من حياتي سابقاً، قبل سنواتٍ عديدة.

على ظهر المركب النهري الذي كان يشق صفحة الماء في هدوءٍ تام، رغم أن مساره بعكس جريان النيل، سألت صديقي القديم (كاويك): «وكيف تعرّفت عليّ بعد هذا الفراق الطويل، وبالتأكيد فقد تغيّرت ملامحي عبر السنين؟»فقال لي بأن ملامحي لم تتغيّر كثيراً رغم عقدين من الزمن وبأنه تعرّف عليّ بسبب حركةٍ كنت أقوم بها ونحن فتيان ولا زلت أقوم بها الآن عندما أكون منهمكاً في عملٍ هام. فرجوته أن يفصح عن ذلك، فقال: «أنت تحكّ مفرق رأسك، بحيث يشكّل ذراعك نصف قوسٍ واسع وتلامس أصابع يدك مفرق رأسك شاقولياً. وقد رأيتك تكرر ذلك لفرطٍ انشغالك بشأن السفر، ثم إن ملامحك الميتانية هنا في مصرتثير الرغبة في تفحّص أمرك». فقلت: «وكيف ذلك؟» فأجاب: «عزيزي هوريك، جبينك

العريض الذي يبدو كجرفٍ صخري عمودي وشكل الرأس والأنف العالي والبشرة البيضاء المختلفة عن بشرة المصريين، وبنطالك الفضفاض، وهذا الخنجر الكبير الذي تحمله، كل هذا يقول لي: انتبه واحذر هذا الميتاني أو هذا الكوردوخي الجبلي فلا تتشاجر معه... أفلا يكفي؟» ثم قرّب فمه من رأس (باد) وقال كمن يقرأ نصاً من صفحة جبينه: «أنا محارب ميتاني فلا تمزح معي. نعم هذا مكتوب على جبينك». وانتظر جواباً من (باد) الذي لم يحرّك ساكناً، فضحكت الأميرة (هستيا) التي كانت قد صعدت المركب فسأل: «ومن هي هذه الفتاة الجميلة؟»...

ذكر لي (كاويك) ونحن نتناول طعام المساء في استراحةٍ متواضعة، وجدناها تبدو نظيفة وجميلة على ضفة النيل اليمنى، أنه ابتعد عنا أثناء رحلتنا الدراسية قليلاً لدى تواجدنا في جنوب بلاد (سوريانا) ليتبول في زاويةٍ من الوادي ذي الحفر والأحواض المملوءة بالماء، فإذا به يقع في واحدةٍ عميقة منها لم تكن سوى باب سردابٍ ضيّق بين الطحالب والأعشاب، وانزلق إلى جوف الأرض عبر السرداب، حيث توقف في مكانٍ مجهول، وسط بركة ماء عميقة، فنادى مراتٍ عديدة بصوتٍ عال فلم يسمعه أحد منا ولم يره أحد، فسبح في الماء صوب حزمةٌ من الضوء، وفي نهاية السرداب كان ثمة مخرج إلى واحةٍ رملية تنتهي إليها بحيرة الماء تلك، وهناك كانت جماعة من المسافرين قد تهيأت للسفر بعد استراحةٍ لها، فقبض عليه أحدهم وعصب عينيه واقتاده مربوطاً بحبلٍ إلى فرسه، ومضت أيامٌ وليالٍ وهو مرهقٌ للغاية، حيث تم بيعه بثمنٍ بخس في سوق لبيع العبيد والدواب إلى

تاجرٍ مصري، جاء به إلى (مين نف) وباعه ببعض الدراهم لمعماري ثري لم يكن له أولاد، فربّاه وعلمه صنعته حيث وجده ذكياً وعازماً على التعلّم.

سألته عما إذا كان قد حاول العودة إلى ميتان، فأجاب بأنه سمع من المسافرين القادمين من (واشوكاني) أن أمه ماتت كمداً وحزناً لفقدانه وأن أباه الذي وجد نفسه سبباً في إرساله رغماً عنه إلى بلاد سوريانا لتعلم العربية، وسبباً في موت زوجته التي كان يحبها فانتحر، وصارت قصته معروفة في مدينة (واشوكاني). فقلت له: «أنا أعرف ماحدث لذويك يا (كاويك) ولكن ميتان وطنك وكلنا إخوتك وأخواتك».. فأجاب: «لقد كنت فتى صغيراً فضمني المعماري المصري إلى أهله ورباني وعلمني صنعته الرائعة التي بها وصلت إلى مرتبة توظيفٍ عالية، وبعد أن ابتاعني المعماري وحررني واعتبرني ولداً له، وضعت له امرأته بعد سنة طفلةً، وهي الآن فتاة جميلة، ويريدني أبواها الاقتران بها، فكيف سأخون هذه العائلة وأدعها؟»

فكرت في أمره طويلاً، وتحدثت مع (باد) والأميرة (هستيا) حول موضوعه، فقالا لي بأنه رجل عاقل ويعرف تماماً ما يريده، وإنه بعد عيشه في مصر المتقدمة من مختلف النواحي لن يستطيع العودة للعيش في (واشوكاني) وحيداً وغريباً، فلا تصر على عودته إلى ميتان، ولكن ربما يأتي مرةً في زيارة ويقرر البقاء في وطنه. وعندما عدت للحديث مع (كاويك) عن مصيره منتصف الليل وقمرٌ منير فوق رؤوسنا، قال لي: «في الحقيقة، لا شيء أغلى من الوطن، وأنا أفكر وأحلم به كثيراً، وقلبي معلّق بواشوكاني على الدوام، وأتذكر كل لحظةٍ من حياتي قضيتها فيها، ولكن لن أخون هذه العائلة التي

تفتخر بي وتحبني وتكرمني حتى يرحل المعماري الذي أعتبره اباً لي وامرأته التي غمرتني بحبها وكأنها أمي من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وعندئذ سأعود إلى وطني كمعماري مرموق قد أكون ذا فائدةٍ لشعبي». فقلت له: «في الحقيقة، إن المعماريين الهوريين مشهورون في بناء المعابد البابلية وألاشورية، ولا يحتاجون إلى المعماريين الغرباء في مملكة (ميتان)، إلاّ أن (ميتان) تحّن إلى كل أبنائها وبناتها الذين غادروها كما تحّن الأم لولدها الغائب يا (كاويك)». ولكن رغم إيماني هذا فقد رأيت مثل (باد) والأميرة (هستيا) أن من حقه اتخاذ قراره بنفسه وفي الوقت الذي يشاء، ولذلك آثرت الإجابة عن أسئلته التي يريد طرحها حول مملكة ميتان والأصدقاء ومدينة واشوكاني، من دون الإصرار على عودته معنا إلى (واشوكاني) وقضينا سهرتنا، أنا وإياه، في سؤالٍ وجوابٍ عن الوطن وشعبنا وعن زملاء الدراسة، وعما أفعله في مصر أو عازم على القيام به، في حين ذهب (باد) ويده تلف خاصرة (هستيا) إلى النوم في مقصورةٍ في مؤخرة المركبة، خلف حاجزٍ خشبي يسترهما عنا، بعد أن استأذن بأدبٍ جم، وراح العبد(موروك) مع صاحب المركبة وولده على أمل تعلّم حرفة التجدبف على أياديهما. وأجبت عن كل أسئلته قدر معرفتي، إلاّ عن سبب مجيئي إلى مصر، فأضطررت أن أكتم عنه الحقيقة، على الرغم من ثقتي التامة بأن (كاويك) سيساعدني في تنفيذ مهمتي بشكل أفضل، فذكرت له أنني جئت إلى مصر لأتعلّم المزيد من مهنة الطب، فإذا به يتفاجأ لكلامي ويسألني عما إذا كنت درست الطب في (واشوكاني) أو في مدينة أخرى من مدن البابليين أو الهيتيت، فأعلمته

أنني تعلمت علي يد الشيخ (آزر) لفترةٍ لاتقل عن السنتين في مملكة الجن، وأن الشيخ (آزر) أهداني سلته الخاصة بالعقاقيروأكّد لي الشيخ قبل وفاته بأني قد صرت طبيباً جيداً، حيث لم يكن ثمة مرض أو جرح أو كسر إلا وتعلمت كيف أعالجه. كما تعلمت كيف أمزج السوائل وأخلط العقاقير النباتية وأحفظ الدواء من التلف، فكان استغرابه كبيراً وراح يسألني عن مملكة الجن وسبب ذهابي إلى هناك، فوجدت أني عاجزٌ حقاً عن اختلاق القصص والأسباب، ووعدته بأن أسرد له القصة كاملةً في وقتٍ آخر، وسألني عما إذا كان الشيخ (آزر) عابد أصنام، فلم أفهم قصده، فقال بأن (آزر) أي (الناصح) هو اسم أب (برهيم) ولم يتبع ديانة التوحيد التي نادى بها ولده، بل وقف مع قومه الكردانيين ضده، فأجبته بأن الشيخ (آزر) ما كان يؤمن بالآلهة والمعابد ويراها كلها من ابتكار الطغاة الحاكمين، فقال وهو يربت على كتفي: «دعنا من ذلك... المصريون لايعترفون بأنك طبيب حتى تعرض نفسك وعلمك على ثلاثةٍ من أطبائهم يطرحون عليك أسئلة كثيرة ويرون كيف تعالج الجروح وتشفي المرضى وتوصف العقاقير وتقوم بالعمليات الجراحية والأورام، وعندما تنجح في امتحانهم الصعب يعطونك شارةً تعلّقها على صدرك وتعلم الناس أنك حقاً طبيب، وإلاّ فإن عليك العمل في الأحياء الفقيرة كطبيبٍ غير معترف به رسمياً، أو ستعمل في مركزٍ خاص بتحضير الجثامين للعالم السفلي، عالم الأموات لتقوم بتنظيف الأجساد الميتة من الأحشاء، وهو عملٌ شاق لن يقدر عليه إلاّ من بدأ به من الصغر، واعتاد على شم تلك الروائح الكريهة ورؤية تلك المناظر

البشعة». فسألته: «سمعت من ضابط كبير يدعى (حابى) أنقذنا زوجته من أيادي الأشقياء في الصحراء بأن ثمة أطباء يثقبون رؤوس الناس، فهل هذا صحيح؟» فضحك (كاويك) ضحكةً بريئة ثم قال: «نعم، هذا صحيح تماماً، وهذه العمليات لا يقوم بها إلاّ طبيب مختص يدعى «ثاقب الجماجم»، وهذه العمليات الصعبة والخطيرة تجرى للفراعنة وأبناء الأقربين منهم عادةً لطرد الأرواح الشريرة وإزالة أسباب الأمراض ومن أهمها مرض الصرعة، وفي الحقيقة هذا أسلوب ذكي للتخلّص من الفرعون أو من تابع مهم من أتباعه بذريعة حدوث خطأٍ أثناء العملية. أما عن الضابط (حابى) فأعتقد أن معلمي المعماري يعرفه وقد بنى له داراً في (مين نف) قبل عام».

استمرت سهرتنا حتى الفجر، والقمر المنيريزيد صفاف النيل الذي كان يلتمع ماؤه في هدوءٍ عجيب جمالاً واجتذاباً، وتجرّأت على سؤال (كاويك) عما إذا كان باستطاعته مساعدتي في رحلة العودة إلى مملكة ميتان، فتساءل: «كيف؟» فقلت: «إذا وجدت صعوبة في الحصول على الموافقة للعمل كطبيب فأنا سأعود إلى ميتان وقد تكون معي أموال وأشخاص لا أريد أن يمسها أحد بسوء أو يستولي عليها، وفي بلاد سوريانا لن تكون أمامي عوائق كبيرة، فأنا أعرف كيف أتصرّف فيها ولي فيها معارف وأصدقاء أيضاً، إلاّ أنني قد أحتاج إلى مساعدةٍ ما من (طيبة) إلى مدينة (ميغيدو) في بلاد كنعان». ففكّر (كاويك) طويلاً ثم قال: «أنا لم أفهم حتى الآن لماذا أنت هنا في مصر، ولكني سأسأل أبي الذي سافر قبلي بأسبوع إلى (خمون) في بلاد العمارنة للقاء رجال القصروله علاقات قوية بهم وبالمعماريين الكبارعساه

يتمكّن من مساعدتك، وهو لن يخجلني في طلب». فسألت: «ستسأل أباك؟ هل تقصد المعماري الذي ربّاك؟» فهزّ رأسه بالإيجاب، فشكرته وقلت له: «أرى أن الزمان لم يتمكّن من إحداث شرخٍ في صداقتنا». فضحك ضحكةً عالية وهو يربت على كتفي،ثم هبت ريحٌ باردة أرغمتنا على الذهاب إلى النوم.

بعد أيامٍ قلائل وصلنا إلى منطقة (خمون) التي كان فيها نهر النيل يشهد حركةً واسعةً وكثيفة للسفن والمراكب التي تحمل الأحجار والأخشاب والأكياس والعبيد، حيث كان مئات العبيد على الطرف الغربي من النهر يجرّون عن طريق استخدام الحبال الطويلة والثخينة أحجاراً كبيرة الأحجام على جذوع أشجارٍ عظيمة تمّ صبغها بمادةٍ لزجة، وكان الجنود يحثون بالعياط والضرب الأفيال التي تجرّ وراءها جذوع أشجارٍ ضخمة بصعوبة ويلسعون ظهور العبيد بأسواطهم الطويلة،وعلمت أن الفرعون (أخناتون) ماضٍ في تحقيق رغبته في بناء مدينته (أخيتاتون) التي ستكون خالية من أصنام الإله المصري العريق (آمون) في منطقةٍ كانت خالية تماماً من أي أثرٍ لآلهة مصر القديمة. وقال صديقي لصاحب المركب وهو يستعّد للنزول من المركب ويمدّ له بقطعةٍ من النقد الذهبي: «أشكرك يا عزيزي وسأرسل في طلبك كلما احتجت إلى مركبة نهرية بعد اليوم». ففرح الرجل بذلك وقال: «ساكون دائماً في خدمتكم عندما أكون قريباً من مكان اقامتكم ياسيدي. إسأل عن سفينة (شو) إذا أردتم الإبحار». وشرع يساعد ولده والعبد (موروك) الذي تحوّل إلى عاملٍ نشيط في خدمة المركب

لإنزال أغراض صديقي، فسألت صديقي عن (شو) فأجاب بأنه إله الريح ومبدأ الحياة، وقال بأن صاحب المركب يعرف قصة (شو) بالتأكيد، فقد أطلق اسمه على مركبه، ثم فارقنا صديقي (كاويك) بعد أن تعانقنا بقوة، وقال لي بصوتٍ عالٍ وهو على شاطئ النهر: «أنا سأنتظرك في (أخيتاتون) لأعرّفك على أبي، فاسأل أي معماري تصادفه في المدينة».

في رحلتنا النهرية تلك لم أحاول أبداً طرح سؤالٍ على صديقي (كاويك) أو على صاحب المركب المصري حول (دوتى خيبا) وآثرت أن أكون أشد حذراً من كل الناس كلما قربت المسافة بيننا وبين مدينة (طيبة)، ولذا حاولت الدخول في مسائل أخرى مع صاحب المركب ذي البشرة السمراء، فسألته عن (آمون) الذي يعبده المصريون ويسعى الفرعون (أخناتون) لشطب اسمه من كل الألواح والجدران في المعابد وبدأ بحملةٍ كبرى لتحطيم تماثيله أو تشويهها. فقال الرجل الذي بدا عليماً بآلهة وديانة شعبه، ووجدته مهتماً بالثقافة، ويبدو ناقداً لما يعتنقه المصريون أيضاً: «سأبدأ بما هو أقدم لتفهم ما عليه المصريون من تعقيداتٍ عقيدية». فقلت: «تفضّل، فأنا جئت إلى مصر لأزداد علماً». فابتسم وقال: «آمل ألاتخرج من بلادنا وأنت في تيهٍ أشد من الآن عن ديانتنا. وقبل كل شيء أعترف لك بأن الناس في مصر السفلى يختلفون في عقائدهم في بعض الأمور عن أهل مصر العليا، على الرغم من أنهم يعبدون الآلهة ذاتها. وفي الحقيقة يعتقد المصريون أن كل الآلهة التي يعبدونها الآن وعبدوها من قبل، ومن تلك الآلهة (أوزيريس، سيث، إيزيس ونيفتيس)، بل حتى الضفادع والثعابين والثعالب، لها تأثيرقوي

في أحداث الكون، كشروق الشمس وكإحداث الفياضانات المدمّرة، حتى بعد موتها بزمنٍ طويل، وما هي إلاّ تجليات لإلهنا القديم (بتاع)». فسألت عما إذا كانت الآلهة تموت في العقائد المصرية، فاستغرب سؤالي وقال:«طبعاً... طبعاً، فهي لاتختلف في هذا عن البشر والحيوانات، ولكنها تحيا من جديد كالنباتات التي تذبل وتموت ثم تحيا بعد حين..».

تابع صاحب المركب، بعد أن ابتعدنا قليلاً عن ميناء (خمون): «... ومن ثم في عهد الأسرة الحادية عشرة عبدوا (رع) الذي عينه تراقب العالم من علٍ، وله رأس صقرٍ أخذوه من الإله (هوروس) كما يملك قرص الشمس التي يحميها ويحيط بها ثعبان عظيم، ويتجوّل (رع) في الممالك الاثني عشر للعالم السفلي مرتدياً إزاراً أبيض يشبه الكفن، ويأخذ معه في سفره قطيعاً من التيوس والأبقار السماوية لتكون له غذاءً في رحلته الطويلة، في حين اعتبروا الفرعون ابن الإله القديم (هوروس) و(أوزيريس) كما سموه بابن (نوت) أيضاً». فقلت: «على مهلك يا عزيزي، فالإله (خوروس) معبود لدى شعوب زاغروس أيضاً، و(خور) ليس إلا الشمس في لغتنا الهورية – الميتانية». فحدّق في عيني جيداً، ثم قال بعد أن ضحك ضحكةً قوية:« ألسنا أقرباء منذ أن تزوج الفرعون الأكبر من أميرة ميتانية؟» ثم سألني عما إذا كنت مهتماً بمعرفة المزيد فأجبته ب«نعم»، فتابع كلامه: «المصريون يعتقدون أن العالم قد نشأ من البيضة الأم أو أنه جزء من أشلاء الآلهة (جيب) و(نوت) و(إيبس) ومنهم من يعتقد أنه نشأ من نبتة اللوتس. وفي الأصل كان الإله (بتاع) خالق العالم والطبيعة، و من بعده الإله (رع)

كان عضواً من أعضاء جسد (بتاع) الذي منه اللسان (توت) والقلب (هوروس)، فالقلب مقر سلطة الأفكار واللسان مقر سلطة القرارات والأوامر، وإلى جانب عبادته كإله للنظام الخلقي والسلطان الفرعوني، فقد أسس لسلالة إلهية ولسلطة أرضية مطلقة كمثالٍ سيقتدي به المصريون عبر الزمان، إضافةً إلى أنه إله فن الصنائع والسحر أيضاً. وقد حكم في البداية كسلطانٍ حقيقي وفي صورة إنسان... وفي الحقيقة لكل شيءٍ رمز أو تصوير تشبيهي في ديانتنا العريقة، فالشمس مثلاً ليست سوى كرةٍ محشوةٍ بالبيوض، تدحرجها (جيبرى أو ثيبرى) أمامها مثلما تدحرج الخنفساء كرةً من الروث. وفي مدينة (طيبة) التي يعتقد أهلها بأن الإله القديم (أوزيريس) قد ولد فيها، وهي عينا الإله (رع) اللتين تراقبان العالم كله، أصبح (آمون) الإله الأقوى في العقيدة الفرعونية، الذي تجد رسمه على شكل تيسٍ ضخم، ذي ثلاثة تيجان، ويحميه من فوقه إلهة الأفاعي (بوتو) و (أوتو)، وإنه في مرتبة الإله الأوّل (بتاع)، كما أنه ملك الآلهة (آتون) الذي يعظمه الفرعون (أخناتون) ويرمز له بقرص الشمس، وفي طيبة اقترن اسم (آمون) باسم (رع) إلى أن صارت الناس تسميه ب(آمون–رع) ولاتفرّق بينهما، ومع الأيام، حظي (آمون) على أعلى درجةٍ من درجات عقائد بلاد (كيميت)، إلاّ أن لدينا آلهة أخرى، قديمة وحديثة، منها زوجة الإله (أمون–رع) التي تدعى (موت) وتظهر برأسٍ ذي قناعٍ لطيرٍ جارح، وإله المطر (مين) الذي يسقى الأحياء والأموات، وإله النيلً (حابى أو هابى) الذي يأتي بالعطايا والخيرات والطمي ويساعد بذلك على الخصوبة والحياة والنظام الإلهي،

كما هناك أم الآلهة التي تدعى (أم فرعون) أيضاً. و إلهة السماء (هاتور) التي على شكل بقرة، وهي بنت الإله (رع)، وهي في الوقت ذاته إلهة للموسيقى والفرح والحب والأمومة وتتلقى الأرواح في العالم السفلي وتقف بجوار الأرواح أثناء محاكمتها في «محكمة الموت»، وهي زوجة الإله (هوروس) ذي الرأس الشبيه برأس الصقر، ومبعث الخوف لأنها عينا (رع) وأخذت شكل اللبوة التي عليها الإلهة (زاخمت) لتعاقب الناس الذين يتمرّدون على (رع)، وكانت عازمةً على إفناء كل البشر لولا أن الإله (رع) كان يسقيها الجعة حتى تبقى ثمِلةً معظم الأوقات..». فضحكت وقلت: «آلهة تسكر على أيادي آلهة أخرى؟» فأجاب بأن هذا طبيعي في حال تعدد الالهة وتعدد التصورات الإنسانية عنها... ثم تابع: «وهناك إلهة الحقيقة والعدالة (ماءات) التي على رأسها ريشة نعامة كرمزٍ خاصٍ بها، ولا يستطيع والدها (رع) متابعة مسيره الشمسي من دونها وهي تجسّد النظام الإلهي، أما إلهة الخصوبة والموت التي تظهر على شكل عقرب، فإنها تشرف على الحياة وتحرس أحد أبواب العالم السفلي من الأبواب الأربعة التي يصب فيها إله النيل (هابى) ماءه على الدوام. كما يعتقد المصريون أن لدى الإله (موت) كتاب سرّي سطّر فيه أسرار المستقبل، ولكن لا يعلم أحد أين أخفى كتابه الهام والخطير ذاك».

هنا توقّف صاحب المركب عن الحديث، لتختفي أسنانه المنخورة خلف شفتيه الغليظتين ثم قال بعد برهة : «أعتقد أني قلت الكثير عن آلهتنا ودينا بحيث لم تعد تفرّق بينها، أليس كذلك؟ وعلي الآن مساعدة ولدي

وعبدكم (موروك) في التجديف لأن تياراً قوياً من ماء النيل يعاكسنا في هذه المنطقة».

في الحقيقة اختلط عليّ الحابل بالنابل في هذا العرض السريع المقتضب لمعتقدات المصريين، وهذا الزعم بوجود كتاب أسرار المستقبل الذي سيؤمن بوجوده الناس عبر العصور، حيث الإنسان يحب الأسرار الغامضة، واكتفيت بالسؤال: «ألم تقل بأن كل الآلهة المتأخرة هي تجليات لإله قديم؟» فأجاب: «نعم... نعم... إنها تجليات للإله (بتاع)». فقلت: «وهكذا أتمكن من فهم كل الدين. ولكن ستتابع شرحكم من دون أن يشوّش علينا أحد أفكارنا بعدما تخلّصنا من صديقي ورمينا به من المركب». فضحك الرجل وقال: «بل رجوناه أن ينزل من سفينتنا التي تشرّفَ بركوبها معنا..». وبعد هنيهة قال: «سأسرد لك قصةً عن آلهتنا». فوجدت الرجل أشد احتراماً مما كنت أظن، فربتّ على كتفه وقلت: «المصريون يحترمون زوار بلادهم وهذا فيه نفعٌ كبير لهم ولبلادهم».

في تلك الأثناء أطل (باد) علينا، وقال: «أعتقد أن علينا، أن نتحدث قليلاً، أنت وأنا و(هستيا)، فهل تسمحون لي بقليلٍ من وقتكم ياسيدي؟» فأجبت: «وكيف لا؟» ونهضت من مكاني وذهبت معه إلى حيث كانت (هستيا) تجلس لوحدها وقد شمّرت ثوبها عن ساقيها المنغمستين في ماء النهر، وقبل أن تسعى للنهوض قلت لها: «تمتّعي بالماء البارد يا هستيا». فغطت ساقيها العاجيتين وجلسنا بجانبها، كل واحدٍ منا على طرفٍ منها، فقال (باد) بعد برهةٍ من الصمت: «سيدي، أنا مهمتي حماية شخصكم

ولو كلفني ذلك حياتي». فقلت: «أنا واثق من ذلك يا باد». فقال: «تقول هستيا بأن مهمتكم لن تكون سوى في مدينة (طيبة) التي نتجه صوبها كما أفهم، وهي تشعر بخطرٍ يدنو منا كلما اقتربنا منها، وتريد أن تعلم فيما إذا كان بإمكانها مساعدتكم في تحقيق هدفكم من هذا السفر الطويل الأمد».

فنظرت إلى (هستيا) التي ابتسمت ببراءةٍ كعادتها، فسألتها: «صحيح؟ هل أنت مستعدة لمساعدتي؟» فهزّت رأسها وقالت: «أنا أشعر بأني أصبحت ميتانية منذ أن رأيتكما تقاتلان عمالقة كريتا وتضحيان بحياتكما من أجلي، وأنا مستعدة الآن للتضحية بحياتي من أجلكما، وأنا سعيدة بذلك». فقلت: «حتى الآن لم أقل لكما شيئاً عن مهمتي، ولكن يبدو أنني لن أستطيع إخفاءها عنكما بعد الآن». وشرعت في سرد القصة من أولها، فذكرت بأن عليّ القيام بلقاء زوجة الفرعون (أخناتون) في (طيبة) مهما كلّف ذلك من ثمن، لإبلاغها رسالةً سرية من أبيها الملك الميتاني (توشراتا) من دون أن أذكر موضوع البحث عن ولد الملكة الذي أستولت عليه الملكة (نفرتيتي) وزعمت أن (دوتى خيبا) أنجبت مولودة أنثى، ومن ثم علي أخذه طوعاً أو كرهاً إلى جده الملك (توشراتا) في مملكة (ميتان). وقلت في ختام سردي المقتضب للسر الذي أخفيه عن كل الناس: «وسأذكر لكم الفقرة التالية من مهمتي في الوقت المناسب... ولكن، إذا علم المصريون بما أنا عازم القيام به في بلادهم فستكون عقوبتنا نحن الثلاثة موتاً رهيباً بعد تعذيبٍ لا مثيل له». فرفع (باد) رأسه صوب السماء وقال بعد أن نظر إليّ: «في الحقيقة منذ أن كلفني الملك (توشراتا) بحمايتكم علمت بأنه صار لحياتي مغزى أعظم

وأشعر بأني مقدم على مغامرةٍ مثيرة بعد هذا السفر المضني الرتيب. ليكن ما يكون، فإن مهمتي تبقى حماية حياتك حتى ولو قضيت دونها نحبي، وسترى أني صادقٌ فيما أقوله».

في اليوم التالي، كنا نقضي بعض الوقت في استراحةٍ أخرى على ضفاف النيل، لم يكن فيها إلاّ قليلٌ من الضيوف والمسافرين، وكنت مع (باد) و (هستيا) بعيداً عن كل الناس، في حين كان صاحب المركب الرشيق القامة وولده الفتى والعبد (موروك) القوي يصلحون طرفاً من المركب تم اختراقه لدى ارتطامه بجرفٍ صخري كان على طرف الرصيف الصاعد إلى تلك الاستراحة. فقلت للسيدة (هستيا): «أنت أميرة، وأعتقد أن أباكِ أعطاكِ شارةً ما تثبت أنكِ فعلاً أميرة من مدينة (أورا)، أليس كذلك؟» فأجابت وهي تخرج عقداً ثميناً للغاية كان أدناه مخفياً بين نهديها: «بالتأكيد، أنظر». فرأيت أن في نهاية العقد قرص بحجم قطعة نقدية عليها رسم إغريقي على أطرافه كتابة كلماتٍ قليلة، فلم أدرِ تماماً ماذا تعني، فقالت: «مكتوبٌ على هذا القرص الذهبي: هستيا ابنة ملك أورا، والرسم للإلهة الإغريقية (هستيا) التي أعطاني أبي اسمها. وعندي في صرتي سفري الصغيرة تاجٌ مرصّع، فهل هذا كافٍ؟» فقلت فرحاً: «أنتِ ستذهبين لزيارة الملكة (دوتى خيبا) وستقدمين لها هديتنا المتواضعة التي أحملها معي: الدمية الخيزرانية التي صنعها لها أبوها (توشراتا)، وبالتأكيد ستكون بالنسبة لها أعظم هدية». فسألتني بلهفة: «دمية خيزرانية؟ أين هي؟» فأخرجت الدمية من داخل سترتي وأزلت الغطاء الحريري عنها وإذا بالأميرة (هستيا) تمّد يديها

بسرعة لتأخذها من يدي، فقلت: «إحذري أيتها الأميرة، لقد وضعت حياتي وحياة حبيبكِ في خطرٍ عظيم لإيصال هذه الدمية للملكة (دوتى خيبا)... سأعطيكِ إياها قبيل دخولك قصرها». فسألت (هستيا): «وما سبب زيارتي للملكة إن سألني القائمون على أمرالدخول إلى القصر؟» ففكرت طويلاً ثم قلت: «تقولين بأنكِ رأيتِ الملكة في حلمها وأنتِ لم تسمعي باسمها من قبل في مدينة (أورا) في بلاد آرزاوا. والناس تحب معرفة المزيد عن الأحلام والأساطير الغريبة فسيأذنون لك بالدخول عليها لأنكِ غريبة والغريب محبوب لايصل إلى مستواه ابن البلد الذي خدم طوال عمره في الأرض ودافع عنها، وطبعاً بعد التأكّد من أنكِ لاتحملين سلاحاً أو سماً من السموم... على كل حال سنجد سبباً فلا تخافي». وعلى أثر ذلك قررت أن نتوقف عن الحديث حول مهمتي، وربت (باد) على ظهر زوجته برفق وقال: «أنتِ هبة السماء لنا في هذه البلاد».

قبل أن نصل إلى (طيبة) بيومٍ واحد، كانت قد وصلتنا من الموانىء التي نزلنا بها ونمنا فيها ومن المراكب التي مررنا بجانبها معلوماتٌ هامة عن الفرعون (أخناتون)، ومنها أنه بدأ يتنقّل من مدينةٍ صغيرةٍ إلى أخرى وينشر فيها دينه الجديد ويصب جان غضبه على الكنهة الذين يحاربون أفكاره ويحاولون بشتى الوسائل الاحتفاظ بإلههم (آمون) الذي يستولون باسمه على مقدرات البلاد ويجعلون العائلة الفرعونية في ظله أداةً مطيعةً لهم، رغم أنهم يجعلون الفرعون نقطة المركز في خطابهم الديني عن الحياة الدنيوية وحياة العالم السفلي ويزعمون أن الفرعون سيقود شعبهم ضد آلهة الظلام

وضد (آبو فيس) الثعبان في عالم الأموات أيضاً، وهم في الحقيقة يكذبون ويخفون ما يجب قوله بصدقٍ عن الشعب. وقمت من مكاني لأنادي صاحب المركب وأقول له: «كنتَ تريد سرد قصةٍ لي». فقال: «صحيح... صحيح». وجاء صوبنا، فجلست ثانيةً لأستمع إلى ما يقصه عليّ المصري بحضور (باد) و(هستيا). وجلس المصري إلينا ثم شرع في سرد قصته، فقال: «قبل أن تكون هناك هذه العوالم وهذه البشر، فإن الإله (رع) حسبما سمعه المصريون من أجدادهم قد فقد ابنه (شو)، إله الريح ومبدأ الحياة، وابنته (تيف نوت) إلهة الخصوبة، فأرسل إحدى عينيه للبحث عنهما في صحراء (نون)، ولما طال أمد بحث عينه عنهما في البلادالواسعة القاحلة، وضع الإله (رع) عيناً أخرى له، ولكن على جبينه، وهي العين الساطعة التي تشرف من جبهته العالية على العالم كله، ولهذه العين علاقة متينة مع الإلهة (بوتو) التي تشبه أفعى الكوبرا وتقوم بصون المملكة برمتها، ويعتقد المصريون بأن هذه العين ستحرس الكون إلى الأزل، ومن دموع الفرح التي ذرفها (رع) لدى عودة ولديه إليه سالمين ولد البشر وتكاثروا. أما إله الريح (شو) الذي سميت مركبي هذا به، و(تيف نوت) فقد أنجبا من زواجهما التوأم (جب) و (نوت)، حيث صارت (نوت) إلهة السماء التي تطل على الأرض في شكل بقرة، أو تظهر كامرأةٍ تحنو على الأرض (جب)، ومن ظهر إله الأرض (جب) نما عالم النباتات التي يمدّها (حابى) إله (النيل) بالحياة ويعبر الصحراء كلها إلى مقّره ومرقده في العالم السفلي... هذا ما أعرفه من أسطورة العين التي تراقب العالم من أعلى الهرم الديني المصري».

تنهدت (هستيا) لسماع هذه القصة، وقالت: «كنت في صغري أعتقد أن كل البشر يعبدون ذات الآلهة التي نعبدها في (أورا) الإغريقية، وفي البلدان التي مررنا بها رأيت لكل قوم ديناً وآلهة ومعابد غير التي لدى القوم الآخر، وأتساءل لماذا لا يعبد البشر كلهم ذات الآلهة..». فقلت: «أو إلهاً واحداً... قصة مثيرة حقاً ما سمعناه منك عن (رع) وولديه... ولكن كما فهمت من شروحك هذه ومن زياراتنا لمعابد (مين نف) أن المصريين يقدسون الطيور والسباع والحيوانات والنباتات والمياه التي حولهم، وتعاشرهم، حتى الخنفساء والضفدع والأفعى والثعلب، بمعنى أن دينكم دين مصري خالص... ولذا أشكرك ياصاحبي وتستحق على هذه القصة طعاماً جيداً في أرقى مطاعم (طيبة)». فضحك صاحب المركب وقال: «سأتذكّر المزيد من أساطيرنا وآلهتنا طالما هناك طعامٌ شهي في طيبة».

- 16 -

«ها هي ذي طيبة، عاصمة الدنيا ذات الروعة والضياء، مدينة الحياة والثراء والجبروت على الطرف الشرقي من النيل العظيم الذي يربط مصر السفلى بمصر العليا، ومملكة الموت على الطرف الغربي منه، نعم، ها هي (طيبة) التي سمعت عنها الكثير من الأساطير في البلدان التي زرتها وعشت فيها، بتماثيلها العملاقة وأعمدة معابدها الكبيرة، بجنانها وحدائقها المنظّمة الواسعة التي تعبق فيها مختلف الزهور والورود بالروائح التي تنعش حتى قلوب الأموات..».

هذا ماكنت أحدّث به نفسي ونحن نقترب من جرفٍ غير عالٍ على الطرف الشرقي للنيل تطلّ من فوقه قصور وأسوار ، وأدناه ميناء صغير فيه عدة قوارب ومراكب عليها مقصورات باهظة الثمن ورائعة الصنع، يفكّر المرء لأوّل وهلةٍ لدى رؤيتها بأنها لأفراد العائلة الفرعونية بالتأكيد. وفجأة سمعت صاحبي الذي كان يشق مركبه (شو) الماء في هدوء: «ذلك القصر الكبير الذي تبدو أبراجه العالية من بعيد للملكة الكبرى نفرتيتي، وهذا القصر الصغير المطّل على ذاك الجرف للملكة (دوتى خيبا)، وأعتقد أن لها مركباً جميلاً خاصاً بها بين هذه المراكب، فهل ترى ذلك الباب المغلق

في ادنى الجرف؟» فلم أعد أستطيع الكلام لأن الخبر وقع علي كصاعقة أذهلتني وجعلت فؤادي يضطرب كالبحر الذي هبت عليه ريح عاتية، فشعرت بأن الدم قد صعد كنافورةٍ إلى رأسي ووجهي ولم تبق منه قطرة في أوصالي التي وهنت وخارت بذلك قواي، فاكتفيت بأن أومأت بحركةٍ من رأسي بالإيجاب، فقال: «أعلم أنها تنزل من قصرها كل أسبوع مرة واحدة أو مرتين حينما لا يكون ثمة فيضان للنهر وتركب مركبتها برفقة خادمةٍ لها وعبدٍ يسوق المركب لها وتسير مسافةً في نهر النيل بحراسةٍ خاصة ثم تعود إلى هذا الميناء الصغير لتختفي كشبحٍ من الاشباح خلف ذلك الباب الذي يوصد وراءها بإحكام».

في تلك اللحظة التي عصفت فيها الأفكار برأسي، لم أشأ السؤال كثيراً عن (دوتى خيبا) ولا عن القصر والمركب، واكتفيت بتحويل الحديث إلى مزاح جاهلين، وأردت في الحقيقة معرفة ردّ فعل صاحب المركب على ما أقول، فسألته مازحاً: «ألن تستقبلنا الملكة (دوتى خيبا) إن ذهبنا إلى باب قصرها؟» فضحك ضحكةً قوية أحنى معها جسده فوق الماء وكأنه سيغمس رأسه فيها ولابد أن أسماك النهرقد جفلت لدوي ضحكته، وقال:«أنت وأنا؟ هل هذا معقول في مصر؟ أنتم جاهلون حقاً بما نحن عليه من تخلّف اجتماعي في هذه البلاد التي تبدو للزائر عظيمة العمران وتعتبر مركز العالم ... إن الملوك والمليكات لا يستقبلون أحداً إلاّ برفقة أمراء أو ملوك، وهذه أوامر صريحة من الفرعون (أخناتون) الذي يفرض على (دوتى خيبا) شروطاً قاسية إرضاء للملكة الكبرى (نفرتيتي) التي

تسيطر عليه بسحرها وجمالها وذكائها الحاد». فسألت: «وكيف يعلم صاحب مركبٍ صغير مثلك أسرار القصورالفرعونية؟» فضحك ثانيةً وقال: «حتى أسماك النيل تعرف أسرار القصور، إذ ليس من شيءٍ أهم في الحياة المصرية من تتبّع أسرار القصور، فالفرعون هو النقطة التي تلتقي فيها كل شؤون حياة هذه الناس، والكلمة التي تخرج من قصرٍ ما تسمع صداها في اليوم ذاته في مصر العليا والسفلى وتصبح قصصاً وأساطير، والفراعنة يحبّون اهتمام شعبهم بدقائق حياتهم التي تعلو كل شيءٍ آخر في الدنيا، وهكذا تتعاظم كرة الخيط من الأساطير والأسرار والأكاذيب التي تخفي حقيقة ملوكنا وكنه أسرارهم وتلقي عليهم هالةً عظيمة رغم أنهم... ». فسألت: «رغم أنهم؟» فقال بصوتٍ خافت: «بشرٌ مثلنا».

سألت: «لقد ذكرتَ بأنها لاتستقبل أحداً إلا برفقة أمراء أو ملوك». فأجاب: «نعم. ولكن من أين تجد أميراً أو ملكاً يرضى بأن تكون له تابعاً في زيارته للقصر؟» فقلت في نفسي: «إن أميرةً جميلة إسمها (هستيا) على مركبه البسيط وقد لا يدري بذلك». ثم قلت له: «أنا أحلم برؤية قصرٍ فرعوني من الداخل لأحدّث قومي بما رأيته فيه عندما أعود إلى وطني». فقال: «ربما ستدخل قصراً فرعونياً إذا ما عدت إلى مصر مرةً أخرى بعد عدة آلافٍ من الأعوام، حيث ستكون الرمال قد غطت جوانب منها وتعشعش الطيور في أعلى أعمدتها ولا ترى سوى القبورالتي فيها مومياء هذا الفرعون أو أحد أفراد عائلته وتمتلىء بصغار الخنفساء لتلقي في فؤادك الرعب من منظرهم ... ولربما بعدما تظهر مملكة أقوى من مملكة الفرعون

فيحتل مصر ويدخل قواد جيشها قصور ملوكنا عنوةً... سيدي أنت حتى الآن لم تقل لي شيئاً عن بلادك وفراعنتها، أم أنكم قومٌ من الأسياد الذي يعتبرون ملوكهم بشراً؟».

فقلت: «أنا طبيب من مملكة ميتان التي تجاور بلاد سوريانا من الشمال، وجئت إلى بلاد كيميت لأتعلّم المزيد من مهنة الطب المتقدّم لدى المصريين، ولا أهتم بالدين إلاّ قليلاً، ولكن أعلم أن لدينا أيضاً آلهة يعبدها الناس، إلا أن الميتانيين لايرفعون ملوكهم إلى مستوى الآلهة، رغم أنهم يتمتّعون بمنزلةٍ رفيعة في عقائدهم ونظام حكمهم». فسأل: «هل صحيح أن سفينة نوحٍ بعد حدوث الطوفان الكبيرقد حطّت على جبلٍ من جبالكم، وأسس نوحٌ فيها ديانةً ترفض الأصنام والآلهة جميعاً وتدعو لعبادة إلهٍ واحد للكون؟» فقلت: «سمعت بذلك مراراً، وهناك قرية تسمى (هَشتيان) أي قرية (الثمانين) بالقرب من جبل غوديئين (جودي) يعتقد الميتانيون والكاردوخ والهوريون أنها أوّل قرية عمّرها نوح وأصحابه في تلك الأنحاء، وانتشرت من هناك ديانة التوحيد، بحيث بات صعباً على الملوك أن يقولوا مثل فراعنتكم: أنا ربكم الأعلى». فهزّ الرجل رأسه مبتسماً وقال: «أنا سعيد بسماع هذا منكم يا سيدي. أنا سعيد... أتعلم لماذا أعمل على هذا المركب؟» فقلت: «لا... لا أدري». فتابع كلامه: «لأني لا أريد لولدي دخول المعابد والسجود للفراعنة مثل أبي أو جدي. ولذا أرى أن ما يدعو إليه الفرعون (أخناتون) خطوةٌ في الاتجاه الصحيح إلاّ أنها ناقصة، وآمل أن يتخلّى عن فكرة أن الفرعون إله أو نائبه في الأرض أو ابن له، عندها ستتبعه

شعوب الأرض وسيطول عهد حكم عائلته قروناً عديدة من الزمن».

لقد وجدت صاحب المركب من خلال تصنتي لسرده عن الدين قريباً مني بفكره وإيمانه وقلت لنفسي: «مثل هذا الإنسان لايمكن أن يكون جاسوساً لأحد، أو يقبل بالخنوع لأحد، إنه كالطائر الحر ذي العينين الثاقبتين اللتين ينظر بهما إلى العالم دونه من علٍ». وازداد الرجل احتراماً في فؤادي وارتفع مكانةً بما سمعته منه بتصرفه الخلقي الجميل معنا. وكان أملي من قولي عن بلادي أن ينقل صاحب المركب اسم (ميتان) إلى أصحابه وزملائه عندما نصل إلى ميناء (طيبة) وعسى أن يصل الخبر إلى قصر (دوتى خيبا)، فتعلم الملكة أنّ طبيباً من وطنها موجود في المدينة.ولما شعرت بأن بيننا رباطاً روحياً وثيقاً من خلال افصاحه لي عما يكنه في صدره من إيمان، تجرّأت على القول له: «سأكون سعيداً لو نشرت بين زملائك ومعارفك خبراً بوجود طبيبٍ ميتاني في المدينة». فابتسم وقال: «آمل أن تعالج الأسياد بأثمن الأسعار والفقراء بدون أن تأخذ منهم شيئاً». فقلت: «وهكذا سيكون...هكذا سيكون».

- 17 -

في تجوالنا عبر القصور وفي الشوارع الجميلة التي تزيّن أطرافها التماثيل العملاقة ونوافير الماء وأشجار النخيل المرتفعة في السماء، لاحظت أن المدينة نظيفة ومبنية بشكلٍ منتظم على الرغم من عراقة بعض أنحائها، وشعرت بأن (طيبة) مركز العالم حقاً، ففيها ما تشتهي الأنفس وهي عظيمة في عمرانها وألوان مساكنها واختلاف مواطنيها الذين يبدون وكأنهم يمثلون سائر شعوب الأرض بسيماهم وأزيائهم وألوانهم ولغاتهم. وكان علينا توديع صاحب المركب الذي تحوّل خلال سفرنا من (ممفيس) إلى صديق، فدخلنا إلى مطعمٍ كبير وجميل ذكّرني بما كنت أتردد عليه من مطعم في مدينتي (واشوكاني) من حيثُ النظافة والترتيب وروعة الرسوم والألوان التي على جدرانها الداخلية، فاستقبلنا بحفاوةٍ مهذّبة صاحب المطعم الذي كان يرتدي زياً مختلفاً عن القفطان الرقيق الطويل للمصريين، إذ كان يبدو كأميرٍ بابلي أوميتاني، وكانت سيماه لا تختلف عن أهل مدينتي، وقال بلطف: «لا تؤاخذوني! على عبدكم هذا الدخول من بابٍ آخرإلى حيث غرفة خاصة بالعبيد». فقلت بلهجةٍ حادة: «ومن قال لكم بأنه عبد لنا؟ إنه إنسانٌ حرّ مثلي ومثلك». فاعتذروهو مرتبك وسأل بلطف: «أراكم قادمين من الشمال.

وهذا الحرّ يبدو من بلاد (تارتي) و(ترشيش) في الغرب، أليس كذلك؟».

وبعد أن قدّم لنا الخدم طعاماً شهياً تكرر أثناءه قدوم صاحب المطعم الضخم الجسم وذي العينين الزرقاءتين إلينا وسؤاله عما إذا كانت لنا طلبات أخرى، ثم بعد أن امتلأت الطاولة بمختلف أنواع المأكولات والمشروبات، سأل بلطف عما إذا كان مسموحاً له التوجه إلينا بسؤالٍ لاعلاقة له بالطعام والشراب، فقلت له: «تفضّل». فسأل: «أظن أنك وهذا المحارب من بلاد (ميتان)؟ فهل هذا صحيح؟» فأجبته: «نعم، هذا صحيح». وعلمت أنه لاحظ اختلاف ثيابنا وصورنا عن أهل (طيبة)، فسألته: «وأنتم؟» فقال: «أنا أدعى (هايك) ومن بلاد الشيث الواقعة ما وراء بلادكم». فتوقفنا أنا و(باد) عن تناول طعامنا، ولم أدرِ ماذا أقول. جارٌ من جيران بلادنا في وسط مدينة (طيبة)؟ ويالها من مصادفةٍ عظيمة بعد افتراقي عن أقرب صديقٍ لي في ميناء (خمون) ألتقي برجلٍ من مملكةٍ قريبة من موطني، هذا ما أحتاج إليه فعلاً...

وفي كل الأيام التي قضيناها في مدينة (طيبة) كنا نتردد على مطعم (هايك)، الذي علمت منه بأنه كان خادماً خاصاً للأميرة (كيلو خيبا) عمة (دوتى خيبا)، جاء معها إلى (طيبة) قبل زمنٍ طويل، وفي حين امتزج معظم خدام سيدته ووصيفاتها بالمصريين، ومنهم من قضى نحبه، كما منهم من لايزال يخدم في القصور الفرعونية، فإن (كيلو خيبا) قد حررته من الخدمة وأعطته بعض المال ليبدأ به حياةً جديدة، وكان شهيراً بإعداد الأطعمة، فأقام سرادقاً صغيراً على شاطئ النيل، باع فيه السمك المشوي في وضعٍ بسيط ومتواضع للناس، ومن ثمّ تطورت الحال به فأصبح صاحب أحد أشهر المطاعم في مدينة

(طيبة)، ولم ينقطع عن زيارة سيدته (كيلو خيبا) التي صارت امرأةً طاعنة في السن، وهويصنع ما تشتهيه الملكة (دوتى خيبا) أحياناً من المأكولات الميتانية ويأخذها لها. فسألته بلهفة: «وهل تستطيع الوصول إلى الملكة (دوتى خيبا) أيضاً؟» فأجاب: «فقط عندما يُطلب لها طعامٌ ما، وهذا مسموحٌ لي به من الملكة الكبرى (نفرتيتي) لطوال عهدها بما يشتهر به مطعمي في (طيبة)». فقلت: «كنت أعلم أن في هذه القصور العظيمة من يقدّم أشهى المأكولات للعائلة الفرعونية». فقال فخوراً بنفسه: «الملوك أيضاً لهم بطون تحبّ الطعام الشهي، وما أقدمه لهم هو بالتأكيد أشهى ما تصنعه أيادي الطباخين، ثم إنها الثقة ياسيدي». واقترب مني جداً حتى سمعت خريراً في أمعائه، ثم قال همساً : «لم يعد أحدٌ يثق بأحدٍ في هذه القصور، منذ أن ظهر (أخناتون) هذا. ولكنهم جميعاً يثقون بطعامي». فكدت أصيح من فرط فرحي لسماعي كلامه، فمد يده إلى صدري ورتّب بأنامله أطراف فتحةٍ في إزاري، تماماً مثلما فعل ملك (ميتان) لدى تكليفي بمهمتي، فنظرت في عيني صاحب المطعم، وكدت أسأله عما إذا كان مده يده إلى صدري «كلمة سر» بينه وبين الملك (توشراتا)، إلاّ أنني تركت ذلك لما بعد اللقاء ب(دوتى خيبا). وتعمّقت العلاقة بيننا وازدادت ثقتي به، مع حذرٍ لابّد منه لأن حياتي وحياة من معي مرهون بعدم كشف سر مجيئي إلى بلاد (كيميت).

سألت صاحب المطعم (هايك) مرّة: «هل ستعلمني بزيارتك القادمة للملكة (دوتى خيبا)، فالأميرة (هستيا) تودّ تقديم هديةٍ لها إن تمكّنت من الدخول عليها». فابتسم وقال: «تقول أميرة؟ هذا ما يجب أن تشرحه لي

مستقبلاً...طبعاً إذا ما طلبت الملكة أكلةً ميتانيةً سأخبرك بذلك وستذهب الأميرة معي لتقديم هديتها. وفي الحقيقة هذا جيد لأن الملكة ستتفاجأ بدخول أميرة من (ميتان) عليها، وهي حزينة أغلب الأوقات، وتفرح قليلاً عندما أقدّم مايذكّرها ب(ميتان)». فقلت: «الأميرة (هستيا) من بلاد آرزاوا وليس من ميتان، ولكن هذا يبقى بيننا سراً الآن». ففغرالرجل فمه ولم يعد يتكلّم شيئاً.

مرّت أيامٌ عديدة ونحن في انتظار أن تطلب الملكة (دوتى خيبا) طعاماً ميتانياً، وفي تلك الفترة زرنا أنحاء مدينة (طيبة) المختلفة ولم يبق أمامنا سوى الذهاب إلى الطرف الغربي من النهر لنرى مملكة العالم السفلي حيث المدافن العظيمة لفراعنة وادي النيل، تلك التي تثير الرهبة في نفوس الأحياء، كما عرضت في تلك الفترة نفسي على ثلاثة أطباءٍ مصريين مشهورين بعد أن قدمت لهم صرةً من الذهب الذي أخرجته من السترتين اللتين أهدانا إياها والد الأميرة (هستيا) بعد فوزنا في المبارزة على عمالقة جزيرة (كريتا)، إذ لم يكن أحدهم مستعداً لامتحاني من دون أن يقبض سلفاً، وتم العرض الطبي شفهياً وعملياً في قاعةٍ كبيرة أمام حشدٍ من طلاب الطب، كان العرض، حيث كانت أمامي جماعةٌ من المرضى بأمراضٍ مختلفة وجرحى وكان علي تشخيص أمراضهم ووصف جراحهم ومن ثم الحديث عن الأدوية اللازمة لهؤلاء، أسئلة عديدة كانت تطرح عليّ من قبل الأطباء حول تحضير العقاقير وحفظها واستخدامها ومعالجة الأمراض المختلفة والجروح بدرجاتها وكيفية إجراء الجراحة وتجبير الكسور وكل ما له علاقة بإعادة الصحة

والعافية للإنسان، وكنت أجد صعوبة في الإجابة عنها بسبب ضعفي في اللغة الهيروغليفية، التي كنت قبل ذلك أجدني متمكناً منها، فظهر أني ضعيف فيها بين أهل المهنة، وهذا ما شعر به الأطباء أيضاً وأثار ضحك الطلاب الجالسين لمتابعة امتحاني أحياناً... وفي النهاية قدّم لي كبير الأطباء صليباً شبيهاً ب«صليب الحياة»الذي في أيادي الآلهة والفراعنة، حيث كان طرفه الأعلى على شكل قوسٍ وكان برباط من الكتّان تم صبغه بلون أزرق، وقال وهو يعلّق رباط الصليب بعنقي: «أنت منذ الآن أحد أطبائنا، فلا تنسَ أن تكرار الأخطاء سيدفعنا لانتزاع هذه الشارة الخاصة منك». وعاد إلى مكانه من دون أن يجلس بين زميليه، ثم نهض زميلاه الآخران وخاطبني أحدهما قائلاً: «من الأفضل لك أن تعمل ثلاثة أسابيع على الأقل في مركزٍ لتحنيط الموتى لتتعلّم المزيد عن أحشاء الإنسان، وأن تتحدث إلى الناس طويلاً لتتحسّن لغتك قبل أن تمارس مهنتك في بلادنا».

بعد أن ذهب الأطباء والمرضى والجرحى، هجم عليّ الطلاب من حولي مهنئين بحرارة وآملين أن يجتازوا هذا الامتحان كما اجتزته بنجاح، وأصرّوا على أن يقدّموا لي وجبة طعامٍ متواضعة، فلم أتمكّن من رفض طلبهم وذهبنا جميعاً إلى المطعم الشيثي، حيث فرح صاحبه (هايك) بهذا العدد الكبير من الشباب الذين سيصبحون في المستقبل القريب أطباء وسيترددون على مطعمه بالتأكيد لأنه واثق من طعامه الشهي والنظيف ومن خدمة عماله للزبائن بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب.ورجوته أن لايأخذ شيئاً من الطلاب الذين تجاوز عددهم العشرين لأني سأدفع عنهم مايستحقه الطعام، فأنا الآن معلم

وهم لايزالون طلاباً.

بعد مضي عدة أسابيع، تعرّفنا في (طيبة) على المعابد الضخمة والشوارع المزدانة أطرافها بأشجار النخيل والأصنام العديدة، على مركزٍ لتحضير أجساد الموتى للعالم السفلي، كان يقع على الشاطئ الغربي لنهر النيل، وسمعت فيه أساطير مصرية عديدة عن التراتب الاجتماعي فيما بعد الموت، وشاركت عمال المركز في كل أعمالهم الشاقة في جوٍ مقرف وفي صالاتٍ ضيّقة أشبه بالكهوف التي تفوح منها روائح الأمعاء والجلود، حيث كان يتّم شق بطون الأجساد وتنظيفها من كل مافيها ومن ثم يتّم رميها في أحواض الدباغة ومن ثم يتم دهنها بالزيوت والمواد اللازمة لتحنيطها ولفها بقماطٍ قماشي مراتٍ ومرات، وبقدر ما يقدّم أهل الميت المال فإن الاعتناء بجسد ميتهم يزداد أو يقل، ولذا فإن أحد العمال الذين لايسترون سوى عوراتهم طوال الوقت، كان يقول أحياناً في سخرية: «حتى بعد الموت يعاني الفقراء من فقدان العدالة».، وكان زميلٌ له يعلّق على كلامه كل مرّة بذات العبارة: «البحث عن العدالة أصعب من انتزاع أحشاء الموتى يا صاحبي». وحقيقةً كنت أستغرب لقدرة هؤلاء العاملين في المركز على تحمّل رؤية كل تلك الجثامين وانتزاع أحشائها وشم الروائح الكريهة معظم أوقاتهم، حيث منهم من كان ينام في المركز ليلاً لأسبابٍ عديدة، منها أنه لم تكن في (طيبة) كلها امرأة واحدة ترضى بالعيش مع رجالٍ يعلمون من الفجر حتى الغروب في مركزٍ لتحضير الأموات للرحيل إلى العالم السفلي.

- 18 -

كنت مستلقياً على سريري في غرفةٍ مطّلة على نهر النيل من الخان الذي نقيم فيه، وأنا استمتع بسماع زقزقة عصفورين كانا يطيران بين أشجار حديقةٍ بجوار الخان، وإذا بطرقات خفيفة على باب الغرفة وصوت (هستيا) تناديني: «لاوي هوري... لاوي هوري..».، فذهبت إلى الباب مسرعاً وفتحته، فإذا بالأميرة في أجمل زينتها ورائحة العطور تفوح من ثيابها الفاخرة، وقدغيّرت من تسريحة شعرها لتبدو كتمثالٍ إغريقي لإلهةٍ أسطورية ووضعت تاجاً ذهبياً مرصّعاً بجواهر على رأسها، فلم أدرِبأي جملةٍ من الجمل أمدح طلعتها البهية وروعة زينتها وشعرت هي أيضاً بأني صعقت لمرآها في تلك الحال، في حين كانت على الدوام أشبه بشابٍ بحّارٍ أو محارب وليس كامرأة، فقالت: «هل ترافق أميرة مدينة (أورا) إلى بوابة قصر الملكة (دوتى خيبا)؟ فارتبكت حقاً ولم أعد أعلم كيف أتصرّف وبماذا أجيب. ثم قالت وهي تغادر المكان في حركةٍ مسرحية: «لا تتأخروا يا سيدي، فأميرة (أورا) ليس لها وقت للانتظار».

بعد فترةٍ وجيزة، كنا أنا و(باد) نمشي في يومٍ لطيف الجو خلف الأميرة (هستيا) ونحن نرتدي السترتين اللتين أهداهما لنا والدها في (أورا) فوق

بناطيلنا الميتانية الفضفاضة، وخلفنا صاحب المطعم الشيثي (هايك) وخادمان له كانا يحملان في صوانٍ فضية كبيرة طعاماً ميتانياً تم تغطيته بغطاءٍ حريري بشكلٍ لايسمح لذرةٍ من الرمل أن تسقط فيه، وكانت نبضات فؤادي سريعة والعالم من حولي مختفٍ تماماً، إلا الدرجات الكثيرة التي أمامنا صوب البوابة الرئيسة لقصر الملكة (دوتى خيبا) فإنها في نظري كانت تتحرّك يمنة ويسرة تحت قدمي، وبقدر ما كنا نقترب من البوابة التي يقف على كل طرفٍ منها حارس مدجج بالسلاح ذكرني مرآهم بعمالقة جزيرة (كريتا) الذين كان علينا القضاء عليهم.

كنت أعلم أن الحراس لن يسمحوا لي وللفارس (باد) بدخول القصر، إلاّ أن مرافقتنا للأميرة (هستيا) حتى بوابة القصر يدعم فكرة قدوم أميرة إغريقية إلى القصر وهي تحمل هديةً لزوجة الفرعون الثانية، ولن يضرنا إذا ما بقينا في مكانٍ ما خارج القصر في انتظار خروجها.

وعلى أعلى الدرجات، لاحظت بأن وصيفةً فائقة الجمال وترتدي ثوباً حريرياً أبيض ذي تطريزاتٍ مصرية عريقة تنتظر قدوم الطعام المطلوب، وعندما اقتربنا منها أشارت علينا بالوقوف، فألقينا عليها التحية بانحناءةٍ مؤدّبة، ثم سألت الوصيفة الطويلة البدن صاحب المطعم الشيثي الذي تقدّم للوقوف بجانبي: «أراك قد أتيتنا بجمعٍ من الناس، فماذا دهاك؟» فأجاب (هايك) وهو يبتسم لها: «هذان الرجلان مرافقان لهذه الأميرة الإغريقية النجيبة التي تريد تقديم هديةٍ للملكة (دوتى خيبا)». فنظرت إلينا الوصيفة بإمعان، وحدّقت في تاج الأميرة (هستيا) والعقد الثمين

الذي على صدرها العاري، ثم نظرت إلى الصليب الخاص بالأطباء على صدري وقالت لي: «يبدو أنك طبيب، فانتظر هناك بالقرب من نافورة الماء تلك، فلربما تسمح لك سيدتي بالدخول عليها في حال حاجتها لطبيب، أما هذه الأميرة فبإمكانها الدخول». ثم مدّت يدها ورفعت غطاءً قماشياً أبيض عن الهدية الملفوفة تماماً بالحرير، والتي كانت تحملها الأميرة (هستيا) على طبقٍ مصنوعٍ بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب من خشبٍ قاسٍ، وأشارت على (هايك) بالدخول أيضاً ووراءه الخادمان اللذان يحملان الطعام، في حين ذهبنا أنا و(باد) لننتظر السماح لنا أيضاً أو حتى تخرج (هستيا) من القصر، وطال انتظارنا كما بدا لي وعيناي لاتفارقان بوابة القصر المغلقة، في حين أن (باد) كان ينظر إلى سربٍ من الحمام قد حط على أطراف نافورة الماء وجدوال تسيل من حولها، ولم نكن نسمع سوى أصوات الحمام تمتزج بخرير الماء... فياله من عالمٍ ساكتٍ وهادىء بالقرب من القصور الفرعونية.

إنفتحت بوابة القصر وخرج (هايك) وخلفه الخادمان ونزلوا الدرجات بخطىً حثيثة، فاقتربنا نحن أيضاً منهم، فرفع (هايك) يديه صوب الأعلى شاكراً ربّه على خروجه هذه المرّة أيضاً سالماً، فلم يتلّق إهانةً من وصيفة أو تهديداً من خادمة، وسألني، ونحن ننزل الدرجات بخطى متأنية: «من هذه الأميرة التي أرسلتها معي؟ لقد تصرّفت في القصر مع الوصيفات والخدم وكأنها هي ملكتنا». فسألته بلهفة: «وهل دخلت (هستيا) على الملكة؟» فأجاب: «نعم... نعم... وهذا بفضل

طعامي وعلاقاتي». فسألت: » وأنت؟» فأجاب كمن فشل في تحقيق أمنيةٍ عظيمة: «لقد كان عليّ عرض الطعام الذي أحضرته على رئيس الطباخين في القصر، وبالطبع كان عليّ تذوّق الطعام بنفسي، قبل أن تتذوّقه الخادمة المكلّفة بذلك، ومن ثم يتذوقه رئيس الطباخين، وبعدها يُسمَح بنقله إلى حيث الملكة». فقلت: «لهم الحق في ذلك فلربما تدس للملكة السم». فنظر إليّ نظرة فاحصة وقال: «إن مجيئك مع هذا المحارب معنا إلى بوابة القصر كان السبب في منعي عن الدخول على الملكة، وأنا أحد الموثوقين لديها». وبدأ يسرع الخطا في أدنى الدرجات وهو يقول: » لاتؤاخذني، عليّ العودة إلى مطعمي، فقد يكون هناك أمراء وضباط مشهورون ينتظرون عودتي لأقدّم لهم الطعام بنفسي». فسألته: «أنت لم تقل لي شيئاً عما حملته من طعام لقصر الملكة،» فقال: «إنه (التشيك) الذي يحب تناوله الميتانيون إلى جانب اللحم المشوي (برياني). أتعرف ما التشيك؟» فقلت: «نعم أعرفه... إنه القمح المجروش المغلي الذي يعجن طويلاً مع اللحم من دو ن دهن، ومع البصل والفلفل الأحمر ونباتات زكية الرائحة، أليس كذلك». فقال وهو يرفع رأسه عالياً بشكلٍ مائل كما يفعل الفخور الواثق بنفسه وبنسبه وأصله: «الملكة دوتى خيبا تتناول (التشيك) الذي تعده لها هاتان اليدان وليس غيرهما». فقلت: «ونحن أيضاً سنأكل اليوم مساءً... فلا تنسى تحضيره لنا». وبعد أن لوّح بإحدى يديه عالياً كمنتصرٍ في مبارزةً حامية الوطيس سار في طريقه، فناديته: «ومتى ستخرج الأميرة (هستيا) من القصر؟»

فأجاب من دون أن ينظر إلى الخلف: «أنت تعلم كم تحب النساء الكلام، فانتظر يا صديقي».

قلت للفارس (باد): «والآن؟» فأجاب بعد برهة من التحديق في بوابة القصر: «لم يعد مهماً لي كم من الوقت سننتظر هنا، طالما مساءً سنتناول البرياني مع التشيك، كما في مدينة (واشوكاني)... سيّدي، ألم تغامر هذه المغامرة الكبرى من أجل هذا اليوم وما ينجم عنه؟ فما علينا سوى الجلوس هنا حتى تأتي (هستيا)». فانتظرنا جالسين على مصطبةٍ في وسطها تمثالٌ فرعوني لإلهٍ في شكل رجل وبرأس ثعلب، تم تكسير أطرافه وأجزاء من رأسه، يبدو أن أتباع الفرعون (أخناتون) فعلوا ذلك، ومالت الشمس للغروب وتبدّل لون الأفق إلى الأحمر، تتخلله شرائط زرقاء وبنية اللون، وإذا ببوابة القصر تنفتح وتخرج منها (هستيا) كالبدر من بين الجبال، ورفعت يديها وكأن في مركبةٍ ملكية وسط الجماهيرولوّحت لنا، فنهضنا من مكاننا وأسرعنا الخطى صوبها على أمل معرفة كل شيءٍ عن زيارتها للملكة (دوتى خيبا)، فسألتها وأنا قلقٌ مرتبك:«ماذا؟» فقالت بهدوءٍ لم أتوقعه في تلك الحال: «أنا جائعة جداً وأنتم؟»، فسألت ثانيةً: «ماذا حدث يا(هستيا)؟» فأجابت وكأنها راغبةٌ في اللعب بأعصابي المتوترة: «كانت الوصيفة التي استقبلتنا تجيد اللغة الإغريقية تماماً». فلم أتمالك نفسي ووجدتني مرهقاً، فمشيت وجلست على المصطبة من جديد، في حين أن (باد) مد يديه إلى خاصرة (هستيا) وقال لها: «الآن ستسردين لنا قصة هذه الزيارة حرفاً حرفاً،

أليس كذلك؟» ويبدو أن لأصابع (باد) على خصرها ولكلماته في أذنيها وقع كلمة السر السحرية، فقالت: «لدى دخولي القصر الذي لم أرَمثله في أحلامي، ولم أسمع بمثله في كل أساطيرنا الآروازية الكثيرة، وضعت تاجي وعقدي الذي يثبت أني أميرة على الطبق إلى جانب الدمية، فقالت لي الوصيفة الجميلة: (لا تفعلي هذا فالملكة لن تأخذ ما هو عائدٌ لك شخصياً، حتى ولو كان ذهباً ودرراً. المهم أن لاتخطئي في التصرّف، فأنت ستكونين بعد لحظات في حضور ملكة في قصرها، ولكن قد لاتخرجين من هنا ورأسكِ على عنقكِ إن أخطأتِ في الكلام أو التصرّف، فلا ترفعي رأسكِ للنظر في وجهها إلا إذا طلبت هي ذلك، ولا تطرحي أي سؤالٍ عليها.) كان صدى صوت الوصيفة يُسمَع في الممر بين صفين من العواميد العالية المنقوشة بمختلف الرسوم الملوّنة. وعندما دخلنا القاعة التي كانت الملكة جالسةً فيها لوحدهاتحدّق في نافذةٍ مطلةٍ على نهر النيل، شعرت بضيقٍ شديد لأني لم أدخل على ملكةٍ من قبل. ولكن من اللحظة الأولى لرؤيتها علمت بأن هذه الملكة ليست إلاّ شابة مثلي، ولكنها شاحبة وضعيفة كأي امرأةٍ حزينة ومتألمة. لم تبدو لي كزوجة فرعون مصر، وإنما كصديقةٍ لم ألتقِ بها من زمنٍ بعيد... ماذا؟ ألن نذهب لنأكل؟» فقال لها (باد): «عزيزتي هستيا، أنت تعلمين مدى الصعوبات والمخاطر التي لقيناها للوصول إلى هنا، فلن نغادر هذا المكان حتى تذكري لنا كل ماقالته الملكة لك، والطعام سنتناوله ريثما تنتهي حكاية هذا اليوم».وهنا سألتُ (هستيا): «وماذا عن الدمية؟»

فجلست بجانبي وقالت: «سألتني الملكة أولاً عن سبب وجودي في بلاد كيميت، فذكرت لها ما جرى في مدينة (أورا) عن تلك المبارزة الدموية بينكما وبين العمالقة الكريتيين، وسبب مجيئي معكما، ثم قالت لي الملكة بأنها تعلم عن وجودنا في طيبة، فالأخبار تصل إليها كل حين قبل الخبز الطازج من الفرن، وأنها أصيبت بما يشبه الصدمة، عندما رفعت الغطاء الحريري الذي تم لف الدمية به، فانتزعتها من بين يدي كما يفعل الطفل الذي يرى لعبته المفضلة بين يدي طفل آخر». فقلت لنفسي: «يا إله الأرض والسماء... لقد تعرّفَت الملكة على الدمية، بعد كل الوقت الذي مضى على اغترابها». فسألتُ (هستيا): «بعدها؟» فأجابت: «لقد راحت تقلّب الدمية بين يديها وتضمها إلى صدرها وتشمها وتقبلها، وتناديها مراراً (كه يو... كه يو... كه يو...) وكأنها التقت بصديقةٍ غابت عنها حيناً من الدهر، ثم سألتني كيف وصلت الدمية الخيزرانية إلى يديّ، فذكرت لها أني لا أعرف قصة الدمية جيداً، وقد قمت بإيصالها إليها بالوكالة عن الطبيب الميتاني الذي لم يُسمَح له بدخول القصر. فنهضت الملكة التي لم تكن تختلف عني في الطول والوزن واقتربت مني، وأمرتني بالنظر إلى عيونها عساها تكتشف أثراً للكذب أو الغدر فيهما، ثم طلبت مني اللحاق بها إلى النافذة، في حين وقفت وصيفتها الطويلة القامة خلفنا، وقالت: «أنظري أيتها الفتاة من (أورا)، أسفل هذه النافذة يوجد منفذ يؤدي من القصر إلى النهر، ووصيفتي سترتّب لقاءً بيني وبين الطبيب الميتاني غداً ظهراً على ظهر مركبي النهري الذي

سيرفرف عليه علم أصفر، فإذا ما نطقتِ بكلمةٍ واحدة عن ذلك اللقاء لأناسٍ آخرين فستعلّق أحشاؤكِ فوق شجرةٍ من تلك الأشجار في أدنى القصر، فقلت للملكة بأن الطبيب الميتاني لا يذهب إلى مكان من دون حارسه الذي هو خطيبي.؟»

وفي الطريق إلى المطعم الشيثي قالت (هستيا) من دون أن نطرح عليها سؤالاً: «نعم، بإمكانكما غداً ظهراً الالتقاء بالملكة في مقصورةٍ على أحد مراكبها النهرية، وهو الذي سترفرف عليه رايةٌ صفراء». فتنهدت الصعداء بعد تأكدي من أن (هستيا) تلعب بعواطفي ولن تقول لي كل ما سمعته من الملكة (دوتى خيبا) إلا على مراحل، فقلت لها: «أشكركِ من أعماقي يا أميرة (أورا)، وصدقيني أن هذا الذي تقولينه الآن هو أملٌ كبير أتعلّق به، وأرجوأن أسمع منكِ كل الملحمة قبل أن أسقط مغشياً عليّ من الإرهاق. وبالنسبة إلى مناداة الملكة لدميتها (كه يو... كه يو) فإن هذا اسم في مملكتنا (ميتان) يطلق على الأولاد الذكور وليس على دمية». فابتسمت وشكرت، ثمنكزَت (باد) في كتفه وقالت له: «كما اتفقنا... أليس كذلك؟» فلم أفهم ماذا قصدت بذلك، فهزّ (باد) الذي أعرفه لايحب المزاح أبداً رأسه، وقال لي معتذراً: «إتفقنا أنا و(هستيا) قبل الذهاب إلى القصر أن تثير التساؤلات العديدة لديكم، حتى يبقى للزيارة أثر في نفسكم لايمحوه الزمان، فلا تؤاخذنا رجاءً». وفعلاً في تلك اللحظة وددت ضرب الاثنين معاً، إلاّ أن الخبر الذي أتت به (هستيا) من لدن (دوتى خيبا) كان أجمل ما سمعته في مصر من

فم إنسان، فسكتُ وبدأتُ بتناول طعامي بسرعةٍ لم أعتدها من قبل. وتابعت (هستيا) فذكرت أن الملكة أرادت معرفة كل شيءٍ عن جماعتنا، حتى إسم العبد الذي يخدمنا ومن أي بلادٍ هو. فصحح لها (باد) قائلاً بأن (موروك) لم يعد عبداً وإنما هو إنسانٌ حر، وفي الأيام القليلة القادمة سيتم تدوين ذلك في وثيقةٍ رسمية من دائرة المواطنين الأحرار في (طيبة) يحتفظ بها (موروك) إلى ما يشاء.

- 19 -

كانت خطة الملكة للقائنا ذكية وبسيطة، فالوصيفات الرشيقات سيسقين حراس المنفذ الذي في أسفل الجرف حتى يقعوا سكارى، وفي تلك الأثناء نقترب أنا و(باد) من مدخل السرداب بقاربٍ ننزل منه بسرعة حينما نلاحظ الحراس قد صاروا غير قادرين على منعنا من ركوب المركب، بينما ينطلق العبد (موروك) بقاربنا مبتعداً عن المكان، وينتظرنا على الشاطئ الآخر للنهر، وبينما تستمر خادمةٌ في إلهاء الحراس بسكب الخمر لهم وبلفت أنظارهم بمفاتنها الأنثوية، تنزل الملكة من قصرها وتصعد إلى المركب لتجلس معنا في مقصورتها. وعندما سألتُ (هستيا): «وماذا عن الضابط المسؤول عن حراسة السرداب والجرف؟» فضحكت وقالت: «هذا ستتولى شأنه الوصيفات اللواتي يعرفن كيف يتصرّفن مع الرجال الأغبياء... عفواً... عفواً». فنظر إليّ (باد) ليرى الأثر السلبي على وجهي لما قالته حبيبته ، فلم أحرّك ساكناً وكأني لم أسمع شيئاً مما نطقَت به.

وفعلاً، حسب الخطة وجدنا أنفسنا، أنا و(باد) والأميرة (هستيا) على ظهر المركب الذي يحمل رايةً صفراء من بين العديد من المراكب الأخرى

الجميلة، وانتظرنا في المقصورة التي كانت تشبه مخدعاً ملكياً رائع التجهيز والترتيب والألوان وتنبعث منه رائحة عطرٍ ذكي ينم عن ذوقٍ رفيع للقائمين على أمر المركب الذي كان يتمايل بسبب هبوب ريحٍ خفيفة ظهر ذلك اليوم.

بعد برهةٍ من الوقت، انفتح باب السرداب المؤدي إلى القصر فخرجت الملكة وهي متشحة بنقابٍ أبيض وبإزارٍبلونين أزرق وأسود يغطي جسدها من رأسها إلى قدميها، وخلفها وصيفتها الرشيقة في أجمل أزيائها المزركشة وخادمةٌ صغيرة الحجم وعبدٌ ضخم يحمل سيفاً طويلاً على جانبه، فرفعت الوصيفة يدها باتجاه المراكب الأخرى، فإذا برجلين نحيفين يخرجان من أحد المراكب الراسية ويركضان صوبنا من دون سيوف أو رماحٍ أو خناجر ونحن ننظرإليهما من خلال نافذةٍ صغيرة على شكلٍ كوة، فعلمت أنهما لقيادة المركب. في حين تحرّك من بين المراكب الراسية مركبان عليهما جنود مدججون بالسلاح وبرماحٍ طويلة لمرافقة مركبة الملكة، وصعدت الملكة وتقدمت ومن خلفها الوصيفة والخادمة الصغيرة إلى حيث نحن في المقصورة، في حين بقي العبد الضخم الجسم خارج المقصورة، وكان يعلم أننا ننتظرالملكة، إذ أنه هو الذي فتح باب المقصورة قبل دخول الملكة علينا وحدّق فينا جيداً ثم أغلق الباب بإحكام، فخفت حدة أصوات الحارسين الثملين وهما يترنحان وبينهما خادمةٌ تضحك معهما بصوتٍ عالٍ في زاويةٍ بعيدة عن باب السرداب المؤدي إلى القصر.

كان لقاءً مؤثّراً لا أستطيع وصفه بكلمات، إذ نظرت الملكة إلى وجوهنا برهةً من الزمن ثم رفعت النقاب عن وجهها واتجهت صوب مصطبةٍ عالية مفروشة بأجمل ما في الدنيا من وسائد ملونة ومفروشة بأنعم السرر المحشوة بريش النعام حسب ظني، وجلسَت ثم أشارت علينا بحركةٍ من إحدى يديها بالجلوس في الطرف المقابل، وبعد صمتٍ حسبته دام دهراً رفعت رأسها الذي تتدلى من طرفيه ضفيرتان طويلتان بلون أسود، في حين كان الدمع يتجمّع في عينيها الخضراءتين اللتين تشبهان لوزتين جبليتين يعلوهما حاجبان كقوسين رفيعين، وبدت لي شفتاها الممتلئتان دماً وكأني أنظر إلى وردةٍ من ورود سهولنا الميتانية أمامي، فلون بشرتها المائل إلى البياض ذكّرني بجميلات (واشوكاني)، ولاحظت أنها تعض على شفتها السفلى وكأنها موشكةٌ على البكاء. ثم قالت بلغتنا الميتانية - الهورية بصوتٍ خافت: «سمعت منذ أيام أنكم في (طيبة)، وكما يبدو لي من الشارة التي تحملونها فأنتم الطبيب الميتاني». فأجبتها: «نعم، سيدتي الملكة». وهكذا بدأ الحديث بيننا، فراحت تطرح العديد من الأسئلة عن أبيها وعن مدينة (واشوكاني)، وقالت في ختام كلامها الذي كان مختصراً ودقيق الاختيار في الألفاظ: «أنا أتذكّر (واشوكاني) كل يوم، وأجد قباب بيوتها الطينية بمداخنها الضيقة الصغيرة أجمل من كل هذه القصور العظيمة، وأحزن جداً عندما أتذكّر رائحة التراب الأحمر من سهولها بعد هطول المطر، وطعم ماء ينابيعها، ورائحة زهورها ووردها في الربيع، وأتذكّر أشجار اللوز ببراعمها المتفتحة عندما كنت

أطل من نافذة غرفتي، وأشتاق إلى رؤية نجوم سمائها الزرقاء في ليالي الصيف، وثلوج شتائها، وقد لا أرى وطني مرةً أخرى في حياتي، إلاّ أنه معي، هنا في داخلي، كل لحظة من عمري، حتى بعد الانتقال إلى العالم السفلي، فسأحمله بين ضلوعي في ذلك العالم أيضاً.ربما ينسى المرء أعزّالناس إليه ولكنه لا يستطيع نسيان موطنه الذي نشأ فيه..». وهنا لم أعد أتمالك نفسي من فرط حزني وتأثري بما قالته (دوتى خيبا)، وعندما نظرت إلى (باد) بدا لي متأثراً مثلي بما قالته الملكة، وبعد أن تنهدت (دوتى خيبا) التي وجدتها امرأةً ضعيفة لم تتحمل الغربة عن وطنها، رغم أنها تعيش كزوجةٍ لفرعون مصر، وتحسدها على ذلك نساء العديد من ممالك الأرض، قالت: «آمل لي أن تحدثني مرةً قادمة عن كل ما في (واشوكاني)، حتى عن أشجارها وحجارة طرقاتها، فأنا أحن إلى وطني، ويكاد الحزن يفتت عظامي في هذه الغربة التي تبدو لي بلا نهاية، ولكن قل لي الآن كيف حصلتَ على دميتي التي كنت قد أهديتها للملكة (خاتى)؟ قل لي بالتفصيل». فشرعت في سرد ما جرى حقاً وكيف أرسلني أباها الملك (توشراتا) إلى مملكة (هاتي)، وكيف التقيت بالملكة (خاتى) التي تحبها حباً جماً وتتمنى لها السعادة، وكيف تم سوقنا إلى مملكة الجن..». فابتسمت وسألت باستغراب: «مملكة الجن؟ كل هذا العذاب من أجل دميتي؟» فقلت: «لقد أرسلني إليكِ أباكِ الملك (توشراتا) ياسيدتي لأمرٍ مهم، وأراد أن أفوز على ثقتكِ بإحضار الدمية التي صنعها بنفسه لكِ». فاشارت الملك لوصيفتها بإحدى يديها فخرجت مع الخادمة من

المقصورة، واستأذن (باد) أيضاً وتبعته الأميرة (هستيا) أيضاً، فبقينا لوحدنا، أنا والملكة. فقالت: «لقد زوّجني أبي بفرعون مصر من أجل الاحتفاظ بحكمه ومملكته، ثم سمعت من (أخناتون) نفسه بأن أبي طلب منه عن طريق مبعوثٍ خاص مبلغاً كبيراً من المال، بل تمثالاً لي من الذهب الخالص، مقابل أن يضع جيش مملكة (ميتان) في خدمة حروب المصريين. أهذا هو أبي الذي كنت أحبه فوق كل شيء في صغري؟ ماذا يريد الآن؟ ذهباً وفضة، أم عربات وسلاحاً؟»

قلت: «سيدتي، نحن الميتانيون نزوّج بناتنا لأبناء مختلف الأقوام من حولنا، لأننا لسنا عنصريين ونعتقد أن من حولنا من الأقوام والشعوب بسطاء مثلنا، وأعلم عن قريةٍ في شمال (سوريانا) مكثت فيها عدة أيام لشغلٍ من أشغالي بأن فيها أكثر من عشرين امرأةٍ ميتانية تزوّجن برغبةٍ من أبائهن وأمهاتهن من سوريين لايعرفون لغتهن، وكم أحزنني عندما سمعت امرأةً منهن تغنّي من خلف سور بيتها أغنيةً ميتانية حزينةً جداً. وعندما علمَت أني من (ميتان) كادت تسقط بين يدي مغشياً عليها». فرأيت أن الملكة تأثّرت بما ذكرته لها، فأسرعت للإعتذار، وما عدت أعلم كيف أشرح لها مهمتي التي كلّفني بها أبوها.

قالت الملكة بعد أن تنهدت وهي تضغط بيدٍ منها على اليد الأخرى بشدة: «المرأة تتعذّب لغربتها أكثر من تعذّبها بسبب جرحٍ أو مرضٍ عضال، الغربةمستبدة كمرضٍ عضال لا شفاء لي منه، والناس ترتمي عند قدمي عندما أسرير في الشوارع بينهم، إلا أنني في غرفتي التي رغم كبرها

وجمالها أشبه بقبرٍ ضيقٍ عندي، أرتمي عند أطراف السرير وأبكي مثل طفلةٍ تركها أبواها لوحدها ... والآن ليس لدي وقت طويل، فقل لي ماذا يريد أبي الآن». فأجبت: «سيدتي الملكة، لقد ذكرلي أباكِ الملك (توشراتا) بأنكِ أنجبتِ ولداً ذكراً وليس أنثى كما هو منتشر بين شعب مصر وخارجها». فتوسعت حدقتا عينيها وارتعشت شفتاها وأمالت رأسها إلى طرف، ثم قالت بصوتٍ خافت جداً: «هل أبي يعرف ذلك؟» فأطرقت رأسي من دون أن أقول شيئاً، فنهضَت من مكانها وراحت تنظر من كوةٍ في المقصورة إلى نهر النيل الممتد أمامها بلونٍ بني وداكن، ثم نظَرَت صوبي من جديد وقد نهضتُ أيضاً احتراماً، فخيّل لي أنها تحولّت إلى صنمٍ من المرمر وانتظرتُ حتى تتابع كلامها، فقالت بنبرةٍ حادة: «وماذا يريد ملك (ميتان)؟ ماذا يهمه إن كان له حفيد أو حفيدة في أرض مصر، بعد أن تخلى عن شقيقته وابنته من أجل بقاء العرش الميتاني في عائلته؟ وهل يعلم الملك (توشراتا) العظيم أن عمتي (كيلو خيبا) لاتغادر حجرتها التي زوجوها أيضاً لفرعون وتبدو من فرط حزنها في الغربة وكأنها مجنونة؟»فعلمت أنها ليست حزينة للغاية فحسب، وإنما غاضبة على أبيها غضباً شديدا، فقلت بلطفٍ وهدوء: «سيدتي الملكة، تفضلي، اجلسي لأقول لكِ ما يريده أباكِ». فجلَسَت في مكانها واجمة وأشد حزناً من قبل. فقلت: «إن ملكنا (توشراتا) يعلم جيداً بما حدث أثناء إنجابكِ لولدك، لذا فقد أرسلني للبحث عن حفيده وأخذه إلى مملكة (ميتان)، وقد رأيت الدموع في عيني ملكنا الذي يعلم الجميع أنه قاسٍ كالصخر، وهو يحبّك حباً جماً...

المصريون يعلمون أنكِ أمٌ لفتاةٍ وليس لولد ذكر، وإذا ما اكتشفوا أني أخذت ولدكِ إلى (ميتان) فإن الملكة (نفرتيتي) ستكون شاهدة على أنكِ لم تنجبي ولداً ذكراً، فماذا تقولين؟»

فكّرت (دوتى خيبا) طويلاً وقد أغمضت عينيها وأخفضت رأسها ثم رفعت رأسها ثانيةً ونظرت إليّ بامعان وقالت: «أعلم أن طويلة الرأس والرقبة (نفرتيتي) قد بدّلت وليدي (كه يو) بمولودٍ أنثى، لا أدري من أين أتت به، وذلك حسداً منها لأنها لم تنجب حتى الآن سوى البنات، وأعلم أنها طلبت من وصيفتي الحبشية (آيانا) وضع (كه يو) في سلة والقاءه في نهر النيل، كما تفعل الأمهات الزانيات اللواتي لايرغبن في اكتشاف أمر انجابهن لأطفالهن، وأعلم أيضاً... » وسكتت قليلاً وكأنها أرادت التأكّد من أن لا أحد سوانا يسمع ما تقول، فقلت: «تكلّمي، فلا أحد يسمعكِ سوانا». فقالت: «نعم، أعلم أن (آيانا) لم تلقي بولدي (كه يو) في النهر، وإنما هربت به، ولم تعد إلى القصر ثانيةً خوفاً من أن يتم التخلّص منها لاخفاء السر، وحيث أني لم أتوقّف يوماً عن التفكير بولدي والبحث بطرقٍ عديدة وملتوية عنه، أعلم أنه لايزال على قيد الحياة، إلاّ أنني لا أدري بالضبط في أي مكان، سوى أن وصيفتي قد ماتت في مركز لتحضير الأجساد الميتة للعالم السفلي في مدينة (خمون) على بعد أيامٍ صوبَ الشمال بالسفينة من هنا كما أظن». فقلت: «أعرف مدينة (خمون) حيث تبنى العاصمة الجديدة (أخيتاتون) الآن، ولي فيها صديق ميتاني يعمل معمارياً». فابتسمت وقالت: «جيد... جيد... كل ما أريده

في الحياة هو ضمّ ولدي (كه يو) إلى صدري مرةً واحدة وتقبيله، وبعدها لا يهمني إن بقيت على قيد الحياة أو مت، وقد قارب السادسة من عمره الآن. أتعلم أن الدموع التي ذرفتها حنيناً لوطني (ميتان) والتي ذرفتها بسبب ولدي لا تقل عن ماء النيل». فقلت: «سيدتي الملكة، مهما غاب المرء عن وطنه فلا بدّ أن يأتي يوم يعود فيه إليه. المهم الآن أن نجد (كه يو)، فهل يعلم ولدكِ أنه يدعى (كه يو)؟» فأجابت: «لا..لا.. لا أحد يدري سوانا، فهذا الإسم مني ولابد أن يكون له اسم آخر حسب ظني... لا أدري». فسألت: «ألم تقولي الحقيقة للفرعون (أخناتون)؟» فأجابت بعد أن تنهدت بحزن: «وكيف لم أقل له الحقيقة؟ لقد تحدثت إليه مراراً، إلاّ أن طويلة الرأس والرقبة التي يحبها كثيراً ومتفننة في الخداع والإغراء والجدال ولها من السطوة والاحابيل ما ليس لأحدٍ آخر في المملكة، أقنعته بإفادات وشهادات وصيفاتٍ لها بأني أنجبت مولوداً أنثى وليس ذكراً، وأني كنت في حالةٍ سيئة لدى الإنجاب... لقد تركت ذلك للزمن وللإله الذي يرعى ولدي، فلا بدّ أن تظهر الحقيقة ويعود ولدي إلى أمه، كما الطيور تعود إلى أعشاشها».

وعدتُ الملكة بالبحث عن (كه يو) دون توقّف حتى العثور عليه، وقلت في نهاية الأمر: «سأتجوّل في (خمون) بصفتي طبيبٌ معترفٌ به رسمياً، وسأطرق كل الأبواب وأسأل بطرقٍ مختلفة عنه دون كللٍ أو ملل، وفي حال عثوري عليه سأرسل لكِ خبراً من دون أن يلاحظ أحد ما نقوم به». وراحت تصف لي وصيفتها الحبشية(آيانا) التي ذهبت

بولدها وذكرت كانت ذات وشمٍ على جبينها في شكل نجمةٍ صغيرة، وأنها كانت في سن الأربعين من عمرها، وجميلة للغاية». وهنا قلت لها: «هل تعلمين عن إشارةٍ فارقة على جسم ولدك؟» فأجابت: «عندما رفعته الوصيفة عالياً لأراه على أثر الولادة كنت في وضعٍ أليم، إلاّ أنني سمعتها تقول: أنظري سيدتي، إن له شامةً أسفل كاحل قدمه اليسرى». فوجدت هذه الإشارة الفارقة على قدم (كه يو) والوشم على جبين (آيانا) علامتين هامتين، فسألت: «ألم تبحث الملكة نفرتيتي عن ولدكِ أيضاً؟» فأجابت: «بالتأكيد، إلا أن جواسيسها الأغبياء لم يعثر وا عليه».

طلبت الملكة مني أن نعود حتى لا نثير الشكوك في نزهتها النهرية هذه، فنهضت من مكاني واتجهت صوب باب المقصورة وإذا بها تقول: «سأعطيك كل ما تريد من أموال، وسأجعل مصر كلها تهتزتحت قدميّ إن عثرت على ولدي... وستعلم طويلة الرأس والرقبة (نفرتيتي) آنذاك من هي (دوتى خيبا) الميتانية». فقلت لها بعد أن ناديت (باد) وطلبتُ منه أن نعود: «سيدتي الملكة،لقد وعدت أباكِ الملك (توشراتا) بأخذ (كه يو) معي إليه، لأنه يودّ ضم حفيده إلى صدره ولو مرّةً واحدة في الحياة، فاسمحي لي أن أحقق مراده، لذا أجد من الضروري ألا تثيري أي مشكلة مع الملكة (نفرتيتي) أو مع الفرعون (أخناتون) حتى أخرج من مصر مع ولدكِ سالماً، أتريدين الأذى ل(كه يو)» فقالت: «ليكن ما يريد أبي لأني لست قاسية مثله، وإنما أنا مثل أمي الحنون، وما أتمناه ألا يصيب ولدي سوء، وأحب أن يعيش في (واشوكاني) التي أبعدوني عن جنانها وسهولها

وينابيعها، وليس في مصر التي دفنوني فيها حيةً، والأوضاع هنا تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، بسبب المغامرة الدينية الكبرى لزوجي أخناتون، فاذهب ب(كه يو) إلى (ميتان) ولكن دعني أضمه إلى صدري مرةً واحدة قبل موتي».

وبالفعل، شعرت بضيقٍ لم يسبق له مثيل في صدري، وأهم ما بدأ يشغلني هو الخروج من تلك المقصورة قبل أن أجهش بالبكاء، كما شعرت في تلك اللحظة أني سأعود إلى مملكة (ميتان) وقد أنجزت مهمتي، إلا أن حلمي كان كبيراً، ألا وهو عودة الملكة (دوتى خيبا) مع ولدها في عربةٍ تجرها جياد بيضاء عندما نمر من بوابة مدينة (واشوكاني) المزيّنة بالرايات والورود، حيث سينتظرنا الملك (توشراتا) بعيونٍ دامعة من شدة الفرح.

عندما صعدنا إلى قاربنا على الطرف الآخر من نهر النيل، حيث كان (موروك) ينتظرنا بصبر، رأيت الملكة تلوّح لنا بيدها عبر كوةٍ من داخل مقصورتها وكأنها سجينة، فشعرت في تلك اللحظات أن زوجة فرعون مصر ليست إلاّ أسيرةً تحسدنا نحن البشر البسطاء على حياتنا في الحرية، وأن عليّ إنقاذها من مأساتها مهما كان الثمن باهظاً لي. وسرعان ما تذكّرت أن عليّ الذهاب إلى دائرة خاصة بتحرير العبيد لأحصل منها على وثيقة ل(موروك)، وتحرير العبيد كان جزءاً من شكرنا للخالق العظيم، فكم كانت فرحته عظيمة وكم سالت دموعه وأنا أعطيه الوثيقة المدوّنة على رقعةٍ قماشية رقيقة، بعد يومين من تلك النزهة النهرية.

- 20 -

بحثت عن صاحب المركبة (شو) وولده، فلم أجدهما في ميناء (طيبة) الذي كان يعج بالسفن والقوارب من مختلف الأحجام والأشكال، والقادمة من الجنوب أو الشمال محمّلة بما يمكن شراؤه أو بيعه في المدينة، وقيل لي بأنهما الآن ربما على مقربةٍ من (ممفيس)، لذا استأجرت مركبةً أخرى بثمنٍ غالٍ وانطلقنا باتجاه (خمون)، حيث تبنى عاصمة (أخيتاتون) الفرعونية الجديدة بإله جديد (آتون) ومن دون أن يكون لإله المصريين الكبير (آمون) مكانٌ فيها.

كانت الريح تدفع شراع مركبتنا بقوة من الخلف وكانت وجهتنا نحو الشمال، حيث مجرى النيل قد ساعدنا في الوصول إلى منطقة (خمون) خلال أيامٍ قلائل، كنا نتوقف أثناءها في مرافىء صغيرةعلى شاطئ النهر، لم أتحدّث فيها إلا نادراً مع صاحب المركبة الذي بدا لي غير مستعدٍ للحديث ولا يهمه سوى قبض المال الذي يحتاجه لشراء مركبةٍ أفضل لأولاده. وكنت قد تركت (باد) مع حبيبته (هستيا) معظم الوقت في مقصورةٍ صغيرة، يقضيان أجمل الأوقات في الفراش، في حين كان (موروك) يحاول تعليمي بعض الكلمات من لغة شعبه (تارتي) في أقصى الغرب، حيث بلاد

(ترشيش) الجبلية على الشاطىء الجنوبي من البحر .

كانت حركة السفن نشيطة جداً في نهر النيل بالقرب من (أخيتاتون) التي كانت تبنى بحماسٍ منقطع النظير من قبل جيشٍ كبير من المصريين وعبيدهم أشبه بمملكة النمل العامل بهمة من أنصار وأتباع الفرعون (أخناتون) الذي كان يشرف بنفسه على أعمال المعماريين ويناقشهم بحرارة ويحرص على ألا يظهر كالفراعنة القدامى الذين ما كانوا يسمحون لعامة الناس الاقتراب منهم ولا يكلّمون الناس مباشرة، وإنما عن طريق حاشيتهم وأتباعهم، بل إن الناس ما كانت تجرأ على النظر إلى وجوههم، لترسيخ فكرة ألوهيتهم، وكان (أخناتون) يسعى لئلا يظهر أي رمزٍ للإله (آمون) في عاصمته الجديدة. وكان أوّل ما سألت عنه هو ملتقى للمعماريين، حيث يمكنني الالتقاء فيه بصديقي (كاويك) ابن وطني (ميتان) ومدينتي (واشوكاني). وبالفعل ساعدني زملاؤه المعماريون في معرفة المكان الذي يعمل فيه والبيت الذي يأوي إليه. وعندما رآنا (كاويك) فتح زراعيه الطويلتين وأمال برأسه الصغيرة إلى طرف مرحّباً بحرارة، وفي إحدى يديه ما يشبه منجلاً خشبياً كبيراً بزاوية في وسطه، علمت فيما بعد أنه لحساب الزوايا بدقةٍ تامة لدى البناء، فكان لقاءً أخوياً زاد من أملي في أني سأتمكن من الاعتماد عليه في تلك المدينة التي كانت ترتفع عواميدها وأقواس مبانيها وجدران قصورها من الأرض كما الفطر بعد المطر. ولن أنسى الحفاوة التي لقيناها من المعماري الكبير الذي اشترى (كاويك) في صباه وربّاه ولداً له وعلمه مهنته وأنشأه

نشأةً حسنة، فوضع منزلاً مفروشاً باتقانٍ وسخاء تحت تصرّفنا، وضحك قائلاً: «ستنتقلون إلى أوّل خانٍ للضيوفِ عندما يفتتح قريباً وسط هذا الركام الهائل من الحجارة وأكوام الطين المحروق والعجاج الذي يعمي الأبصار. وأنا سأدفع تكاليف اقامتكم هنا مهما طالت، فلا تهتموا». فشكرته شكراً جزيلاً وقلت له: «إنما أتينا إلى هنا لرؤية (كاويك) ومعرفة كيف تسخّر أمة طاقاتها العظيمة لبناء مستقبلها». فأجاب كمن يهزأ مما قلت: «نحن في مصر نقوم بكل شيء طوعاً ونعمل جميعاً كالعبيد من أجل حياةٍ خالدة لفراعنتنا الذين هم في نظرنا آلهة». فلم أتأكّد مما قصده بكلامه، أهومؤمنٌ بما يقوم به شعبه أم يسخر به.

دعانا المعماري الكبير إلى وليمة عشاءٍ فاخرة في بيته المؤقت، المبني من الطين المحروق والأخشاب والقصب، فلا تزال روائح مختلفة تفوح منه، في حين أن بيته الذي تربّى فيه (كاويك) قصر منيف في مدينة (ممفيس)، كما أعلمني (كاويك)، وحضر الوليمة عدد كبير من المعماريين والبنائين والقائد المحارب (حورمحب) مع مجموعةٍ من ضباطه الموالين له، الذين كانوا قد قدموا إلى (أخيتاتون) للقاء الفرعون (أخناتون) بناءً على طلبه، ومن بينهم الضابط (حابى) الذي أنقذنا زوجته من أيادي الأشقياء في صحراء بلاد العماليق. وقد مدّ لي يده مصافحاً بحرارة وذكر أنه بحث عني في (ممفيس) فلم يجد لي أثراً وقال مازحاً: «اعتقدت أن الأشقياء اختطفوك لينتقموا من تحريركم زوجتي من أياديهم». ثمّ قدّمني إلى قائده (حورمحب) قائلاً: «هذا الميتاني ليس بطبيب فحسب، وإنما هو محارب

مثل حارسه الشجاع».فقال (حورمحب): «نحتاج إليه كطبيب دائماً، أما كمحارب فلا أعتقد أنه سينفعنا، ولدينا من أمثاله من المحاربين ألفَ ألفٍ بلا شك». وهزرأسه بوقارٍ صوبي من فوق قامته العالية من دون أن يقول لي شيئاً والتفَتَ إلى كبير المعماريين الذي استقبله بحرارة. وسألت الضابط عما إذا كان بإمكاني وجماعتي اللجوء إليه في حال حاجتنا لمساعدةٍ ما، فأجاب بأنه سيخدمني بالتأكيد، وما عليه إلاّ أن أذكّره بذلك في الوقت المناسب.

وقف المعماري الكبير وراء طاولة عالية عليها مختلف صنوف الطعام الشهي والشراب المختلف ألوانه، فوقف جميع الضيوف وفي أياديهم أقداح الشراب، وقال رافعاً بيده قدحاً كبيراً أشارَ به صوب الضباط الذين تراصوا في صفٍ واحدٍ إلى طرفي القائد (حورمحب): «نادراً ما يجلس البناؤون وهادموا البناء على طاولةٍ واحدة». ثم قال: «نشرب الآن مع قائدنا الكبير (حورمحب) في ظل الفرعون (أخناتون) نخب بناء العاصمة الجديدة (أخيتاتون)، فهنيئاً لكم». فرفع (حورمحب) قدحه الفخاري الطويل والكبير عالياً وقال: «أعلم أنكم تمزحون أيها المعماري العريق، ولكن أقولها جاداً: من دون جيوشنا لما تمكّنتم من بناء بيتٍ من القش لعجائزكم». فقهقه الضباط كلهم وكأنهم ديوك حبشية ضخمة، وبدأ الجميع يشربون في صمت، ثم جلسوا وانكبوا على طعامهم بشراهة، في حين كانت نظراتي لا تفارق (حورمحب) الذي كان يسعى لإظهار هيبته على طاولة الطعام، بل إنه كان ينتهز مثل تلك الفرصة ليثبت أنه ليس

كسواه من الضيوف، وإنما هو الأشد وقاراً والأقوى في التحكّم بنفسه، فكان أكله قليلاً للغاية ومراقبته للضباط التابعين له مستمرة، ليرى من منهم يخل بأدب الولائم ويتصرّف كخنزيزٍ جائع.

قال لي (كاويك) وهو يقضم بعض اللحم المشوي بتأنٍ وروية فبدا لي كأمير من أمرائنا الواشوكانيين الذين يراعون آداب الديوان بدقة: «أتعلم أنَّ الملكتين (نفرتيتي ودوتى خيبا) وسواهما من أقرباء وحاشية (أخناتون) سيحضران للسكنى في (أخيتاتون) خلال الأيام القليلة القادمة؟» فلم أتمكن من ابتلاع ما كنت قد وضعته في فمي، وسألته بعد برهة: «كيف؟» فأجاب بصوتٍ خافت وقد توقف عن الأكل: «لقد بنينا أكثر مما تحتاج إليه العائلة الملكية من قصورٍ من الآجر المحروق، والأوضاع في (طيبة) تزداد سوءاً، وإن (نفرتيتي) التي تظهر ولاءها لدين زوجها تعلم أنها لن تبقى مسيطرة على زوجها وهي بعيدة عنه مسافة أيامٍ عديدة. وفي (طيبة) يتحرّك الآمونيون كالضباع والذئاب ويسعون لاستعادة ما سلبه منهم (أخناتون) من مجدٍ وقوة وذهب». فرجوته أن نتحدث في الموضوع على انفراد في مكانٍ آخر في اليوم التالي، وذكرت له أن أفضل مكانٍ آمنٍ لذلك هو أن يزورني في البيت الذي وضعه المعماري الكبير تحت تصرفنا، فوافق على ذلك، وقررنا ترك الموضوع والإصغاء إلى الأحاديث الساخنة كالخبز الطازج في تلك الليلة، واكتفى (كاويك) بالسؤال عن سبب عدم إحضارنا الأميرة (هستيا)، فأجابه (باد) الذي كان يجلس إلى جانب (كاويك) بأن (هستيا) مرهقة جسدياً من كثرة

إنشغالها بشؤون البيت، والخصي (موروك) يخدمها، وأضفت أنا قائلاً بأن حضورها سيدفع ببعض الضيوف إلى طرح أسئلة عن بلادها وسبب مجيئها و... و... » فهزّرأسه مرتاحاً للجواب عن سؤاله، وتابع تناول الطعام على مهل... ثم قال :» على كل حال، النساء التي تراها هنا الآن في الأغلب هن نساء الهوى، وليس زوجات الضباط والمعماريين، ولذا عدم حضور (هستيا) أفضل من حضورها...بالفعل».

سأل المعماري الكبير القائد (حورمحب) عما إذا كان ثمة خطرٍ من هجوم كاسح للهاتيين من جهة (سوريانا) وبلاد (كنعان) بعرباتهم الحربيةً السريعة التي تجرها جيادٌ أصيلةٍ ومدربةٍ بشكل جيد، فتوقف الجميع عن الطعام والشراب ونظروا صوب (حورمحب) ليسمعوا ما يقوله، فنظر القائد يمنةً ويسرة وكأنه أراد التأكّد من أن جميع أتباعه صامتون، ثم قال بصوتٍ جهوري يسمعه الجميع، على الرغم من سعة المكان وكبر المجلس: «الهاتيون لا يؤمن جانبهم، وهم غزاةٌ محترفون مهنتهم السلب والنهب، وفي حين نحن مهتمون ببناء القصور والصروح المشيّدة فإنهم ساعون ليصبحوا أعظم قوةٍ محاربة في هذه البلاد، ومن أهم أسلحتهم العربة السريعة الخفيفة التي يطلقون منها السهام الكاردوخية الشهيرة والرماح القوية، ولكنهم لا يستطيعون لوحدهم النيل من قواتنا الكبيرة المنتشرة في (سوريانا) رغماً عن أنفهم، إلاّ أنهم أذكياء في تجنيد الشعوب المغلوبة من قبلهم ضدنا، وقد أتتنا معلومات بأن ملك ميتان (توشراتا) قد رفض طلباً لملك الهيتيت للتنسيق معه والانضمام إليه في القتال ضدنا،

وبرر ذلك بأننا أقرباء. أما ملك السوريين (آزيرو) رغم قطعه وعداً لنا بأنه سيقف على الحياد بين الحاتيين وبيننا، إلاّ أنه لم يفِ بوعده، وهو الآن يساعدهم في هجماتهم المفاجئة على وحداتنا المرابطة في المناطق المحيطة بمدينة (دوماسقو) وفي جبال الفينيق، وفي المقابل فإن الأمير السوري (بيريا وازا) هو تابعٌ لنا في سوريا ويعمل لصالحنا ضد الملك آزيرو». فقال المعماري الكبير: «هذا يعني أن السوريين منقسمون على أنفسهم». فأجاب (حورمحب): «سوريانا وفي شمالها مملكة (ميتان) وأراضي سوتو وكنعان في جنوبها وبلاد الفينيق المطلة على البحر، كلها تقع على الطريق بين ممالك الشمال والجنوب، والشرق والغرب، ولذا فإنها كانت ولا تزال معرّضة للهجمات باستمرار عبر التاريخ، ولذا فإن ملوكها وحكام أقاليمها منقسمون دائماً فيما بينهم على الولاءات والسيادة وأساليب الحكم والتعامل مع الأعداء الخارجيين». فشكره المعماري الكبير بحرارة ثم استدار صوبنا وأشار عليّ وعلى (باد) وقال: «بعد الإذن منكم أيها القائد العظيم (حورمحب) نودّ سماع هذين المحاربين من مملكة (ميتان) فقد يكون لديهما ما هو مثيرٌ وهامٌ لكم». فأومأ (حورمحب) بإشارة من يده، فسألني المعماري الكبير: «ماذا تقول عن مصر التي أنت فيها منذ عدة أسابيع أيها الطبيب الميتاني؟» فنهضت من مكاني وحييت الجميع بيدي وحركةٍ من رأسي، ثم قلت: «ما رأيته وسمعته في مصر أذهلني حقاً، المصريون يتقدمون كل البشرية في مختلف العلوم، وبدون العلوم لا مستقبل للبشرية، وأنا الذي جئت إلى بلادكم (كيميت) كطالب

علم أخاف عليكم شيئاً واحداً». فسأل المعماري الكبير مقاطعاً كلامي: «الهاتيين؟»، فأجبت: «لا... أنا أخاف على هذه الحضارة العظيمة من الرمال». فقهقه الجميع بصوتٍ عالٍ حتى وقع بعض الضيوف عن مقاعدهم، وحتى القائد (حورمحب) فإنه لم يتمالك نفسه فرفع ذراعيه عالياً وقال: «هذا أروع كلامٍ سمعته منذ مجيئي من (سوريانا)». وبحركةٍ من إحدى يديه ساد الهدوء فجأةً، ولمحت كيف ترتعش شفتا (كاويك) الذي فوجئ بجوابي عن سؤال أبيه المصري. فسأل المعماري: «أنتم لاتخافون على مصر والمصريين من شيءٍ سوى الرمال؟ فقلت وعيون الجميع تحدّق بي: «نهر النيل العظيم لم يتمكن من قهر المصريين رغم فيضاناته الكبيرة التي تعلّم المصريون السيطرة عليها ببناء شبكاتٍ واسعة من القنوات والترع لتهدئتها والاستفادة من الطمي الذي يأتي لهم بالخصوبة والخير، والرمال لا تستطيع القضاء على المصريين لأنهم تعلموا سائر مكائدها وهجماتها، فهم يجيدون العيش في هذه البلاد التي تهب عليها الرياح بقوة وتنقل معها كمياتٍ هائلة من الرمال، ولكن استمرار هبوب الرياح وتراكم الرمال سيصيب القصور والصروح المشيدة التي ستطمرها مع الزمن أو تحدث في أعمدتها وجدرانها الثقوب والخلل. هذا ما أخافه على هذه الحضارة التي لا مثيل لها على وجه الأرض حسب معرفتي». فساد صمتٌ عجيب، وكأن الجميع أدركوا أن ما قلته صحيحٌ تماماً، وانتظروا ما يردّ به المعماري الكبير أو القائد (حورمحب). فقال المعماري الكبير بعد أن وجد القائد صامتاً: «نحن المعماريين نبني القصور

من الآجر والمدافن والمعابد من الحجارة، فالمصريون يعتقدون أن القصور زائلة ولكن المدافن والمعابد إلهية وأزلية، وما قلته لنا صحيح ولا ندري كيف نبعد أخطار الرمال عما نبنيه، ونعلم أن كل ما يتعلّق بالحياة مندثر، إلا أن ما ننحته من الحجارة سيبقى عبر الزمن آلافاً من السنين... ولكل شيء دورة حياة، إن لم تسقط القصور والصروح تحت وطأة الرمال فإنها ستتعرّض لهجمات الغزاة مراتٍ ومرات، حتى تنهار، إن لم نحصّن بلادنا ونحرص على بقاء قوتنا جاهزة لردّ العدوان باستمرار. فلنسمع ما يقوله قائدنا الكبير، وأشكركم عزيزي الطبيب على إبدائكم رأيكم». فرفع (حورمحب) إحدى يديه وسط صمتٍ تام للضيوف وقال: «إن مصر ستعيش في أمان طالما رأسي على جسدي، ولن ينال أحدٌ منها مهما كان قوياً بجيشه ومحارباً برجاله، ما نريده من المصريين هو الدعم اللامحدود لجيشهم الشجاع، في ظل العرش الذي نخدمه ونذافع عنه بدمائنا ودماء شبابنا وعمالنا ونسائنا وآلافِ ألافِ العبيد الذين نمتلكهم. إن وحدتنا في ظل الفرعون (أخناتون) هي التي تصون حدود بلادنا وبها تبقى مصر موحدة وعصيةً على أعدائها من الشمال أو الجنوب». فنهض جميع الضباط من مقاعدهم منشدين معاً نشيداً حربياً حماسياً وسيوفهم التي يلوحون بها في ضوء المواقد والشموع الكبيرة تلتمع بشكلٍ مدهش فوق رؤوسهم. وبعد أن جلس الضباط ثانيةً، سأل المعماري الكبير: «أودّ أن أسمع من ذاك المحارب الميتاني ما يقوله لنا، قبل أن تبدأ القينات والغواني بالطرب والتسلية». فنظر إليّ (باد) الذي بدا متفاجئاً بتوجيه السؤال إليه،

إذ لم يكن معتاداً على الانخراط في الحديث مع الناس، فأشرت عليه أن يقول شيئاً إحتراماً للمعماري الكبير وضيوفه، فنهض من مكانه وألقى التحية على الجميع بحركةٍ من رأسه كررها باتجاه اليمين واليسار، وانتظر برهة تنفس فيها بعمق ثم قال بلغتنا الميدية - الهورية: «أنا محارب ميتاني وأجيد وظيفتي، إلاّ أنني لست بمتحدّث، ولكن بعد الذي سمعته مترجَماً من القائد العظيم (حورمحب) الذي أطأطىء له رأسي باحترام لشجاعته وحبه للعرش الذي يخدمه ولشعبه الذي يدافع عنه، اودّ معرفة رأيه ورأي سيدي المعماري الكبيرفي الحرب التي تدمّر ماتضعون من خطط ومشاريع للقصورِ والقلاعِ والمعابد ثم تستغرقون في بنائه زمناً؟» ووجم (باد) واقفاً، فبدا بسترته الأرزاوية الجميلة، وكأنه نسر جبلي حط على صخرةٍ عالية. وشعرت لحظةً بحسدٍ منه بسبب جديته ووقاره وأدبه، إضافةً إلى معرفته الجيدة باستخدام الأسلحة وشجاعته الخارقة. إنتظر المعماري الكبير حتى ترجم له (كاويك) الكلام إلى لغة المصريين، ثم أجاب، عندما لا حظ أن القائد (حورمحب) يريد سماع رأيه أوّلاً: «أنا كنعاني الأصل، وفي صبايَ كنت أعيش في قريةٍ صغيرة يتشارك أهلها جميعاً في بناء المنازل والحظائر، وبدون السلام بين أهل القرية ما كان يمكن جمعهم للاستمرار معاً في البناء، فالعمران يحتاج إلى السلام الداخلي أولاً وثانياً وثالثاً..». وسكت برهةً ثم قال: «أما الهدف الاوّل من الحرب فهو تدمير ثقافةٍ معينة لإحلال ثقافةٍ أخرى عوضاً عنها، أي هدم قيمٍ لتأخذ مكانها قيمٌ أخرى، والهدف الثاني للحرب هو النهب لثروات المنهزم واستعباده

وتكريس المنطق الذي شنّت الحرب على أساسه، فيتم اعتبار المنتصر فاتحاً ويتم اعتناق ثقافته وعقيدته وإعلانه صاحب حقٍ مشروع في احتلاله، بل تقليده في مأكله ومشربه وسيره وكلامه وتمجيده، وتنصيب آلهة المنتصر مكان آلهة المنهزم. هذا ما نفكّر به نحن المعماريون، وسأكون سعيداً بسماع رأي القائد الشجاع (حورمحب)».

في تلك الأثناء دخل علينا ضابط شاب وسار من خلف زملائه إلى حيث يجلس القائد (حورمحب) ثم همس في إحدى أذنيه شيئاً، فنهض القائد من مكانه وقال: «لا تؤاخذوني، فإن عليّ الذهاب إلى القصر الفرعوني حالاً، وأقول لكم كلمةً مختصرة عن الحرب: فالحرب أداةٌ من أدوات البشرية لضبط نفسها سكانياً، ولولا الحرب لفسدت الأرض بسبب تكاثر ما عليها من بشرٍ وحيوانات، أنظروا إلى عالم الحيوانات الوحشية والأسماك في البحر. إن هناك قوانين للطبيعة تنطبق على كل المخلوقات ومنها قانون البقاء والحياة، والأُقوياء هم الذين يبقون ويحيون أما الضعفاء فزائلون من ألواح التاريخ. » وبمجرّد قوله كلماته تلك نهض كل الضباط والضيوف، فعلمت أن سهرتنا تلك قد أشرفت على الانتهاء. وبالفعل إنصرف الضيوف بعد خروج (حورمحب) وضباطه فرادى وجماعات، إلاّ أن الضابط (حابى) قد أتى إليّ وهو يهز بيدٍ قوية صوبي وقال: «السيدة زوجتي تدعوك مع جماعتك إلى وليمة عشاء». فشكرته بحركةٍ من رأسي احتراماً. فمضى مبتسماً وهو يغمز صوبي بإحدى عينيه، وعلمت أن الرجل لا ينسى المعروف وسأستفيد منه ومن زوجته بالتأكيد.

في تلك الليلة، شعرت بشيءٍ من البرودة على الرغم من أن الصيف لم يكن قد انتهى بعد، ولما ذكرت ما أشعر به للفارس (باد) خلع سترته وقدّمها لي وهو يقول: «لماذا تركتَ سترتك في البيت ياسيدي؟» فأجبته بسؤال: «ولماذا ارتديتها أنت ونحن في الصيف؟» فأجاب: «لا أدري... هكذا..».

في صباح اليوم التالي علمت أنه كان من الأفضل لي ارتداء سترتي أيضاً مثلما فعل (باد)،فقد خرجت الأميرة (هستيا) من حجرة نومها قبل (باد) ونظرت حولها ثم جاءت وجلست على الطرف الآخر من المصطبة التي كنت جالساً عليها، وقالت بصوتٍ خافت: «منذ البارحة مساءً بعد ذهابكما لم يعد (موروك) إلى البيت».فسألت بشغف: «ماذا؟» فأجابت: «كان ينظّف سترتك هنا، ثم قال لي بأن السترة ثقيلة وكأنها محشوة بلوائح الحديد أو الذهب..».فسألت ثانيةً: «ماذا تقولين؟ إلى أين ذهب؟» فهزّت كتفيها إشارةً إلى عدم معرفتها، فنهضت من مكاني وبحثت عن سترتي فلما أجدها، وظننت لتوي أن (موروك) قد لبسها ومضى لشأنٍ يعنيه، ولكن ألا يعود إلى البيت، فإما لأن أمراً ما قد أعاقه عن العودة.

وعندما خرج (باد) من غرفة نومه، وهو شبه نائم، قلت له: «أظن أن حادثاً قد حدث ل(موروك)، فهو قد خرج بسترتي ولم يعد منذ البارحة مساءً». وبدا (باد) في البداية غير مكترثٍ بما قلته، ثم التفت صوب الأميرة (هستيا) فجأةً وسألها بصوتٍ فيه رعشة: «هل ذهب بسترة سيدي؟ ولماذا؟» فقالت له (هستيا): «لا أدري لماذا، ولكن بعد ذهابه بحثت عن

السترة لأرى هل نظفها بشكلٍ جيد أم لا فلم أجدها». فقال (باد): «لا أدري لقد شعرت بأن شيئاً ما سيحدث ولذا آثرت ارتداء سترتي ولم تكن لدي الجرأة لمطالبتك ياسيدي بارتداء سترتك، فلا تؤاخذني».

خرجنا نبحث عن (موروك) في الطرقات الترابية للمدينة التي كانت تبدو كورشة عظيمة حقاً، وتنفسنا الكثير من العجاج والغبارفلم نجده، وسألنا عنه في مخافر الحراس المسؤولين عن حماية مواد البناء، ثم في ميناء (أخيتاتون) الذي كان يعجّ بالمسافرين والقادمين، فلم نجد له أثراً، وعندها اقتنعنا بأن (موروك) الذي حررته من العبودية قد رأى ما في سترتي من ألواح صغيرة من الذهب فأخذها وهرب، وبالتأكيد إنه في طريقه صوب بلاده... فتذكّرت نصيحة ملك (ميتان) لي قبل خروجي من عنده، حيث قال:«انتبه جيداً لخطواتك واحذر ممن تحسن إليهم، فالوردة التي تسقيها ماءً قد تؤذيك بشوكها، والأفعى التي تنقذها من الفخ قد تلسعك... » كما نبهني الكاهن (خوربرست) إلى أن عليّ اتخاذ الحذرقائلاً: «انتبه للثعالب والذئاب ولا تعد عارياً إلي».

وعلى الرغم من خيانة (موروك) لنا، فقد اشفقت عليه لأن أي إنسانٍ قد يغريه بريق الذهب فيقع في الخطأ ذاته، ولربما يشعر الآن بالندم، فهو إنسان إتخذ قراراً خاطئاً في لحظةٍ من اللحظات، وقد يعاني من أثره السلبي طوال حياته، وهذا لا يعني أبداً أن فئته الاجتماعية أو قومه أو عشيرته أو الذين على دينه أو مذهبه كلهم مثله ويشاركونه الذنب الذي اقترفه، فالتعميم من الفردي إلى العام، وأخذ الجميع بسبب خطيئة شخصية

هو السبب في اندلاع لهيب الأحقاد والضغائن بين الجماعات المختلفة، والأحقاد تثير العداء بين البشر. وقلت للفارس (باد): «حقيقةً كنت قد قررت منح (موروك) البيت الذي اشتريناه في (ميغيدو) ومبلغاً من المال ليفتح له محلاً لصباغة القماش، حيث ذكر لي أنه كان عليماً بتلك المهنة قبل استعباده». فقال (باد): «أنا واثق من أنك كنت ستعطيه السترة مع الذهب الذي فيه لو طلبها منك». فقلت: «ربما غلبه الحنين إلى وطنه، فتصرّف هكذا بطيشٍ وتسرّع... أنا لن أؤذيه إن عاد إلينا أو التقينا به لأني أتفهّم وضعه جيداً». فقال (باد): «أقسم أني لن أرحمه ولن أرأف به لقيامه بالسرقة، فلو سرق كل واحدٍ ما يحلو له من أغراض الناس لحدثت الفوضى ولا نتشر الفساد». فقلت: «على كل حال... دعنا نفكّربها سنأكله الآن فأنا اشعر بجوعٍ في هذا الصباح... » وقال (باد) وهويشير إلى سترته المعلّقة بحاملٍ مثبتٍ على الجدار: «بعد الآن تكون سترتي لك ياسيدي». فشكرته وقلت له: «أعتقد أننا لن نحتاج إلى ذهبٍ كثيربعد الآن... كما لانحتاج إلى ثيابٍ دافئة جداً، فلنا العديد من الأصدقاء في مصر». وابتسمت الأميرة (هستيا) ثم قالت: «وأنا معي من الذهب ما يزيد عن حاجتنا فلا تهتما».

- 21 -

طُرِقَ الباب طرقاً خفيفاً، فإذا بصديقي (كاويك) وبيده أسطوانة جلدية رفيعة، فقال مبتسماً: «أردت المرور بكم قبل الذهاب إلى البيت». فأجبته وأنا أشير عليه بالدخول للجلوس في غرفة الضيوف الكبيرة: «عزيزي (كاويك) هذا بيتك ونحن نرحّب بك كل حين. ولكن ماذا دهاك فأنت تحمل باستمرار خرائط أو أدوات عمل معك؟» فنشر خريطةً أخرجها من تلك الأسطوانة على طاولةٍ خشبية يقع عليها ضوء شمعةٍ كبيرة، وقال: «هوريك...هذه الخريطة أعددتها لك بمساعدة زميلٍ لي من دون أن أذكر له سبب إعدادها». وأشار بأصبعٍ من يده اليمنى إلى عدة دوائر صغيرة باللون الأحمر، في حين أمسك بيده اليسرى طرفاً من الخريطة، وقال: «هذه نقاط توزّع مراكز تحضير الموتى للعالم السفلي في مدينة (خمون) القديمة، وكل مركزٍ منها مبنيّ على ترعةٍ كبيرةٍ من ماء النهر الذي تمّ توزيعه على المدينة والحقول بقنواتٍ عديدة، درءاً للمخاطر الناجمة عن فيضانات النهر، وهذه الترع والقنوات تحدّ من حدة غضب إله النيل (هابى) حسبما يؤمن المصريون. »فقلت وأنا أربت على كتفه شاكراً: «أحسنت صنعاً يا كاويك، أتعلم كم من أثرياء (ميتان) بحاجة إلى معماري مثلك يضع لهم

الخطط ويرسم الخرائط؟ لن أنسى معروفك هذا وآمل أن يبقى الأمر بيننا سراً». فسألني : «لم أعرف بعد لماذا تريد زيارة كل هذه المراكز النتنة الرائحة، وهي كلها متشابهة في العمران والوظيفة والأموات التي تنتظر فيها شق بطونها وانتزاع أحشائها؟»ففكرت في الحال فيما سيحدث ل(كاويك) إن فضح زميله أمرهذه الخريطة ، لذا نظرت إلى الأميرة (هستيا) و(باد) نظرة من يتوسل التأييد لكلامه، ثم قلت: «أتعرف لماذا نحن هنا في مصر؟ نحن هنا للبحث عن أخ صغيرللأميرة (هستيا) الأرزاوية، كان قد سرقه بعض تجار العبيد في ميناء (أورا) على الشاطئ الشمالي للبحر ، وقد كلّفنا والده الحاكم بالبحث عنه في مصر لأن لديه معلومات عن بيع ولده إلى صاحب مركزٍ من مراكز دفن الموتى، والأميرة (هستيا) التي ليس لها أخٌ آخر قد جاءت معنا للتعرّف عليه». فحدّق (كاويك) في عينيّ برهةً ثم قال: «ولماذا يرسل حاكم (أورا) الآرزاوية طبيباً ميتانياً ومحارباً ميتانياً في هكذا مهمة؟» ثم التفت إلى الأميرة (هستيا) التي كانت تقف على بعد خطوتين وهي تحمل طبقاً عليه أقداح مملوءة بعصير الفواكه، وقال: «آمل أن تجدي أخاكِ وتعودي به سالماً إلى الوطن». ثم قال لي في خفوت: «أعتقد أن هذه الكذبة قد تنطلي على غيري ياهوريك. أنا لا أصدق ما تقوله، ولكني مقتنع بأن لبحثك في هذه المراكز علاقة بالطب. أليس كذلك؟»وقبل أن أجيب عن سؤاله، طلبت منا الأميرة (هستيا) أن نجلس للشرب.

في ذلك اليوم انطلقنا أنا والفارس(باد) صوب أوّل مركزٍلدفن الموتى وقلت له في الطريق: «اشعر بأن الولد موجودٌ في مركزٍ من هذه المراكز

الأربعة». فسألني: «لماذا (الولد) في أحد هذه المراكز؟ أنا لا أفهم ما تقوله ياسيدي». فأجبته: «سأشرح لك عندما نجد الولد». فنظر إليّ باستغراب وسكت. وكنت آنذاك مقتنعاً بأن البحث في تلك المراكز منتج لأنها الأماكن التي لايريد الناس الدخول إليها لما ينبعث منها من الروائح الكريهة ولما يرون فيها من مشاهد مقرفة تزيدهم خوفاً من الموت والمدافن، وأعتقد أن جواسيس الملكة الكبرى (نفرتيتي) قد بحثوا في شتى الأنحاء عن الولد سوى في هذه المراكز، أو أنهم اعتقدوا بهروب الوصيفة الحبشية صوب الجنوب حيث بلادها فراحوا يفتشون في جنوب مصر وأهملوا شمالها. فقال (باد): «لقد ذكر (كاويك) عن رائحة الموت الكريهة شيئاً، فهل تشرح لي ماذا كان يقصد؟» فقلت له: «إنها رائحة الأموات يا (باد)... من الأفضل لك أن تبقى خارج المراكز حتى لاترى تلك المشاهد التي لن تنساها مدى الحياة، وأنا أدخلها لوحدي». فقال: «ولكن عليّ البقاء معك حيثما تكون». فقال: «تأكّد من أن هذه الأماكن أشد أمناً من قصور فرعون، إذ لا يدخلها إلاّ من يأتي إليها بجسد ميتٍ من أهله أو أقربائه، وسرعان ما يهرب فزعاً من حيث أتى، فالناس تخاف الأموات والمقابر منذ الأزل. ومن ثم فإنّ العاملين على المركز ربما يتوجسون منا خيفة أن نكون مرسلين من دائرةٍ حكومية، ولكنهم لن يرتابوا في طبيبٍ آتٍ لوحده». وتذكّرت في تلك اللحظات ليلةً من حياتي وأنا فتىً صغير، حيث اضطررت أن أنام ليلةًبين قبرين من دون أن أشعر بأي خوف، إلاّ أنني بعد تلك الليلة كلما تذكرتها شعرت بقشعريرة تسري في أوصالي

وسألت نفسي كيف تجرأت على ذلك، وعندما سمع أبي بذلك ضحك ضحكة خفيفة وقال لي: «لا ينام بين القبور إلا السكارى ياولدي..».

وبالفعل، فقد جلس (باد) على مقعدٍ حجري كان مطلاً على ترعة ماءٍ كبيرة تجري إلى داخل المركز، في حين دخلت أنا لوحدي من بوابةٍ خشبيةٍ مهترئة تفوح منها رائحة الموت، وإذا أنا في قاعةٍ مستطيلةٍ كبيرة، فيها حوضان كبيران من ماءٍ آسن، تطفو عليه جثث مرعبة مناظرها، وبين الحوضين ممريؤدي في العتمة إلى الطرف الآخر المجهول لي، فتذكّرت معصرة زيتون قديمة ومعتمة بالقرب من بيتنا ليس بعيداً عن (واشوكاني) في ميتان، حيث كان عمالها يبدون كالأشباح، وكان الضوء قليلاً جداً لأن الناس ما كانت تريد لأحد معرفة ما ينتجونه حقاً من زيت الزيتون، خوفاً من العيون الحاسدة ومن أن يطالبهم محصلو الضرائب بالمزيد من حصة الحكومة في ما ينتجون.

سألت أحد عمال المركز الذين كانوا يبدون كأمواتٍ يتحركون عن مسؤول المركز، فأشار أحدهم بيده إلى غرفةٍ في نهاية الممر ينبعث منها ضوء باهت، فمضيت وأنا أكاد أتقيأ بسبب الروائح والمشاهد التي لا أعلم كيف يصبر عليها هؤلاء العمال الفقراء، بل فكّرت في كل أولئك الذين يكدحون في أعمالٍ وأوضاعٍ شبيهةٍ كهذه ليمنحوا أطفالهم وذويهم لقمة عيشٍ كريمة.

كان المسؤول عن المركز كهلاً أصلع، لا شعر على جسمه شبه العاري، فبدا لي كديكٍ منتوف الريش وغريب المنظر، وكان استقباله لي بارداً وهو

يحدّق في شارة الأطباء متدلياً على صدري، إذ اكتفى بأن سألني عما يستطيع فعله لي أم أني جئت للتأكّد من أنه يقوم بعمل حسب اللوائح والأوامر الصادرة من الدائرة الحكومية الخاصة بمراقبة مكاتب تحضير الأجساد للعالم السفلي. فقلت له: » وددت فقط أن أعلم عما إذا كانت امرأة حبشية تعمل أو عملت من قبل لديك». فسأل بحدة: «وماذا في الأمر، حبشية أو غير حبشية، لكل إنسانٍ الحق في العمل؟» فأجبت: «أنا متفق معك في هذا، ولكني سمعت بأنها كانت مريضة بمرضٍ لم يتمكن الأطباء من علاجها، فأردت رؤيتها إن كانت لاتزال حيةً وموجودة في المركز». فأجاب: «لم تعرض (آيانا) نفسها على أي طبيبٍ كان، رغم استعدادي لدفع ما يترتب على ذلك». فسألت: «ألأنها كانت تخاف على انكشاف تواجدها في (خمون)؟» فسكت برهةً ثم قال: «أعتقد أنكم تبحثون عن (آيانا) التي ماتت منذ شهرٍ في مركزٍ آخر مثل مركزي هذا». فسألت بشغف عن موقع ذلك المركز، فأجاب: «إن مالك المركز والمشرف عليه هو أخي الأكبر، ولكن لا أدري كيف أصف لك الطريق إلى هناك، فلدينا عمل كثير اليوم، وأنا أنتظر قدوم أناسٍ إليّ». فمددت له الأسطوانة التي فيها الخريطة، فأخذها وأخرج الخريطة من الأسطوانة وتمعّن فيها ثم أشار على مركزٍ من المراكز الأخرى وقال لي: «هنا، في هذا الشارع، بالقرب من ترعة الماء الكبيرة». فأخرجت من سترتي قطعةً نقديةً ذهبية ووضعتها على طاولته شاكراً، فابتسم ولم يقل شيئاً، وخرجت مسرعاً وأنا على يقين بأن الرجل كان لطيفاً ومستعداً لمساعدتي ولم يكن كما ظننت أوّل وهلة،

لذا قلت لنفسي وأنا أغادر المركز: «إن الحكم على الناس بسبب صورهم وأشكالهم وألوانهم قد يكون خاطئاً تماما. فلا تنسى هذا يا لاوي هوري».

«هذه هي المرّة الثالثة وأنا أقول لكم، أيها الطبيب الميتاني، بأني لا أعرف شيئاً عن أي امرأةٍ حبشية». هذا ما قاله لي صاحب المركز الآخر الذي رحّب بي بحرارة، إلاّ أنه لم يكن مستعداً لمساعدتي في شيء، فقلت له: «في الحقيقة إن أخاك الذي يديرمركزاً كهذا هو الذي ذكرلي بأن (آيانا) كانت تعمل لديك وقد ماتت منذ شهر». فإذا بالدموع تتجمّع في عينيه الغائرتين، رغم أنه رجل عاش منذ صباه كما يبدو بين أجساد الموتى ويقوم بشقها وتنظيفها كل يوم، ثم جلس على مصطبةٍ قذرةٍ وباردة وقال لي: «نعم... جاءت (آيانا) هاربةً إليّ مع وليدٍ في سلةٍ مغطاة حتى لا يراه أحد. في البداية ظننت أن الوليد ميت جلَبَته للقيام بتحضيره للعالم السفلي، ثم سمعت صوت بكاء المولود الجديد، وهو الصوت الذي حُرِمتُ من سماعه منذ سنواتٍ عديدة، فرقّ لهما قلبي، وذكرت (آيانا) لي أن سيدها الذي تخدمه أراد قتل الوليد الذي وضعته ابنته فطلب من (آيانا) رميه في نهر النيل، إلاّ أنها لم تستطع ذلك، فهربت ولم تعلم إلى أين تذهب، وعندما حل الليل وعلمت أن الوليد يبكي جوعاً، دخلت المركزوتوسلت إليّ أن أنفذ حياته، ففعلت». قال ذلك ومسح براحة إحدى يديه دموعه التي بدأت تسيل على وجنتيه. فسألته: «هل هي (آيانا) الحبشية التي على جبينها وشم على شكل نجمة؟» فهزّرأسه بالإيجاب، فحمدت ربّي على هذه المعلومة، وشعرت بأني أقترب من هدفي، فسألته: «لا تحزن ياعم،

فأنت ترى بنفسك كل يوم الأجساد التي تغادرها أرواحها». فقال: «ولكنها سرعان ما تعود إلى تلك الأجساد عندما تنسل من الأجداث لمحاكمتها بوضع قلوبها في الميزان ومجابهتها بما اقترفت أياديها في حياتها الأرضية». وسكت لحظةً ثم تابع: «لقد تزوجت (آيانا) التي كانت تصغرني بعقدين من الزمن، وعلمت أنها من بلاد الحبشة، تم اصطيادها من قبل تجار النخاسة أثناء رحلةٍ في غفلةٍ من أتباعها، وابتاعها القصر الفرعوني بعد إحضارها إلى مصر، عندما علموا أنها كانت أميرةً». فأردت ترك المجال له ليزداد ثقةً بي، فسألني عن سبب بحثي عنها وأنا من الشمال في حين أن (آيانا) الراحلة من الجنوب، فقلت له: «بصراحة، أريد معرفة مصير الوليد الذي جاءت به إليكَ وأنقذتَ حياته كما ذكرتَ بنفسكَ». فحدّق بي طويلاً وقال: «طوال هذه السنوات الماضية التي ربيتُ فيها الطفل تربيةً حسنة وكأنه ولدي، كنت أخاف عليه من الظهور خارج المركزحتى لايبوح بشيءٍ عن نفسه لأحد، لذا فإنه لم يرَ نور الشمس إلا نادراً ولم يلعب مع سواه من الأطفال سوى أطفال أخي، داخل جدران بيوتنا، ولم يكن يعلم أحدٌ من خارج أهلي وحتى أقربائنا شيئاً عن أصله وأبويه، بل إن (آيانا) لم تذكر لي عن حقيقته شيئاً حتى وهي على سرير الموت». فقلت: «يا عم، أتريدني أن أصدّق بأنها ماتت من دون أن تبوح لك بسرّه؟» فسكت الرجل الذي أسقِطَ في يديه، ثم قال بعد أن استعاد قواه: «عاش الطفل سنواته الأولى بدون إسم خاص، إذ كنا نسميه ب(ابن آيانا)،ولكن سميته ب(سيمو) بعد أن علِمت من

(آيانا) قبيل احتضارها أنه ولد الأميرة الميتانية (دوتي خيبا)». فقبّلتُ في لحظة عاصفة الشجون والعواطف رأس الرجل العجوز وسألت بسرعة: «وأين هو (سيمو) ياعم؟» فقال: «أخاف أن تغدر بنا وتعيده إلى القصر الملكي، حيث هو غير مرغوب وغير معترف به كابن لأخناتون، وقد يقتلونه في الحال». فأقسمت له بالذي خلق الشمس والقمروالسماوات والأرضين بأني لا أسعى إلى إيذاء الولد، وإنما أريد له حياةً أفضل مما يحياه في مركزٍ لتحضير الموتى للعالم السفلي، فارتاح الرجل العجوز وقال: «أنا لن أعيش بعد اليوم إلاّزمناً قصير الأمد، وما أريده ل(سيمو) من قلبي أن يعيش حياةً أفضل مما عشته أنا، فأنا أحبّه وكأنه من دمي ولحمي، ولنتفق على أنك اشتريته مني كعبد، حتى لايظنن أحدٌ بأنك سرقته، وبوجود وثيقةٍ تثبت أنك اشتريته، لن يعترضك أحدٌ بسببه.... ولكن... قل لي الحقيقة: إلى أين تريد الذهاب به؟» فلم أشأ ذكر الحقيقة له كاملةً، إلاّأني لاحظت الصدق في عيني الرجل وشعرت بأنه يحب (سيمو) حقاً، فقلت له: «ياعم... أنا طبيب من ميتان، وجئت إلى مصر لأتعلّم المزيد من علم الطب، وسأتجوّل بعد ذلك في بلدانٍ أخرى، وسيكون (سيمو) تلميذاً لي، يتعلّم الطب، بعد أن رأى ما رأى لديكم من شق الأجساد وتنظيفها بالتأكيد». فابتسم الرجل وقال: «أن يصبح (سيمو) طبيباً، فهذا ما لم أحلم به. فخذه واحرص على أن يصبح طبيباً مثلك، ثم أذكر له الحقيقة عن نفسه وأبويه، ودع له أن يقرر مصيره بنفسه. وسأوصي بأن يسجّل إخوتي هذا المركز بعد وفاتي باسم (سيمو)». فربتُ على كتفه وأنا أقول

لنفسي: «أعتقد بأنه لن يحتاج إلى مالٍ بعد اليوم، ولن يعود إلى هذا المكان إلاّ لزيارتك وزيارة قبر (آيانا) التي أنقذت حياته». وقلت له: «والآن أخبرني أين أجده». فنادى الرجل العجوز أحد عماله بأن يحضر (سيمو)، فشعرت في تلك اللحظات بأن قلبي قد غادر صدري وحلّق فوق رأسي كطائرٍوشعرت أن دمي يتدفّق كشلالٍ عبرجسمي، ولم يعد دماغي قادراً على التفكير، وودت لو يكون ملك (ميتان) و (دوتى خيبا) والفارس (باد) معي في تلك اللحظات.

كان (سيمو) في السادسة من عمره أو أقل بكثير، إلاّ أنه كان يبدو في العاشرة أو أكثر، وكان رفيع القامة بصلابةٍ اكتسبها من الحياة الشاقة في ذلك المركز الرهيب، وكان يشبه جده الملك (توشراتا) إلى حدٍ كبير، مع فارق أنه كان رقيق الحديث كفتاةٍ في عمره، وبدا لي لأوّل وهلة أن جسمه لم ينعم بنور الشمس في حياته. فطلبت منه أن يريني قدمه اليسرى، فرفعها قليلاً لأتفحّصها والاستغراب بادٍ على وجهه، فرأيت الشامة السوداء في أسفل كاحله، وتأكّدت بذلك من أنه فعلاً (كه يو) الذي ولدته (دوتى خيبا) وذكرت لي عن تلك الشامة وعن الوشم على جبين (آيانا) الراحلة.

قال صاحب المركز للفتى برقةٍ وهو يضع يداً على كتف الصبي: «أنت عاشرت ياحبيبي خلال السنوات الماضية مهنتنا المقدسة وأريد لك تعلّم مهنة الطب على أيادي هذا الطبيب الذي أبدى استعداداً لتعليمك، فماذا تقول؟» فسأل (سيمو) الذي لا يعلم بأنه ابن فرعون مصر وأن أمه تسميه (كه يو) أي المصطفى من الناس أو المختار منهم بلغة أجداده الميتانيين:

«وماذا يفعل الطبيب؟» فأجبت: «أنتم هنا تخدمون الموتى والطبيب يخدم الأحياء بمعالجتهم من المرض والجراح والكسور والأرق وغير ذلك». ففغر فاهه وسأل: «وهل لديكم مركزٌ يأتي إليه الأحياء مثل هذا؟» فقلت: «لا... نحن الأطباءالمتنقلون نذهب إليهم في بيوتهم وقصورهم وحتى في ساحات القتال لنداويهم». فبان الفرح على وجهه بشكلٍ واضح، وقال: «أي سأرى القصور من داخلها... ولكن سأفتقد أبي الذي أحبه جداً وأتذكّر أمي التي رحلت إلى العالم السفلي». فاحتضنه الرجل العجوز بشدة، ومسح على رأسه وقال له: «ستزورني عندما تصبح طبيباً، وسنذهب معاً لنقدّم القرابين على ضريح (آيانا) التي غمرت بالحب والتضحية والوفاء هذا المركز الآسن ماؤه والمتعفّنة جدرانه، والآن، هيا لتصبح طبيباً مرموقاً تنظر إليك الناس باحترام وتقدير لنفتخر بك أنا و(آيانا) ومعلمك هذا».

في اليوم التالي، ذهبنا جماعةً، أنا والرجل العجوز و(باد) والأميرة (هستيا) والولد (كه يو) إلى دائرة خاصة متواضعة بتسجيل العبيد، ليكون (باد) و(هستيا) شاهدين إذا تطلب الأمر ذلك. فكان المسؤول يعرف صاحب مركز دفن الموتى جيداً، فسأله عن سبب الحضور، فأجاب الرجل العجوز: «هذا ولدي (سيمو) من زوجتي (آيانا)، أريد بيعه لهذا الطبيب». فاستغرب الموظّف وسأل: «أعلم أنكَ قد أصبحت ثرياً منذ أن أصبحت صاحب المركز الذي تملكه، فكيف تبيع ولدك؟» فأجاب العجوز: «أريده أن يتعلّم مهنة الطب على يديه». فضحك

الموظّف ضحكة ارتج له كرشه الكبيرثم قال:» لاحاجة لك أن تبيعه، ولكن أستطيع إعطاء الطبيب المحترم وثيقة تثبت أنه تبنّى ولدك خوفاً من أن تموت وتتركه من دون معين..». قال ذلك وسكت برهةً، ثم فرك اصبعين ببعضهما من أصابعه الغليظة وقال: «وهذا يتّم بقليلٍ من السيولة ياعزيزي». فقلت: «أطلب ما تشاء، فأنا سأعطيك ما أنا بقادرٍ عليه، ولكن هل لي الحق في إعطاء الولد اسماً جديداً». فهزّ الموظف رأسه بالإيجاب وهو يفرك إصبعين من يده ببعضهما ثانيةً، فقلت له: «إن اسمه الجديد (كه يو). » فشرع في كتابته على رقعة صغيرة من البردي وهو متذّمر، إذ قال: «إسم آخر غير مصري... فماذا دهاكم؟» فمدّ العجوز يده إلى حزامه وأخرج قطعة نقودٍ ذهبية وهو متذمّر من كلام الموظّف، وقال بحدة: «أنا سأدفع، مثلما دفعت لك دائماً لأسبابٍ عديدة، فلو أن ماء النيل تحوّل كلّه إلى ذهب، أو رمال الصحارى الواسعة، فأنتم يا موظّفي الدولة لن تشبعوا». ورمى بقطعة الذهب إليه فالتقطها من الطاولة بسرعة وعضّ عليها بأسنانه القوية ليتأكد من أنه ذهبٌ جيد، ثم فرك اصبعيه مرةً أخرى، فلم أحرّك ساكناً، إلاّ أن (باد) مد له بقطعين نقدتين من المعدن، فأخذهما غير راضٍ وشرع يكتب على ورقةٍ مجهّزة من أوراق البردي للكتابة، وبعد أسئلةٍ عن اسمي واسم أمّ الولد وأبيه وسبب التبنّي، ختم الوثيقة بختمٍ خاص، وقال لي: «خذ وثيقة تبنيك للولد (كه يو) ياصاحبي الطبيب البخيل». ثم قال للعجوز الذي بدت عليه الغضب: » نحن في خدمة الشعب يا عزيزي... هذه هي بلاد (كيميت) التي تعرفها منذ

صغرك يا نازع الأحشاء».

نظر الشيخ العجوز إلى الفتى نظرة وداعٍ قاسية فعانقه طويلاً وودّعه بدموع تترقرق في مآقيه وتمنى الخير والسعادة في المستقبل، وطلب مني أن أحميه وأعامله معاملةً حسنة وأن أعود إليه بالولد إن لم أجد سبيلاً إلى تربيته وتعليمه جيداً، وهو لا يعلم أني وضعت حياتي وحياة (باد) و(هستيا) في خطرٍ كبير من أجله. وكان فراقنا عن الشيخ حزيناً صامتاً لأني ما كنت أعلم بماذا أشكره لحسن صنيعه ذاك،

- 22 -

منذ اللحظة الأولى لاستلامنا (كه يو) في تلك الدائرة ، اهتمت الأميرة (هستيا) ب(كه يو) إهتماماً فائقاً فكانت تحرص على دخوله الحمام كل يوم وتدليكه من قبل خادمة وقص شعره وأظافره وإطعامه طعاماً جيداً وإرغامه على النوم باكراً، حتى بدا خلال فترةٍ وجيزة إنساناً آخر غير الذي أخرجناه من مركز تحضير الموتى للعالم السفلي، وكأنه ابن تاجرٍ ثري ونظيف أو أنه من عائلة رفيعة الشأن مهتمة بالظهور على مستوىً اجتماعي عالٍ، وازداد الفتى محبةً للأميرة (هستيا) التي كانت تعامله كأخيه الصغير وبدأت بتعليمه اللغة الإغريقية، في حين كنت أعلمه اللغة الهورية – الميتانية، وأخضعه (باد) لتدريباتٍ رياضية وقتالية قاسية بالنسبة إلى سنّه وكان (باد) يعلم كيف يحوّل فتى من الفتيان إلى محارب بصبرٍ وأناة. وبدا الفتى (كه يو) وكأن الحياة تنبض في أحشائه الآن، بعد أن كان أشبه بالميت بين الأموات بروائحها المقرفة.لقد أصبح (كه يو) كشجيرةٍ كانت تعيش في أرضٍ جافة فتم حملها إلى شاطئ نهرٍ وتم الاهتمام بالتربة من حولها.

وهنا وجدتني مرغماً على البوح بسرّ مهمتي للفارس (باد) وحبيبته

(هستيا)، ليعلما الأخطار التي نحن فيها، فاستغربا لأني تركتهما حتى ذلك الوقت دون معرفة تامة بمهمتي كلها، ثم قلت بعد أن سردت القصة من أولها: «إن علينا الخروج من مصر حيث لم يبق لنا أي سببٍ للمكوث هنا، ولكني لن أغادر هذه البلاد من دون أن ترى الأم ولدها ولو ليومٍ واحد، فهذا حقها».فأطرق (باد) ملياً ثم قال: «ما تقوله صحيح، ويجب أن ترى (دوتى خيبا) ولدها، إلاّ أن تحقيق ذلك صعبٌ حقاً ومن ثم فقد يخلق ظهور (كه يو) مشكلةً في القصر الملكي، فهو كما علمت الآن ولد الفرعون (أخناتون) من زوجته(دوتى خيبا)، أي أنه الوريث الشرعي الحقيقي لبلاد (كيميت)». فقلت: «هذا أيضاً صحيح يا (باد)، ولكن لا أحد سوانا يعلم هذه الحقيقة، ولا يستطيع أحد إثبات ذلك». فسأل باهتمام: «وماذا إذا فضحت الملكة (دوتى خيبا) الأمر في لحظة غضب؟» ففكّرت في هذا، بل لا زلت أفكّر فيه دائماً منذ أن قابلت الملكة (دوتى خيبا) وقالت لي:«..سأجعل مصر كلها تهتزتحت قدميّ إن عثرت على ولدي... وستعلم طويلة الرأس والرقبة (نفرتيتي) آنذاك من هي (دوتى خيبا) الميتانية». وقلت ل(باد): «نعم لقد هددت (دوتى خيبا) في لحظة غضبٍ ويأس بأنها ستعلن الموضوع على الملأ، إلاّ أني واثقٌ من أنها لاتريد إيذاء ولدها، بل ستدفع حياتها ثمناً من أجل أن يحيا من دون أن يتعرّض لخطرٍ ما، وإن ما يجري الآن في مصرمن أحداثٍ جسام قد تعرّض حياة (كه يو) لخطرٍ كبير، والملكة الكبرى (نفر تيتي) ستفعل كل شيء حتى لا يصل (كه يو) أو أي ولدٍ آخرتلده (دوتى خيبا) الميتانية إلى الحكم،

فهي لا تزال على أمل أن تنجب ولداً ذكراً بعد كل هذه البنات اللواتي أنجبتهن... على كل حال، يجب أن لا نحرم (دوتى خيبا) من رؤية ولدها مثلما تم حرمانها من العيش في وطنها وابعادها عن صديقاتها وبيت أبويها، وسأقنعها بضرورة إخراج (كه يو) من مصر، وليحدث من بعد ذلك فيضان للنيل يقضي عليها من جنوبها إلى شمالها، فهذه القصور والمباني والصروح المشيّدة وهذا الثراء الذي لا مثيل له في الدنيا لم يتم إلاّ بالظلم والفساد وقهر البشروبالسلب والنهب في الحروب. ولكن كيف سنصل إلى الملكة؟» فقال (باد): «ألم يذكر لنا صديقك (كاويك) بأن الملكتين قادمتان إلى (أخيتاتون)؟» فأجبته بالإيجاب بهزّةٍ من رأسي، فتابع: «سنرسل لها (هستيا) لتخبرها سراً بالموضوع». فقلت: «أنا لا أشك بذكاء الأميرة (هستيا) وقدرتها على التعبير بأسلوبٍ لايجيده إلا من نشأ في عائلةٍ ملكية، ولكن عليّ أن أكلّم الملكة (دوتى خيبا) حتى أقنعها بأن خروج (كه يو) من مصر، بل خروجها هي أيضاً فيه السلامة وحسن الاختيارعوضاً عن البقاء في دائرة النار التي تتوسّع وقد تحرق القصور الملكية كلها».وقررت بعد هذا الحديث أن ننتظر حتى نجد طريقاً للوصول إلى الملكة (دوتى خيبا).

بعد أيامٍ قلائل، كنت مضطجعاً على ظهري على مصطبةٍ وسط حديقةٍ أمام البيتٍ الذي نقيم فيه وأنا أفكّر فيما نحن فيه، تذكّرت وجه كلٍ من أبي وأمي اللذين رحلا إلى العالم الآخر من دون وداعي، حيث آلمني ولا يزال يؤلمني ارتكابي خطأ عدم تقبيل أياديهما وعيونهما قبل مغادرتي البيت آخر

مرّة، كما تذكّرت وجوهاً عديدة لآصدقاء ومعارف لي، شعرت بالحنين لهم، وتذكّرت السهول الواسعة الخضراء في فصل الربيع حول مدينة (واشوكاني)، فرأيت من بعيدٍ فتاةً بإزارٍ أبيضٍ رقيق، كأنها عروسٌ أو حوريةٌ تركض عبر حقول القمح المثمرة الباسقة سنابلها، وتنظر إليّ وأنا واقف على طرف الحقل بلا حراك، فإذا بها (دوتى خيبا) التي أ عجبت بها أكثر من كل امرأةٍ في حياتي، إلاّ أنها كانت حزينة لدرجة أن شعرها الطويل بدأ يحترق في نور الشمس، ثم وجهها، ومن ثم كتفاها وثوبها ويداها، إلى أن احترقت تماماً، في حين ظلّت سنابل القمح تتماوج بهبوب ريح عليها، فشعرت بأن أوصالي تحترق أيضاً، وفجأة سمعت صوت الأميرة (هستيا) تناديني: «هوري... هوري... ستحرقك الشمس». ففتحت عيني لأرى الشمس تغمرني بنورها القوي، فقد انحسرظل الشجرة التي كنت مستلقياً تحتها، وقد أصبح الوقت ظهراً، حيث لا يتحمّل المرء الحرارة الشديدة آنذاك في بلاد الفراعنة. وسمعت أصواتاً كثيرة مختلفة، فنهضت من مكاني فرأيت الأميرة (هستيا) تقف أسفل سلّم خشبي طويل، صعد عليه (باد) ليرى ماذا يحدث خارج المنزل، ولماذا قرع الطبول والنفخ في الأبواق التي تجلجل من قريب، فناديت (باد) سائلاً عما يرى، فقال: «أعتقد بأن الفرعون سيخطب خطاباً في الجماهير التي تتوافد على الساحة الكبيرة في المدينة». وسرعان ما ارتدينا أجمل ما لدينا من ثياب وانطلقنا صوب الساحة التي كانت مكتظة بآلاف الناس القادمين من مدينة (طيبة) وسواها ليقدّموا لفرعونهم (أخناتون) الهدايا التي تعبّر عن

ولائهم له وإيمانهم بالإله (آتون) الذي ترك الفرعون من أجل نشر دينه (طيبة) وشرع يبني هذه العاصمة الجديدة من دون أن يكون فيها صنم لأي إلهٍ من آلهة أبائه وأجداده وفي مقدمتها (آمون).

كان مشهداً مهيباً حقاً، لم يرَ أحدٌ منا في حياته حشداً كبيراً مثله بهذا القدر، حيث كانت آلاف من الناس تقف متراصةً كيفما نظرت، أسفل تلةٍ صغيرة مزدانة بسرادق كبير ترفرف فوقه رايات كثيرة باللون الأبيض في وسطها شمس كبيرة، مما ذكّرني برايةٍ ميتانية شهيرة ترمز إلى الإله الخالق للكون، حيث أنه نور السموات والأرض، وجعل هذا المشهد الفتى (كه يو) الذي كان يقف بجواري فاغر الفم طوال الوقت، في حين كانت الأميرة (هستيا) تقف إلى جانب (باد) وبدت غير مهتمة كثيراً بما يجري، فقد رأت حشوداً كبيرة من قبل في (أورا) وغيرها من المدن الآرزاوية وإن كانت أقل عدداً من البشر مما أمامنا الآن.

رأيت أمامي معمارياً من المعماريين الذين كانوا قد حضروا وليمة العشاء الفاخرة لكبيرهم، يشق له خدمه الطريق بين الناس، عساه يصل إلى مكانٍ أعلى مما هو فيه، فسألته: «ماذا يحدث اليوم ياسيدي؟» فأجاب وهو يتصبب عرقاً من وجهه: «ستسمع الآن ما يقوله الفرعون... إنه عجيب... إنه عجيب..». فقلت: «أنا أرى إلى جانبيه حاشيةً كبيرة». فقال بعد أن وضعوا له كرسياً صعد عليه ووقف ليرى المشهد العظيم من حولنا: «نعم... لقد جاءت الملكتان (نفر تيتي) المصرية والأخرى الميتانية من (طيبة) ومعهما حاشية عظيمة، إلاَّ أن كهنة (آمون) أقنعوا بعض أتباع

الفرعون بعدم اللحاق به وهددوا بأنهم سيعيدون العاصمة إلى (طيبة) ولن يتخلوا عن إلههم (آمون)»، فشكرته على المعلومة الجديدة، ورحت أحدّق جيدا في السرادق الكبير عسى أن ألمح الملكة (دوتى خيبا)، فقالت (هستيا): «أنظروا.. أنظروا... هاهي الملكة (دوتى خيبا) تقف على يمين الفرعون والملكة (نفرتيتي) ذات القلنسوة العالية على يساره، حيث تبدو أطول قامةً وعنقاً من (دوتى خيبا)، وها هي الوصيفة التي تجيد الإغريقية واقفةً خلف (دوتى خيبا)». وقال (باد) مستغرباً: «أرى الفرعون في عزّ شبابه!» فقلت: «إنه دون الثلاثين من العمر، وسيهرم بسرعة لكثرة ما ستعترضه من مشاكل مع الكهنة ومع (نفرتيتي) ولربما مع قادة جيوشه أيضاً».

رفع الفرعون يده اليسرى التي كان يحمل بها صولجاناً ذهبياً فسجد البشر له، إلا قلائل، هنا وهناك، بين الجموع الحاشدة، وهذا دليلٌ على أن ليس كل المحتشدين أدنى سرادقه المهيب مؤمنون بدين (آتون)، وعليه الآن أن يقنع الجميع بأن ما يدعو إليه هو الأصح والأفضل للمصريين وللشعوب التي يتحكّم بها المصريون، قرعت الطبول ونفخ في الأبواق، وتقدّم الفرعون خطوةً إلى الأمام حتى خرج من ظل السرادق ليعكس صولجانه الذهبي نور الشمس التي هي رمزالإله (آتون)، فصمت البشر صمتاً تاماً، ونظرت في تلك اللحظة إلى الفتى (كه يو) وتحسرت لوضعه حقاً، وسألت نفسي عما سيعلم قبل خروجنا من مصر أن الفرعون الذي يخطب في كل هذه الجماهير المحتشدة أدنى سرادقه ليس إلا أباه، وهو

الذي عانى من مرارة الحياة في ظلمة مركز لتحضير الأجساد الميتة للعالم السفلي منذ طفولته.

بدأ الفرعون كلامه الذي كان يتم ترديده من قبل مجموعاتٍ صغيرةٍ مدرّبة منرجالٍ متوزّعين بين الجماهير، فقال:

«يا شعب مصر العظيم، اسمعوا كلامي حتى نهايته من دون هتافات ونداءات، فإن ما سأقوله لكم اليوم سيفتح لبلادنا الطريق لبناء مستقبلٍ مشرق، وأنا لا أريد الانتقال إلى العالم الآخرقبل أداء واجبي الذي كلّفني به أبي الإله الأعظم (آتون)، ألا وهو تحريرالمصريين من سلطان الكهنة الآمونيين الذين امتصوا دماء شعبنا ونهب الحكام الفاسدون في ظلهم ثرواته وزجّ قادة الجيوش المتخمين شبابه في حروبٍ لا تنتهي مع جيراننا من حول مصر..». فبدا الناس وكأنهم صعقوا بكلماته، بين مؤيدين كانوا الأغلبية الساحقة وأقليةٍ لاتزال معارضة وترفض المساس بدين (آمون) وكهنته الذين يخاف منه المصريون أكثر من الفرعون ذاته لأنهم يملكون مفاتيح الحياة السفلى ويمارسون السحر بشكلٍ عجيب. وتابع الفرعون رغم الهتافات والصياح: «نعم... لقد كلّفني أَبي السماوي، الإله الأعظم (آتون) بأن أقول لكم الحق، والحق هو أن (آتون) هو الذي يأتيكم بالنور ويمحو الظلام، يريكم طريق الخير ويبعدكم عن طريق الشر، وهو الذي لايقبل أن ينازعه إله آخر في حكم السماء والأرض، وفي حكم الإنسان وما سخره له من نباتٍ وحيوانٍ وطيورٍ وكواكب ونجوم وما على الأرض وما في جوفها وكل ما في البحر من أسماكٍ وحيتان وما لايعرفه البشر، بل

والسحاب والرياح التي تدفعها، كلٌ من خلق (آتون)، وقد آن الأوان للتخلّص من عبوديتكم لتلك الآلهة التي لاتنفعكم ولا تضرّكم بشيء... ومنذ الآن أنا الوحيد الذي من خلاله تتعرّفون على إله الشمس (آتون) وأسمح للنساء أيضاً أن يقدمن الضحايا والقرابين للإله آتون، بعد أن كان هذا ممنوعاً عليهن من قبل كهنة آلهتكم البائدة». ما دفع النساء بين الحشد الكبير إلى الزغردة، في حين أن بعض الرجال صرخوا معترضين بأصواتٍ عالية. وتوقّف الفرعون برهةً عن الكلام، وهو لايزال رافعاً يديه إلى السماء وكأنه ينتظر منها تأكيداً لكلامه برعدٍ أو مطرٍ أو صاعقة، وساد الصمت في الميدان الكبير الذي بدأت تفوح منه رائحة كريهة عن الحشد الكبير للناس في ذلك اليوم الحار في نهاية الصيف. ثم قال الفرعون: «سأكتفي بهذا الآن لأنكم مرهقون من العمل، ولكن قبل الانتهاء من اجتماعنا هذا، سأتلو عليكم الدعاء الآتوني الذي عليكم حفظه وتدوينه ونقشه في الألواح وتعليمه أولادكم وأحفادكم ونشره في العالم كله، فرددوه ورائي لتسمعه السموات:

«ما أجملَ مطلعكَ في أفق السماء! أيْ آتون الحيّ، مبدأَ الحياة!
فإذا ما أشرقتَ في الأفق الشرقي ملأتَ الأرضَ كلَّها بجمالك.
إنك جميل، عظيم، برّاق، عالٍ فوق كلّ الرؤوس.
أشعّتُك تحيط بالأرض، بل بكلّ ما صنعتَ.
وإذا ما غربتَ في أفق السماء الغربي خيّم على الأرض ظلامٌ كالموت.
وخرج كلُّ أسد من عَرينه، ولَدغت الأفاعي كلُّها ...

...

ما أبهى الأرضَ حين تُشرق في الأفق!
وحين تضيء– يا آتونُ– بالنهار! تدفع أمامك الظلامَ.
وإذا ما أرسلتَ أشعّتك
أضحت الأرضان [مصر شمالاً وجنوباً] في أعياد يومية.
واستيقظ كلُّ مَن عليهما، ووقفوا على أقدامهم

...

فإذا غسلوا أجسامَهم لبسوا ملابسهم.
ورفعوا أيديهم يمجّدون طلوعك.
وأخذوا في جميع أنحاء العالم يؤدّون أعمالهم.
واستراحت الأنعامُ كلُّها في مراعيها.
وازدهر الشجرُ والنبات، ورفرفت الطيورُ في مناطقها.
وأجنحتُها مرفوعةٌ تسبّح بحمدك.
ورَقصتْ كلُّ الأغنام وهي واقفة على أرجلها. وطار كلُّ ذي جناحين.
كلُّها تحيا إذا أشرقتَ عليها.

...

أيّها الإلهُ الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه!
يا مَن خلقتَ الأرضَ كما يهوى قلبُك!
ألا ما أعظمَ تدبيرَك! يا ربَّ الأبدية!...».
(هذا الجزء من النص مقتبس من «ابتهال الشمس بين أخناتون

وزَرْدَشْت» للدكتور أحمد الخليل)

وهكذا استمر الفرعون (أخناتون) في تلاوة دعائه الآتوني، الذي انشغلتُ عنه بالتفكير في طريقةٍ للوصول إلى (دوتى خيبا)، رغم تأّثري الشديد بروعة تعابيره وقوة طرحه... وعلمت آنذاك أن الفرعون يسعى لأن يجعل من نفسه صورةً لإلهه (آتون) وابناً له وليمتلك بذلك كل أسباب القوة بانتزاع السلطة الدينية من كهنة (آمون)، وهذا خطيرٌ جداً، في مصر التي مرّت عليها آلاف الأعوام في الخضوع التام للكهنةوالسحرة الأقوياء، وشعرت بالخوف ينتابني على مصير الملكة (دوتى خيبا) وولدها (كه يو)، حتى ولو أصبح ملكاً في مكان أبيه (أخناتون). ثم تذكّرت في هذه اللحظات صاحب المركبة التي أبحرنا بها إلى (طيبة) الذي قال لي بأن الفرعون (أخناتون) قد خطا خطوةً في الإتجاه الصحيح إلاّ أنها لم تكن كاملة، وعلمت فيما بعد أن دين (أخناتون) لم يرفض أن تعبد الناس آلهةً أدنى من (آتون) مكانةً، ولكنه لم يكترث بذلك طالما الأغلبية من المصريين ستؤمن مثله بفكرة التوحيد التام، التي ربما أخذها من الكنعانيين أو من الزاغروسيين أو الغوديئين (الجوديين) الذين رست سفينة نوح عليه السلام على جبلٍ من جبالهم... وكانت الفكرة عرضةً للمحاربة والنكران بين تلك الشعوب أيضاً. ولاتجري الأمور كما يحب البشر، حتى ولو كانوا ملوكاً أو فراعنةً جبارين يعتقدون أنهم آلهة أو أبناء ألهة.

بعد أيامٍ قليلة، التقيت بصديقي (كاويك) وسألته فيما إذا كان قادراً على مساعدتي للقاء الملكة (دوتى خيبا) من خلال استثمار علاقة معلمه وزملائه

المعماريين بالقصر الفرعوني، فقال: «أتعلم أن تحت كل هذه القصور شبكةٌ واسعة من السراديب السريّة التي تنقلك من قصرٍ إلى آخر، ومن الصروح المشيّدة إلى نهر النيل، ومنها إلى المدافن البعيدة أيضاً، ولايمكن لأحدٍ غير عليم بالرموز التي على أبواب وجدران تلك السراديب أن يهتدي إلى الطريق الصحيح، فقد يقع في حفرةٍ عميقة لا خروج له منها أبداً، والتي فيها أفاعي أو أشواك معدنية حادةٌ مدببة تم تثبيتها لتنغرس في أجساد الذين يخطئون طريقهم فيها؟ وهل تعلم أن العمال الذين كانوا يشقون هذه السراديب في (طيبة) و(ممفيس) كانوا يقتلون جميعاً قبل أن يخرجوا من ظلماتها إلى النور، أما هنا فقد أمر الفرعون (أخناتون) بعدم قتلهم وإنما بنقلهم مع عوائلهم إلى قريةٍ في الصحراء ليعيشوا هناك بقية حياتهم بعيداً عن البشر، ويمنع على أحدٍ من الناس الاتصال بهم». فقلت: «لا... لا أعلم. قل لي كيف أرى الملكة بدون هذه المقدمات والشروح». فقال: «أما أنا فأعلم من خرائط معلمي الكبير، المحفوظة في بيتنا بسرية تامة، أي السراديب يمر من تحت أقدامنا ويؤدي إلى قصر الملكة (دوتى خيبا) الذي لم يكتمل بناؤه بعد... المشكلة تكمن في أن آخر بابٍ للسرداب منحوتٌ من حجر الصوان الثقيل ولايمكن فتحه إلاّ من الطرف الداخلي. بمعنى أنك لن تصل إلى الملكة (دوتى خيبا)من دون إذنها».

رغم هذه المعلومات القيّمة فإنني لم أقل ل(كاويك) سبب إصراري على لقاء الملكة (دوتى خيبا) وأثناء ذكره لي عن السراديب كنت أبحث عن الجواب الأقرب إلى الاقناع فيما إذا أراد معرفة سبب الزيارة، ووجدت أن

أفضل جوابٍ هو كالتالي:قريباً سأعود إلى مملكة (ميتان) وقد تريد الملكة إرسال رسالةٍ ما إلى أبيها الملك (توشراتا). إلاّ أن (كاويك) لم يسألني وإنما وعدني بتحقيق لقاء بيني وبين الملكة إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

في اليوم التالي، بينما كنا نتجوّل في سوقٍ واسعةٍ اعتاد الناس إقامته كل أسبوع مرّة واحدة في أكبر ساحات المدينة، وإذا بإحدى وصيفات الملكة مع زميلةٍ من زميلاتها تقتربان منا وتقول إحداهما للأميرة (هستيا): «الوصيفة الأولى للملكة (دوتى خيبا) أرسلتنا للبحثِ عنكِ أيتها الأميرة الجميلة». فسألَت (هستيا) بشغف: «ومن أين تعرفينني؟» فأجابت مبتسمة: «أنا وزميلتي كنا نخدمكِ عندما جئتِ بهديةٍ إلى الملكة في مدينة (طيبة)». فنظرت (هستيا) إليّ نظرة تساؤل ثم قالت للوصيفتين الصغيرتين جسماً واللتين تبرجتا بشكلٍ مثير وجدته مقرفاً حقاً: «طيب. كيف سألتقي بالوصيفة الأولى التي تتكلّم الإغريقية، أليس كذلك؟» فقالت الفتاة: «نعم... هي ياسيدتي... ستأتي الوصيفة الأولى إلى حيث تقيمين، وقد نكون نحن معها إن أمرَت بذلك... ولكن لا ندري إلى أين».فأشرت على (هستيا) أن تأتي الوصيفتان معنا لأننا حقيقةً لانعلم جيداً كيف نصف الطريق إلى حيث المنزل الذي نقيم فيه، وكان لنا ما نريد، ولكن رغم إصرارنا على أن تدخلا معنا إلى المنزل امتنعتا، واكتفت الأخرى بقولها: «هذا البيت لايمكن أن يخطئه أحد بسبب هذه البوابة السوداء التي تعلوها أغصان هذه الشجرة من جهة الداخل... حسناً إلى وقتٍ آخر». وبدأنا نسأل بعضنا بعد ذهاب الامرأتين عن سبب زيارة

الوصيفة الأولى لنا في مكان إقامتنا، إلاّ أنني في قرارة نفسي كنت أشعر بأن الملكة (دوتى خيبا) هي التي تريد لوصيفتنا اللقاء بنا وليس لأن الوصيفة تريد زيارة الأميرة (هستيا).

قبيل المساء، في نهاية الأسبوع، وأنا أنتظر بشغف مجيء (كاويك) إليّ، عساه وجد لي طريقاً للإتصال بالملكة، سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب، فأراد (كه يو) الذهاب لفتح البوابة، فطلبت منه البقاء حيث هو، فذهبت (هستيا)، وإذا بالوصيفة الأولى في أجمل أزيائها وزينتها الغالية الثمن، وخلفها الامرأتان الصغيرتان تحملان طبقين كبيرين تم تغطيتهما بغطائين من القماش المزيّن، وخلفهما عدة حراسٍ مدججين بالسلاح، وأحدهما يجرّ عجلاً سميناً وراءه. فنهضنا من أماكننا وأسرعنا للقاء الضيوف، فدخلت الوصيفة تتبعها الامرأتان الصغيرتان، بعد أن قالت للحراس: بإمكانكم العودة إلى القصر. فسأل الذي رسن العجل في يده: «وهذا؟»، فقلت للفارس (باد): «هيا خذه منه»،. ثم أغلق (باد) البوابة الكبيرة بعد أن جرّ العجل بصعوبةٍ وراءه إلى الباحة الكبيرة للمنزل.

قالت الوصيفة الأولى بعد أن عانقتها (هستيا) بحرارة وقالت لها بالإغريقية كلمات ترحيب: «الملكة (دوتى خيبا) أرسلت لكم هدايا جواباً عن هديتكم لها، والعجل أنتم أحرار فيه، إما تذبحونه وتشوونه لكم وإما تدعونه يعيش أو تبيعونه كما تريدون». وراحت ترفع الغطاء عن الطبقين، فإذا بالذهب يلتمع نقوداً وقلائد وأساور وجنازير رفيعة متقنة الصنع، وسط إعجاب ودهشة (هستيا)، فقلت لها: وأنا أدعوها

للجلوس على أريكةٍ مريحة وكبيرة: «أنا لم أرسل للملكة سوى دمية خيزرانية، فما هذا كلّه؟ بالتأكيد إن الفرعون (أخناتون) بحاجة إلى هذا الذهب وهو يبني عاصمته الجديدة». فقالت: «أنا أنفّذ أوامر سيدتي، لا أكثرولا أقل، ولكن أعتقد أن دميتك تلك أثمن هديةٍ تلقتها سيدتي منذ أن صارت ملكة. وقد أكّدت لي بأن للأميرة(هستيا) الحق في اختيار ما تجده أجمل وأثمن من بين هذه الهدايا».

لقد أسقطتُ في يدي وما عدت أعلم كيف أتصرّف والوصيفة الأولى لملكة مصر نزلت ضيفاً علينا، وهي بجمال قوامها وأنوثتها ونظرات عينيها الثاقبتين كلوزتين كبيرتين يعلوهما قوسان رفيعان من حاجبين مذّهبان وبفمها الوردي الذي شفته الدنيا أكبر من العليا وصدرها العالي تجعل أشد الرجال صبراً ووقاراً يفقد صوابه ولايدري ماذا يفعل أو يقول في حضورها. إلاّ أن الأميرة (هستيا) التي لاحظت ارتباكي في تلك الحال قد قالت: «إن أجمل وأثمن هديةٍ لي هو قدومكِ إلينا يا (أليسا)، ولن تخرجي من عندنا إلا بعد أن تاكلي من لحم ذاك العجل». فكانت كلماتها أشبه بأمرٍ للفارس (باد) الذي حمل سكيناً كبيرة ومضى إلى الباحة، وفتح البوابة ونادى بعض الرجال طالباً منهم مساعدته في ذبح العجل وسلخ جلده وتنظيفه، ويأخذوا معظمه لهم، في حين يشوي بعضهم شيئاً منه لنا، فكان عرضاً مغرياً لأولئك الرجال وحلاً سريعاً لتحضير لحم مشوي طازج لضيوفنا. وسارعت (هستيا) لتحضّر بعض الخضار لنأكلّه مع اللحم، فنهضت الامرأتان الصغيرتان وقالت إحداهما

للأميرة (هستيا): «نحن هنا للخدمة يامولاتي، فمتى كانت الأميرات يخدمن الوصيفات؟» وفي تلك الأثناء بقينا أنا والوصيفة الأولى (أليسا) لوحدنا، في حين ظل (كه يو) جالساً في زاويةٍ من غرفة الاستقبال منكبّاً على تعلّم دروسه في اللغة الميتانية – الهورية، وإلى جانبه شمعةٌ كبيرة تضيء ما حوله، فلاحظت أن (أليسا) تنظر باهتمامٍ إليه، ولذا قبل أن تسأل أي سؤالٍ عن الفتى، أسرعت إلى القول: «هذا تلميذي (كه يو)». فنظرت إليّ باستغراب وسألَت: «كه يو؟ هذا ليس باسم إغريقي أو مصري، إلاّ أني سمعت الملكة (دوتى خيبا) تنادي به مراتٍ عديدة وهي جالسة لوحدها». فقلت: «إنه إسم ميتاني – هوري، ولربما تذكّرت الملكة أحداً بهذا الإسم من أصدقائها عندما كانت صغيرة في (واشوكاني)». ونهضت من مكاني لأجلس بالقرب منها، فإذا برائحة عطرها تجذبني وتسحرني، وشعرت أنها أحبّت اقترابي منها أكثرمما سمحت به لنفسي، وسألتها بصوتٍ خافت: «قولي لي الحقيقة، لماذ أنتِ هنا الآن يامن إسمها إسم إلهة الحب الإغريقية؟» فنظرت حولها بعيونٍ ألهبها كلامي عاطفةً لتتأكّد من أن (هستيا) والوصيفتان الصغيرتان في غرفة الطعام وتتحدث (هستيا) معهما بصوتٍ عالٍ وهن يضحكن، وقالت وهي تقرّب صدرها من كتفي: «نحن النساء كالسواقي لا نحب إحتباس الماء عنا... ومنذ أن رأيتك أمام بوابة القصر في مدينة (طيبة) وأنا أبحث عن طريقةٍ للوصول بها إليك». وضحكت ضحكةً ذات رنةٍ محبوبة، ثم تابعت: «أنا هنا لأن سيدتي الملكة أرسلتني إليك... إنها تريد معرفة الجديد عما وصلت إليه

من معلوماتٍ في (خمون)». فقلت لها: «جميلتي أليسا، لن أقول لكِ شيئاً سوى أنني أودّ زيارة الملكة ولو لوقتٍ قصيرٍ جداً». فقالت: «ولكن الملكة لاتريد حضورك إليها عبر بوابات القصر». فقلت: «سمعت بأن تحت المدينة سراديب». فضحكت وقالت: «أنت تنبش عن أسرار المصريين ياعزيزي. سأسأل سيدتي الملكة، وسآتيك ثانيةً، ولكن إلى السوق، على رأس الطريق المؤدي إلى نهر النيل، وكن لوحدك رجاءً». فقلت: «لا... لقد أقسمت لأب هذا الفتى (كه يو) أن لا أدعه لوحده مع أناسٍ آخرين، فهو تلميذي الذي عليه أن يتعلّم مني، ثم إن أعزّ أمنية للفتى هو أن يرى القصر من داخله». ففكّرت (أليسا) ثم قالت: «تمام، سأذهب الآن قبل أن تخلد سيدتي للنوم، فقد يدخل عليها الفرعون (اخناتون) هذه الليلة، ولايبقى مجال لأحدّثها». قالت ذلك ونهضت من مكانها، ونادت الامرأتين للذهاب، مما أزعج الأميرة (هستيا) إزعاجاً شديداً وتمنّت بقاء (أليسا) التي أصرّت على الذهاب، ووضع (باد) سكينه الدامية من يده واقترب من الوصيفة الأولى التي وصلت إلى بوابة المنزل ووراءها الوصيفتان،وقال لها بأنه يعتبر ذهابها إهانةً له، فوعدت بأن تتناول الطعام مرةً معنا، في هذا المنزل أو في مكانٍ آخر، ثم أغلق البوابة خلفها ونحن غير راضين عن ذهابها دون مشاركتنا طعام العشاء.

- 23 -

لم أعد أطيق صبراً وأنا أنتظرمع (كه يو) مجيء الوصيفة الأولى التي طلبت مني التجوّل في الطريق المؤدي إلى النيل، كل يوم بعد الظهر، حتى أن الفتى (كه يو) بدأ يشعر بالملل وسألني: «ماذا نفعل هنا كلّ مرة ياسيدي؟» فأجبته بأننا سنذهب إلى قصر الملكة لأنها مصابة بوعكة صحية، ولكن لكثرة ضيوفها فإن علينا الانتظار إلى حين قدوم خبرٍ منها، وطلبت منه أن يقول لمن يسأله عن إسمه أنه يدعى (سينو) وقلت له: «إحذر فلا توسّخ ثيابك أو حذاءك، فنحن سندخل على ملكة». وهنا سأل الفتى: «وبأي إسم أجيب الملكة عندما تسألني عن اسمي؟» فلم أعد أعلم ماذا أقول له وتأثّرت حقاً بشكلٍ لا يوصف لأني ما كنت أستطيع البوح بحقيقة علاقته بزوجة الفرعون الذي تهابه مصر وما حولها، فقلت: «قل لها ما تشاء... نعم... أي الإسمين تختار، فأنت (سينو) وأنت (كه يو)، وليس (سينو) سوى (كه يو)». فنظر الولد باستغرابٍ إلي وسأل: «يبدو أنك ستبكي يا معلمي».

وأخيراً أطلت علينا الوصيفة الأولى بثيابٍ غير مناسبة لجمالها ومكانتها وقد غطّت رأسها بغطاءٍ يخفي معظم شعرها ووجهها، وفي البداية

ظننتها امرأة من عامة الشعب، وقالت هامسةً لي: «اتبعاني، ولا تنظرا إلى حولكما». ومضت ونحن نتبعها بسرعة، إلى أن دخلت بيتاً خرباً، له بابٌ في أدنى حفرة، كأنه يؤدي إلى مقبرة عائليةٍ قديمة، وطلبت مني أن أدفع الباب بقوّة، ففعلت وانهمر الرمل من أعلاه ومن جانبيه، ودخلنا إلى غرفةٍ معتمة، ثم أغلقت الباب وراءنا، وإذا بالفتى يسأل بصوتٍ عالٍ: «أهذا باب قصر أم مدفنٍ من مدافن الشحاذين؟» فأومأت إليه أن يسكت، ثم أخرجت (أليسا) شمعةً كبيرة من بين ثيابها وأشعلتها بعودٍ له رأسٌ أصفر يشبه رأس عصفورٍ صغير، فسمعت له صوتاً غريباً أشبه بفحيح أفعى. وراحت (أليسا) تمشي أمامنا وتقول بين الحين والحين: «إنتبها إلى الحفرولا تبتعدا عني، فإن فيها أفاعي وأشواك معدنية مدببة وحادة». وكانت تقف بين الحين والحين وتقرّب الشمعة من الجدار لتنظر في رسوم ورموزٍ في صور حيوانات ونباتات، ثم تتابع المسير في سردابٍ بدا وكأنه بلا نهاية. وفي لحظةٍ من اللحظات كادت تقع في حفرةٍ رأيت فيها أفاعي عديدة فأمسكت بها من خاصرها وسحبتها إلى الوراء، فوقع قفاها الدافىء بين ساقيّ، فاحمرّ وجهها والتفتت صوبي وعيناها مغمضتان، فانتابني شعور غريب لأني لم أضم امرأةً بين ذراعي هكذا منذ أن غادرنا مدينة (واشوكاني)، ومنذ تلك اللحظة علمت أن هذه المرأة قد سحرتني وما فعلته الآن سيكون بداية معركةٍ طويلة الأمد في نفسي، أنا الرجل المكلّف بمهمة ملكية، وأنا الإنسانٍ الذي له غرائزوشهوات، والنفس أمّارة بالسوء...

قلت لأليسا في نهاية السرداب: «سأدخل على الملكة لوحدي فأنا أريد محادثتها على انفراد برهةً من الزمن». فأجابت: «كما تشاء، سآخذ الفتى إلى غرفتي».، وهكذا استطعت الدخول إلى الغرفة الواسعة المزدانة كسائر الغرف الملكية، رغم أن البناء لم يكن قد اكتمل، حيث أشارت علي (أليسا) بعدم إحداث ضجة وعدم إخافة الملكة فقد تكون غارقةً في التفكير. ورأيتها في مقصورةٍ مضاءة إضاءة ضعيفة، جالسةً وحيدةً على حافة مصطبةٍ عليها وسائد كبيرة متقنة الصنع ومعدة للجلوس في راحةٍ تامة، وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً أسود اللون، وتبدو كخادمة معبدٍ وثني وليس كزوجة فرعون مصر، فناديتها بصوتٍ خافت: «سيدتي الملكة!» فرفعت رأسها ونظرت إليّ هنيهةٍ ثم نهضت من مكانها واقتربت مني وكأنها أرادت التأكّد من أن الزائر القادم ليس غريباً، وقالت متلهفة لمعرفة الأخبار: «هوري... ماذا وراءك من أخبار؟ ماذا سمعت عن (كه يو)؟ وأين هو الآن؟» لم يكن باستطاعتي الكذب عليها وهي التي وضعت فيَ ثقتها التامة وأنا أملها الكبير في إيجاد ولدها، إلاّ أنني خفت عليها من صدمةٍ قوية في حال إعلامها بالحقيقة، فتقوم بحركةٍ صاخبة تجعل وصيفاتها المنتشرات خارج مقصورتها يشعرن بأن حدثاً ما قد حدث فيسرعن المجيء إلى الغرفة، لذا قلت بصوت لا يسمعه أحد سواها: «اطمئني ياسيدتي، دعيني أوضّح لكِ من دون أن يسمعنا أحد. فأمسَكَت بإحدى يديّ وجرتني بيدٍ ضعيفة لها إلى المصطبة وطلبت مني الجلوس، فأبيت، ورجوتها الجلوس في مكانها، فظلت واقفة وفي عينيها اللتين

اغرورقتا بالدموع ألف سؤال وقالت: «لا تهتم، لا أحد يدخل إلى هذه الغرفة من دون إذن مسبقٍ مني سوى الفرعون... والفرعون لا يأتي إلي من دون إعلام وصيفتي الأولى (أليسا)... أنا عندما أراك يا هوري أشعر بأني لازلت تلك الفتاة الميتانية التي كانت تركض على ضفاف الجداول خلف الخرفان والأرانب وصغار البط في (واشوكاني)... أرجوك أن تقول لي الحقيقة، هل (كه يو) على قيد الحياة؟» فقلت لها بهدوء: «سيدتي، الأمير (كه يو) حيّ يرزق وبصحةٍ جيدة وهو يتعلّم اللغة الهورية - الميتانية بسرعة، كما يتعلّم الإغريقية والمبارز بالسيف». فتأوَهَت عجباً وقالت: «أخاف أن يجرح نفسه... أين هو الآن ياهوري؟» فقلت: «سيدتي الملكة، أرجوكِ لا تستعجلي. عليّ التأكيد لكِ بأن الأوضاع ستسوء جداً في (أخيتاتون)، بل في مصر كلها، وعلينا إخراج (كه يو) من هذه البلاد». فتنهدت وجلست على طرف المصطبة خائرة القوى، ثم رفعت رأسها إليّ وقالت: «لا أدري كيف أوفي لك بهذا المعروف يا هوري، أشعر لأوّل مرة منذ أن فقدت ولدي أني لازلت أحيا. البارحة مساءً قدم الفرعون إليّ، وكان مما قاله أنه خائفٌ مما قد يحدث، فهناك آلاف الآلاف من المصريين الذين لايزالون متمسكين ب(آمون-رع) ويعتقدون أن سبب القحط في البلاد هو التمرّد على إلههم وعدم اتخاذه بنصائح كهنة معابدهم، والسحرة يحيكون الدسائس ويمارسون طقوساً غريبة ليدفعوا به إلى الجنون، ولذا يرى (أخناتون) أنّ عليّ الذهاب لفترةٍ وجيزة إلى مملكة (ميتان) حتى تهدأ العاصفة السياسية وينجح الإصلاح الديني...!» قالت ذلك وكأنها تهزأ

ب«الإصلاح الديني»، ثم تابعت: «وقد اعتذر الفرعون لأنه لم يستطع إرسال تمثالٍ لي من الذهب لأبي الذي طلبه منه فيما مضى، إلاّ أنني لن أغادر بلاد (كيميت) من دون ولدي (كه يو)، فأين هو ... أين هو يا هوري الذي وضعت ثقتي فيك وأنت حبل أملي الوحيد في العثور عليه؟» فانحنيت فوقها وقلت وعيناها تذرفان الدموع وتنظران إليّ بتوسّل: «لقد تبنيت ولداً إسمه (سينو) وهو يتعلّم مني مهنة الطب، وهو الآن عند وصيفتكِ الأولى (أليسا)، سأذهب الآن وأرسله إليكِ عسى أن يخفف عنكِ حزنكِ بنشيدٍ ميتاني تعلمه مني، وبعد ذلك سأرى ماذا أفعل». فمسَحَت دموعها بمنديلٍ أبيضٍ، ونهضَت من مكانها: «هيا ابعثه لي، فأنا مشتاقة للأطفال حقاً، إنهم يذكرونني بطفولتي، ولكن أريدكّ أن تأتيني بولدي بأي طريقةٍ كانت من دون أن يشعر به أحد». فأحنيت لها رأسي، وهي تشير عليّ بأن أذهب في اتجاهٍ معيّن في الغرفة صوب حجرة الوصيفة الأولى.

لقد قضيت الليل حتى منتصفه في حجرة (أليسا)، وأنا أنتظر عودة (كه يو) من غرفة الملكة، إلاّ أنه لم يعد، وأضطررت لأن أطلب من (أليسا) الذهاب للسؤال عنه، فقالت بأن لا أحد يستطيع الدخول على الملكة في غرفتها تلك من دون طلبٍ منها، وضحكت (أليسا) ثم قالت: «مسكين أنت أيها الطبيب. لن تفلت من بين يديّ هذه الليلة، إذ لامكان تنام فيه سوى سريري هذا». وأشارت صوب سريرٍ كبيرٍ وعال وجميل حقاً. ولم أعد أعلم كيف أخرج من ورطتي تلك، ثم نهَضَت من المكان الذي نجلس

فيه وراحت تنزع عنها ثيابها وتقول هامسةً: «لاتهتم، ستقرع الملكة صاجاً معدنياً رقيقاً له رنين، إذا ما أرادتني بشيء، وحتى ذلك الوقت سيسيل ماء كثير لنهر النيل». فسألت بشغف: «وكيف سأخرج من القصر؟» فابتسمت وقالت وهي شبه عارية: «لن تخرج منها إلاّ مقتولاً بين أحضاني أو بين أيادي الحراس، فاختر ما تشاء». وحقيقةً لم أتمكن مقاومة (أليسا) وأنا الذي قاومت شتى صنوف العذاب والمصاعب والمشقة في رحلتي، وكان لها ما أرادت، وشعرت بأني أضعف من أن أبعدها عني بعد أن جلست على ركبتيّ في حجرتها ذات الضوء الخافت.

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا مغمض العينين مستلقٍ على فراش (أليسا) التي كانت ، بعد جماع طويل لنا، قد ارتدت ثوباًجميلاً ورقيقاً من الحريروقامت لتحضّر لنا شراباً لذيذاً، وفجأة سمعت رنة صفيحةٍ معدنية من جهة الغرفة الملكية، فوضعَت (أليسا) طبق الشراب على طاولةٍ صغيرة كانت في وسط الغرفة وذهبت بسرعة لترى سبب طلب الملكة لها في ذلك الوقت المتأخر من الليل، في حين نهضتُ من الفراش ولبستُ لباسي وشربتُ قليلاً من الشراب، فعادت (أليسا) وقالت لي بأن الملكة تريدني الآن من جديد. فشعرت بالاضطراب والقلق فعلاً، وطلبت من الوصيفة الأولى أن تكون إلى جانبي، فقالت بأن الملكة تريد رؤيتي لوحدي، فذهبت والتساؤلات تتحرك في دماغي كما تتطاير نتف الثلج الذي تذروه الرياح في ليل الشتاء.

كانت الملكة واقفةً بلا حراك في ثوبٍ أبيض طويل على طرف نافذةٍ

تطل منها على كثبانٍ رملية تبدو من بعيد في ضوء القمروكأنها ارتدت حلةً حمراء داكنة، وكان الضوء في الغرفة الواسعة الكبيرة خافتة، وعندما سمعَت قرقعة حذائي، أشارت عليّ بحركةٍ من إحدى يديها بألا أحدث ضوضاء، فعلمت أن (كه يو) نائم. فاقتربت من الملكة بحيث ظل بيني وبينها مسافة خطوتين أو أكثر، ففتحت ذراعيها وأشارت عليّ بالاقتراب، فأربكني ذلك ولم أتحرّك خوفاً من نتيجة ما قد أقع فيه من أخطاء، فهمَسَت بصوتٍ خافت: «أريد أن أحتضنك بقوة يا هوري، فلن أنسى مدى الحياة ما فعلته من أجلي». قالت ذلك وأجهَشَت بالبكاء، وتحرّكت هي من مكانها، فكان عناقاً عاصفاً، شعرت أثناءه بأني أعصر امرأة أنهكت مصيبتها جسدها وأحرقت غربتها حياتها، وذرفت من عيناي الدموع ايضاً، ولم أعد أتمكن من التفكير في شيءٍآخرٍ آنذاك غير مواساة هذه المرأة التي كانت قبل لحظاتٍ ملكة، بل إلهةً في أعين الشعب المصري.

ذكرت لي الملكة، بعد أن ابتعدت عني خطوةً واحدة فقط، كيف أنها شعرت لحظة رؤيتها للفتى بأنه لايمكن إلاّ أن يكون ولدها من دمها ولحمها، وأنها شبهته بأبيها الملك (توشراتا)، وكيف بدأت معه الحديث عن الوصيفة الحبشية التي كان الفتى يسميها بأمه، عن إسمها وعن وشم النجمة على جبينها وعن موتها، ثم كيف سألته عن عمله الشاق في مركز تحضير الموتى للعالم السفلي، ومعاملة صاحب المركز «أبيه!» له، وفي النهاية قالت بأنها طلبت منه رفع قدمه لترى هل هي متسخة

أم نظيفة، وذلك لتتأكّد من وجود الشامة أسفل كاحله، ومن ثم ضمته إلى صدرها وكيف أنها راحت تقبّله وتبكي بمرارة، والفتى لايعرف سرّ حنان وعطف الملكة عليه، ولا يعرف لماذا تهتم به كثيراً وتحبه بهذا الشكل العنيف وتناديه ب(كه يو)، على الرغم من أنه عاش طفولته وصباه وكل من حوله كانوا ينادونه ب(سيمو)، إلاّ أنه كان يعلم جيداً أن اسمه في سجل التبني الذي صار بموجبه ولداً للطبيب الميتاني هو (كه يو)، وأنه يعني في اللغة الميتانية - الهورية (المصطفى) أو (المختار)... وفي نهاية حديث الملكة سألتني: «والآن؟ أليس من حقي فضح طويلة الرقبة والرأس (نفر نفر نفر) والإعلان عن حقوق ولدي كوليّ للعرش كونه الولد الشرعي لفرعون مصر؟» فقاطعتها مرغماً لأني وجدت فيما تقوله خطورةً على حياة (كه يو): «سيدتي الملكة، لقد ذكرتِ لي بأن الفرعون أخناتون ذاته طلب منكِ الخروج من مصر لأن الأوضاع تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وأنّ دعوته الإصلاحية الدينية التي لقيت القبول من كثيرين من الشعب الفقير تتعرّض لِردةٍ عاصفة، فكيف ستعرّضين حياة (كه يو) لأن تقضي عليه الكارثة القادمة؟ طالما يسمح لكِ الفرعون بالذهاب إلى مملكة ميتان، فهذه فرصة سانحة لإنقاذ حياة ولدك، بعد أن فشل الآخرون في تدميرها، بل أرادوا قتله في المهد». فقالت: «لقد لعبت مع ولدي حتى غلبه النعاس، وأعتقد أن هذه أولّ مرة يلعب فيها، حيث عاش حياةً أليمة في ذلك المركز، ولذا أريد له أن يتمتّع بحياته، فإن صار فرعوناً فلن يكون له أي مجالٍ للعبٍ أو تسلية حقيقية، وإنما سيستخدمه الكهنة والسحرة

لمآربهم الشريرة مثل كلبٍ لاهثٍ أو قطةٍ سمينة في القصر». فأكّدت لها أن الأميرة (هستيا) كانت تلعب مع (كه يو) كل يوم منذ أن صار ابناً لي بالتبني. وفي النهاية إقترحت عليها مرةً أخرى أن تذهب ونحن كجزءٍ من حاشيتها إلى مملكة (ميتان) بشرط أن يؤمّن الفرعون (أخناتون) لسفرها حمايةً جيدة، فقالت: «حسناً، سنذهب لزيارة الوطن والأهل وأصدقاء الطفولة، وستكون معي كطبيب خاص، وسأسمح لتلميذك (كه يو) ولمعلمه في المبارزة ومعلمته في اللغة أن يكونوا معنا... فهل هناك من تريد ضمّه إلى فريقكَ؟ أنت تعلم بأني لن أردّ لكَ طلباً في الحياة بعد ما قمت به من أجل ولدي». فقلت دون تردد: «أليسا». فابتسمت وقالت: «هي وصيفتي الأولى وستكون معي حتى ندخل بوابة (ميتان الجنوبية)»، ثم فكّرت في صديقي (كاويك)، ولكن كان عليّ إقناعه بالعودة إلى الوطن أولاً. وكان الفجر قد بدأ بتغيير ألوان الأفق، فوشوشت الملكة بصوتٍ خافت في أذن ولدها الذي اعتاد النهوض للعمل منذ الفجر في مركز الموتى، ففتح عينيه ليرى الملكة تقبّل جبينه بحرارة والدموع في عينيها، وقالت له: «هل رأيت حلماً سعيداً؟ هيا فإن أباك بالتبني لايريد الذهاب من دونك». وحقيقةً كنت أريد له البقاء لدى أمه التي ستفعل كل شيء للاحتفاظ به بعد أن رأته ثانيةً منذ ولادته، إلاّ أن من الحكمة والحيطة أن آخذه معي الآن، فماذا لو رآه أحد آخر سوى (أليسا) في قصر الملكة (دوتى خيبا)؟.

إلتقينا أنا و(باد) والأميرة (هستيا) وصديقي (كاويك) لتناول طعام

العشاء لدينا في المنزل الذي نقيم فيه، وكان (كه يو) غارقاً في رسم بعض الرسوم الهيروغليفية في طرفٍ آخرٍ من المنزل، وحاولنا أنا و(باد) إقناع (كاويك) بالذهاب معنا إلى الوطن، ففشلنا لأنه ظل مصرّاً على موقفه، ولكنه وعد بأن يزور(واشوكاني) بعد الزواج من ابنة معلمه المعماري الكبير، ثم دخلنا في حديثٍ مسهب عن حركة الإصلاح الديني التي بدأ بها الفرعون (أخناتون) وإمكانية تعرّضها للفشل الذريع بسبب استعجال الفرعون وإقدامه على خطوته الكبرى بدون تمهيدٍ جيد، وقال (كاويك): «إن الحكماء المعماريين يؤيدون كل خطوةٍ إصلاحية لبناء مجتمعاتٍ مهتمة بالعمران والبناء، إلاّ أنهم لايرحبون بالمغامرات غير المدروسة، ومجرّد كره (تحوتمس الثالث) لآمون وكهنته ليس رأسمالاً كافياً لنجله (أخناتون) للقيام بثورة دينية».ونحن على تلك الحال من طرح الأفكار ومناقشتها ومن تناول الطعام الشهي الذي أعدته خادمة من بلاد الشرق البعيدة، إذ بطرقاتٍ على بوابة المنزل، فنهض (باد) مسرعاً، وإذا بالوصيفة الأولى للملكة (دوتى خيبا) وبيدها سلة كبيرة مليئة بالثياب، وكانت هي في أحلى ما تملكه من زينة ولباس، فحاولنا النهوض، إلاّ أنها أصرّت على بقائنا جالسين، وجاءت فقعدت إلى جانبي لينحسر ثوبها عن ركبتها التي رؤيتها أحرقت الأخضر واليابس في فؤادي، وانضمت إلينا بأن شربت فقط كأساً من شرابٍ حلو المذاق من دون أن تأكل رغم إصرارنا جميعاً. ثم قالت: «لقد أحضرت للولد بعض الثياب، آمل أن تعجبه». فعلمت أن الملكة أرسلتها. وسألتها بشغف عما إذا كان عندها خبر سارٌ لنا، فقالت:

«لقد قرر الفرعون (أخناتون) أن يقوم القائد العسكري (حورمحب) بحملة تأديبية على الملك (آزيرو) لأنه يتمادى في استنهاض السوريين ضد قوات الفرعون في بلاد سوريانا، ويستغل علاقاته مع الهاتيين لتحريضهم ضد مصر ولدفعهم للهجوم جنوباً على بلاد العموريين والكنعانيين، لاعتقاده بأن ما يحدث في مصر سيفسح له المجال لتحرير (سوريانا) من السيادة الفرعونية كلياً». فقلت: «هذا يعني أن القائد (حورمحب) سيحمينا في سفرنا من (أخيتاتون) إلى (دوماسقو)... جيد... جيد... بقية الطريق ستكون سهلة علينا فسنرسل للملك (توشراتا) خبراً حتى يبعث قوة حمايةٍ تستقبلنا في (هه له با) أو على ضفاف نهر (بورانتو) على الأقل». فقالت (هستيا) للوصيفة الأولى بالإغريقية: «تعالي يا أليسا، لنجرّب الثياب على الفتى». فنهضت (أليسا) في حين حملت (هستيا) سلة الثياب وذهبتا إل حيث يجلس الفتى.

قال (باد) سائلاً (كاويك) الذي كان فمه مملوءاً بقطعة لحمٍ كبيرة: «لا تؤاخذني، فأنا لا أتدخل في شؤون السياسة لأن مهمتي هي الحماية الشخصية، فهل يمكنني طرح سؤالٍ عليكم؟» فهزّ (كاويك) رأسه لأن فمه كان مليئاً بالطعام، فسأل (باد): «لماذا يرسل الفرعون أقوى قادته العسكريين الآن، وقت الحاجة، إلى بلاد (سوريانا)؟» فمضغ (كاويك) ما في فمه، وهو يتصبب عرقاً، وأجاب: «أنت تسألني لأنك واثقٌ من أنني أعرف السبب، لذا أقول لك يا عزيزي المحارب:» أنت لا ترى من السياسة إلا القليل من الأحداث والأقوال، كما أنه لا يظهر

لنا من سيفك الذي تحمله سوى قبضته، وما هو مختفٍ أعظم بكثير مما هو ظاهر... الفرعون يخاف من تمرّد القائد (حورمحب) عليه أكثر من كل القادة الآخرين، لذلك يريده أن يبقى بعيداً باستمرار عن العاصمة، بل خارج مصر وفي ساحات الوغى إن أمكن، وخاصةً فإن علاقة (حورمحب) بالملكة الكبرى (نفرتيتي) متينة، ولربما تسعى هذه المرأة الرائعة الجمال والذكية جداً ضم (حورمحب) إلى العائلة الفرعونية عن طريق تزويجه من أميرة من أقرباء(أخناتون)، إذ أنه ينحدر ممن يسميهم النبلاء ب«الذين أظافرهم قذرة» أي أنه من عامة الشعب... ولنفرتيتي أهداف بعيدة من وراء تحضيرها ل(حورمحب) رويداً رويداً حتى يظهر كبطل فرعوني في عيون الشعب». فقلت بعد أن انتهى (كاويك) من الكلام وشرع يدفع بلقمة كبيرةٍ أخرى في فمه: «أي تحضيره لتولي الحكم على أثر موت (أخناتون) أو القيام بانقلابٍ عليه والتخلّص منه... ربما، ولكن أعتقد أن على أي محاربٍ من خارج العائلة الفرعونية أن ينتظر عقوداً أخرى من الزمن حتى يتمكّن من الوصول إلى هكذا هدفٍ عظيم، فالمصريون الذين يعبدون فراعنتهم لن يسمحوا بذلك، إلاّ بعد القضاء على آخر جذوة معارضة فيهم. ما يهمنا هو أن يتفق الفرعون مع القائد (حورمحب) على مرافقته لحاشية الملكة (دوتى خيبا) أو مجرّد ملازمتها على الطريق ذاته».وبعد فترةٍ وجيزة عادت السيدتان وبينهما الفتى الذي كان يبدو في حلته التي ارتداها كولي عرش فرعوني وليس كتلميذ طبيب ميتاني. فشكرنا (أليسا) التي عرضتُ عليها السهر معنا، إلاّ أنها امتنعت

متذرعةً بوجود ما يشغلها فعلاً، وسألَت عما إذا كنتُ أريد شيئاً من القصر، فقلت: «فلتحدّث الملكة (دوتى خيبا) الفرعون بصدد ملازمة القائد (حورمحب) لموكبها أثناء السفر». فسألَت باستغراب: «سفر؟ أي سفر؟..». فابتسمتُ ونهضت من مكاني لأرافقها صوب الباب وقلت لها: «سنذهب إلى الصيد».فقالت وهي تبتسم: «الملكة التي لاتخرج من غرفتها إلا نادراً تود الذهاب إلى الصيد؟ لماذا تحدثني بالألغاز؟» فقلت لها: «قولي للملكة بأن الطبيب الميتاني يحب وصيفتها الأولى. أليس هذا واضحاً بما فيه الكفاية؟» فصفعت براحتها خديّ الأيسر برقةٍ، وخرجت من دون أن تنظر إلى الوراء.

- 24 -

في الأيام القليلة التي سبقت خروجنا من مدينة (أخيتاتون) الصاخبة التي كانت تعلو في البنيان وتتسع دائرتها يوماً بعد يوم، كانت الوصيفة الأولى للملكة (دوتى خيبا) تتردد على منزلنا كل يوم، وفي كل مرة تتذرّع بحجةٍ ما، وكانت تأخذ (كه يو) معها أحياناً، بعد أن يحل المساء و تعود به في الفجر، وكنت واثقاً من أن رغبة الملكة في رؤية ولدها كل يوم كانت جامحة، إلاّ أنها كانت حذرة مثلنا، ولذا تطلب من أوفى وصيفاتها إحضاره إلى قصرها ليلاً وإرجاعه إلينا في الفجر، وكان أحدها، أنا أو (باد) يرافق الوصيفة والفتى إلى باب البيت المنهار الذي كان يؤدي منه سرداب سري إلى داخل قصر (دوتى خيبا)، وكانت الوصيفة لاتخرج من ذلك البيت لدى إعادة (كه يو) حتى يذهب أحدنا لاستلامه.

وفي يوم إنطلاقنا، جاءت (أليسا) إلينا مسرعةً، وهي حزينة ومضطربة، وطلبت منا الذهاب معها بأغراضنا وأمتعتنا القليلة إلى السفينة الملكية الخاصة التي أعدت لسفر(دوتى خيبا)، ثم ذكرت لي بأن الملكة قلقة جداً لأن إحدى الوصيفتين الصغيرتين اللتين جاءتا إلينا مرةً مع (أليسا) قد اختفت فجأةً ولايدري أحد من زميلاتها ومن الخدم والعبيد شيئاً عن

سبب اختفائها. ولما سألتها عن سبب قلق الملكة بصدد اختفاء وصيفةٍ لها، قالت (أليسا): «لأنها هي التي قامت بتطريز الإزار الجميل الذي أهدته الملكة للفتى (كه يو)». فاختفاؤها قد يكون بسبب أنها جاسوسة للملكة الكبرى (نفرتيتي) التي تكون قد أمرتها بعدم السفر معنا، وهذا يعني أن (نفرتيتي) تعلم بوجود علاقةٍ ما بين (دوتى خيبا) وبين الفتى الذي تبنيته وجعلته تلميذاً لي، فهي تريد أن تعرف من هو هذا الفتى؟ وهل هو ابن (دوتى خيبا) حتى تهديه إزاراً ذي تطريزاتٍ فرعونية. وأكّدت لي (أليسا) أن الملكة الكبرى (نفرتيتي) ستفعل المستحيل لمعرفة شأن الفتى الذي لاتعرف عن أبيه وأمه شيئاً وعن سبب اهتمام (دوتى خيبا) به، وعن سر العلاقة بينها وبيني أنا الطبيب الميتاني، الذي ربما تظن بي الظنون وتعتبرني جاسوساً للملك (توشراتا) في مصر. كما قالت لي (أليسا) بأن (نفرتيتي) سترسل من يدس للفتى سماً زعافا أو من يقتله غدراً، وقد تغري بعض أتباعها بكثير مما لديها من ذهب فرعون للهجوم على سفينة الملكة (دوتى خيبا) فيما إذا علمت عن تواجدنا على سطحها. فطلبت منها أن تعود وتطمئن الملكة (دوتى خيبا) على أن أي هجومٍ علينا لن يحدث، طالما القائد (حورمحب) المخلص لها وللفرعون يرافقنا في رحلتنا. وسنكون حذرين للغاية ولن نسمح لأحد إطعام أو إسقاء (كه يو)، بل سيتم ذلك تحت إشرافي وعلى أيدي (باد) والأميرة (هستيا) فقط.

سارت بنا سفينة الملكة (دوتى خيبا) في نهر النيل باتجاه الجنوب عوضاً عن اتجاهنا الصحيح صوب الشمال، خلف سفينة القائد (حورمحب)

المليئة بأفضل ما عنده من مقاتلين مدججين بالسلاح ومن خيول وعرباتٍ قتالية، وخلفنا مركبة صغيرة عليها عدد من الجنود أيضاً، ولم أعلم سبب إبحارنا جنوباً إلاّ بعد أن أتاني الجواب الشافي فيما بعد من فم القائد (حورمحب)، وظننت أن القائد (حورمحب) يريد أخذ شيءٍ معين من مدينة (طيبة) أو أنه له أمراً فيها..

كانت على ظهر سفينتنا حاشيةٌ للملكة لاتقل عن عشرين من الخدام والعبيد الضخام الأجساد المخصيين من عهد (تحوتمس الثالث) والد (أخناتون)، وعددٌ كبير من الصناديق المليئة بالهدايا المختلفة الباهظة الثمن من الذهب والفضة والعاج، وخيولٌ وطيورٌ غريبة جميلة، وكانت ترفرف على السفينتين رايات تعلو أشرعتها برموزٍ في شكل الشمس البيضاء على القماش الأصفر أو الشمس الصفراء على القماش الأبيض، تماماً مثل الرايات التي يحملها الجنود الميتانيون أثناء المعارك، ولما سألت عن سبب حمل هذه الرايات بالذات، قيل لي بأنها تعكس ديانة (آتون) الأخناتونية، التي لاتختلف في جوهرها عما تؤمن به الشعوب الزاغروسية، على الرغم من بقاء عقائد وأصنام لدياناتٍ أخرى في مدنهم.

الشيء الوحيد الذي كانت الملكة، حسبما ذكرته لي (أليسا)، تتحسر لعدم تواجده على سفينتها هو تمثالٌ من الذهب الخالص لها، تاخذه هديةً لأبيها الذي طلبه في رسالةٍ من رسائله إلى الفرعون من قبل مجيئي إلى مصر، وقالت أليسا بأن (دوتى خيبا) تتمنى أن تكون لها عصا سحرية تحوّل بها كل ما حول أبيها إلى ذهب، كي يكف عن طلبه من فرعون مصر

لأنها تشعر بالحزن والأسف لما طلبه في إحدى رسائله إلى (أخناتون). كما قالت لأليسا كما سمعت بعدئذٍ: «أبي لن يضع تمثالاً ذهبياً لي إلى جوار عرشه في القصر وإنما ليرميه في النارويصهره ليجعل منه نقوداً يبتاع بها سلاحاً أو خيولاً وعرباتٍ وليدفع بها ديون المملكة أو ليهديه لمن يتبعه، فلماذا أتحسر على عدم أخذي هكذا تمثالٍ له؟» ولكن في الحقيقة، إن فرعون ما كان ليبخل بتمثالٍ من ذهب على حليفٍ قديم وعلى والد زوجةٍ له، إلاّ أن ظروفه التي تسوء يوماً بعد يوم هي التي حالت دون تزويد زوجته بهديةٍ مرغوبةٍ ومطلوبةٍ من أبيها.

كانت الملكة قد استعادت صحتها بعد عثورها على ولدها وشرعت تبتسم الآن بعد طول حزن وكآبة، وتسابق (كه يو) وتلعب معه على ظهر السفينة وكأنها انقلبت إلى فتاةٍ في بداية فتوتها، وهذا ما كان يفرحني جداً، وتمنيت في تلك اللحظة أن تستعيد كل أم في العالم ولدها، ذكراً كان أم أنثى، بعد أن أضاعته أو أضاعتها، إذ ليس هناك ما هو أصعب على المرأة من أن تفقدما أنجبته ليحيا في حرية وسعادة أمام ناظريها.

لم نبتعد كثيراً عن منطقة (أخيتاتون)، فقد توقفت سفينة القائد (حورمحب) أمامنا، مما أربكنا وأثار القلق في نفوسنا، فأسرعت إلى مقدمة السفينة حيث مقصورة الملكة (دوتى خيبا)، فرأيت (أليسا) تخرج من المقصورة متسائلة عن سبب الوقوف، وعن سبب إبحارنا جنوباً، والدهشة مرتسمة على محياها، فأجبتها بأني لا أعلم شيئاً، فعادت إلى داخل المقصورة التي كانت أشبه ببيتٍ كبير، في حين انتظرت قي مكاني

وأنا أنظر في كل الاتجاهات عسى أن أعلم شيئاً جديداً.بعد ذلك بقليل خرجت (أليسا) ثانيةً ومعها الفتى (كه يو) في ثيابٍ بسيطة بدا فيها كأي فتى يعمل في خدمة المسافرين على المراكب النهرية، وقالت لي (أليسا): «إن الملكة خائفة عليه، فخذه إليك وليكن في حمايتكما أنت و(باد)». وأسرع الفتى ليقف بيني وبين (باد) الذي جاء من الخلف لتوه.

في تلك الأثناء، كان مركب صغير عليه عددٌ من الجنود المدججين بالرماح والسيوف يقترب من مقدمة سفينتنا، وبينهم الضابط (حابى) الذي صعد بصعوبة إلى سطحها، وهو يقول لي: «هذه السفن الملكية عالية، وأنا أجد صعوبة في تسلّق سلالمها. أعتقد أنكم تستغربون لوقوفنا... لم يحدث شيء سيء، وإنما قرر القائد (حورمحب) أن نبحر في اتجاه (طيبة) قليلاً ثم ندع نهر النيل ونذهب عبر الصحراء شرقاً إلى البحر الفاصل بين مصر وبلاد القبائل القحطانية وذلك لضرورات أمنية وعسكرية». فسألت بشغف: «أي أراد التمويه على مسار الملكة؟ هذا جيد... وكيف نعبر الصحراء؟» فأجاب ضاحكاً ومستهزئاً بي: «أنت في بلاد كيميت يا عزيزي الطبيب. هنا حيث توقفنا ثمة طريقٍ نعبر عليه الصحراء بالجمال والأفيال وبالعربات التي نسلّحها بعجلاتٍ عريضة حتى لاتغوص في الرمال». فلم أتحمس حقاً للفكرة التي نطق بها، إلاّ أني تذكرت قول صاحب المركبة النهرية (شو) التي سافرت بها إلى (طيبة)، عندما مررنا بذلك الموقع الذي لم تكن فيه حركة كثيرة ولم يكن فيه سوى القليل من الناس، ومن كان موجوداً فقد كان منهمكاً في جر حجارةٍ أو جذوع

أشجارٍ ضخمة: «إلى هذا الميناء الصغيرتأتي التوابل والعطور والغانيات من بلاد الهند وبابل والحبشة، عبر البحر الشرقي ومن ثم عبر الصحراء إلى نهر النيل».

كان علينا نحن الرجال، وبرفقتنا الفتى (كه يو) ومعنا أمتعتنا وخيولنا وعرباتنا ترك السفينة وعليها الملكة وخدمها وهداياها، وبعد ذلك رأيت بعينيّ كيف يتم جرّالصناديق والأحمال من السفينتين، الواحدة بعد الأخرى، بمشقةٍ وعناء، من قبل العبيد، بسلاسل طويلة وثخينة من الحبال، وبالاستعانة بالأفيال، على مزالج من جذوع الأشجار العملاقة التي تصب عليها دهون الخنازير ومادة القير اللزجة التي يتم جلبها من بلاد بابل، فتتحرّك الصناديق الثقيلة عليها وكأنها قواربٌ في نهر النيل، ولكن بتؤدة وحذرٍ شديد، في حين كنا نحن والجنود نرافقها على صهوات الخيل وفي المراكب القتالية، والدهشة في عيوننا مما يقدر عليه المصريون من أعمالٍ شاقة، وفي نهاية العمل الذي دام بعض الوقت، تم حمل الملكة على أكتاف العبيد، وهي في مقصورةٍ خشبيةٍ متينة ومزدانة بمختلف الرسوم الملونة، وهي جالسةٌ في وقارٍ خلف ستائررقيقة، وقد وضعت على رأسها (كوفية) ميتانية كبيرة، عوضاً عن تاجها الذي يظهر أنها امرأة الفرعون المصري.

أخذني الضابط (حابى) معه إلى حيث القائد (حورمحب) الذي كان يراقب العمل وحركة جنوده رغم أنه يعاني من وجعٍ في معدته، فوجدته قد أظهر قطعة قماشية سميكة، عليها رسومٌ ورموزٌ عسكرية وما يشبه أذنين

طويلين لثعبانٍ غليظ أو حيوانٍ غريب بلونٍ أزرق، تبيّن لي أنه ليس سوى رسم للبحر الذي نسميه في مملكتنا ب«سوراف» وبدأ يشرح لضباطه ما وضعه أمامهم على صندوقٍ خشبي كان لايزال على الأرض، وقال في ختام كلامه: «سنذهب إلى هناك حيث القرن الأيمن للبحر ونمخر عبابه إلى أقصى القرن، فنظهر بذلك فجأةً في موضعٍ لايتوقعه محاربو العماليق المعادين للسلطة المصرية وعصاباتهم وجواسيس الهاتيين الذين يراقبون الطريق القادمة من (ممفيس) إلى بلاد كنعان، وقبل أن يستجمع أعداؤنا قواهم في مواقع انتشارهم، نظفر بمزيدٍ من الوقت ونتقدّم شمالاً للوصول إلى حيث قطعاتنا المتمركزة في عمق بلاد كنعان ولنمضي بقوّةٍ كبيرة من فرسان تلك الوحدات صوب (أوروشالم) في منطقة (يبوس)، وهذا شاقٌ ويستغرق وقتاً، ولكن في الوقت ذاته تمرين ضروري لعساكرنا المترهلة أجسادهم».

بعد انتهاء القائد من كلامه مع أتباعه وصرفهم، استدار إليّ وقال لي بأنه يشعر بوجعٍ في أدنى معدته، ثم طلب مني الصعود إلى عربةٍ قتالية معدة له، حيث تفحصت فيها بطنه المنتفخة إلى حدٍ ما، واستأذنته للذهاب لإحضار عقاقيري، وقال لي بعد أن تناول جرعةً قويةً من سائلٍ حلو المذاق أعددته له: «أنتم في حمايتي إلى أن نصل مدينة (دوماسقو) في بلاد (سوريانا)، ولا أدري هل لديكم الشجاعة الكافية لمتابعة مسيركم صوب مملكة (ميتان) من دون حماية، ومعكم الملكة وهذا الكم من الهدايا الباهظة». فأجبته: «وبماذا تنصحنا القيام به؟» فقال: «في الحقيقة، إن إرسال الفرعون (أخناتون)

زوجته لزيارة أهلها وقومها في هذه الظروف الخطيرة، لم يكن إلاّ قراراً يعبّر عن إنسانية فرعوننا وحبه لزوجته». قال ذلك واحتقن وجهه فجأةً، وكأنه أخطأ خطأً جسيماً، ففكرت في تلك اللحظة بأنه قد أنزل فرعونه من مرتبة الألوهية إلى مرتبة البشر، فهل كان هذا سهواً؟ فقال بصوتٍ خافت وكأنه خائفٌ من أن يسمعه أحد: «إن الفرعون أخناتون هو الذي أمر الرسامين بأن يظهر في رسوماتهم على شكل أبٍ إنساني عطوف وأن تظهر زوجته (نفر تيتي) كأمٍ حنون، وهي التي يعتبرها المصريون من مخلوقاتٍ كونية فوقية، و(أخناتون) الإنسان هو الذي سمح لزوجته (دوتى خيبا) أن تذهب إلى وطنها وأهلها، في حين أن الفراعنة قبله ما كانوا ليسمحوا لزوجاتهم مفارقتهم حتى بعد الموت، ولذا آمل أن تفهم جوهر كلامي، فإن هذه الرسومات التي تعكس الحقيقة لاتغيّر من عقيدة أن شعبنا يعتبر الفرعون إلهاً..». وسكت برهةً ثم صحح جملته الأخيرة فقال: «أو يعتبر الفرعون ابن إله... على كل حال يجب أن أجد حلاً لإرسالكم إلى ميتان من دون مشاكل وصعوبات، أما أنا فعليّ المكوث في (دوماسقو) لأمورٍ هامة حقاً». فلم أشأ أن أنطق بشيءٍ قد أسيء اختياره فتكون العاقبة سيئة لي وللملكة، بل لنا جميعاً نحن الذين نسيرمعها، إلاّ أنني استغربت كيف يجد القائد (حورمحب) لنفسه مهمةً أعظم شأناً من مرافقة زوجة فرعونه وتأمين سلامتها، ولم أجد جواباً شافباً للأسئلة التي طرحتها على نفسي... فماذا كان ينوي القيام به في (دوماسقو) فعلاً؟

بعد أن عالجت القائد (حورمحب) من أوجاعه، تولدت بيني أنا

الطبيب الميتاني وهذا القائد الذي يراه المصريون أهم شخصيةٍ قويةٍ لهم بعد الفرعون، علاقة وطيدة، كاد الضابط (حابى) الذي من أقربائه وأقرب الضباط إليه يحسدني عليها، وتأكدت من أن سبب اختيار القائد (حورمحب) طريقاً آخر غير متابعة الإبحار في نهر النيل، كان لأسباب أمنية وعسكرية، كما قال الضابط (حابى)، فزالت مخاوفي وخفت شكوكي...

- 25 -

السير في البراري المقفرة، وبخاصةٍ في الليل، حيث تزدان قبة السماء الزرقاء بالنجوم الساطعة، وينير القمر المنير سائر الأنحاء، وحيث يستنشق المسافر الهواء النقي، تتوسّع عيناه لرؤية أبعد الأشكال على الأرض والنجوم الباهتة الأضواء في السماء، فلا ينسى تلك الأيام والليالي، ويوّد لو يقضي عمره هناك، يجد الإنسان الكون في أبهى الصور ويكتشف صغره بالنسبة لما حوله، فيبدأ في التفكير والتساؤل عما إذا كانت هناك أكوانٌ أخرى تعيش فيها مخلوقات أخرى أو أشباه الإنسان، كما يفكّر عميقاً في مسائل الزوال والخلود، والخلق والخالق، وعما إذا كان الإنسان فعلاً سيد الكون الفسيح، وأنه سيبعث بعد موته من جديد ليعيش في هذا الكون أو سواه، أم أنّ الإنسان مجرّد مخلوق تافه مثل الحشرات والديدان والنمل، يعيش فترةً محدودة جداً ثم يدع مكانه لمن يأتي بعده، ويرحل من دون رجعة... أم أن السفر في الصحارى ليس إلا حلماً لذيذاً رآه، وعندما يستفيق منه يجد ما حوله عالماً تتوالى فيه الحروب وتشاد فيه امبراطوريات على أكتاف العبيد، وتباد أقوام بذريعة التطهير الديني أو العرقي... فيتمنى لو أنه عاد إلى صفاء وطهارة ونبل الليل في الصحراء...

مرّ وقتٌ طويل، لم يسلم فيه أحدٌ منا من مرضٍ أو كآبة، حتى اجتزنا الصحراء التي تلقح وجوهنا وتعرقل مسيرنا العواصف الرملية المتتالية بالخيول والجمال وبفيلين ضخمين وببعض العربات القتالية التي تم تجهيز عجلاتها بإضافات خشبية وجلدية كيلا تغوص في الرمال، وعانينا المشقة حتى وصلنا إلى البحر، وكنت في تلك الأيام طبيباً كثير الشغل والهموم لكل المسافرين، لقائد الجيش وضباطه وجنوده وللملكة ووصيفاتها وخدمها وعبيدها، وكم كانت فرحة الجنود كبيرة لمرأى البحر أمامهم، فسرعان ما ألقوا بأنفسهم في الماء، حتى قبل أن يخلعوا عنهم ثيابهم... ثم ركبنا سفناً صغيرة كانت راسيةً هناك، استولى عليها الجنود بأمرٍ من قائدهم، ووعد بدفع أجور أصحابها حال وصولنا إلى البر أدنى بلاد العماليق، وقضينا على ظهر السفينة التي كانت عليها مقصورة خاصة بالملكة وقتنا بالأحاديث المختلفة وبسماع الأساطير الإغريقية من (هستيا) و(أليسا)، مما كان سهلاً عليّ الاقتراب من الملكة التي غامرتُ بحياتي وحياة مرافقي (باد) وحبيبته (هستيا) من أجل العثور على ولدها وإعادته إليها، فكانت ترتبك لاقترابي منها ولاتعلم كيف ترّحب بي، وكانت تكرر جملةً سمعتها منها عدة مرات: «لن أنسى معروفك هذا مدى الحياة». إلاّ أنني اعتبرت نفسي قائماً بمهمةٍ كلّفني بها ملك (ميتان) الذي ضحى بابنته من أجل أن تعيش بلاده في سلامٍ وأن يزول عنها خطر المصريين الأشداء.وكانت الملكة طوال إبحار السًفينة صامتة ولكنها كانت هادئة لاتهتم بشيءٍ مما حولنا سوى بمراقبة ولدها (كه يو) الذي لم يكن يعلم

حتى ذلك الحين أنه ابنها وابن فرعون مصر، وهو يتدرّب على أيدي (باد) كيف يحارب، وعلى أيدي (هستيا) كيف يتعلّم المزيد من الإغريقية، في حين كانت الملكة تصغي إليّ باهتمام وأنا أعلّم (كه يو) لغة آبائه وأجداده، وقالت لي مرةً: «علينا نحن الميتانيين أن ننشىء لنا رسوماًموحدة للكتابة بها كالمصريين». فعلمت من ذلك أنها لا تزال تعتبرنفسها «ميتانية»، على الرغم من أن الميتانيين ضحوا بها وزوجوها لفرعون مصر، ثم قالت لي في لقاءٍ آخر: «آمل أن تزورنا في قصرأبي (توشراتا)، كلما أحببت ذلك، فإنك أقرب الناس إليّ بعد (كه يو) وأحضر معك من تشاء». فقلت في نفسي: «هذه المرأة لن تعود إلى مصر التي رفعتها إلى مستوى الآلهة». إلا أن الحزن ظل سائداً من حولها، فهي المرأة الجميلة الصغيرة التي ولدت من ملكة وصارت ملكة رفعها الشعب المصري إلى درجة أعلى من كل البشر، وعاشت دائماً في القصور، وهاهي تتخلى عن كل شيء لاشتياقها للوطن الذي تحبه فوق كل الدنيا، سوى ولدها الذي بكت لفقدانه سنواتٍ عديدة كثيراً من الدموع.

بعد أن سرنا مسافةً في البحرشمالاً ثم عبر القرن الشرقي له، وصلنا إلى ذروة القرن، حيث كان ثمة ميناء صغير محروس حراسةً جيدة من قبل وحدة عسكرية مصريةٍ كبيرة، واسترحنا يوماً كاملاً في معسكرٍ تم إخلاء العديد من خيامه لنا بسرعةٍ فائقةٍ، حيث تم شوي عجلين وتم تقديم لحمهما الطازج كوجبة عشاءٍ على شرف الملكة التي انزوت بولدها وآثرت عدم الجلوس مع أحدٍ سوى بين وصيفاتها وخدمها، في حين أكل

وشرب المسافرون جميعاً حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وما كانوا يريدون النوم لولا الأمر الصارم من القائد (حورمحب) الذي أرادهم في حالةٍ جيدة في الصباح لمتابعة سفرنا عبر بلادٍ خطيرة حقاً، رغم أنها خاضعة بشكلٍ رسمي لسلطة المصريين، إلاّ أن الأوضاع السياسية المضطربة في مصر تسيل لعاب العماليق والعصابات القوية وتغريهم بالتمرّد والهجوم على السلطات المصرية في المنطقة التي يرفضون سيطرة أحدٍ على مراعيها ومصادر مائها.

وصلنا بجهدٍ ومشقة إلى المرتفعات المطلة على «وادي الموت» والتي فيها أشجار العرعر وصخور وردية تسر الناظرين، فلاحظت أن الملكة (دوتى خيبا) قد أخرجت رأسها من هودجها على ظهر فيلها الأبيض الضخم، وتنظر إلى تلك الأشجار التي نبتت بأشكالٍ غريبة في أعلى الجرف الصخري المطل على الوادي الذي نسيرفيه وإلى الصخور الحمراء التي لم ترَ مثيلاً لها في حياتها بالتأكيد، فكانت حسب ظني سعيدة جداً، وبقدر ما كنا نمضي شمالاً كان وجهها يزداد تورّداً ورقة وبراءةً لم أجدها على وجه امرأةٍ أخرى في عمرها. وتيقنت أن حزن الأميرة الميتانية بسبب فقدانها لرضيعها وبسبب فراقها عن وطنها بدأ يزول وترتسم على محياها عوضاً عنه نضارة ربيعٍ حياتي جديد.

كانت في ذلك الواديٍ أحواض ماءٍ كبيرة أنشأها آباء وأجداد الآدوميين الذين يعيشون على شكل قبائل في تلك الأنحاء لسقي مزارعهم وإرواء ماشيتهم، كما كانت حدائق صغيرة حيث يمكن سقيها عن طريق ترع ماءٍ

رفيعة أو نقل الماء إليها عن في قربٍ جلدية من جلود الماعز والغزلان، إلاّ أن الاهتمام الأكبر للآدوميين كان منصباً على الرعي، في حين كان تواجد الماء بوفرة في ذلك الوادي يجتذب العشائر والقبائل السامية المتنازعة من بعيد، ولذا كان استفحال النزاعات الدموية بينها بسبب الماء والكلأ محتملاً في كل حين، كما كان تحوّل الوادي إلى مدينةٍ عامرة متوقعاً، حيث كان أمراء الآدوميين ينحتون لهم بيوتاً جميلة وواسعة في الصخر الهش، ومع الأيام سيظهر في الوادي بالتأكيد مجتمع مختلف عن مجتمع البدو من وجوه عديدة.

أين تصرف الجيوش الماء الكثير؟ طبعاً حيث تواجد الماء... وفي وادي الموت لها ما تريد، لذا سمح القائد (حورمحب) لضباط القوة العسكرية وجنوده أن يستحموا في أحوض الماء كلها إلاّ الأعلى منها، ولكن عليهم عدم المساس بها كيلا تتعرّض إلى تخريب، وستكون عقوبة المهملين شديدة، ذلك لأن (حورمحب) كان يدرك أهمية تلك الأحواض لكل العشائر والقبائل في المنطقة، وهو يريد كسب قلوب زعمائها إلى جانبه عوضاً عن كسب عداوتهم، إلاّ أنه في الوقت ذاته لايتردد في القضاء على الزعماء المتمردين على الوجود المصري الذي بدأ يضعف في بلاد العماليق، فكان يمارس سياسة مزدوجة ذات حدين، فمن ناحية إغداق الهدايا على الموالين واستخدام الشدة ضد المتمردين، وهذه سياسة كل الغزاة والمحتلين في سائر الأمصار كما تعلمت من معلمي الأوّل الكاهن (خوربَرَست).

بعد أن انتهى الضباط ومن ثم الجنود من الاستحمام تحت إشرافٍ مباشر من الضابط (حابى)، الذي كان ينتقل بينهم من أطراف حوضٍ إلى أطراف حوضٍ آخر، فيشتمهم أو يضحك معهم، وهم يتراشقون بالماء ويلعبون كالأطفال، عراةً كما وضعتهم أمهاتهم، فكّرت في أن لوصيفات وخادمات وعبيد الملكة (دوتى خيبا)، بل للملكة ذاتها الحق في الاستحمام أيضاً، بعد السفر الطويل المضني، لذا ذهبت إلى حيث وُضِعَت مقصورة الملكة تحت صخرةٍ كبيرةٍ بدت كسقفٍ عالٍ يغطي ظلها جانباً من طريقنا عبر الوادي، فتحدثت إلى الوصيفة الأولى (أليسا) بصدد ذلك، فأجابت: «طبعاً، من حقنا الاستحمام فنحن أيضاً بشرٌ مثلكم، بل إن الملكة تعاقب بشدة الخدم والعبيد غير المهتمين بنظافة أبدانهم وثيابهم ومكان اقامتهم، إلاّ أنني لا أتصوّر رؤية الملكة (دوتى خيبا) عاريةً في أحواض هذه الوديان. إنها لن تستحم إلاّ في قصرها أو في مقصورةٍ مخصصة لها كحمام ملكي». وحدَقَت (أليسا) في وجهي تبحث عن رد فعلٍ مرتسم عليه، ثم اضافت وهي تضع إحدى يديها على كتفي: «أراك مهتماً جداً بالملكة، وفي ظل اهتمامك بها يبدو لي أنك نسيتني». فأجبت وأنا أجهد كيلا أجرح شعورها: «وكيف أنساكِ بعد تلك الأيام التي قضيناها معاً في مصر؟ أنتِ لك في قلبي قصرٌ لاتضاهية قصور الفراعنة». فضحكت وقالت: «لا بد وأن قلبك مدينة واسعة، وفي المدن جميلاتٌ كثيرة، أليس كذلك؟». فأجبتها: «أليسا العزيزة، العلاقة بيني وبين الملكة أمر آخر، فهي ابنة ملكي (توشراتا)، وأنا في مهمةٍ كلفني بها الملك ووضع ثقته التامة فيّ ولن

أخونه». ففكرت (أليسا) قليلاً ثم قالت: «سأذهب لسؤال الملكة عما إذا كانت توّد الاستحمام، ولكن أظن أنها نائمة الآن». فأجبت: «إذا وافقت سنقوم بواجب صون الحوض العلوي وتجهيزه بما يلزم، وبعيداً عن أنظار الجميع، بحيث تشعر وكأنها في قصرها المنيف بمدينة (طيبة). أخبريني رجاءً قبل أن يأمر (حورمحب) بمتابعة المسير».

وفي حين ذهبت (أليسا) صوب باب المقصورة، مضيت صوب الكهف الذي يرتاح فيه (باد) مع الأميرة (هستيا)، فقدّمت لي (هستيا) ماءً بارداً ونظيفاً شربته وشكرتها، ثم قلت لها: «أعتقد أننا سنتأخر قليلاً إذا ما قررت الملكة الاستحمام». فقالت: «هذا سيكون تقليداً جديداً للعائلة الفرعونية، وبودي أن أكون بجانبها عندما تنزل إلى حوض الماء، فهذه فرصةٌ لا تسنح لأحد من الناس، سوى وصيفات الملكة، لرؤية من يعتقد الشعب المصري أنهم آلهة يستحمون في الماء مثلنا». ونهضَت من مكانها واتجهَت إلى خارج الكهف، وثوبها الطويل الرقيق يزيدها إثارةً وجمالاً، في حين مكثنا أنا و(باد) جالسين في الكهف حيث البرودة التي يبحث عنها المرء في تلك الأنحاء، على الرغم من أن فصل الصيف الحار قد وصل إلى نهايته.في تلك الأثناء، كان (كه يو) يقفز من صخرةٍ إلى صخرة ويلوّح بسيفٍ خشبي ، وعندما رأته (هستيا) نادته، فقفز إلى الأرض الرملية ولحق بها، فقد كانت بينهما علاقة أختٍ بشقيقها الصغير، وكان لا يعارضها في طلب. ولأنني لم أتوقع أي خطرٍ على (كه يو) في استراحتنا تلك، فلم أقلق لذلك، وكنت في ظني مخطئاً تماماً.

وبالفعل، بعد أن خرجنا من الكهف لنمشي في الوادي ونتحدث مع بعض الجنود الذين لم يخلدوا إلى الراحة، وإذا بنا نسمع صرخاتٍ عالية، عديد ومختلطة، فأسرعنا الخطى إلى الجهة التي تتواجد فيها الملكة مع (أليسا) و(هستيا) و(كه يو) مع الخدم والعبيد، فأطلّ علينا الضابط (حابى) فجأةً من على صخرةٍ عالية وسيفه في يده يلتمع في ضياء الشمس، وشرع يعطي الأمر لعددٍ من الجنود: «هيا اجمعوا الآخرين، لنبحث أعالي وادي الموت هذا». فسألته بصوتٍ عالٍ: «ماذا حدث؟» فأجاب بنبرةٍ حزينة: «الأميرة من آرزاوا». وإذا بالطنون المختلفة تقفز إلى رأسي، ورحت أتساءل في نفسي: «هل غرقت، وهي من مدينةٍ تتوسد ضفاف البحر؟ هل لدغتها أفعى، وهي الحريصة في مشيها بحيث لا تخطو خطوةً إلاّ وهي متأكدة من أنها آمنة على نفسها؟ هل اعتدى عليها أحد الجنود؟..». إلا أنني لم أتمكن من معرفة الحقيقة إلاّ بعد أن أخبرنا بها الضابط (حابى) الذي امتزج الغضب والحزن في نظراته وأقواله. أما (باد) فوجدته لأوّل مرة منذ أن تعرّفت عليه وكأنه أصيب بالشلل، حيث فقد القدرة على الحركة والنطق، فتوقّف في مكانه حائراً وكئيبا. نزل الضابط (حابى) من الصخرة وتوجه إلينا ثم ذكر أن الأميرة (هستيا) كانت واقفة بجانب الفتى (كه يو) في الوادي أدنى من المقصورة الملكية، ينتظران خروج الملكة التي وافقت على الاستحمام في أعلى الأحواض، لأنها لم تعد تتحمّل حرارة وأدران السفر، فرأت (هستيا) رجلاً ينظر من أعلى الحافة المقابلة للوادي، وظنّت أنه جاء ليتلصص على الخادمات

اللواتي كن يجهزن الحوض للملكة وهن شبه عاريات، وإذا به يطلق فجأةً سهماً باتجاه (كه يو)، فلم يبق لديها مجال سوى أن تلقي بنفسها على الفتى وترميه أرضاً، فتلّقت بذلك السهم بكتفها من جهة الخلف،إلاّ أنها لاتزال على قيد الحياة.

وأثناء البحث المضني عن الرجل الذي أطلق السهم من قبل الجنود بين الصخور المنتشرة على الهضاب التي تعلو الوادي ، كنا أنا و(باد) نحاول إنقاذ حياة الأميرة (هستيا) التي ضحت بنفسها من أجل إنقاذ حياة (كه يو)، في حين بدا (كه يو)، وهو يؤخذ من قبل الوصيفة الأولى إلى داخل مقصورة أمه، كعصفورٍ مذعور انقضّ عليه حيوان مفترس فلم يتمكن منه ونجا بأعجوبة، من دون أن يفهم سبب محاولة أحدٍ ما قتله من دون الآخرين. ومضى نهارٌكامل قبل أن تستعيد (هستيا) وعيها، وتقذف معدتها كل ما فيها من طعام وعقاقير أرغَمتُها على شُربِها، وبدأت تئن لفرط الألم الذي كانت تشعر به، وقد وضع (باد)، الذي ظل صامتاً وحزيناً، رأسها على إحدى ذراعيه منذ أن شرعتُ في انتزاع السهم من كتفها ومعالجتها. ومع سماعنا لأنينها زاد الأمل لديّ في أنها ستحيا رغم خطورة وضعها في ذلك اليوم الحار.

عندما حلّ المساء الذي جاء معه ببعض البرودة، كان الرجل الذي رمى السهم قد أُحضِرَ وهو يتلوّى من شدة الألم وسط حلقةٍ كبيرة من الجنود، ذلك لأنه عندما سعى لإخفاء نفسه في شرخٍ بين صخرتين، بعيداً عن الوادي، لدغته أفعى رقطاء، كأنها كانت في انتظار أدائه مهمته الإجرامية

تلك لتتخلّص منه. ولم يكن بين الجنود من لم يفرح بلدغه من قبل الأفعى، بل كانوا يصرخون حوله ويتندرون به، ويركلونه بأحذيتهم الجلدية في خاصرته وظهره. إلاّ أن القائد (حورمحب) طلب مني معالجته كيلا يموت، كما طلب من الضابط (حابى) تعذيبه إلى أن يعترف بمن دفعه إلى ارتكاب جريمته النكراء تلك. وفي الحقيقة كنت أتمنى موته سريعاً لأنه آذى الأميرة (هستيا) وعرّض حياتها لخطر الموت وهي التي لم نجد منها سوى الكرم والتضحية والأخلاق الحسنة، ثم إن بقاءه حياً سيعرّضه لتعذيبٍ لا مثيل له، وأنا ضد تعذيب البشر والحيوانات، فكيف أنقذه من موتٍ سريع ليموت موتاً أليماً بعد عذابٍ شديد؟

في اليوم التالي، تحسنت حال (هستيا) التي بدأت تبتسم رغم الألم المستبد بها في محاولةٍ منها لاقناع (باد) بأن كل شيءٍ على مايرام، وجاءت الملكة بنفسها لتسأل عن حالها ولتخفف الحزن بكلماتٍ رقيقة عن (باد) الذي راح وجهه يستعيد نضارته رويداً رويدا، أما رامي السهم، الذي لم يكن سوى محارب فرعوني من حراس قصر الملكة نفرتيتي، فقد تم البدء بتعذيبه وهو لايزال يعاني من لدغة الأفعى، رغم كل المساعي التي بذلتها لإبقائه على قيد الحياة ورغم رجائي الشديد من القائد (حورمحب) ألا يتم تعذيبه، فالتعذيب في أي صورةٍ كانت، نفسياً أو جسدياً، ولأي هدفٍ كان، مهما كان نبيلاً، ليس إلاّ نحداراً في الإنسانية صوب الدرك الأسفل، وبعد أن تم الإعتراف منه، ربطه الجنود بصخرة وراحوا يطلقون عليه السهام حتى فارق الحياة.

كان اعتراف المحارب الذي مات موتاً تعيساً كالتالي: «استدعتني الملكة نفرتيتي، وهي جالسةٌ بين عددٍ من السحرة، فأمرتني بقص خصلةٍ من شعري وإعطائه لأحدهم، فوضع ذلك الساحر الخصلة في كوبٍ خشبي ثم صب عليها شراباً داكن اللون، وبدأ بتحريكها في الشراب وبتلاوة تعويذاتٍ غريبة بغير لغة المصريين، ثم أمرتني الملكة بشرب ما في ذلك الكوب، فشربته وطلبَت من السحرة أن ينصرفوا، ثم أمرتني بمتابعة قافلتكم إلا أن أجد الفرصة مؤاتية لقتل الفتى الذي برفقتكم بسهم أو خنجرٍ مسموم، وقالت بأني منذ تلك اللحظة في قبضة السحرة الذّين سيقتلونني في حال عدم قيامي بمهمتي، وذلك من بعيد ومن دون أن أراهم فهم يرونني في كل حين، وكل أفاعي الأرض تأتمر بأوامرهم، فلن تفلت من أيديهم أينما كنت».

لم يكن بين ضباط القائد (حورمحب) من لم يصدّق اعتراف المحارب الفرعوني، فقوة السحرة في مصر كانت معروفة ويهابهم المصريون جميعاً، إلاّ أن (حورمحب) أراد معرفة السبب الذي دفع بزوجة الفرعون أن ترسل قاتلاً مسحوراً لقتل فتىً تبنيته لأعلمه فنون الطب وعلومه، ولذلك استدعاني أنا و(باد) وحاول أن يعرف الحقيقة كلها، فرأيت الضابط (حابى) واقفاً عنده، وقال في نهاية جلستنا تلك: «إن ثقة الملكة نفرتيتي بي كبيرة، ولو طلبَت مني قتلكم جميعاً لما ترددت، فلماذا كلّفت رجلاً لهكذا فعلٍ شائن من دون علمي؟» وهنا كان لابد لي من إقناع (حورمحب) بذريعة ما حتى يطمئن إلى أن الأمر لا يتعلّق بالفتى (كه يو)

وإنما به هو. فطلبت منه الإذن بالحديث، فسمح لي، فقلت: «سيدي القائد (حورمحب) ربما أراد السحرة دق اسفين بينكم وبين الملكة، فأوعزوا لها بذلك». فارتبك القائد لحظةً، وفكّر قليلاً ثم قال: «ربما... أشكرك على ما تقوله... ولكن لو كان الإيعاز من السحرة لما صرَفَتهم من حضرتها لدى تكليفها المحارب بمهمته». وهنا قال الضابط (حابى): «سيدي القائد، أعتقد أن الملكة أرادت بذلك امتحان ولائكم لها». فغضب القائد (حورمحب) لقوله وتساءل بصوتٍ عالٍ: «ألم تمتحن الملكة (نفرتيتي) (حورمحب) طوال هذه الفترة الطويلة التي قمت فيها بواجبي تجاه القصر، منذ أن كنت ضابطاً صغيراً وإلى أن توليت قيادة الجيش الفرعوني في بلاد (سوريانا)؟» ثم أطرق واجماً، ولم نتكلم نحن أيضاً، وبعدها رفع رأسه وحدّق في عيني برهةً ثم قال بصوتٍ رقيقٍ وخافت: «أنا أثق بك ثقةً كبيرة، كما أنني سعيد بانضمامك وصاحبك والأميرة من آرزاوا إلى موكبي، ولكن قل لي الحقيقة، من هو هذا الفتى الذي أرادت الملكة (نفر تيتي) قتله؟» فسرت في جسمي قشعريرة لأني لم أعلم ماذا أقول، فنظرتُ لحظةً إلى (باد)، فإذا به يبدو كجلمود صخر، ففهمت في الحال أنه لايريدني البوح بالحقيقة. فقلت: «سيدي القائد، ربما السحرة تصرفوا من دون علمها، أما بالنسبة للفتى فلقد تبنيته من لدن صاحب دائرة لتحضير الأموات للعالم السفلي في مدينة (خمون)، وفي دائرة قيد التبني الرسمي تم التأكيد من قبله بختمه المعترف به رسمياً على أن الفتى ولده الوحيد من أَمَةٍ حبشية، وفي جعبتي الوثيقة المدونة بذلك..». فقاطعني قائلاً:

«أصدقك... أنا اصدقك... ولكن هل كان صاحب مكتب دفن الموتى صادقاً؟ ألا يزال في مدينة (خمون)؟» فأجبت: «لا يا سيدي، لقد رحل إلى العالم السفلي حسب علمي... في حين رحلت زوجته قبله بزمنٍ طويل». فأطرق القائد رأسه ثانيةً، ثم أشار بحركةٍ من يده أن انصرفوا، فخرجنا من عنده، بعد أن أدينا التحية، في حين ظل صامتاً وواجماً في مكانه. ولدى خروجنا من عنده قلت ل(باد): «أعتقد أنه يصدّق الآن فكرة أن الملكة (نفرتيتي) أرادت امتحانه». فقال (باد): «لا أدري...فالملكة تغامر كل هذه المغامرة الخطيرة لقتل فتاك الذي تعلّمه الطب؟» وتابعنا مشينا من دون أن نتكلّم، لأننا لم نعلم عما نتحدث بعد ما قلناه.

على الطريق شمالاً صوب مدينة (أوروشالم)، تحسنت حالة الأميرة (هستيا) تماماً، إلاّ أن حزن الفارس (باد) لم يخف، ففتح باب الحديث عن حادثة الاغتيال وقال لي ونحن على ظهور الخيل جنباً إلى جنب: «برأيك ياسيدي لماذا لم تكلّف الملكة (نفرتيتي) القائد (حورمحب) أو لم تدع الأمر للضابط (حابى) اللذين لن يرفضا لها أمراً؟» فأجبت: «ربما المحارب كذب علينا أثناء تعذيبه، والملكة (نفرتيتي) لاتعلم بالأمر بتاتاً، وإنما السحرة هم الذين كانوا يعلمون شيئاً عن (كه يو)، فارادوا التخلّص منه، من دون أن يعلم بذلك أحد من خارج حلقتهم الضيقة». فقال (باد): «سيدي، ألا ترى معي أن هروب الوصيفة الصغيرة من قصر الملكة (دوتي خيبا) قبل خروجنا من (أخيتاتون) حادثٌ غريب، ربما هي التي نقلت سر زيارتك مع (كه يو) للملكة ليلاً وسر اهتمامها بولدٍ أنت

تبنيته». فقلت: «ربما... لا أدري... » فقال: «أودّ العودة ياسيدي إلى مصر ولن أخرج منها حتى أنتقم ل(هستيا)». فقلت: «عزيزي (باد)، الحق في الانتقام للمظلوم، وأنت لم يصبك السهم. أمّا لأنك تحب (هستيا) حباً جماً فهذا لايجعلك صاحب حقٍ في الانتقام، ثم لا تنسى أنك معي في مهمة ملكية لاتستطيع الانفكاك عنها دون موافقتي، وإذا كان رأس الإجرام هي (نفرتيتي) ذاتها، فهي في حراسةٍ دائمة من قبل المئات من الحراس المتمرسين في القتال، ولن تتمكّن من الوصول إلى السحرة الذين يختبئون في دياجير المعابد كالجرذان السمينة عندما يستشعرون خطراً».

فأطرق واجماً، ثم أمسك بقوة بزمام جواده ليتأخر عني ويسير إلى جانب (هستيا)، في حين توقفت (أليسا) السائرة أمامنا على ظهر جوادها إلى جانب الفيل الحامل لهودج الملكة، حتى أصبحتُ بموازاتها، فقالت: «هيا إلى الملكة، إنها تريد التكلّم معك». فأطلقتُ صرخةً أحث بها جوادي على الإسراع، واقتربت من الفيل، وناديت: «سيدتي... سيدتي». فرفعت وصيفة شابة طرفاً من الستائر التي تحجب عني ما بداخل الهودج، ثم اختفى وجهها ليظهر عوضاً عنه وجه الملكة (دوتى خيبا) وهي جالسة، ووجه (كه يو) من فوق رأسها مبتسماً، وسألتني: «بماذا أجيب (كه يو) الذي يسألني باستمرار عما حدث؟» فأجبت وأنا أنظر إلى الهودج على ظهر الفيل الضخم: «سيدتي الملكة، إن ما حدث كان خطيراً حقاً، ولا بد أن ضباط وجنود (حورمحب) يتساءلون أيضاً عن سبب ماجرى، لذا من الأفضل أن تصارحي (كه يو) بالحقيقة، ولكن ليس الآن، وإنما

بعد افتراقنا عن هذه القافلة العسكرية، وهذا لن يتم إلا بعد خروجنا من بلاد (سوريانا) أو على الأقل بعد انطلاقنا من مدينة (دوماسقو)». فسألت: «وهل (دوماسقو) بعيدة؟» فلم أتمكن من إعطاء جوابٍ دقيق لأننا كنا لانزال في جنوب مدينة (أوروشالم)، ولذا اكتفيت بالقول: «بعد أيامٍ قلائل سنكون هناك. وإذا كان (كه يو) يزعجكِ فليكن معنا نحن، وإنّ (هستيا) تسأل عنه». فابتسمت ابتسامةً عريضة وقالت: «بل ابعث (هستيا) لتصعد إلينا في استراحتنا التالية». فرفعت إحدى يدي محيياً (كه يو) الذي أجاب التحية بسرعة، وشعرت في الحال أنه قد ملّ القعود مع المرأة التي لايعلم بعد أنها أمه التي تحبه أكثر من أي إنسانٍ آخرٍ في الدنيا.

- 26 -

مدينة (أوروشالم) التي كان مناخها بالنسبة لنا نحن الميتانيين أفضل بكثير من مناخ مصر الذي لم نطقه أبداً، وكان الإرهاق قد أضنانا جميعاً، وخاصةً الذين يمتطون صهوات الخيول إلى جانبي موكب الملكة (دوتى خيبا) ووصيفاتها وعبيدها الذين كانوا في عرباتٍ تجرها الخيول، وشعرت بالحسد أحياناً من عبيد الملكة، فقد كانوا في مرتبةٍ أعلى من مرتبتنا كما يبدو، وفي حين كنت أشتم ما أنا عليه من حال، فإن (أليسا) و(هستيا) اللتين كانتا أحياناً تجلسان في هودج الملكة تغمزاننا أنا و(باد) الصبور الهادىء، وتضحكان بعد أن تهمسان لبعضهما بعضاً كلاماً لا نسمعه، ثم تسأل إحداهما عما إذا كنا مرتاحين على ظهور الخيل أو نطلب ماءً مثلجاً أو دواءً أو ملحاً من (سدوم) ندهن به مؤخرتينا لطول الركوب، ولم يسعفنا في شيءٍ سيرنا على الشاطئ الأيسر لبحرٍ كبيرٍ تنبعث منه روائح كريهة سموه ب«بحر الموت» لانعدام الحياة في مائه بسبب الملوحة الشديدة، كما سموه ببحر (سدوم) لوقوعه في منطقة تدعى بالإسم ذاته.

كانت مدينة (أوروشالم) التي ساكنوها خليطٍ من الساميين، من أبرزهم الكنعانيون في حالة انتعاشٍ أيضاً، إلاّ أنها لم تكن كبيرة مثل (ممفيس) أو

(طيبة)، وكانت أنظف منهما لندرة وجود الرمال التي تذروها الرياح، وكانت في منطقة محاطة بالتلال، وتكثر فيها ينابيع الماء في الوديان القريبة، ويعتبرها سكانها الذين يقضون جلّ وقتهم في الأعمال المختلفة ويترددون على المعابد كثيراً لتقديم الضحايا مدينةً مقدسة وفي خدمة الإله السماوي، كما يعتقدون أن الجنة ستكون فيها وحولها. وأوّل ما استرعى انتباهي فيها هي خطبة ناسكٍ عجوزٍ شبه عارٍ من الثياب، يقف على صخرةٍ كبيرة، تجمهر حوله الناس، وفي يده عصا طويلة، وهو يقول: «أوروشالم... أوروشالم... كم من دماء أبناء الأعمام من حولكِ ستراق على صخوركِ وفي طرقاتكِ عبر الزمن...! تعالوايا أحفاد (إبرام) جميعاً، يا أيها المرهقون، حولوا سيوفكم إلى محاريث لتعيشوا في سلامٍ وأمان في ظل الغيوم التي يدفع به إلهكم من بلادٍ بعيدة ليسقيكم ومراعيكم وأغنامكم ماءً زلالا. أفلم تملّوا وتتعبوا من حمل السيوف البتارة في أياديكم المخضبة بدماء شعوبكم وجيرانكم يا أبناء إسماعيل واسحاق؟»

لقد تأثرت بكلام الناسك حقاً، إلاّ أنني كنت مرهقاً مثل سواي، وكان حلمي أن أغط في نومٍ عميق في حجرةٍ معتمة ليومين متواصلين على الأقل.

كان أوّل ما فعله القائد (حورمحب) هو أن أرسل اثنين من السباقين على الأقدام صوب (أخيتاتون) في مصر ليحملا للفرعون نبأ وصولنا إلى (أوروشالم) بسلام، وليأتيا منه بالأوامر الجديدة إن وجدت، وحدد لهما نقطة الالتقاء التالية بهما في (دوماسقو)، فظننت أن الرجلين لن يعودا قبل

أن يصبحا شيخين مسنين، لبعد المسافة بين (دوماسقو) و(أخيتاتون)، فشرح لي الضابط (حابى) الأمر، قائلاً بأن الرجلين سيركضان مسافة يوم واحد فقط، وسيأخذ منهما النبأ والأوامر إن وجدت راكضان آخران لمدةٍ يوم ثانٍ، وهكذا. فسألته: «ولماذا اثنين وليس واحداً؟» فأجاب: «إن تعثّر أوٍ جُرح أو مات أو تم اختطاف أحدهما فالثاني يتابع الركض، ولذا يسلك كلٌ منهما طريقاً مختلفاً عن الآخر، حتى لايتم اصطيادهما معاً».

بعد ثلاثة أيامٍ من الاستراحة في ثكنةٍ عسكريةٍ للجيش المصري الذي انضمت إليه وحدات أخرى صغيرة خارج المدينة التي عاهدها المصريون على عدم دخول الجنود إليها بسلاحهم، تجولنا أنا و(باد) والأميرة (هستيا) ومعنا (كه يو) الذي بدا سعيداً جداً في الشوارع الضيقة والملتوية التي كانت ترتفع على جانبيها قصور ومعابد جديدة، واشترينا بعض الهدايا الصغيرة الجملية لتذكّرنا بالمدينة وأهلها المسالمين الذين كانوا يتحدثون عدة لغاتٍ متقاربة، وهم من أصولٍ قبلية مختلفة، وإذا بجندي مصري من دون سلاح يقترب منا ويقول لنا بأن الضابط (حابى) ينتظرنا في مكانٍ ما، فمشينا خلف الجندي إلى أن وصلنا إلى مطعم كبيرٍ، حيث أشار علينا بالدخول إليه، في حين وقف هناك على طرف الباب، فرأيت المطعم مليئاً بضباط الجيش القاعدين حول طاولاتٍ هائلة، وفي صدر المجلس يجلس الضابط (حابى) إلى جوار القائد (حورمحب)، فأشار (حابى) بيده داعياً إيانا للجلوس إلى جانبه على مقاعد يبدو أنها تُرِكَت خاليةً من أجلنا، فحرصتُ على أن يجلس الفتى (كه يو) بيني وبين (باد)،

وبعد إلقاء التحية عليهم، قام الضابط (حابى) من مكانه، واستأذن قائده (حورمحب) ثم بدأ بكيل المديح لقائده وأهمية توجهه إلى بلاد (سوريانا) بالنسبة للفرعون ولمصر ولشعبها ثم ختم كلامه قائلاً: «كانت زوجتي قد وعدت، ونحن لانزال في مصر، بدعوتكَ أيها الطبيب إلى وليمةٍ خاصة تجمعك بأقربائها لتختار من بين جميلات العائلة فتاةً تروق لك، إلا أنني لم أفرغ لتلبية طلبها في تنفيذ ما أرادته، لذا فتقبّل مني هذه الوليمة رداً متواضعاً على إنقاذكما زوجتي أثناء مجيئكما إلى بلاد كيميت، وآمل أن يباركنا قائدنا الكبير بكلمةٍ منه». ثم مدَّ إحدى يديه صوب القائد، وجلس عندما بدأ القائد بالكلام من دون أن ينهض من مقعده، فقال: «إنه الحب والوفاء للفرعون ولشعبه ولمصر هذا الذي يدفعنا للذهاب بعيداً عن نهر النيل وأرض ألاباء والأجداد، فإن لم نعصر أعداءنا وهم لايزالون بين كرومهم فسيعصروننا ونحن نائمون في أحضان زوجاتنا وعشيقاتنا».

ثم انتبه لوجود الأميرة (هستيا) والفتى (كه يو)، فقال: «عادةً لا يحضر مجالسنا النساء والصبيان، فلا تؤاخذينا أيتها السيدة الكريمة وأنت يا أيها الفتى...». فأسعفته باسم الفتى... «كه يو ... ياسيدي. كه يو» فسأل: «و أي اسم هذا؟» فأجبت: «إنه اسم ميتاني ياسيدي، ويعني الملك المختار».

فابتسم بوقار وقال: «الميتانيون شعبٌ محارب وصديق ولنا معهم معاهدة والفرعون (أخناتون) صهر ملكهم (توشراتا)، وما يقرّبنا أكثر الآن هي عقيدة (آتون) التي لاتختلف عن عقائدكم الجبلية القديمة. قل للملك (توشراتا) بأن معاهدتنا ستطول عبر الزمن، طالما نؤمن بالسلام و...

حسن الجوار». ثم بدأ الخدم بإحضار الطعام وسط الطرب الذي شرعت فيه مغنيات جميلاتٌ ذوات ضفائر طويلة وثيابٍ بألوانٍ عديدة ويحملن آلات عزف مختلفة. وقلت للفارس (باد) دون أن يسمعنا أحد آخر: «لقد فهمت أمرين من كلام القائد (حورمحب)؟» فسأل (باد): «ماذا فهمت ياسيدي؟» فأجبت: «إنه لايعلم شيئاً عن (كه يو) سوى أن اسمه ميتاني». فقال (باد): «وأنه يقصد بحسن الجواربقاء القوات المصرية في شمال بلاد (سوريانا)إلى الأبد». فأكدت له بحركةٍ من رأسي أن كلامه صحيح.

تذكرت، ونحن نعود إلى مكان اقامتنا لننام، البيت الذي اشتريته في مدينة (ميغيدو)، فسألت (باد) عما نفعل بصدده، فأجاب: «نرسل رسالةً إلى الشاب الميتاني (ناسو) الذي يسكنه عن طريق مرسالٍ راكضٍ ونخوّله بيعَ البيت وإعطاءنا ثمنه عندما يعود إلى (ميتان)». فقلت: «أنت ذكي حقاً والفكرة جميلة، ولكن ماذا تقول إذا حوّلنا البيت إلى (وقفٍ سكني) يسكنه طلابنا الميتانيون الذين يتوافدون إلى (ميغيدو) للتعلّم فيها؟» فابتسم وقال: «وهذه الفكرة أجمل حقاً. ويكون البيت تحت إشراف أقدم الطلاب تواجداً في ميغيدو باستمرار». فقلت في نفسي: «ما أجمل أن يقوم الإنسان بهكذا عملٍ مفيدٍ وصالح!»

وبالفعل كتبت في اليوم التالي رسالةً لدى كاتبٍ معترفٍ به في (أوروشالم) رسمياً وأرسلته للشاب الميتاني في (ميغيدو) بعد أن أعطيت مرسالاً في المدينة من المال ما يفوق حقه عدة مرات. وبينت له مكان تواجد (ناسو) في (مغيدو)، وهكذا تخلصنا من موضوع البيت، وعدنا

إلى حيث نقيم بالقرب من القصر الذي وضعه ملك (اوروشالم) في خدمة الملكة (دوتى خيبا)، إذ كان ملك الكنعانيين يطمح في أن تصبح مدينته مستقبلاً عاصمةً لكل بلاد كنعان، ولذا كان يسعى لإرضاء جيران المدينة بكرمه وحسن ضيافته وسياسته اللطيفة في التعامل مع الأحداث اليومية. وببعض الشحن الديني الذي كان أحد أسلحته لتجميع شعبه من حوله.

وقبيل الوصول إلى حيث مأوانا سألت (كه يو) الذي لم يكن يفارقنا في (أوروشالم): «كيف تعاملك الملكة عندما تزورها؟» فأجاب: «إنها تحتضنني مثل أمي (آيانا) وتقبلني مراتٍ ومرات وتبكي كثيراً»، فقلت: «نعم يا (كه يو)، إنها مثل أمك... بل أكثر». فنظر إليّ مستغرباً إلاّ أنه لم يفهم مرادي من كلامي كما بدا لي، وعندما أوصلناه إلى بوابة القصر، قلت له: «قريباً ستعلم كل الحقيقة يا تلميذي... قريباً ستعلم».

في اليوم التالي، سمعت أن الملكة (دوتى خيبا) ستذهب مع خدمها وعبيدها وبرفقة عددٍ من الحراس بدون سلاح إلى معبدٍ لإله الكنعانيين الذين يقولون عنه بأنه خالق الحياة والموت، بل إنه خالق الشمس والقمروالسماء والأرض وما فيهما، فسألت الأميرة (هستيا) التي حدثتني بالأمر وقالت بأن الملكة شرّفتها بحمل إحدى الصواني التي عليها هدية من الذهب، فأحببت رؤية المشهد عن كثب، وكان فعلاً مشهداً مؤثّراً، فقد كانت النساء جميعاً وفي مقدمتهن الملكة (دوتى خيبا) بأردية بيضاء شفافة، ومنهن يحملن مشاعل متقدة، في حين أن بعضهن كن يحملن هدايا من أطعمة على صوانٍ معدنيةٍ فاخرة. وكان بعض الحراس يجرون

عجلاً أمام الملكة. وعندما وصل الموكب عبر أزقّةٍ ضيقة إلى مدخل معبدٍ كثير الأعمدة العالية من المرمر، خرج من داخله كاهنٌ مسن وضعيف الجسم ذي لحيةٍ كثيفة وضفائرَ طويلة، وعلى كتفيه رداء أسود اللون، فتوقف الموكب منتظراً السماح له بدخول المعبد من قبل الكاهن، الذي قال بلغة عبرية قديمة بأن الدخول إلى المعبد مسموح للذين يؤمنون بإلهٍ واحد للكون فقط، أما عبدة الأصنام فعليهم البقاء خارجه. وهنا علمت أن (دوتى خيبا) هي الوحيدة التي ستدخل المعبد، فكل من معها، حتى (هستيا) كانوا من عبدة آلهةٍ مثل (آمون) وسواه. وكان على الجميع التوقف هناك ووضع الهدايا على درج المعبد، فنظرت إليّ (هستيا) في حيرة، فأسرعت وحملت عنها الطبق الذي عليه الهدية الذهبية، ومشيت خلف الملكة (دوتى خيبا)، في حين امتشق الفارس سيفه واسرع لذبح العجل الذي في أيدي الحراس، حيث استغربوا حمله للسلاح في حين أنه ممنوع عليهم ذلك، فقال (باد) لهم، وهو يجرّ العجل بمساعدة طفيفة من كنعانيين بقوة إلى مصطبةٍ كانت بجوار الدرج: «السلاح ممنوع على الجنود المصريين حمله وليس عليّ أنا الميتاني». فابتسم الرجل العجوز دون أن يتكلّم ومضى ليسير إلى جانب (دوتى خيبا) وأنا خلفهما. وكان الدخول إلى المعبد الكنعاني الذي كان يخلو من التماثيل والرسوم الدالة على آلهةٍ ما مناسبةً لا مثيل لها للتحدّث مع الملكة التي بدت لي وقد استعادت ربيع الحياة من جديد ووجدتها جميلةً للغاية في ذلك الصباح.

بعد أن قدمت (دوتى خيبا) الهدية الذهبية التي أحملها للكاهن الأكبر في

المعبد، وشكرها الكاهن بحرارة، قالت له بلغة المصريين: «نادراً ما أدخل معبداً منذ انجابي مولودي». فهزّ الكاهن رأسه متفهماً لوضعها كإمرأة تعبد خالق الكون الأوحد في مملكة مصر ذاتِ الآلهة العديدة. واكتفى الكاهن بأن قال: كان كهنة معابد (آمون) حسب علمي يرفضون أن تقدّم المرأة القرابين لإلههم، ولكن يبدو أن الفرعون (أخناتون) قد ألغى ذلك المنع، وأوّد أن أعلم عما إذا كانت النساء تقدمّن الضحايا في معبد (آتون) بعاصمتكم الجديدة (أخيتاتون)». فأجابت الملكة: «لم تسنح لي فرصة دخول معبدٍ في (أخيتاتون)، لأن المعابد في طور البناء». فقلت للكاهن: «أنا سمعت بأن الملكة (نفرتيتي) تقدّم بنفسها ما يريد الفرعون تقديمه لإلهه (آتون)».فنظر إليّ بتمعّن ثم قال: «أجدك من أهل الشمال وليس من مصر». فأجبته ب«نعم»، فقال: «آمل أن تزورني مرةً أخرى لنتحدّث قليلاً عن بلادكم». فقلت: «سأفعل بالتأكيد، ولكن يبدو أننا لن نبقى هنا سوى وقتٍ قصير».

وقبيل خروجنا من المعبد الكنعاني سألت الملكة (دوتى خيبا) عن سبب تقديمها القرابين هنا في (أوروشالم)، فقالت بأنها أرادت شكر الخالق العظيم الذي أعاد لها ولدها، ولكنها لم تقم بذلك في مصر خوفاً من أن ينكشف سر بقاء (كه يو) على قيد الحياة. ثم قالت لي بأنها فكرت في وضعها ووضع ولدها منذ محاولة اغتيال (كه يو)، وقررت ألا تبقى في مملكة (ميتان) طويلاً، وستعود إلى مصر لتكافح من أجل حق ولدها في العرش الفرعوني لأنه الوريث الشرعي لأخناتون، ولو كلفها الكفاح

حياتها، إلاّ أن عليها التصرّف بحكمة وإقناع حماتها (تي يى) بأن (كه يو) حفيدها. فسألتها: «كيف؟ أي دليلٍ لديكِ سيدتي الملكة؟» فنظرت إليّ والكآبة تتسلل إلى محياها، وتابعت سيرها صامتةً. وقبل أن نفترق أنا و(باد) و(هستيا) عن موكب الملكة أمام بوابة القصر الذي تقيم فيه، واحتشد الناس لرؤية زوجة الفرعون المصري في مدينة (أوروشالم) إلتفتت إليّ وقالت: «خذ فتاك معك ليتعلّم كيف يحارب»، وعندها علمت أن (دوتى خيبا) لم تعد تلك المرأة الضعيفة الحزينة اليائسة، وإنما تحولت إلى لبوة لن تتراجع حتى تحقق هدفها. وركض (كه يو) الذي بدا وكأنه كان ينتظر السماح له بالمجيء معنا.

بعد أيامٍ من خروجنا من (أوروشالم)، سرنا على يمين بحرٍعذب المياه في أدنى سلسلةٍ جبليةٍ كانت على يسارنا، تكلل الثلوج طوال السنة ذروة أعلى قسمٍ منه، وعلى يميننا وأمامنا هضاب عالية ذات منحدرات شديدة، مما أضطررنا أن نميل نحو اليمين حتى نتفادى تلك المنحدرات، حيث الأحمال كانت تثقل ظهور الخيول والجمال والفيلين اللذين أحدهما يحمل هودج الملكة والثاني أغراضها وأغراض القائد (حورمحب)، وفوق الهضاب كانت ريح عاتية تلفح وجوهنا من ناحية الغرب، تحمل معها برودة الثلوج التي تكلل ذرى الجبال العالية.وكانت أمامنا مسافة لاتزال طويلة للوصول إلى مدينة (دوماسقو) التي أعرفها من سنين ماضية، تنتشر بين مزارع وغيطان واسعة من ناحية الشرق وتحدها سلسلة جبلية تكاد تكون خاليةً من الأشجار. في أعلاها كهفٌ يعتقد الدوماسقيون

أنه الكهف الذي التجأت إليه عصبةٌ من الشباب المؤمن بالخالق الأوحد للكون، فناموا فيه ردحاً طويلاً من الزمن، وكلبهم باسطٌ ذراعيه في مدخل الكهف، وعندما استفاقوا وأرسلوا من بينهم من يشتري لهم طعاماً، اكتشف أهل المدينة أن العملة التي مع الشاري تعود إلى أكثر من قرنٍ من الزمان، فلاحقوه مستغربين لأمر الشاري ورفاقه، إلاّ أن خالقهم الأعلى أغلق عليهم باب الكهف ونجاهم من عذابٍ ومساءلةٍ قد يتعرضون لهما على أيدي الدوماسقيين.

«تشربت المنطقة بين (أوروشالم) و(دوماسقو) فكرة الخالق الأوحد للكون، إلاّ أن بني كنعان كانوا قد أضلوا النجم الذي يهديهم إلى طريقهم، رغم توالي الأنبياء والرسل عليهم، فكانوا على خلافٍ في كل مسألةٍ من مسائل عقيدتهم التي لم تكن تعرف الأصنام والشرك بربهم، بل من الأنبياء من قتلهم الكنعانيون، وكانت حيرتهم وتراجعاتهم وأمانيهم في أن يرسل لهم ربهم من يقضي على نزاعاتهم الدينية ويشق لهم طريق النور عبر صحراء التيه الذي دام قروناً من الزمن، ولذا فإنهم رغم كل الضلال المخيّم على المنطقة يجدون أنفسهم أقرب الأقوام إلى الهداية، بل يعتبرون أنفسهم (شعب الله المختار) من بين سائر شعوب الأرض ويقولون بأن ربهم اختارهم لإنزال رسالة الوحدانية عليهم قبل غيرهم. »

هكذا بينما كنت أشرح عقائد بني اسرائيل لمرافقي الفارس (باد)، في حين كان يصغي إليّ بانتباهٍ شديد، ونحن نمتطي جوادينا ونسير على مهل إلى جانبي الفيلة، بسبب كثرة الصخور السوداء المنتشرة من حولنا

كمزرعةٍ واسعة، خرجت فجأةً مجموعاتٌ من الرجال من كهوف عديدة وكأنهم غربانٌ أو جرذان، وهجموا على موكبنا من جانبي الطريق، فانتبه القائد (حورمحب) الذي استبد به الغضب لاعتقاده بأن المنطقة ليست إلاّ هضاباً عاريةً لاتصلح للعيش والسكنى وليس فيها متمردون على جيش الاحتلال المصري، بل رعاةٌ تسرح قطعانهم في تلك المراعي المنتشرة على تلك الهضاب الكثيرة. وبإشارةٍ منه اتخذ الجنود وضعاً دفاعياً تدرّبوا عليه من قبل، وبدأت معركة شرسة بيننا وبين المهاجمين الذين علمنا في الحال أنهم ليسوا مجرّد أشقياء، بل مدربون ومنظمون، ولكن لم نكن نعلم من الذي سلّطهم علينا في تلك البراري الموحشة. وسقط قتلى من الطرفين، وسالت دماء على الصخور وتلوث بها التراب والأعشاب. إلاّ أن حنكة القائد (حورمحب) وشجاعة الضابط (حابى) والفارس (باد) دفعت بالجنود المصريين إلى الاستبسال والمقاومة العنيدة، وبالتالي قهر المهاجمين الذي ارتدوا على أعقابهم خاسرين، رغم أن عددهم كان لايقل عن عددنا، واختفوا في لمح البصر في الكهوف والجحور من جديد، إلاّ أن القائد (حورمحب) قد أمر باعتقال عددٍ منهم وتعذيبهم حتى يفصحوا عن الجهة التي أمرتهم بالهجوم علينا، فاختارالفارس (باد) أحد الرجال الأقوياء، وكان الذي أمر المهاجمين بالانسحاب، فلاحقه ممتطياً جواده حتى تمكّن من الاقتراب منه تماماً فطعنه برمحً في أعلى كتفه الأيمن، فسقط الرجل على وجهه وكأنه دبٌ كبير، ثم جره وراءه وهو يئن بسبب جرحه، وكان الضابط (حابى) في تلك الأثناء قد أمسك بعنق رجلٍ آخروجرّه أيضاً إلى

حيث القائد (حورمحب) الذي كان يمسح بمنديلٍ جلدي سيفه الملوث بالدم، فنزل القائد عن جواده وصعد إلى صخرةٍ عالية، وقال باللغة الآرامية التي كانت منتشرة في بلاد (سوريانا): «سنعذبكما حتى الموت وسنرمي جثتيكما بعد ذلك فريستين للذئاب والضباع، ولذا من الأفضل لكما أن تقولا لنا الحقيقة عن سبب هجومكم الغادر علينا، فنقتلكما من دون تعذيب». فلم ينبسا ببنت شفة، فصرخ الضابط (حابى) في وجهيهما قائلاً: «هذا هو القائد (حورمحب)، فلماذا لاتجاوبان؟» فلم يجيبا، فطلب الضابط من جنوده أن يوقدوا ناراً في حفرةٍ عميقة، وهو يهدد برميهما في النار حياً. فارتبك الذي بين يديه، وقال وهو يبكي مشيراً إلى الذي طعنه (باد): «ذاك هو كبيرنا (شامي)، وهو الذي جلبنا من (دوماسقو) وأمرنا بانتظاركم ومن ثم الهجوم عليكم».. فأخرجت الملكة (دوتى خيبا) رأسها من هودجها وقالت: «حورمحب، دعهما يعيشان لأنهما مأموران وقد اعترفا». فنظر القائد (حورمحب) صوب الملكة وطأطأ رأسه احتراماً لها، ثم التفت إلى جمعنا وقال: «شدوا وثاقهما، وخذوهما معكم إلى دوماسقو عاريين وحافيي القدمين، ولاتدعوهما يهربان فيخبران أسيادهما عما جرى».وعندما ارتفعت ألسنة لهيب النار ، طلب الضابط (حابى) من الفارس (باد) جرّأسيره، آمر الهجوم علينا، إلى حيث النار، فنظر إليّ (باد) نظرة تساؤل، فأومأت إليه أن ينفّذ طلب الضابط، فساقه أمامه حتى اقترب من الحفرة المليئة بالحطب المشتعل، فسأل القائد (حورمحب) الأسير: «من أمرك بذلك يا شامي؟ الملك (أزيرو) أم وزيره؟»، فقال

الأسيروهو يحاول درء اللهيب بيديه الملطختين بدماء قتلاه من المصريين: «الملك أزيرو ياسيدي... الملك أزيرو». وبإشارةٍ من القائد (حورمحب) الذي لم ينتظر أمراً آخر من الملكة (دوتى خيبا) رمى الضابط (حابى) بالأسير في حفرة النار المشتعلة، وأنينٌ مرعبٌ يصدر عنه، فقال القائد (حومحب) وهو ينظر إلى الملكة التي تفاجأت لعدم انتظاره أمراً منها: «سيدتي، هذا الشامي يداه ملطختان بدماء المصريين، وإن أتساهل في التعامل مع هذه الكلاب الخائنة فلن نرتاح في بلاد (سوريانا) من التمرّد والفوضى».فشعرت الملكة (دوتى خيبا) أن الضابط (حورمحب) لايلتزم بأوامرها أو بما تطلبه منه، فاغتاظت لذلك، إلاّ أنها نظرت إليّ بعينين يتطاير منهما الشرر، فقلت لها في لحظة ابتعاد الضابطين (حورمحب) و(حابي): » ملكتي العظيمة، أرجو أن لاتثيري مع المصريين أي مشكلة حتى نصل بسلامٍ إلى وطننا».فرفعت يداً لحظةً وكأنها ودّت قول شيءٍ ما، إلاّ أنها أسدلت ستارة هودجها، وتابعنا مسيرتنا إلى (دوماسقو) بهدوء وعلى مهل.

قبل وصولنا إلى مدينة (دوماسقو) كانت المعلومات عن دعوة الملك (أزيرو) أتباعه للنيل من سلطان المصريين في بلاد (سوريانا) قد وصلت إلى القائد (حورمحب) من مصادر عديدة، جلبها جواسيسه العاملون في مختلف المقرات العسكرية للمصريين ومن الأهالي الذين كانوا يوالون المستمرين المصريين والمهاجمين الهيتيت القادمين من الشمال وكذلك سلطة الملك (أزيرو) الذي كان يسعى للبقاء على رأس دولته المضعضعة

والمترنحة بين قوتي المصريين والهيتيت المغامرين الذين لاهمّ لهم سوى القتال والانهزام، ثم القتال والانهزام ثانيةً، وكان (أزيرو) حسب المعلومات الأخيرة عنه، يعتقد أن الهيتيت المحاربين الأشداء سيستمرون في دعمه بقوة لطرد المصريين الذين انشقوا على بعضهم بسبب ماأحدثه فرعونهم (أخناتون) من مشاكل عن طريق بدئه بإصلاحه الديني ، ثم ينقلب على الهيتيت ويحرر بلاده منهم بطلب النجدة من البابليين، أما الميتانيون فقد كانوا مهتمين بالحفاظ على وحدة بلادهم وتعزيز قواهم وتنشيط حياتهم الاقتصادية، ولم تكن لهم رغبة في الاستيلاء على بلاد (سوريانا) أو بلادٍ أخرى، سوى أن بعض زعمائهم كانوا يعتبرون مدينة (خلمان) أو (هه له با) جزءاً من أراضيهم، وعدم وجود فكرة التوسّع لدى الميتانيين كامنٌ في أنهم شعبٌ صغير، يسكن منطقة غنيةً بالماء والكلأ وكثيرٍ من المزروعات والفواكه، يسيل لها لعاب الأقوام المجاورة من الهيتيت والبابليين والآشوريين وشعوب الشمال القادمة من بلاد الضباب والمطر، فلم تكن لهم حاجة لبلاد الآخرين، في حين أن الماء والكلأ وحب الحصول على الثروات كان سبب اندفاع أمواج من العشائر والقبائل السامية من الجنوب صوب بلاد (سوريانا) وشمالها عبر التاريخ.

في (دوماسقو)، ذهب (باد) مع الأميرة (هستيا) للقيام بجولةٍ واسعة في المدينة الجميلة حقاً، في حين مكثتُ في مكان اقامتنا مع (أليسا) التي جاءت منذ الضحى لتسأل بعض الأسئلة عن مدينتي (واشوكاني)برغبةً من الملكة (دوتى خيبا) التي بدا وكأنها مهتمة جداً بمعرفة كل شيءٍ عن

المدينة التي غادرتها وهي صبيةٌ لم تخرج من قصر أبيها الملك (توشراتا) إلاّ نادراً، وكانت الأسئلة حول سواقي المدينة وقلاعها وبيوتها وأسواقها وحول نهر (خابير) وغير ذلك مما في مدينة (واشوكاني) وحولها. وكان غياب (باد) وحبيبته فرصةً سانحةً لنا، أنا و(أليسا) للتأكيد على حبنا الذي نما وتعاظم، ولنمارس حبنا في لقاءٍ جسدي عاصف، واعتقدت أن (باد) و(هستيا) لم يذهبا إلى المدينة إلاّ لمنحنا تلك الفرصة السعيدة والنادرة.

بعد الظهر، عاد الاثنان منهكَين، في حين انصرفت (أليسا) بعد أن اتفقنا على الزواج عندما نصل إلى مملكة (ميتان)، حيث سنقيم حفل زفافٍ فخم، وسندعو إليه كل الحاشية الملكية، وستكون (دوتى خيبا) و(كه يو) في صدر الحفلة إلى جانبي العروس، وأعتقد أن(دوتى خيبا) لن ترفض دعوتي، أنا الذي عرّضت حياتي وحياة (باد) للخطر من أجل إعادة ولدها لها، وقد يحضر الملك (توشراتا) بذاته لأنه وعدني بأن أحظى بمكانةً عظيمة لديه إن أحضرت له حفيده من مصر، وها أنذا أحضر له ابنته أيضاً، ولم تكن (أليسا) متأكدة تماماً إلى ذلك الحين أن (كه يو) هو ابن (دوتى خيبا) وحفيد ملك (ميتان)، وعندما صارحتها بذلك، تذكّرَت كيف كان اهتمام الملكة بابن صاحب مركزٍ لتحضير الموتى للعالم السفلي قمت بتبنيه لأعلمه الطب واللغات اهتماماً بليغاً، وقالت لي وهي تغادر المكان: «كنت على يقين أن أمر(كه يو) سرّ من الأسرار، والآن بانت لي الحقيقة، وهذا دليلٌ على ثقتك بي، أليس كذلك؟». فقلت: «لقد تركت الأمر سراً حتى نغادر بلاد الفراعنة، وفي الطريق من (أخيتاتون) إلى (دوماسقو) لم أجد

الفرصة السانحة لأعلمكِ بالحقيقة. فأرجو أن تكتمي الأمر حتى نبتعد عن المصريين». فأجابت وهي تضع اصبعين من يدها البيضاء على شفتيها الورديتين: «ما بيننا سيبقى لنا وحدنا حتى الموت». وعندما أخبرت (باد) بأنني أعلمت (أليسا) بحقيقة (كه يو)، شعرت بأنه لم يكن راضياً، بل ظهر على وجهه الغضب بوضوح، إذ قال: «كان من الأفضل ترك الأمر حتى نرى من حولنا قوةً ميتانية تحمينا وتحمي (كه يو) في حال قيام أحدٍ بالعدوان علينا». فشعرت بالندم وقلت له: «ليس هناك من هو معصومٌ عن الخطأ... ولكني أثق ب(أليسا) مثلما نثق نحن الاثنين ب(هستيا)». وسألت نفسي فيما بعد: «هل أخبر (باد) حبيبته التي يثق بها تماماً بحقيقة (كه يو) مثلما أخبرت (أليسا)؟» فلم أجد جواباً لسؤالي.

وضعت (هستيا) أمامي سلةً كبيرة من الفواكه والهدايا الصغيرة مما يصنعه الدوماسقيون بمهارةٍ فائقة، ورفَعَت من السلة شالاً حريرياً أبيض اللون وقالت: «هذا مني لكَ هديةً متواضعة يا لاوى هوري». فأخذت الشال شاكراً لها، ثم نظَرَت إلى (باد) وقالت: «وأين هديتكَ يا عزيزي لصديقك ومعلمك؟» فسكت (باد) برهةً ثم قالت بصوتٍ خافت: «هديتي لكَ ياسيدي هي الدعوة إلى طعام عشاءٍ فاخر مع رجلٍ تحبه ويحبك، ولن أقول لك من هو». فحدقت في عينيه عساني أقرأ فيهما اسماً أو إشارةً ما إلى الإسم، ففشلت، وظننت في بادىء الأمر أن صديقي (كاويك) قد لحق بنا إلى (دوماسقو)، ثم قلت له: «أنا لا أذهب إلى أي دعوة لا أعلم من صاحبها». فأجاب مبتسماً: «القائد (حورمحب) هو صاحب

الدعوة، ولكن الضيف الذي ستجلس إلى جانبه هو....». ونهض من مكانه من دون أن يخبرني، ولذلك مكثت حتى المساء مرتبكاً، لا أدري من هو الضيف المهم الذي سأجالسه. وظننت أنه الملك (أزيرو)، إلاّ أنني لا أحب الملوك الظالمين وهو لايعرفني، ومن ثم فإن القائد (حورمحب) لن يدعو هذا الغادر إلى وليمة عشاء بعد أن أرسل أتباعاً له للهجوم علينا في الطريق... وحاولت معرفة اسم الضيف العزيز من (هستيا) إلاّ أنها كما يبدو كانت قد وعدت (باد) بعدم ذكره لي.

بعد قليلٍ من البقاء لوحدي، إذا بالفارس (باد) يقتحم الباب ثانيةً وهو يجرّ شخصاً من رقبته بيد، والسيف مسلول في يده الأخرى، وفي لحظة رؤيتي لوجه الرجل، علمت أنه العبد (موروك) الذي سرق مني السترة التي أهداني إياها والد (هستيا)، والذهب المرصوف في ثناياها، وطلب (باد) مني الإذن ليحز عنقه، في حين كان الرجل يئن ويتوسّل أن أسمع ما يقوله. فقلت ل(باد): «دعه يتكلّم ياباد». فرمى به طريحاً إلى أرض الغرفة، فنظر إليّ (موروك) وصمت قليلاً، ثم قال: «هذه سترتك التي أخذتها معي، وفيها كل ماكان من الذهب من دون أن أصرف منه شيئاً». ونزع عنه جلبابه الطويل، فبدت السترة على جزئه الأعلى كما كانت يوم أن أخذها معه. فسألت: «وما هذه اللعبة الخطيرة التي لعبتها معنا؟» فأجاب: «أنا قادمٌ لتوي من مدينة (ميغيدو)، من بيتك الذي اشتريته، والشاب الميتاني (ناسو) الذي استودعته البيت شاهدٌ على أنني انتظرت عودتكم من مصر، أنا أخذت السترة معي لأرتديها وأظهر بها

بين المصريين كرجلٍ من الأعيان أو كتاجرٍ ثري كي لايعاملوني معاملةً سيئة، ولم تكن في نيتي سرقة شيءٍ منكم، فأنتم حررتموني من العبودية، وماذا أفعل بالذهب، أنا العبد الخصي الذي ليس له أحدٌ في العالم، بعيداً عن وطني، أليس كذلك؟» فرجوت (باد) أن يطلب ل(موروك) ماءً أو شراباً، كما طلبت منهما أن يأتيا ويجلسا معي، فقد ظننت أن في هروبه شيءٌ غريب، لابد من فهمه بسماع القصة من (موروك) نفسه.

ثم ذكر لنا (موروك) أن أحد أتباع الملكة (نفرتيتي) كان قد أمسك به أكثر من مرّة في مدينة (طيبة) عندما كان يذهب إلى السوق ليبتاع لنا بعض ما نحتاج إليه، وطلب منه بإصرار أن يتجسس علينا وينقل له كل ما يسمعه منا، وإلاّ فإنه سيلقى مصيراً مرعباً جداً، فلم يشأ (موروك) أن يفعل ذلك، وخاف من أن يصرّح لنا بما يُمارَسُ عليه من ضغوطٍ هائلة من طرف أتباع الملكة (نفرتيتي)، فنطرده، ففكرّ في الهروب إلى (ميغيدو) والإختفاء في البيت العائد لنا إلى أن نرجع من مصر، ثم يسرد لنا الحقيقة، وهكذا ارتدى السترة الغالية الثمن وهرب في لحظةٍ من لحظات الحماقة الإنسانية.وعندما سمع من المرسال الراكض بأننا في (أوروشالم)، فكّر في الحال أننا لن نذهب إلى (ميغيدو)، فلو كانت وجهتنا (ميغيدو) لما أرسلنا مرسالاً راكضاً إليها، ولذلك استأجر جواداً وأتى مع أوّل قافلةٍ إلى (دوماسقو)، وبحث عنا إلى أن علم بمكان إقامتنا، حيث التقى بالفارس (باد) ليس بعيداً عن باب الخان الذي أنا فيه. وفي الحقيقة، كنت على الدوام أفكّر في السبب الحقيقي لاختفاء (موروك)، وكنت

أستبعد فكرة قيامه بالسرقة بعد أن حررته من العبودية وأكرمته كأحد معارفي وأصدقائي. وما أراح فؤادي وأقنعني بصدق كلامه تلك الرسالة المقتضبة التي أتى بها من (ميغيدو)، والتي كتب فيها لي الشاب الميتاني (ناسو) بأنه سيتصرّف تماماً مثلما طلبت منه، وأن (موروك) كان منذ فترةٍ طويلة معه في البيت. ومن هذا الذي جرى مع(موروك) تأكد لي أن الحكم المسبق على أي إنسان يجب أن لا يتم بسرعة وأن يصبر الإنسان في أحوال الظن والشك حتى تبدو له الحقيقة جلية.

أتى إلى الوليمة عدد من الضباط الكبار للوحدات المصرية المتمركزة في جنوب بلاد (سوريانا)، مثلما أتى عددٌ لايقل عنهم من وجهاء المدينة الأثرياء، وبعض قادة حماية المدينة، إلاّ أنّ أحداً من أتباع (أزيرو) المقرّبين – حسبما علمت من الضابط (حابى) – لم يحضر ، ولذلك أوجست خيفةً مما قد يحدث، وطلبت من (باد) أن يظل ساهراً ومتيقظاً، وانتبهت إلى أن قوةً كبيرة من الجنود المصريين تحيط بمكان الوليمة التي كانت تحت سقيفة واسعة وطويلة من أغصان النخيل ومبنية على قوائم قوية وعالية من جذوع النخيل أيضاً، وكانت السقيفة وما حولها بإضاءةٍ جيدة لقناديل مختلفة الأحجام. ورأيت رجلاً سميناً أبيض الشعرمن بين الجالسين من الوجهاء والضباط الكبار ، فحدقت في وجهه جيداً، فإذا به معلمي الكاهن (خور بَرَست) ذاته، فأسرعت الخطا صوبه يتبعني الفارس (باد) ورحت أقبّل رأسه وجبينه عدة مرات، ولم أدع له مجالاً للنهوض من مكانه، وكان الضابط (حابي) قد حجز مقعدين على جانبيه، لي وللفارس

(باد)، فاستغربت وجوده في (دوماسقو) البعيدة عن (واشوكاني)، وكيف تعرّف عليه (باد) في أسواق المدينة. فقال لي: «أنا أعرف الفارس (باد) جيداً، فلقد رافقني في مهمةٍ ملكية صوب بلاد الإغريق كما أنقذني من هجمة أشقياء أرادوا سلبي أموالي وألواحي الطينية في (بابل)».

وقبل أن يحضر الطعام، سألني عن حالي وعن مدى إنجازي مهمتي الملكية، والناس من حولنا في هرج يتحدثون باصواتٍ عالية، فسألته: «عن أي مهمة تتحدثون يا معلمي؟» فقال: «أنا هنا للبحث عنك يا ولدي، وأعلم أنك في مهمة ملكية، ولو لم أجدك في (دوماسقو) لذهبت جنوباً حتى (أخيتاتون) و(طيبة) في مصر. لقد نفذ صبر الملك (توشراتا) بعد هذه الفترة الطويلة من غربتكما، فأمرني بالبحث عنك دون إثارة تساؤلات أحدٍ سوانا، وها قد مضى زمن ولم تعد بعد إلى (واشوكاني)، فماذا حدث؟ أريدك أن تطمئنني إلى أنكَ أنجزت ما أمرك به الملك، وإلاّ لن أتناول الطعام، وأنت تعلم كم أحب الطعام، خاصةً وإن الدوماسقيين يجيدون فنون الطهي والشوي». ثم ضحك ضحكةً جميلة، وقال: «يخيّل إليّ أنهم لايجيدون شيئاً سوى الطبخ وإعداد الموائد لأسيادهم، أياً كانوا..».فاكتفيت بالقول: «سأنجز مهمتي كاملةً عندما أقف في حضرة الملك (توشراتا). وذكرت له أن القصة طويلة وسأسردها له عندما نخلو ببعضنا في مكانٍ آخر، فربت على كتفي بيدٍ غليظة، وفتح ذراعيه صوب الطعام الذي كان يقترب منا على أيدي الخدم النظيفي الثياب وكأنهم ماخُلِقوا إلاّ لخدمة الناس. وسألته عن صحة الملك (توشراتا) ثم بحذرٍ

شديد عن الوزير الميتاني، فأعلمني بأن الملك قد قضى وقتاً صعباً حتى تخلّص من وزيره الخائن بقتله لأنه كان متحالفاً مع المتمرّد (أوتخي) بهدف الغدر بالملك وانتزاع السلطة منه، وأن صحة الملك تسوء مع الأيام، وهومشتاق طوال الليل والنهار لمعرفة الأخبار عن ابنته (دوتى خيبا) ووليدها، ثم ذكر لي بأن الأنباء في (واشوكاني) متضاربة حول ذلك الوليد، أهو ذكر أم أنثى!

وقبل أن يباشر الضيوف بتناول الطعام، نهض القائد (حورمحب) من مكانه، فنهض كل الضباط وقادة الحرس المدعويين لحظةً ثم جلسوا، وقال القائد: «لقد جئتكم من مصر حاملاً معي مباركة الفرعون أخناتون ابن الإله (آتون) لمدينة (دوماسقو) التي لاتقل مكانة لديه من (طيبة) و(ممفيس) و(أخيتاتون)، والفرعون يدعوكم إلى قبول إصلاحه الديني، بالتخلّص من آلهةٍ لاتغني ولا تسمن من جوع، نحتها الناس من الصخور والأخشاب بأياديهم وخضعوا لسلطانهم غير الموجود حقيقةً، ولكن الفرعون (أخناتون) لن يقضي على ما تعبدون إن لم تصبح آلهتكم وكهنة معابدها عائقاً أمام إصلاحاته الدينية التي ستغيّر من أسس حياتكم، ولن يزيل أصنامكم من معابدكم، فهي أحجار وأخشابٌ لاضرر منها، وإنما سيزيل سلطة الكهنة الذين يمتصون دماء شعبكم ويمارسون عليكم السحر والإخضاع للعبودية. إذاً، إنها دعوةٌ للحرية وليست لعبودية جديدة. ولكن..». وسكت برهةً أدار فيها رأسه يمنةً ويسرة، ثم قال: «إن ترحيب مليككم بنا في الأراضي الصخرية جنوب (دوماسقو) كان

دموياً، ولن أدع هذه الجريمة الغادرة تمر من دون عقاب، أو تسيل دماء جنودنا في بلاد (سوريانا) هدرا».

قال ذلك وجلس، وإذا بعاصفةٍ من الكلام الخافت على كل الألسنة، وتساؤلات عما حدث لنا في طريقنا، وعما سيقوم به القائد (حورمحب) من إجراءات ضد الملك (أزيرو) الذي كان قد دس بعض جواسيسه بين المدعويين والخدام والحراس بدون شك... ثم بدأ نهش اللحوم وابتلاع كمياتٍ كبيرة مما طبخه الدوماسقيون بجدارة ومهارة، ولاحظت أن الخمور قليلة، وكأن القائد (حورمحب) لم يشأ لضباطه أن يسكروا، فقد يتعرضون لهجومٍ مباغت من قوات (أزيرو) وحلفائه الهيتيت فجأةً.

سألت معلمي (خوربرست) عن سرّ معرفته بالقائد المصري (حورمحب) فأجابني قائلاً: «أترى ذلك الرجل العملاق ذي الطربوش المخروطي الجالس إلى جانب (حورمحب)؟» فقلت: «نعم، وكأنه أحد الأعيان الميتانيين». فقال: «إنه (راهزان)، قائد القوة الميتانية التي كلفها الملك (توشراتا) بمرافقتي صوب بلاد الفراعنة للبحث عنكما، أنت و(باد)». وهنا قال (باد): «صحيح، إنه (راهزان) فقد كان زميلي في سنوات التدريب، فهل تسمحون لي بالذهاب إليه لتحيته؟» فأجابه الكاهن بلهجة الآمر: «دعه الآن، فلربما بينه وبين (حورمحب) حديث هام، سنلتقي ببعضنا غداً». ثم التفت إليّ وقال: «سمعت بأن الملكة (دوتى خيبا) في الطريق معكم إلى (واشوكاني)».. فأجبته: «نعم يامعلمي. وهي لم تعد حزينة كما كانت». فسأل بصوتٍ خافت: «وهل هي لوحدها؟»

فقلت: «لم أفهم ماتقصدونه يا معلمي». فضحك ضحكةً اهتز له بطنه المنتفخ: «لاتلعب معي لعبة الفأر الصغير مع القط الضخم... على كل حال، ستعود الملكة ومن معها في حمايتنا إلى أهلها، وسيصبح يوم وصولها إلى (واشوكاني) كعيدٍ قومي، فالناس في (واشوكاني) يحبونها حباً جماً، وقد تساعد زيارتها هذه إلى أهلها وموطنها في أن يستعيد الملك (توشراتا) العجوز شيئاً من قواه الخائرة وفي أن يزول عنه حزنه الشديد وتخف كآبته، فقد بدأ يغضب بسرعة في السنوات الأخيرة، ولكن قل لي بصراحة: لماذا أرسلكما إلى مصر، من دون معرفة وزيره أو قواد جنده؟ وهاهو بعد سنواتٍ من غيابكما يطلب مني بالبحث عنكما في بلاد (سوريانا) و(كنعان) ومصر الفراعنة، فماذا يجري حقاً؟» فقلت له: «معلمي (خوربرست)، يبدو أنك شربت بما فيه الكفاية... سأقول لك كل الحقيقة عندما تتراءى لنا أسوار مدينة (واشوكاني)، فتمهّل قليلاً». وساعدناه أنا و(باد) على النهوض، والتوجه به صوب مكان اقامته، وفي ذات الوقت كان المحارب الميتاني ذي الطربوش المخروطي يودّع القائد (حورمحب) توديعاً حاراً، وهما يبتعدان عن بعضهما وسط حلقةٍ من ضباطهما.

وفي لقاءٍ آخر، في اليوم التالي، كان قد حضر معنا المسؤول عن قوة الحماية الميتانية، المحارب (راهزان)، ذكر معلمي (خوربرست) أن بلاد (سوريانا) برمتها تشهد غلياناً سياسياً شديداً، فالسوريون منقسمون على أنفسهم كعادتهم، منهم فريقٌ مع الملك (أزيرو) الذي مال إلى الغزاة الهاتيين القادمين من الشمال، ومنهم من ركن لسلطة الغزاة المصريين

القادمين من الجنوب، وبينهما فريقٌ يريد حرية واستقلال (سوريانا) من كل الغزاة، وهكذا تنشق الأقوام الضعيفة على نفسها في أوقات المحن، والملك (آزيرو) سفاحٌ لايدري حقيقةً ما عليه القيام به، وقال بأنه أكّد للقائد (حورمحب) على أنّ الملك (توشراتا) لايزال على عهده مع الفرعون (تحوتمس الثالث)، مثلما لايزال على وفاقٍ مع ملك الهاتيين (هاتوشيلي بن زانداتا)، فإن مملكة (ميتان) لاتطمح في الاستيلاء على أرض أحد، ولا تسعى للتوسّع إلاّ أنها مستعدة في كل حين للدفاع عما هو ملك للآباء والأجداد، حتى آخر محارب ميتاني، وذكر الكاهن (خوربرست) أن لدى القائد (حورمحب) معلوماتٍ دقيقة وصلته من أمراء الوحدات المصرية المختلفة في بلاد (سوريانا) عن هجمات ليليةٍ مباغتة يشنها أنصار الملك (أزيرو) عليها بمساعدة الخيالة الهاتيين، لتظهر تلك الهجمات وكأنها من الهاتيين وحدهم، وإن (أزيرو) يحرّض الفينيقيين أيضاً ويمدهم بالسلاح والمال لمتابعة التمرد على سلطة (أخناتون)، في حين أنه فشل في اقناع حكماء (كنعان) بالتعاون معه لطرد المصريين من بلادهم، فالكنعانيون غير مستعدين لتبديل الاستعمار المصري بالاستعمار الهيتي، طالما لايجلب لهم النهوض الحرية الكاملة، ولذا من الأفضل أن يبحث معهم (أزيرو) عن السلام والاتفاق مع المصريين والهاتيين على حدٍ سواء، بحيث يتم تخفيف وطأة احتلال القوتين الكبيرتين لبلاد (سوريانا) و(كنعان)، والتفاوض معهما لإخراجهما دون حربٍ من البلاد.. فالحرب ستدمّر مدنهم وستهلك الحرث والنسل، فيما سيسمح لهم السلام بالأمن والاستقرار، حيث من

دون الأمن والاستقرار لا مجال للتقدّم والتطوّر والعمران.

سألت المحارب (راهزان) فيما إذا كان متوقعاً أن يفعل القائد المصري (حورمحب) شيئاً ضد (أزيرو)، وخاصةً بعد الهجوم المباغت علينا وعلى قواته في الأراضي الصخرية قبل وصولنا إلى (دوماسقو)، فأجاب بأن (حورمحب) ينتظر حادثاً صغيراً في (دوماسقو) ولربما مفتعلاً للانقضاض على عائلة (أزيرو) ولانهاء حكمهم الدموي المرتبط بالهاتيين مرةً وإلى الأبد.

في تلك الأيام القليلة التي قضيناها في (دوماسقو)، شعرت بشيءٍ من الهدوء النفسي، حيث كنت في أعماقي حانقاً من قبل، طوال خروجنا من بلاد الفراعنة وسفرنا صوب سوريانا، على مليكنا (توشراتا) لاعتقادي بأنه نسي أمري تماماً، إلاّ أنني اكتشفت ما أذهلني فعلاً، إذ لدى إعطائي بعض القطع النقدية الذهبية للعبد موروك من أجل أن يبتاع للكاهن (خوربرست) بعض الهدايا القماشية الثمينة التي أخرجتها من السترة التي أعادها لي العبد موروك، سأل الكاهن وهو يحدّق باستغراب إلى تلك النقود ذات البريق الجذاب: «هذه نقود ميتانية، ألا يزال معك طوال هذه السنوات نقود ميتانية؟» وأخذ من يدي قطعة وقلّبها أمام عينيه الضعيفتين، وعض بأسنانه المهشمة على إحداها، فاستغربت الأمر، وسألته: «كيف هي ميتانية وأنا لم أرَ مثيلاً لها في أسواق مدينتي (واشوكاني)؟» فضحك وقال: «هذه نقود خاصة تصرف للامراء والوزراء والحاشية في القصر الملكي، وتهدى للملوك الأصدقاء، ولاتمنح للعامة من الناس. إنه تقليد، بل سر

من أسرارمليكنا (توشراتا)... ألا قل لي، من أين لك هذا؟» فذكرت له ما جرى لنا من قبل، وكيف أعطانا والد الأميرة (هستيا) سترتين فيهما هذه النقود، فصفق تصفيقاً عنيفاً وقال بعد أن خمدت ضحكته الصادقة: «تأكد ياعزيزي أن الملك (توشراتا) قد أرسل الذهب الذي في السترتين اللتين تتحدث عنهما إلى والد هذه الأميرة الجميلة، ولكن ما السبب وراء ذلك، وما هي العلاقة بين أبيها وملكنا الميتاني؟ هذا يزيد من الغموض الذي يحيرني في موضوعك برمته... وهنا أدركت أن الذهب الذي أهدانا إياه والد (هستيا) أو أن جزءاً منه أتاه من ملك ميتان، أو كان عنده قبل وصولنا إلى مدينته، فهل كان الملك (توشراتا) يتابع مسارنا الطويل الأمد باستمرار، أم أنه كان يغدق بالذهب الخاص على أمراء آرزاوا والاغريق وسواهم في سرية تامة لمصالح مشتركة؟ ما كنت أدري الحقيقة في الأمر، إلاّ أن ثقتي بالملك الذي كلفني بأخطر مهمة سرية في حياتي زادت، وأن الكاهن (خوربرست) الذي جاء للقائي في (دوماسقو) صادق في كلامه كما عهدته دائماً. وفي الليلة التي تلت حديثنا ذاك نمت قرير العين، رغم الخطر الذي كنت أتوقعه في كل لحظة،

وبالفعل، حدث ما لم يكن في الحسبان، ونحن نشتري في اليوم التالي في الأسواق المكتظة لمدينة (دوماسقو) ما سنحتاج إليه لمتابعة سفرنا إلى مملكة (ميتان)، إذ تعرّض عددٌ من ضباط القائد (حورمحب) إلى التسمم من جراء تناولهم سمكاً مشوياً في نادٍ للضباط السوريين، فثارت ثائرة المصريين الذين اعتبروا حادثة التسمم مؤامرةً مدبرة من (أزيرو)،

فنشب شجار بينهم وبين العساكر السوريين، تحوّل بسرعة إلى قتالٍ دموي بالسيوف والرماح، توسّع ليتحوّل إلى فتنةٍ كبيرة شملت سائر أنحاء المدينة، حيث يتواجد الجنود المصريون والسوريون، ولم يعد أحدٌ يدري حقيقة الأمر، أو لم يعد مهماً معرفة الحقيقة، فأمر (حورمحب) بالاستيلاء على قلعة الملك (أزيرو) والقبض عليه مع حاشيته وزوجته وولديه اللذين كانا من أهم المسؤولين عن حمايته، واستغل (حورمحب) الفوضى الناشبة في المدينة فلم يرحم (أزيرو) الذي لم تتمكّن قوات الهاتيين المتمركزة على بعد فراسخ عديدة من المدينة مساعدته في محنته، واستطاع المصريون سدّ الممرات والأبواب التي في أسوار المدينة قبل أن يصل إليها الهاتيون، وأُلقيَ القبض على (أزيرو) وعائلته ليلقوا مصيراً مرعباً، فقد أمر (حورمحب) بقطع رأس ولدَي (أزيرو) ثم رأس زوجته أمام عينيه، وهو يتعرّض لتعذيب لا مثيل له، قبل أن تُقطَعَ راسه أيضاً، بهدف ترويع سكان المدينة الذين وجدوا أنفسهم فجأةً بدون العائلة التي حكمتهم زمناً طويلاً بقوة الحديد والنار، ووجدوا فيها أمل التحرر من المحتل الأجنبي.رغم سلطتها الدموية الرهيبة. وسرعان ما انتشر الخبر في النواحي المجاورة للمدينة، حيث وجد الهاتيون أن أي محاولةٍ لانقاذ الملك (أزيرو) متأخرة، وما عليهم إلاَ التوصَل إلى اتفاق ما مع القائد المصري الغاشم والقوي، وعدم الدخول معه في حربٍ غير مأمونة النتائج.

قررنا متابعة سفرنا صوب مملكة (ميتان)، لأننا لم نكن نعلم ماذا سيحدث في (دوماسقو) الجميلة بعد أن سفكت فيها دماء غزيرة، وسقط

عن جسدها رأسها وانتهى حكم أهم عائلةٍ حكمتها خلال السنوات العديدة الماضية.فتحدث معلمي (خوربرست) وقائد الوحدة الميتانية (راهزان) في أمر سفرنا مع القائد (حورمحب) بحضور بعض ضباط جيشه ومن بينهم صديقنا الضابط (حابى)، الذي قاد عملية الهجوم على قلعة الملك (أزيرو) ونال بذلك أعلى المقام لدى قريبه (حورمحب)، وأبدى استعداده لمرافقتنا حتى مدينة (هه له با) في شمال (سوريانا)، فسمح لنا القائد (حورمحب) بالسفر، ولكن من دون مرافقة أي مصري لنا، وأبدى استعداده لدعمنا بكل ما نحتاجه من مواد غذائية ودواب وأسلحة وأموال نحتاج إليها، إضافةً إلى تجهيز وحدة حمايتنا الميتانية بما تحتاجه، وأصرَ على أن نزيد من حراسة الملكة (دوتى خيبا) التي سينتظر المصريون عودتها بشوق إلى (أخيتاتون). واتفقنا على أن نبدأ سفرنا فجر اليوم التالي من دون أي مساعدةٍ، فقوة الحماية الميتانية قادرة على صد أي هجوم علينا من قبل الأشقياء واللصوص، ولا نتوقّع أي عدوانٍ من الهاتيين لأن بين مملكتنا ومملكتهم عهد ووفاق.

- 27 -

عصر ذلك اليوم، كنا في القصر الذي تم إعداده من قبل القائد (حورمحب) للملكة (دوتى خيبا)، وكان الفتى (كه يو) يلاعب فتىً آخر بسيفٍ قصير، والملكة تحدّق فيه بحذرٍ شديد، خوفاً من أن يصاب بجراح، وهي جالسة على طرف أريكةٍ عالية وترتدي ثياباً تدل على وقارها الملكي. في حين كنا نحن، أنا و(باد) و(هستيا) و(أليسا) والمعلم (خوربرست) والمحارب (راهزان)، نجلس على مصطبةٍ خاصةٍ للطعام، مستطيلة الشكل بين أضلاعها طاولةٌ خشبية عظيمة، عليها الكثير من شتى أنواع الطعام والشراب، في الطرف الآخر من القاعة الواسعة للقصر، وكنا قد انتهينا من طعام المساء، ودخلنا في موضوعٍ متشعّب عن الدين والدولة، ومما قاله المحارب (راهزان) آنذاك: «يبدو أنّ الملكة (دوتى خيبا) لاتسمح لنفسها بالدخول معنا في الحديث، وأعتقد أن المصريين يفرضون على مليكاتهم عدم الجلوس إلى الرعية، حتى في قصورهن الخاصة. هذا ما أراه تخلّفاً». فقال المعلم (خوربرست): «لا ياعزيزي، المصريون غير متخلفين، إلاّ أنهم يرفعون من شأن ملوكهم ومليكاتهم إلى مستوى الآلهة، والآلهة لاتجالس البشر ولا تتحدث معهم فيما يتعلّق

بحياتهم وحاجاتهم. والمشكلة هنا، فإن الملكة (دوتى خيبا) التي عاشت السنوات الأولى من حياتها في (ميتان) تعلم مثلنا أنها ليست إلهة، وهي ترفض ذلك بالتأكيد، إلاّ أن النظام السياسي- الديني في مصر له إطارٌ مختلف عما عليه نظامنا الميتاني، الذي لم يكن مختلفاً عما عليه المصريون قبل وصول الملك (توشراتا) إلى الحكم».فأضطررت إلى القول بأني دخلت على الملكة (دوتى خيبا) وتحدثت معها أكثر من مرّة، وأعتقد أنها لن تتحدث معنا إلا بعد الابتعاد عن هذه البلاد التي فيها المصريون يحكمون وفق عقائدهم ونظامهم السياسي. وستجدون أن ملكتنا لم تزل ميتانية العادات والأخلاق، رغم أنها تعيش منذ فترةٍ طويلة في مصر الفرعونية». ثم قال المعلم (خوربرست) بعد أن حدّق طويلاً في الصبي (كه يو) وكأنه ظن في أنه نجل الملكة (دوتى خيبا): «تستطيع الغربة أن تغيّر من سلوك كل إنسان، إلاّ المخلص لوطنه فهذا أقسى من الصوان... حسب تجربتي الحياتية، أقول لكم بصدد الدين والدولة:أنا أدعو إلى فصل السياسة عن الدين، وذلك بألايسمح الملك بتدخّل كهنة المعابد في عمله الذي هو إدارة المجتمع. أما وظيفة رجال الدين فيجب أن تكون مساعدةً للمجتمع، في وعظ الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وفي مساعدة الخاطئين للرجوع عن أخطائهم، والفقراء والمساكين للتغلب على مشاكلهم، ونشر المعارف وتغليب الخير على الشر، فماذا تقول يا (لاوى هوري)، بعد أن زرت العديد من البلدان والأمصار وتعرّفت فيها على عقائدها وحكوماتها؟» فأجبت: «سيدي ومعلمي، مهما تجولنا

في البلدان والديار فلن نصل إلى مرتبتكم في العلم والمعرفة، ولذا لاقيمة لرأيي أو نظرتي بعد الذي قلته لنا الآن». فعاتب بتلويح اصبعٍ ثخينٍ من يده اليمنى وقال: «أريد أن أسمع رأيك حقاً، فقد كنت في مملكة الجن وبلاد آرزوا ومن ثم في بلاد الفينيق وجنوباً في بلاد كنعان ومصر... ولابد أن رأسك هذا قد تشرّب عصير الأفكار والأديان والسياسات، ولا يعقل أن تعود إلى (ميتان) ورأسك مثل خابية فخارية فارغة». فضحك الجميع وانتظروا جوابي. فقلت: «في الحقيقة، كان (باد) معي في كل تلك الجولات و الزيارات، مع فارق أن رغبته الشديدة كانت التعرّف على الأسلحة وطرائق القتال ورسومها على الجدران وآثارها المحفورة في أذهان المحاربين، في حين كنت أحاول فهم عقائد الناس وأساليب حياتهم وأنواع الأنظمة السياسية التي شيّدوها لأنفسهم، فوجدت الدين موجوداً في مختلف المجتمعات، المتقدمة والمتأخرة، ولو بمستويات مختلفة وتعقيداتٍ عجيبة، وتعلمت أن فكرة «الخلود» هي التي تتشارك فيها كل الأديان، فالإنسان يخاف الموت والفناء والعدم، وله الأمل في حياةٍ خالدة من خلال حياةٍ يعمل فيها ما يجده الآخرون خيراً ويبتعد فيها عما يجدونه شراً، والخيروالشر يختلفان من مكانٍ إلى مكان، كما أن المعروف والمنكر مرتبطان بتغيّر الأزمان أيضاً. وحقيقةً، إن الدين عند المصريين من أغرب الأديان الأخرى، ففي مصر يعتقد الناس أن فرعونهم الذي يحكمهم في الدنيا هو الذي سيقودهم في العالم الآخر أيضاً، ولذا فإنه مركز عقيدتهم وأهم ماعندهم من رأسمال في الدنيا، لا يقدسونه فحسب، وإنما يعملون

لخلوده فرعوناً لهم بعد مماته أيضاً، وهذا لم أجده عند الكنعانيين والعماليق والسوريين والفينيقيين والآرزاويين والهاتيين. وعلى الرغم من أن ملك الهاتيين هو مالك كل السلطات، السياسية والدينية، إلاّ أنه لايرتفع إلى ما عليه فراعنة مصر، وهذا سرّ اهتمام المصريين الكبير ببناء المدافن العظيمة والصروح العالية لفراعنتهم الذين يعتبرون أنفسهم آلهة وليس بشراً. بل يعتقد بعض المصريين أن فراعنتهم قد هبطوا من السماء، وهم غير المخلوقات البشرية الأخرى». ولاحظت أن كل الحاضرين كانوا يصغون إلى ماقلته باهتمام جاد. فقال المعلم (خوربرست): «ها...ها... ها... أجدك قد ملأت خابيتك في رحلتك هذه، ولكنك لم تقل لي شيئاً عن أمر العلاقة بين السياسة والدين». فقلت: «أنا مع تضافروتضامن كل طاقات الخير من أجل سعادة المجتمع ودفع عجلة التطور، ولذا لا أجد حداً فاصلاً بين مقر الحكومة والمعبد، بل على العكس يمكن أن يستفيد الطرفان من سلطة بعضهما البعض في المجتمع لتحقيق ما هو خير للجميع، وإذا كانت العقائد تسد الطريق على تحقيق متطلبات وحاجات المجتمع فيجب إصلاحها وتجديدها من خلال فهم يتلاءم مع العصر لنصوصها ويجب الحد من سلطة الكهنة والمتاجرين باسم الدين، أما إذا كان الملوك هم الذين يقفون عثرةً في طريق التقدّم والأمن والاستقرار والتطوّر لشعوبهم، فيجب الإطاحة بهم، لتبقى مصلحة الشعب هي الأعلى والأهم لمن يحكمه. ولقد أعجبني ما يقوم به الفرعون (أخناتون) من إصلاح ديني في مصر، إلاّ أن محاولته ناقصة لأنه يعتبر نفسه خليفة

الخالق الأعظم في الأرض أو ابنه المبجل، وفرض الإصلاح بالقوة لن ينتج سوى مزيدٍ من الأعداء الذين سيتضافرون ضده لاحباط ما يسعى من أجله. فلا خليفة للخالق الحي القيوم، حيث تكون الخليفة لمن هو غائبٌ أو ميت... الدين برأيي يعالج العاهات النفسية والأمراض الاجتماعية الخارجة عن إطار السلطة السياسية، إن تّم تحديده وتجديده وإصلاحه بما لايدع أي مجال للعبث به من قبل القائمين عليه والعاملين على استخدامه سلاحاً في أياديهم، والسياسة تثير المشاكل الكبيرة والحروب فيما إذا سمحت الشعوب لمن يقوم على أمورها بالاستبداد وتحريفها عن هدفها الاجتماعي».

صدرت من كل الحاضرين إشارات وكلمات مؤيدة لما قلته، إلاّ أن معلمي (خوربرست) قد أضاف: «سيأتي يومٌ لايسمح فيه الملوك والحكام لأي رجل دين بالتدخّل في شؤون ممالكهم ولكن سيبقى الإنسان كما هو حاملاً معه عاهاته النفسية ومشاكله الاجتماعية وظمأه المستمر لمعرفة الحقيقة، وستكون هناك حروب بعد حروب، ومستبدون بعد مستبدين، وتدمير بعد تدمير، إلى ما يشاء الخالق العظيم الذي جعل للناس الأرض مهادا».فشكرته الأميرة (هستيا) التي كانت قد تعلمت مع الأيام لغتنا الميتانية - الهورية من (باد) ومني، ووعدت بأن تزوره في(واشوكاني) مراراً جالبةً معها أطيب المأكولات الآرزاوية التي تعلمت تحضيرها من خدمها في قصر أبيها، حاكم (أورا).

هنا قال المحارب (راهزان) بصوتٍ خافت: «إسمحوا لي بأن أحدّثكم

في أمرٍ أراه مهماً لنا، أوهذا ما اعتقده. أما الدين فلا أوّد التطرّق إليه لأني محارب واجبه حماية الشعب وليس إعطاءه الدروس». فقال المعلم (خوربرست) مازحاً: «تفضل ياعزيزي... تفضل... المحاربون يفهمون من السيوف أكثر مما في القراطيس. »فقال المحارب بجديةٍ وبكلماتٍ قليلة: «البارحة رأيت مصادفةً ناقل بريد مصرياً يرّن خلخال قدمه أتى لتوه إلى (دوماسقو) وأعطى الضابط (حابى) لفافة جلدية مختومة، فاحتقن وجه (حابى) لدى فتحها وقراءتها، وأمر ناقلَ البريد أن يذهب إلى شأنه بعد أن وضع في إحدى يديه بعض النقود، ثم أخفى اللفافة في ثنايا سترته العسكرية، ومضى دون أن يلتفت إلى أحدٍ من زملائه الذين نادوه أكثر من مرّة لأمرٍ من أمورهم». فسأل المعلم (خوربرست) في الحال: «ماذا يعني هذا؟ إنه ضابط كبير ومجيء الرسائل له أمرٌ عادي كما أرى». ففكرتُ في أن الرسائل التي كانت تأتي إلى القائد (حورمحب) في محطات سفرنا السابقة، كانت تأتي إليه مباشرةً، ولم أرَ الضابط (حابى) يستلم أي رسالة من قبل، وإن رسالةً قادمةً من مصر أو من وحدة عسكرية لاتُخفى في ثنايا السترة».. فأطرقت واجماً وجاهلاً بما يجري، فإذا بالفارس (باد) يقول للأميرة (هستيا) وللوصيفة الأولى (أليسا): «هيا إلى العمل. نريد هذه الرسالة قبل أن يحين الفجر، موعد انطلاقنا من (دوماسقو)». ووجدت الأمر مضحكاً، فابتسمت لهم، وقلت: «نرسل نساءنا للاحتيال على ضابطٍ كبير مثل صديقنا (حابى)؟ لماذا لاندعوه إلى السهر معنا ونسقيه من الخمر مايكفي لأن يشخر في نومه، ونرى ماذا أتاه من مصر؟»فقال

المعلم (خوربرست): «لاأعتقد أنه سيلبي دعوتنا، فالمدينة في ذعرٍ وترقّب مما قد يحدث من ردود أفعال لما ارتكبه (حورمحب) من مجزرة بحق عائلة (أزيرو)، والوحدات المصرية متوزعة في أنحاء المدينة فلا مجال لأي ضابط أن يغادر مكان عمله أو اقامته الآن... فلتذهب السيدتان ولتقوما بإلهائه ببعض الكلام والحركات الخادعة، ولتسرق منه إحداهما لفافة البريد». وبالفعل إنطلقت المرأتان، يرافقهما الفارس (باد) لحراستهما، بعد أن طلبت (أليسا) الإذن بادبٍ جم من الملكة (دوتى خيبا) التي لم يكن شيء يثير انتباهها سوى ولدها (كه يو)،وكانت كمن يعيش في عالمٍ خيالي آخر، منذ أن عاد إليها ولدها. وتابعنا حديثنا إلى مجيء طعام العشاء لنا، حيث جلست (دوتى خيبا) في صدر طاولةٍ لتتناول معنا الطعام ليس بعيداً عن مكان جلوسنا لأوّل مرة، وبدت كامرأةٍ ميتانية متواضعة وليس كإلهةٍ فرعونية يخاف الناس النظر إليها، في حين كان (كه يو) يحدّق في البدر الساطع عبر نافذةٍ كبيرة ولم تنفع نداءاتنا له لمشاركتنا الطعام.

عادت المرأتان ومعهما (باد) بعد انتهائنا من تناول طعامنا واستلقائنا على الأرائك الوثيرة لشرب بعض الشراب قبل الانصراف للنوم، دخلتا علينا وفي يد الأميرة (هستيا) لفافة القماش تلوّح بها فوق رأسها، وتقول: «لم يكلفنا إنجاز المهمة سوى نكتة إغريقية». ومن فرط اهتمامنا بما في اللفافة من كلام، لم يسأل أحدنا عن النكتة التي سمعها الضابط (حابى) فضحك ضحكةً طويلة، استغلت فرصتها إحدى السيدتين لتسرق منه اللفافة من دون أن يشعر بذلك.

أعطتني (هستيا) اللفافة ففتحتها وقرأت فيها التالي باللغة الهيروغليفية بصوتٍ سمعه الآخرون: «امنع يا (حابى) العصفور الصغيرمن التحليق، وسأطلب من (ابن الشمس) تعيينك في مكان أعلى مما أنت فيه الآن ». وانتظرت تعليق المعلم (خوربرست)، الذي فكّر قليلاً ثم استدار نحوي وسأل: «من هو العصفور الصغير؟يبدو أن الذي كتب أو أمر بكتابة هذه الرسالة قادرٌ على التأثير في الفرعون، فهو الذي يزعم أنه ابن الشمس، ومن يقدر على ذلك سوى الملكة الكبرى (نفرتيتي)؟»

ولحسن الحظ، لم تكن الملكة (دوتى خيبا) عندنا أثناء قراءتي للرسالة، فقد قامت بعد تناول العشاء وأخذت معها (كه يو) إلى غرفتها، فإنها كانت ستصاب بإحباطٍ وخوفٍ عظيمين. ثم أخذ المعلم (خوربرست) مني الرسالة وأحرقها رويداً رويدا على لهب شمعةٍ كبيرة كانت بالقرب منه، وقال: «لاينفع ذكر هذا أمام القائد (حورمحب) الذي ربما لا يعرف شيئاً عن العصفور الصغيروقد تفتح هذه الرسالةعلينا باب سردابٍ لن نخرج منه... لم يعد لدينا مجال، وعلينا الخروج من (دوماسقو) الآن، لا يمكننا الانتظار حتى ينقض علينا (حابى) وأتباعه. ثم سألني وهو ينهض بجسده الثقيل من موضعه: «من هذا الفتى (كه يو)؟» فأجبت بصوتٍ خافت: «إنه ولدي بالتبنيّ، أخذته من صاحب مركزٍ لتحضير الموتى للعالم السفلي في مدينة (خمون) القديمة، وأُمُه أَمَةٌ حبشية».فابتسم بخبث وقال: «ظننت أن أمه ميتانية، فهو لا يشبه المصريين ولا يشبه الأحباش». ولم أجد حيلةً تسعفني، فسأل: «أهو حفيد الملك (توشراتا)

وأبوه الفرعون (أخناتون)». فابتسمت من دون جواب، فقال: «الآن، أعلم لماذا أرسلك الملك (توشراتا) في طريقٍ ملتوٍ إلى مصر، ولماذا بعثني للبحث عنك..». فنظر (باد) إليّ بوجه عبوس، وكأن على رأسه الطير الجارح، وشعرت في لحظة أنه يسحب سيفه من غمده بيدٍ ترتجف من الغيظ.

كان علينا الاستئذان بالخروج من مدينة (دوماسقو) من القائد المصري (حورمحب)، واقناع الملكة (دوتى خيبا) بأن السفرليلاًحيث البدر المنير أفضل منه نهاراً، حيث لايزال الجو كما كان في الصيف حاراً، ومن الأفضل مغادرة المدينة والأشقياء لايزالون نائمين، ولذا أسرعت الخطا صوب مقرّالقائد (حورمحب) الذي كانت نوافذ قصره مضيئة حتى وقتٍ متأخر من الليل في تلك الأيام القليلة التي قضيناها في (دوماسقو)، وعندما سُمِحَ لي بالدخول عليه، وجدت الضابط (حابى) بين يديه، وهو كئيبٌ حقاً وصامتٌ تماماً، فطلبت الإذن بالرحيل من القائد الذي رفع عينيه عن كومةٍ من اللفائف القماشية ومن ورق البردي، وإلى جانبه عدة شموع كبيرة ومضيئة، فقال: «لماذا لا تنتظرون حتى الصباح؟ على كل حال سترافقكم كوكبة من جنودنا حتى تجتازوا السلسلة الجبلية في شمال (دوماسقو)». فقال الضابط (حابى): «أنا سأرافقهم ياسيدي، إن سمحتم لي بذلك». فأجابه (حورمحب): «حسناً، ما يهمني هو أن تصل الملكة (دوتى خيبا) إلى وطن آبائها وأجدادها بسلام... » ثم قال لي: «لاتنسوا أن تنقلوا تحياتي للملك (توشراتا)، وقولوا له: نحن أقرباء، والمصريون يشكرونه على

استعداده إرسال جيشٍ لهم متى ما طلبوا ذلك... فإذا كنتم بحاجة لشيءٍ ما فاطلبوا الآن وقل له بأن بلاد كيميت تنتظر عودة ملكتها (دوتى خيبا) بفارغ الصبر». قال ذلك ومدّ يداً صوبي فأمسكت بيده القوية بشدة ثم حييته تحيةً عسكرية كما يفعل ضباط جيشه، وخرجت من عنده، وأنا غير فرح بمرافقة الضابط (حابى) لنا، إلاّ أنني لم أظهر أمامه ما يثير شكوكه في علمنا بالرسالة التي أتته من مصر، بل على العكس من ذلك، قلت له ونحن نخرج معاً من القصر: «المعروف لا يضيع، فها أنتم تحرسوننا حتى نجتاز الجبال التي يترصد فيها الأشقياء المسافرين، مثلما ساعدنا زوجتكم الكريمة في التخلّص من شر الأشقياء في صحراء العماليق». فسكت ولم يقل شيئاً البتة، مما أثار شكوكي حوله، ورحت أتساءل في نفسي عما إذا ان سينفذ ما طلبته (نفرتيتي) منه سراً.

- 28 -

قبيل خروجنا من المدينة فجراً، قمنا بتجهيز أنفسنا بشكل جيد، في حين كان الضابط (حابى) يجهّز الوحدة المصرية التي سترافقنا إلى ما بعد سلسلة الجبال الواقعة شمال وغرب مدينة (دوماسقو)، وانطلقنا في قافلةٍ من الخيول والبغال يتوسطهاالفيل الذي عليه هودج الملكة، وخلفه عربةٍ ذات أربعة خيول سنستخدمها لركوب الملكة حال اقترابنا من مدينة (واشوكاني)، وكان يجلس فيها المعلم (خوربرست) والسيدتان (هستيا) و(أليسا) وبينهم (كه يو) الذي لم يكن يراه أحد لعلو أطراف العربة التي كان يقودها المحارب (راهزان)، وكانت الوحدة المصرية التي سترافقنا بقيادة الضابط (حابى) تنقسم إلى قسمٍ في مقدمة الركب والآخرفي نهايته، في حين كنا أنا والفارس (باد) نمتطي جوادينا على طرفي الفيل.

طوال المسافة بين مدينة (دوماسقو) والتلال العالية العارية التي وصلنا إليها قبل ظهر اليوم ذاته، لم نتكلّم مع الضابط (حابى) أو مع المعلم (خوربرست)، وإنما ظل الحديث بيني وبين الفارس (باد) فقط، وكان مما قاله (باد): «هذا الإنسان الذي بدا صديقاً طوال سفرنا، وشدد باستمرار على أنه سيساعدنا وأنه لن ينسى انقاذنا لزوجته من الأشقياء، وأقام وليمة

عشاء لنا تكريماً، لا أعتقد أنه سينفّذ ما في الرسالة التي أتته من مصر... لا أعتقد». فقلت له: «عزيزي وصديقي (باد)، قبل خروجنا من مدينة (واشوكاني) نصحني المعلم (خوربرست)، وكان مما قاله: إحذر من أحسنت إليه، فالأفعى التي تنقذها من الغرق قد تلدغك. وهذا لن أنساه أبداً، لأنه أكبر خبرةً منا في الحياة، ولربما سمع هذا من معلميه أو أهله، فهي خبرة إنسانية ومن الحكمة أن نحذر الضابط (حابى) الذي لا نعلم كيف سيتصرّف في هذه المرافقة الأخيرة لنا، والذي أجده واجماً وكئيباً منذ أن وصلته الرسالة من مصر».

وحيث أن الطريق كان طويلاً فقد تناقشنا أنا و(باد) حول أمورٍ لم يكن ليفتح (باد) فاهه بصددها من قبل، وكان يبدو منشرح الصدر، وواثقاً مما يصدر عنه من كلام، فسألته وأنا مقترب بجوادي من جواده في تلك اللحظات: «ما هدفك في الحياة يا (باد)؟» ففكر قليلاً ثم أجاب: «أنا الخادم الوفي والخاص لمولاي الملك (توشراتا)، وليس لي أي هدفٍ في الحياة سوى تنفيذ الأوامر والمهام التي يكلفني بها بدقة ودون تردد، ولو كلفني ذلك حياتي». فرحت أتساءل عن هدفي (أنا) في الحياة، إذ لست في خدمة الملك سوى في مهمتي هذه، ولإنسانٍ مثلي ماذا سيكون هدفه سوى بناء عائلةٍ كريمة وحياةٍ حرةٍ وكريمة أيضاً... أحب السفروالتعلم كثيراً، ولكن (أليسا) لن ترضى أن أتركها خلفي، ولن تذهب معي لسفرٍ آخر، بعد ما عانيناه من جهد وتعب في هذا السفر الطويل المرهق... وستمل من رؤيتي وأنا أجلس للتعلم لدى معلمٍ أو في البيت...وهل من الضروري

أن يكون المرء عالماً كبيراً حتى يعيش حياةً هنيئة؟ ألم يقل بعض القرويين بأن الجهل راحة للنفس؟ لا...لا... ثم لا... الجهل ظلمات، إلاّ أنه ليس من الضروري أن يصبح المرء فيلسوفاً كبيراً... وهل من الضروري أن تكون للمرء رسالة في الحياة؟ لا أدري... وبالفعل ما كنت أجد إجابةً لسؤالي الأخير...ولم أشأ متابعة الحديث مع (باد) الذي كان يبدو منهمكاً في استطلاع ما حولنا وكأنه كان يتوقع أن تنقض عليها الذئاب الجائعة من كل حدب وصوب.

ثم عبرنا ممراً ضيّقاً وطويلاً بين التلال من دون أن يهاجمنا أحد، وبعد ذلك حين وصلنا إلى قريةٍ صغيرة في تلك الأنحاء، توقف الضابط (حابى) عن السير، رافعاً إحدى يده ليقف وراءه كل من يتبعه، ثم استدار صوبنا وقال لنا: «الآن، بامكانكم متابعة سيركم، وسأعود مع جنودي إن سمحتم لنا، فنهض المعلم (خوربرست) في داخل العربة وقال له: «أعتقد أن بامكاننا حماية أنفسنا بعد الآن، ولذا نشكركم من قلوبنا ونتمنى لكم عودةً مريحة إلى (دوماسقو)، وآمل أن تنقلوا شكرنا واحترامنا لقائدكم الكبير (حورمحب)». وانطلق (حابى) مع جنوده على الجياد بسرعةٍ لا حاجة لها ومثيرين لغبارٍ كثيفٍ وراءهم بعد أن ودّعنا بلطفً، ماراً بجانبنا وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضة، لم أنخدع بها حقاً.

ما أن هبطنا وادياً صغيراً وشمس صباحٍ جميل تعلو أكتافنا، حتى هاجمنا فرسانٌ ملثمون ومتدثرون بجلابيب سوداء من جانبي الوادي، ورموا بالسهام والرماح الفيل الحامل لهودج الملكة، التي لم تكن جالسةً آنذاك

في الهودج، وإنما كانت تمتطي فرساً، وهي ملثمة حتى لا يتعرّف عليها أحد، وذلك كانت خطتي التي اتفقت عليها مع الملكة قبيل انطلاقنا من (دوماسقو) ووافق عليها المعلم (خوربرست) أيضاً، ولأن هجوم الأشقياء على الهودج كان أشد منه على القافلة، ظننت على الفور بأن الأشقياء الملثمين ليسوا سوى أفراد الوحدة المصرية التي كان يقودها (حابى) نفسه، ولم يقم بذلك إلاّ بعد أن أظهر لأهل القرية الصغيرة التي توقفنا فيها إنجازه لمهمة مرافقتنا، وعودته أدراجه بعد توديعنا. ولأن ظني كان في مكانه فقد طلبت من الفارس (باد) عدم ترك أحد المهاجمين حياً، حتى نتأكّد من أننا تخلصنا من (حابى) أيضاً. وبالفعل استعرت المعركة بيننا وسقط العديد من القتلى في صفوف المصريين، في حين سقط مقاتلان ميتانيان فقط، ولاحظت أن أحد المهاجمين يعطي الأوامر لأتباعه بحركاتٍ من إحدى يديه، فاقتنعت بأنه هو(حابى)، الذي كان همه كما بدا لي إرغام الفيل على القعود أو قتله ليتمكّن من الوصول إلى داخل الهودج وقتل (كه يو) في أحضان أمه، إلاّ أنه لم يكن يدري أننا اتخذنا حذرنا فلم يكن في داخل الهودج أحد.. في ذلك الحين كان (كه يو) الذي كنا قد أخفيناه عن العيون في العربة يحدّق بخوف في المهاجمين الذين يشبهون الغربان بأرديتهم السوداء.

قاتل الفارس (باد) ببسالة وضراوة لامثيل لهما وسعى للاقتراب من المهاجم الذي يعطي الأوامر للأشقياء، فقتل عدة مهاجمين كانوا يحاولون إعاقة الفيل بطعنه بالرماح، في حين تولى المحارب (راهزان) وأفراد

الحامية الميتانية حماية العربة بينما كنت على مقربة من الملكة (دوتى خيبا) مع فارسين آخرين لدفع كل من يقترب من فرسها وبحيث لا يشك أحد في وجودها خارج الهودج. وتمكنّا من قتل معظم المهاجمين علينا وأسر القلة الباقية منهم وربطهم بعضهم ببعض لإرسالهم إلى القائد (حورمحب) حتى ينقلوا له حقيقة ما جرى، في حين استطاع (باد) من الاستفراد بمن ظننت أنه (حابى) وانتزع عنه ما تدثّر به لإخفاء زيه العسكري، فإذا به الضابط (حابى) فعلاً. وقبل أن يناديني (باد) أسرعت صوبه، وصرخت في وجه (حابى): «أهذا رد المعروف يا رجل؟» فأجاب والدم يسيل على طرفٍ من وجهه الذي اصابه (باد) بسيفه: «وهل أستطيع رفض أمرٍ من أوامر الملكة (نفرتيتي)؟» فقلت له: «لا... إنه الطمع في أن تصبح حاكم بلاد (سوريانا) بعد عودة (حورمحب) إلى مصر، والآن ستدفع ثمن هذا الطمع باهظاً. فهل تعلم لماذا طلبت منك (نفرتيتي) منع العصفور الصغير من التحليق؟» فأجاب: «لا أعلم... ولكن يبدو أن الفتى الذي معكم له أهمية خاصة لديها».فنظرت إلى (باد) متسائلاً عما نفعله ب(حابى) الذي خاننا وأراد الغدر بنا وسعى لقتل حفيد ملكنا (توشراتا) فإذا بالفارس (باد) يطيح فجأةً برأسه لتطير في الهواء وليتفجر الدم من عروقه التي تقطّعت بضربة السيف الحاسمة. ثم خيّرت الجنود الأسرى بين الموت في رمال تلك الوديان وبين أن ينقلوا الحادثة كما جرت لقائدهم، فوعدوا بأن يقولوا له الحقيقة وبأنهم هاجمونا بهدف قتل الفتى الصغير الذي معنا. وبالفعل تركناهم يعودون على ظهور جيادهم، وقررنا قتل الفيل الذي

كان قد أصيب بجراحٍ بليغةٍ لا أمل في شفائه منها، وتركيب الهودج على العربة، لترتاح فيها المَلكة مع ولدها ومع الأميرة (هستيا) والوصيفة (أليسا)، في حين ركب المعلم (خوربرست) بغلاً عنيداً، وهو غيرراضٍ عن ترك العربة للملكة. واتفقنا على أن نسير باتجاه (واشوكاني) بطريقٍ مستقيم، لنتفادى هجوماً مصرياً آخر وليس عن طريق المناطق الخضراء والكثيرة المياه التي صارت القبائل العربية القادمة من الجنوب تنتقل للسكنى والرعي فيها، بين (دوماسقو) و(هه له با)، وهذا يعني السفر المضني عبر الصحراء صوب نهر (بورانتو) البعيد والفاصل بين مملكة (ميتان) وبلاد (سوريانا) الخاضعة للمصريين وفي جانبٍ منها للهيتيت، والتي تتعرّض القوافل فيها لهجمات النهب والسلب. ولذا كان لابد لنا من أخذ المزيد من الماء معنا في تلك الرحلة الطويلة الشاقة، إلاّ أنها كانت أقل خطراً من متابعة السفر صوب (خلمان أو هه له با) الواقعة مئات الفراسخ غرب نهر بورانتو.

- 29 -

مرت أيامٌ ولياليَ مرهقة حتى وصلنا إلى نهر بورانتو العظيم، ولكن من دون مصادمات مع الأعراب البدو الذين كنا نلتقي بهم وهم يقودون قطعانهم الكبيرة، في تلك البلاد الواسعة والخالية من المدن والقرى، إلاّ أنها كانت ذات واحات كبيرة وتتخللها مناطق ذات أعشاب ومراعيَ خصبة، وكنا نبتاع منهم الخراف للشوي والحليب للشرب والتمور، وفي بعض الأحيان كانوا يكرموننا باستقبالهم تحت خيامهم الكبيرة التي تقيهم من حرارة الشمس، وكانت أسئلتهم منصبة على الماء والكلأ، في حين كان لكل عشيرةٍ أو قبيلةٍ نمر عليها إله مختلف عن إله العشائر والقبائل الأخرى، ولكن جوهر الدين كان هو ذاته لايختلف: ألا وهو الاستعانة بقوةٍ غيبية عظيمة على قهر الأرواح الشريرة التي تتربص بهم وبأغنامهم وجمالهم، ورجاؤها في أن تمنحهم الأمن والسلام والشفاء من الأمراض وتأمين المراعي الجيدة لحيواناتهم. والسلام بين القبائل كان يتعرّض بين الحين والحين إلى الانقطاع، بل وكانت حروبٍ رهيبة تندلع بينهم لسببٍ من الأسباب التافهة أحياناً، كاختطاف فتاة أو سرقة جمال أو تشاجر رعاة على مرعى أو مصدر ماء، ولم يكن هناك زعيم واحد أو ملك يتحكّم بهم،

بل كان لكل عشيرة أو قبيلة مجلس شيوخ لكبار رجالاتهم وأثريائهم، والمجلس هو الذي يستعرض المشاكل ويتحدث فيها ويقرر الموقف الذي يجب اتخاذه، وكان الأفراد بدون استثناء من أصلٍ واحد، فهم جميعاً أقرباء، وصون دمهم ومالهم وأعراضهم مسؤولية جماعية تقع على عاتق كلٍ منهم دون استثناء. بل كانوا عائلةً واحدة يختلف نمط حياتهم وعلاقاتهم عما هو عليه الوضع في مدنٍ مثل (واشوكاني) و(هاتوشا) و(هه له با) وغيرها. لقد أعجبتني حياتهم في الحرية وفي هدوء الصحراء وبساطة عيشهم وطيبة معاشرتهم، إلاّ أن تعدد آلهتهم والعصبية القبلية كانت العائق الأكبر أمام تقدمهم وتحضّرهم، ولم نكن نشعر بأي خطرٍ من جهتهم، فأنا كنت أفهم كل كلمةٍ يلفظونها بلغتهم، وما تحدثنا فيه كان ودياً وجميلاً، وما كانوا ليستولوا قافلتنا الصغيرة أو يتحضرون للهجوم على وطننا (ميتان) على الطرف الأعلى من نهر (بورانتو)، على الرغم من أن السلب والنهب والسرقة كانت شائعةً بينهم، ولم يكن أحد منهم يرى فيها غضاضة، وكانت حكمة المعلم (خوربرست) وخبرته في التعامل مع شيوخهم الكبار وإشعارهم بأننا نريد العبور من مواطنهم الجديدة تلك دون مشاكل وعدوان أنقذنا باستمرار من الاصطدام بأي مجموعة من رجالهم ورعاتهم. وقد سمعنا من بعضهم حبهم الكبير للشعر الغزلي والبكاء على الأطلال، وبأنهم يصنعون آلهةً لهم من التمر، فإن جاعوا أكلوها، وإن بعضهم لايتردد في وأد مولوده إن كان أنثى، خجلاً مما أنجبته له امرأته، وأن بعضهم يؤمن في قرارة نفسه برب إبراهيم الذي بنى

أول بيت في موطنهم الأصلي لعبادة الخالق الأعظم،

عندما وصلنا إلى شاطىء نهر (بورانتو) منهكين، كانت آلافٌ من الميتانيين على الشاطىء الآخر تلوّح لنا بباقات الزهور وبالرايات الملكية وبأياديها مرحبة بنا، وكان الخبر قد وصل إلى (واشوكاني) عن طريق مرسالٍ راكض أرسلناه أمامنا إلى (واشوكاني) بعد أن قتل (باد) الضابط (حامي) مباشرةً، وكان ثمة سرادقٍ كبير خلف الناس على تلةٍ عالية ترفرف عليه رايات بيضاء كبيرة في وسطها الشمس، فعلمت أن الملك (توشراتا) قد أتى بنفسه أو أرسل من يمثله ليستقبلنا حال عبورنا النهر. وكم كانت فرحتنا كبيرة، عندما اقتربت عبّارةٌ مزدانة من الشاطىء الذي نحن عليه، وعليها بعض الجنود والخدم لنقلنا إلى الشاطىء الآخر.

في تلك اللحظات التي لن أنساها مدى الحياة قفزت من ظهر جوادي إلى داخل العربة التي تقلّ الملكة (دوتى خيبا) وأمسكت بزمام الخيول البيضاء التي تجرّ العربة، في حين وقف الفتى (كه يو) بيني وبين أمه على رؤوس أصابع قدميه ليرى الحشد الكبير من الميتانيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وهم يهتفون بأصواتٍ عالية باسمه وباسم الملكة (دوتى خيبا). لقد كان منظراً ذكرني بيوم خطبة الفرعون (أخناتون) في شعبه بمدينة (خمون) ويوم انتصارنا أنا و(باد) على عمالقة جزيرة (كريتا) السبعة في مدينة (أورا) الآرزاوية. ونظرت في لحظةٍ من اللحظات إلى الفارس (باد) الذي كانت الأميرة (هستيا) تمتطي خلفه على جواده وتضغط بذراعيها على وسطه وكأنها تخاف عليه من السقوط، ووجهه يشع نضارة وافتخاراً

لإنجازه إحدى أهم مهامه بجدارة ونجاح، في حين كانت (أليسا) تقف وراء الملكة (دوتى خيبا) التي بدأ عيناها تذرفان الدموع وهي لا تصدّق بأنها ستطأ أرض آبائها وأجدادها بعد أن تجتاز العبّارة نهر (بورانتو)، في حين كانت (أليسا) مبتسمة وفخورة بأنها تخدم هذه الإنسانة الطيبة القلب والرقيقة المشاعر، والتي يعتبرها المصريون إحدى آلهتها. أما المعلم (خوربرست) فكان قد ترجّل من البغل وصار يمشي أمامنا ليكون أوّل من يصعد إلى تلك العبّارة النهرية الكبيرة، فيزداد بذلك علواًفي المقام لدى ملك (ميتان). وسألت (باد) على ظهر العبارة التي شرعت تمخر النهر الواسع ببطء عما سيفعله بعد كل ما قمنا به معاً، فقال لي: «أنا رهن أوامر الملك، وأملي هو أن يسمح لي بالسفر مع (هستيا) لزيارة أهلها في مدينة (أورا). وأنت؟» فأجبت: «سأخلد للراحة في الدار التي تركها لي أبي وأمي بعيداً عن (واشوكاني) ولن أفتح بابي لفارسٍ من الفرسان بعد اليوم». فضحك وسأل: «حتى ولو كان صديقاً؟» فقلت: «أنت أخي يا (باد)، وسنظل أوفياء حتى المات».فنظر إليّ نظرةً فاحصة ثم قال بصوتٍ خافت: «هل تعلم أنني أخفيت عنك جانباً من مهمتي؟» سؤالٌ جعلني أشعر بالصدمة حقاً، فقلت متلعثماً: «وهل سيبقى هذا الجانب سراً بعد الآن؟» فقال: «لقد أمرني الملك (توشراتا) أن لا أتردد لحظة في قطع رأسك عندما تكشف سرّمهمتك لأحدٍ غيرنا». فحاولت تذكّر مسلسل أحداث سفرنا الطويل وعما إذا كنت قد ذكرت مهمتي لأحد، فلم أتذكّر كل شيء، ثم قلت: «ولكن، في النهاية، أعتقد أنني قلت شيئاً

ما عنها للمعلم (خوربرست) في (دوماسقو)». فابتسم وقال: «شعرت لدى حديثك معه بأن الوقت كاد يقترب لقطع رأسك، وكنت متخوفاً جداً بسبب حديثك معه، فهل لاحظتَ عليّ انفعالي؟» فأجبت: «نعم، لاحظت أن ملامح وجهك تغيّرت في الحال، ولكن..». فقاطعني لأوّل مرة منذ أن تعرّفت عليه: «إن حبي واحترامي لك واعتزازي بصداقتك يمنعني من إلحاق الأذى بك مدى الحياة، ثم إن المعلم (خوربرست) لابد وأن يعلم من الملك (توشراتا) تفاصيل المهمة، إلاّ أنه لم يقل لنا شيئاً عما يعرفه». فمددت يدي إلى يده التي كان يمسك بها حبلاً معلّقاً بالأطراف العليا للسفينة، وقلت له: «لم يفت الأوان يا (باد)، بإمكانك قتلي الآن فنحن لم نصل إلى (واشوكاني) بعد». فسحب يده من يدي وربت على كتفي وقال: «وهل يقتل أحدٌ أخاه الذي يحبه فوق كل شيءٍ في الدنيا؟» فقلت: «من أجل الملك؟» فردد قائلاً: «حتى من أجل الملك... حتى من أجل الملك».

كان هذا آخر لقاءٍ لنا حتى هطول الأمطار الشديدة في الشتاء، حيث دخل عليَ وأنا مع (أليسا) أحد الخدام، وقال: «فارسان، أحدهما امرأة، يرتديان السواد بالباب يريدان الدخول عليكم ياسيدي». فناديت على الفور: «(أليسا)... (أليسا)... لدينا ضيوف... لابد أنهما(باد) و (هستيا)».

انتهى

((تعقيب))

هذه رواية تاريخية، ولكنها ليست تاريخاً، وأمل الكاتب هو أن يُنظَرَ إليها كرواية تمتزج فيها القصة بالحدث التاريخي، والأسطورة بالحقيقة، وقد لاتتفق الرواية مع ما جرى تاريخياً حقاً.

قال الإصلاحي الكبير سعيد النورسي (بديع الزمان الكوردي) مرّةً أثناء فترة اسقاط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية بأنه «يفكّر بالكردية ويترجم في رأسه ما يفكّر به إلى التركية ويدوّنه بالعربية»، وهذه مشكلة لدى مختلف الكتّاب الكرد الذين كتبوا ويكتبون بالعربية إلى جانب لغتهم الأم، سوى الذين اتخذوا العربيةَ لجملةٍ من الأسباب الذاتية والموضوعية لغةً أساسية لهم،

هذه رواية تحكي مغامرة شابٍ كلّفه ملك مملكة (ميتان) بمهمة في أرض (كيميت) ليبحث فيها عن حفيدٍ له من ابنته (دوتى خيبا) زوجة الملك (اخناتون) في فترةٍ سياسية – دينية عاصفة بمصر، وليعود به إلى عاصمته (واشوكاني) على ضفة نهر (خابير)، ومن خلالها يتعرّف الشاب المغامر

على أديان وأساطير الشعوب والبلدان التي يمرّ بها، وفي قلبه شعلةٌ متقدة تواقة للمعرفة والحقيقة ، فيزداد بذلك إصراراً على أداء مهمته والوقوف مع النور ضد الظلام، ومع الخير ضد الشر.

جان كورد

الثلاثاء, ١١ نيسان, ٢٠١٧